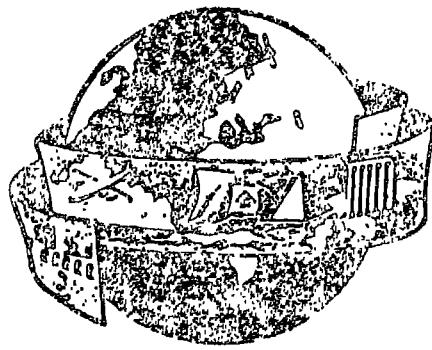


# كتاب الفتن

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج ٢٠٣  
ت: ٣٩٣٤٣٠١ / ٣٩٣٦٨٨ - فاكس ميل: ٣٩٣٤٦٥٧ (٢٠٢)  
صرب: ١٥٦ - المؤذن البريد: ١١٥١١ - برقية: كتاب مصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT. MR. HASSAN EL-ZEIN  
FAX (202) 3924657 CAIRO - EGYPT



# دَارُ الْجَلِيلِ الْبَلَانِي

طباعة - نشر - توزيع

شارع مداركوريت - بجاه فندق رويال  
ست : ٨٦١٥٦٣ / ٨٦٠٧٩٢ - فاكس ميل : ٣٥١٤٣٣٩٦١١  
مربت : ١٣٥٣٥٢ أو ١١/١٣٣ - برقا : داكلبان - بيروت - لبنان

TELEX No. DKL 23715 LE - ATT. MISS MAY. H. EL - ZEIN  
FAX (9611) 351433 DEIRUT - LEBANON

للمُنَذِّلَةِ وَسِعِيرِ  
تَرْجِمَةٍ وَسِيَّرَةٍ - ۲ -

المجِمُوعة الخامِسَة لِمُؤلَّفَاتِ الأَسْتَاذِ

عَبَّاسُ مُحَمَّدٌ

# الْعَقَدُ الْأَثَرِيُّ

المُحَمَّدُ لِدَالسَّادِسِ عَشَرَ

# نَزَارَةُ وَسَيِّرَةُ

٦

يَحْتَوِي عَلَى

- أَبُونَوافِرْ

- شَاعِرُ الغَزْلِ عَمْرُونَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ

- جَمِيلُ بُشِّيَّةَ

- جَحَّا الصَّاحِحُكَ الْمُضْبِحُكَ

دار الْكِتَابِ الْبَلْقَانِيِّ - بَيْرُوت

طبع المحقق معمولة للأولى والثانية  
دار الكتاب اللبناني  
بفنا ، كتابان . بيروت  
ص - ب : ٢١٧٦  
بيروت . لبنان

الطبعة الأولى  
١٩٨٠

عَبَاسُ مُحَمَّد

# الْعِقَادُ

-أَبُونَوَافْ-

دار الكتاب اللبناني - بيروت

## شهرة أبي نواس

اشتهر في الأدب العربي عشرات من الشعراء والأدباء ، يعرفهم قراء الأدب ورواته ، ولا تصل أسماؤهم — فضلاً عن أخبارهم — إلى الأميين وأشباه الأميين من جهله العامة ، ماعدا شاعرًا واحدًا اشتهر من بين هؤلاء الشعراء والأدباء في بابه فسمع به الأميون وأشباه الأميين ، واتخذوا من اسمه علماً على كل من يشبهه في صورته عندهم ، وصحفوا ذلك الاسم تصحيحاً يدل على مصادره الأممية ، فعرفوه باسم «أبي التوّاس» بتشديد الواو وزيادة الألف واللام للتعريف على الدوام

ولم يكن شذوذ هذا الشاعر عن هذه القاعدة لسهولة شعره ، فان الأميين الذين يتناقلون أخباره ونواتره لا ينقلون بيته واحداً من شعره ولا يروونه مصححاً أو بغير تصحيف ، وانما يعرفون الشاعر «شخصية» ذات أخبار ولا يعرفونه قائلاً ينظم الأشعار.

ولم تكن هذه الشهرة أيضاً لقرب عهده وقصر الزمن بيته وبين رواته المتأخرین ، فان التواسي عاش في القرن الثاني للهجرة ، وهؤلاء الأميون الذين يتناقلون أخباره المزعومة قد يجهلون أسماء الشعراء والأدباء في عصرهم أو هم يجهلون على التحقيق أسماء الشعراء والأدباء بعد القرن الثاني للهجرة بلا استثناء ، ما عدا هذا الاستثناء .

ولكن هذا الاستثناء لم يكن على أية حال مصادفة لغير سبب ، كما سنرى في موضع البيان عن أسباب هذه الشهرة عند نشأتها الأولى ، ومتى وجدت الشهرة فهي قابلة بعد ذلك للإضافة والزيادة ، ولو من غير القبيل الذي شأت من أجله في مرحلتها الأولى .

وإذا كان هذا شأن الأميين في التحدث بأخبار الشاعر المجدود فلا عجب أن يتحدث به أشباه الأميين وهم أقرب إلى الأدب المقوء في الكتب والقدرة على فهم القليل منه ، إن فاتهم فهم أكثره وأصحه .

ونعني بأشباء الأميين أولئك الذين يقرأون ولا يقدرون على تصحيح نسبة الكلام واستقصاء وجوه التصحيح . فإذا سمعوا كلاماً لشاعر مشهور غيره ، جاز عندهم أن يكون لهذا أو لذاك ، وإن كان الفارق بينهما واضحًا لنقاد الأدب ورواته المثبتين .

هؤلاء القراء أشباه الأميين يعرفون النواسي كأخوانهم الأميين أي يعرفونه لأنّه شخصية ذات أخبار ، وقلماً يعنيهم منه ذلك الشعر الذي ينسبونه إليه سواء صحت نسبته إليه أو إلى غيره ، أو كان مختلفاً ملتفقاً لا تصح نسبته إلى أحد من الشعراء المشهورين .

والغالب على هذه الشخصية أنها شخصية التديم اللاهي - «الحادق» ... ونکاد نكتبها «الحديق» بالدال وعلى غير صيغة اسم الفاعل ، لأن «الحدائق» كما يفهمها العامة هي أم الصفات التي تغلب على «النواسي» في روايات أشباه الأميين ومنها سرعة الجواب والفهم بالاشارة ، أو الفهم الذي يوشك أن يكون اطلاعاً على الغيب ، مع اللباقة في اللعب بالكلام أو اللعب بالفهم على حسب المقام ، ولا سيما مقام المهو واللغو ونبذ الحياة والملام ..

وليس أشهر من الأدب المسوّب إلى أبي نواس في الكتب التي تروج بين أشباه الأميين ، ومنها ألف ليلة وليلة وأعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بنى العباس ، وقليله يعني عن الكثير :

«قيل ان أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى في قصره بين المقصائر فرأى جارية من جواريه نائمة فأعجبته فداس على رجلها ، فاتبعت فرائنه ، فاستحيت منه وقالت : يا أمين الله ما هذا الخبر ؟ فأجابها يقول :

قلت ضيف طارق في أرضكم هل «تضييفوه» إلى وقت السحر

فأجابت بسرور سيدي أخدم الضيف بسمعي والبصر  
فبات عندها الى الصباح ، فلما كان الصباح سأله : مَن بالباب من  
الشعراء ؟ قيل له : أبو نواس ، فأمر به فدخل عليه ، فقال : هات ما عندك  
علو ، وزن يا أمين الله ما هذا الخبر ... فأنشد يقول :

فإذا وجده جميسل مشرق  
فلمست الرجل منها موطنًا  
وأشارت لي بقول متصحّر  
قلت ضيف طارق في أرضكم

فتعجب أمير المؤمنين وأمر له بصلة.

« وذكر الخطيب في بعض مصنفاته أن الرشيد دخل يوماً وقت الظهر إلى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها ، فوجدها تغسل فلما رأته تجللت بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئاً ، فأعجبه منها ذلك الفعل واستحسنه ، ثم عاد إلى مجلسه وقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا : بشار أبو نواس . فأمر بهما فحضر و قال : ليقل كل منكما أبياتاً تهافت ما في نفسه ، فأنشأ بشار بقول :

تحبّتكم والقلب صار اليّكم بنفي ذاك المنسّل المتّجّب  
الى أن يقول :

وقالوا تجنبنا ولا قرب ينتنا وكيف وأقسم حاجتي أتجنب  
على انهم أحلى من الشهد عندنا وأعذب من ماء الحياة وأطيب  
فقال الخليفة أحسنت ، ولكن ما أصبت ما في نفسى ، فقل أنت يا آبا  
نواوس . فجعل يقول :

نضت عنها القيسى لصب ماء فورّد خدها فرط الحياة  
وقابلت الهواء وقد تعرّت بمعتدل أرق من الهواء

الى ماء معـدـاً في اناـءـ  
 على عـجـلـ لـتـسـأـخـذـ بالرـداءـ  
 فـأـسـبـلـتـ الـظـلـامـ عـلـىـ الضـيـاءـ  
 فـظـلـ المـاءـ يـحـرـيـ فـوـقـ مـاءـ  
 كـأـسـحـانـ الـآـلـهـ وـقـدـ بـرـاهـاـ  
 فـقـالـ الرـشـيدـ :ـ سـيـنـاـ وـنـطـعـاـ يـاـ غـلامـ !ـ قـالـ أـبـوـ نـوـاـسـ :ـ وـلـمـ يـاـ أـمـيرـ  
 الـمـؤـمـنـيـنـ ؟ـ قـالـ :ـ أـمـعـنـاـ كـنـتـ ؟ـ قـالـ :ـ لـاـ وـالـلـهـ .ـ وـلـكـنـ شـيـئـاـ خـطـرـ بـيـالـيـ ..  
 فـأـمـرـ لـهـ بـأـرـبـعـةـ آـلـافـ دـرـهـمـ !ـ  
 وـأـمـثـالـ هـذـهـ الـحـكـاـيـاتـ كـثـيرـ ،ـ حـدـ «ـ الـحـدـاقـةـ »ـ فـيـهـاـ —ـ أـوـ «ـ الـحـدـاقـةـ »ـ  
 —ـ هـوـ حـدـهـاـ عـنـدـ أـشـيـاءـ الـأـمـيـنـ ..ـ وـهـوـ شـرـطـهـمـ فـيـ أـرـبـابـ الـفـنـ إـلـىـ هـذـهـ  
 الـأـيـامـ ..ـ

### أخباره عند الأدباء

وـغـنـيـ عـنـ القـوـلـ أـنـ أـخـبـارـ النـوـاـيـيـ لـيـسـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ الـأـمـيـنـ وـأـشـيـاءـ  
 الـأـمـيـنـ ،ـ وـلـكـنـ اـهـتـمـاـمـ الـأـمـيـنـ وـأـشـيـاءـ الـأـمـيـنـ بـهـاـ هـوـ وـجـهـ الـفـرـاـبـةـ فـيـ هـذـهـ  
 الـبـابـ مـنـ الـادـبـ ،ـ وـاـمـاـ الـعـارـفـوـنـ بـأـدـبـ الـفـصـحـىـ فـلـاـ وـجـهـ لـلـفـرـاـبـةـ فـيـ  
 اـهـتـمـاـمـهـ بـهـ وـبـأـسـالـهـ مـنـ مـوـضـعـاتـ الـادـبـ وـالـفـنـوـنـ .

عـلـىـ أـنـ الـاـمـرـ فـيـ هـذـهـ النـاحـيـةـ لـاـ يـخـلـوـ مـنـ غـرـابـتـهـ التـيـ تـخـصـ أـخـبـارـ أـبـيـ  
 نـوـاـسـ بـخـاصـةـ ،ـ لـمـ يـشارـكـ فـيـهـاـ أـعـلـامـ الـشـعـرـ وـالـقـاـفـةـ الـفـنـيـةـ »ـ فـانـ رـوـاـةـ  
 الـادـبـ الـصـحـيـحـ لـاـ يـهـتـمـونـ بـأـبـيـ نـوـاـسـ وـأـنـدـادـهـ مـنـ الـاعـلـامـ عـلـىـ نـحـوـ  
 وـاحـدـ .ـ بـلـ يـلوـحـ عـلـيـهـمـ أـنـهـمـ يـوـدـونـ لـوـ يـشـرـكـوـنـهـ بـسـمـمـ فـيـ سـيـرـةـ كـلـ أـدـيـبـ ،ـ  
 وـيـجـبـوـنـ اـذـاـ نـسـبـ الـخـبـرـ إـلـيـهـ اوـ اـلـىـ غـيـرـهـ أـنـ يـؤـثـرـوـهـ بـهـ لـوـ اـسـتـطـاعـوـاـ وـأـنـ  
 يـجـعـلـوـهـ مـنـ مـرـوـيـاتـهـ وـمـأـثـورـاتـهـ دـوـنـ الـمـرـوـيـاتـ وـالـمـأـثـورـاتـ عـنـ سـوـاـهـ .

فـصـاحـبـ الـعـقـدـ الـفـرـيـدـ —ـ اـبـنـ عـبـدـ رـبـهـ —ـ مـنـ أـعـلـمـ الـرـوـاـةـ بـأـخـبـارـ  
 الـشـعـرـاءـ ...ـ وـلـكـنـهـ يـرـوـيـ عـنـ أـبـيـ نـوـاـسـ بـعـضـ الـأـخـبـارـ الـتـيـ نـقـلـنـاـهـاـ فـيـماـ  
 تـقـدـمـ عـنـ الـأـمـيـنـ وـأـشـيـاءـ الـأـمـيـنـ ،ـ وـيـضـيـقـ إـلـيـهـ أـخـبـارـاـ مـشـهـورـةـ عـنـ ذـيـ

الرمة وصاحبته مية ، وعني بها تلك الأخبار التي تدور حول البيتين  
المنسوبين اليه وهما :

على وجه مي مسحة من ملاحـة  
وتحـت الثيـاب العـسر لو كان بـادـيا  
ألم تـر انـ المـاء يـخـبـط طـعـمـه  
ولـو كانـ لـونـ المـاء فـي العـيـن صـافـيا

وقد سئل ذو الرمة عنهما فأنكرهما وقال : وكيف أقول هذا وقد قطعت  
دهري وأفنيت شبابي أشبع بها । «

فيأتي صاحب العقد الفريد ولا يبالي كذب الرواية من أصلها ويحتفظ  
بها ليسندها الى أبي نواس بسان أبي بكر الوراق ، وهذا مقال من  
المقالات الفنية التي يؤلفها خاصة الأدباء تأليفاً ليذكروا فيها ملحمة أو  
طرفة عن ذلك الشاعر المجدود .

روي عن أبي بكر الوراق عن الحسن بن هانى أنه قال : حججت مع  
الفضل بن الريبع حتى اذا كنا ببلاد فزاره ، وذلك بابان الريبع ، نزلنا منزلـاً  
بازاء ماء لبني تميم ذا روض أريض ونبت غريض ، تخضع لهجته الزرابيـة  
المبسوـثـة والنـارـقـ المـصـفوـفة ، فـقـرـتـ بـنـضـرـتـهاـ العـيـونـ وـارتـاحـتـ الـىـ حـسـنـهاـ  
الـقـلـوبـ وـانـفـرـجـتـ لـبـاهـنـهاـ الصـدـورـ ، فـلـمـ ثـلـثـتـ أـنـ أـقـبـلـ السـمـاءـ فـانـشـقـ  
غـامـهاـ وـتـدـانـىـ منـ الـأـرـضـ رـكـامـهاـ ، حـتـىـ اـذـ كـانـتـ كـمـاـ قـالـ أـوـسـ بنـ حـجـرـ  
حيـثـ يـقـولـ :

دانـ مـسـفـتـ فـوـيقـ الـأـرـضـ هـيـدـهـ يـكـادـ يـدـفـعـهـ منـ قـامـ بـالـراـحـ  
هـمـتـ بـرـذـاذـ ثـمـ بـطـشـ ثـمـ بـوـانـ ، ثـمـ أـقـلـعـتـ وـغـادـرـتـ الـفـدـرـانـ مـتـرـعـةـ  
تـتـدـفـقـ ، وـالـقـيـعـانـ تـتـأـلـقـ ، رـيـاضـيـاـ مـوـنـقـةـ وـنـوـافـحـ مـنـ رـيـحـهاـ عـبـقـةـ ، فـسـرـحـتـ  
طـرـفـيـ مـنـهـاـ فـيـ أـحـسـنـ مـنـظـرـ ، وـنـشـتـ مـنـ رـبـاهـاـ أـطـيـبـ مـنـ الـمـسـكـ الـأـذـفـرـ ،  
فـلـمـ اـتـهـيـنـاـ إـلـىـ أـوـائـلـهـاـ إـذـ نـعـنـ بـخـاءـ عـلـىـ بـاـبـهـ جـارـيـةـ مـشـرـقـةـ ، تـرـنـوـ بـطـرـفـ  
مـرـيـضـ الـجـفـونـ ، وـسـنـانـ النـظـرـ ، أـشـعـرـتـ حـمـالـيـقـ فـتـرـةـ وـمـلـئـتـ سـحـرـاـ ،  
فـقـلـتـ لـزـمـيلـيـ : اـسـتـنـطـقـهـاـ .. قـالـ : كـيـفـ السـيـلـ إـلـىـ ذـلـكـ ؟ قـلـتـ

استسقاها ! فاستسقاها ، فقالت : نعم ونعمًا عين ، وان نزلتم فعلى الرب  
والسعة ، ثم مضت تهادى كأنها خوط بان أو قضيب خيزران ، فراعني  
ما رأيت منها ، ثم أتت بماء فشربت منه وصبت باقيه على يدي ، ثم قلت :  
وصاحبي أيضا عطشان ! .. فأخذت الاناء فذهبت فقلت لصاحبي : من  
الذي يقول :

اذا بارك الله في ملبس فلا بارك الله في البرق  
يربك عيون الدمى غرة ويكشف عن منظر أشنع  
.. وسمعت كلامي فأتأت وقد نزعت البرقع ولبست خماراً أسود وهي  
تقول :

الا حي ربّي عشر قد أراهما      أقاما فما أن يعرفا مبتغاهما  
هما استسقايا ماء على غير ظمة      ليستمتعا باللحظ من سقاهمما  
فشبّهت كلامها بعقد در وهي فاتشر ، بنغمة عذبة رخيمة ، لو خطّب  
بها صم الصّلاب لانجست ، مع وجه يظلم في نوره ضياء العقول ، وتتّلف  
من روعته مهج النّفوس ، وتختف في محاسنه وزانة الحليم ويحار في بهاته  
طرف البصیر ..

فقدت وجلت واسبكت وأكملت      فلو جن انسان من الحسن جنت  
فلم أتمالك أن خررت ساجداً ، فأطلت من غير تسبّح ، فقالت : ارفع  
رأسك غير مأجور ! لا تذم بعدها برقمًا فربما انكشف عما يصرف الكري  
ويحل القوى ويطيل الجوى ، من غير بلوغ اراده ولا درك طلبه ولا قضاء  
وطر ، ليس الا للعين المجلوب والقدر المكتوب والامل المكذوب ، فبقيت  
والله معقول اللسان عن الجواب حيران لا أهتدى لطريق ، فالتفت إلى  
صاحبي وقال : ما هذا العجّد بوجه برقتك لك منه بارقة لا تدرّي ما تحته  
اما سمعت قول ذي الرمة :

على وجه ميّ مسحة من ملاحِن      وتحت الثياب العرّ لو كان باديا  
فقالت : أما ما ذهبت إليه فلا أبالك      واني لأنّا بقول الشاعر :  
منْعَمَة حوراء يجري وشاحها      على كشح مرتج الروادف أهضم

لها أثر صاف وعين مريضة وأحسن إيمان وأحسن معصم  
خزاعية الأطراف سعدية الحشا فزارية العينين طائفة الفم  
أشبه من قولك الآخر .. ثم رفعت ثيابها حتى بلغت بها نحرها وجاء زلت  
منكبها ، فإذا قضيب فضة قد أشرب ماء الذهب . ثم قالت : أعزّاً ترى  
لا أبالك ؟ قلت : لا والله ، ولكن سبب القدر المتأخر ، ومقربي من الموت  
الذباح يضيق على الضريح ويتركني جسداً بغير روح .  
فخرجت عجوز من الغباء ، فقالت له امض لشأنك ، فان قتيلها مطلول  
لا يودي وأسيرها مكبول لا يفدي ، فقالت لها : دعيه . فان له مثل قول  
غيلان ذي الرمة :

وان لم يكن الا تعلل ساعة قليلاً ، فاني نافع لي قليلها  
فولت العجوز وهي تقول :  
وما ثلت منها غير انك «واصل» بعينيك عينيها فهل ذاك نافع ؟  
فنحن كذلك حتى ضرب الطبل للرحيل ، فانصرفت بكمد قاتل وكرب  
خابل وأنا أقول :

واحسرتا مما يكنّ فؤادي أزف الرحيل بعيarti وبعادتي  
فلما قضينا حجنا وانصرفنا راجعين مررتنا بذلك المنزل وقد تصاعدت  
حسنة ونمته بمحجته ، فقلت لصاحبها : امض بنا الى صاحبتنا ، فلما أشرفنا  
على الخيام وصعدنا ربوة وزلنا وهذه اذا هي تهادى بين خمس ماتصلح  
أن تكون خادمة لأدناهن وهن يجنين من نور ذلك الظهر ، فلما رأينا  
وتفن وقلنا : السلام عليكن . فقالت من بينهن : وعليك السلام ، ألاست  
صاحبها قلت : بلى ! قلن : وتعرفينه ؟ قالت : نعم ، وقصت عليهن القصة  
ما خرمت حرفاً .. قلن : ويحيط ! أما زوجته شيئاً يتعلل به ؟ قالت : بل زوجته  
لحدٍ ضامرًّا وموتاً حاضرًّا ! فانبرت لها أنضرهن خداً وأرشقهن قدماً ،  
وأسحرهن طرفاً وأبرعنن شكلًّا ، فقالت : والله ما أحست بدءاً ولا  
أجلست عوداً ولقد أسلت في الرد ولم تكافئه على الود ، فما عليك او  
أسعفته بطلبته وأنصفته في مودته ؟ وان المكان لحال ، وان معلمك من لا ينم

عليك .. فقالت : أما والله لا أفعل من ذلك شيئاً حتى تشركيني في حلوه ومره ! قالت لها : تلك اذن قسمة ضيزى ! تعشقين أنت وأؤخذ أنا ؟ .. قالت أخرى منهن : قد أطلتن الخطاب في غير ارب فسلن الرجل عن نيته وقصده وبغيته . فعلمه لغير ما أتما فيه قصد . فقلن حياك الله وأنعم بك عينا ، من ؟ ومن أنت ؟ وما تعاني ؟ وإنما قصدت ؟ قلت أما الاسم فالحسن بن هانيء من اليمن ثم من سعد العشيرية ، وخير شعراء السلطان الاعظم ومن يدني مجلسه ويتنقلي لسانه ويرهب جانبه ، وأما قصادي فتبريد غلة واطفاء لوعة قد أحيرت الكبد وأذيتها قالت : لقد أضفت الى حسن المنظر كرم المخبر وأرجو أن يبلغك الله أمنيتك وتثال بغيتك . ثم أقبلت عليهن فقالت ما واحدة منكن الا ملتمسة مرغبة فتعالين نشتراك فيه وتتقارع عليه ، فمن واقتها القرعة منا كانت هي البادئة . فاقتربت فوقعت القرعة على المليحة التي قامت بأمري ، فعلقن أزاراً على باب الغار وأدخلتُ فيه وأبطأت علي ، وجعلت أتشوف للدخول احداهن علي ، اذ دخل اسود كأنه سارية .. ثم صحت بصاحبى وكان متداانياً .. ووالله ما تخلصت منه حتى خرجنا من الغار ، واذا هن يتضااحكن ويتهددين الى الخيمات . فقلت لصاحبى : من أين أقبل الاسود ؟ قال : كان يرعى غنمًا الى جانب الغار فدعونه فوسوسن اليه شيئاً فدخل عليك .. »

\* \* \*

والقصة كلها كما يرى القارئ مقامة مؤلفة ، وتلك علامة على تمكן شهوة الكلام عن الشاعر في سياق الخبر التاريخي أو سياق الاختراع والتأليف ..

وتتم الغرابة بالمصادر الاجنبية القليلة التي عنيت بأبي نواس من جانب الأدب أو من جانب النوادر والاقاصيص الم موضوعة ، فانها سایرت مصادر العربية في هذه التزعة وأسندت الى أبي نواس ما حدث وما لم يحدث ، أو ما حدث منه وما حدث من غيره ، ومنها رسالة انجلزية طبعت في احدى الجزر الهندية وأهداها مؤلفها الى ذكرى الاستاذ « برتون »

مترجم ألف ليلة وليلة ، وقسمها الى أخبار «أبوكريفيه» تشبهها بالأخبار التي يدسها بعض الرواة على الكتب الدينية ، والى أخبار خرافية من قبيل الأساطير والغرائب الروية عن عجائب المخلوقات ، وهذه احدى نوادرها «الابوكريفيه» ..

«كان أبو نواس يلهمو ويقصف بين صحبه فإذا الخليفة يفجدهم بحضوره ، ويسموه مairy فتصبح بأبي نواس متألقاً : ما أدركه تصلح الا أن تكون أماماً للقوادين وقاضياً للتجرة الفاسقين . فأجابه أبو نواس وهو لا يعي بالجواب على البديهة : وهل من قضية تعرضونها ؟ فغضب الخليفة وأمر به من الغد حيث دخل الديوان أن يجردوه من ثيابه ويضعوا على ظهره بردة حمار .. ويطوفوا به بين الخدم والجواري ليسخروا منه ويسبوا به ثم يسلموه الى الجلاad يطيح برأسه ، ولكن أبا نواس الذي لا يغلب ظرفاً وفكاهة لم يزل يلطف الجواري بدعاته وطرائف نكاته ، ولم تزل هداياهن تتناثل عليه حتى عاد من مطافه ممتليء اليدين بالمال والجوهر ، ورأه الوزير جعفر البرمكي وهو بهذه الحالة فسأله : فيم كان عقابه ولا ي شيء يحمل بردة الحمار على ظهره ؟ فأجابه في غير مهل : ما من شيء صنعت الا أنتي مدحت أمير المؤمنين فخلع على خلعة من خاصة ثيابه .. ونقلوا الى الخليفة ما قال فضحك وغاف عنه وأمر له بهدية وخلعة سنية ..».

وهذه بعض نوادره التي جمعها المؤلف من افريقيه الشمالية : قيل ان الشاعر كان يمشي في جنازة فسأله بعضهم : أيهما أكرم في تشيع الميت ، ان تمشي أمام نعشه أو تتبعه ؟

قال أبو نواس :

لا تكن داخل النعش ، وسر حيث طاب لك السير .  
وأمر الخليفة ذات يوم بجلده مائة جلد لانهم وجدوا معه قارورة خمر فارغة يذهب بها ليملأها ..

فسأل أبو نواس ، وعلام الجلد يا أمير المؤمنين ؟

قال الخليفة : على الخمر التي ستملا بها القارورة .  
 قال : اذن فاحكم على بالموت .. لانني أحمل لساناً قد يكفر بالله .  
 ورؤي أبو نواس يوماً سكران يتمايل في الطريق ، فعجب الناظرون  
 وسألوه : ألم تنظر من قبل الى سكران ؟  
 قال : ومن أين لي أن أرى السكارى وأنا أول من يسكر وآخر من  
 يفيق ! ..

### نوادره الاسطوريه

أما النوادر الاسطوريه فقد جمعها المؤلف من مصادر لا يخطر على بال الكثرين أنها سمعت باسم أبي نواس ، ومنها القبائل التي تسكن سواحل افريقيه الجنوبيه مما يلى زنجبار وتتكلم « اللغة السواحلية » وهي مزيج من الزنجيه والعربيه والهندية والفارسيه ، وبعض حكاياتها منقول عن أقوام افريقيه الأصلاء الذين تدور حكاياتهم على السحرة والشكاهن والعفاريت ..

ويقول المؤلف في تقديم هذا القسم من كتابه ان شهرة أبي نواس وصلت الى هناك مشافهة « وانه يعرف بين السواحلين من أهل زنجبار باسم كيو نواسى وبنواسى وأبا نواسى .. ومن تصوراتهم له أنهم يلبسوه شخصية الارنب الذي نعرفه نحن في ألعاب خيال الظل لأنهم يمثلونه سريح الفطنة حاضر الجواب ، ويلبسونه شخصية أخرى هي شخصية خيال الظل في زنجبار ولعله أصل صاحبنا الارنب . واسم هذه الشخصية في اللغة السواحلية بواليم كرجوش ، وهي كلمة تمت الى الارنب لأنها بالفارسيه شرجوش وتعني الارنب .

« ومقطع « كي » الذي يقدمون به اسم « كيو نواسى » تصغير لكلمة الشاعر في اللغة السواحلية حيث يتخيلونه ضئيل الجسم عظيم الفطنة ، ويقال ان اسم النواسى قد أصبح علمًا على كل من كان عنده جواب حاضر لكل سؤال ومخرج قريب من كل ورطة ، أو علم على الليب الذي

نقول نحن انه يضحك كثيراً لأنه يضحك أخيراً.» (١)

ومن أمثلة هذه الحكايات حكاية أتقى فيها أبو نواس مسكنيناً متسولاً من براثن تاجر جشع طالبه بعوض عن رائحة طعامه . قالوا : « ان تاجراً ذبح معزة ومر به مسكنين فجلس الى جانب القدر لعله يستسین الخبر القفار باستنشاق رائحتها . ثم لقي التاجر فقال له : انك أيها السيد قد أحسنت الى أمس اذ منحتني رائحة معزتك فاصطبعت بها هنيئاً . فأخذ التاجر بتلبيه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها . فقد اختلستها انت اذن ولا ندري . وساقه الى هارون الرشيد - وقد كان شديد المحاباة للتجار - فحكم على المسكنين بتغريميه اثنتي عشرة روبية يأخذها التاجر ثمناً لنكهة ذبيحته . وخرج المسكنين يبكي لأنه لا يملك فلساً من هذه القرامة ، فوجد أبو نواس في الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعده أن يساعدته ، ثم أعطاه اثنتي عشرة روبية وأوصاه أن يندو بها الى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاء الى المجلس ورأى المسكنين يعد الدرام فأخذها منه ورثنا على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعت رينيها ؟ قال نعم ؟ ومه يده الى الدرام يريد أن يقبضها . فرده أبو نواس وصاح به حسبك . لقد وصل اليك الشمن رينياً برائحة . فإذا كان المسكنين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حريٌّ أن تملأ يدك من رين درامه . وترك الرويات للمسكين وانصرف الى داره .

والى جانب هذه الحكاية وما جرى مجريها حكايات مطولة يقول المؤلف أنها تسمع الى الان بين القبائل الزنجية وتنتقل عن غيرها من القبائل التي تداول طائف السحر وأصحاب التعاوين والكهانات ، ولاريبي أن أبو نواس قد اتفرد بهذه الخاصة بين أدباء العربية في جميع العصور ، ولا يقدح في هذه الحقيقة أن الأميين وأشباه الأميين يروون النواذر عن عترة بن شداد ويضيفون اليه غرائب الشجاعة والاقدام . فان نواذر عترة بين الأميين

---

Abu Nawas in Life and Legend, by W. H. Ingrams. (1)

وأشباء الأميين أقل كثيراً من النواذر النواصية في بابها أو في أبوابها ، فقد أصبحت لها أبواب ولم تتحصر في باب واحد .  
ما سر هذه الشهرة المترفة ؟

سرها بالإيجاز أن أبا نواس قد أصبح عند عارفيه الأولين « شخصية نموذجية » أي شخصية تمثل نموذجاً اجتماعياً يعيش في كل زمان ، وسر رجحانه على الشخصيات النموذجية من قبيل عترة بن شداد أن وقائع الشجاعة أشد من وقائع « الحذقة » في المجتمع ، وأنها لا تصادف الناس في كل زمان كما تصادفهم الواقع التي تدخل في مجال الشخصية النواصية .  
وقد قيل إن الناس مولعون بالتحدث عن الشخصيات النموذجية يضيفون إليها كل خبر من جنس أخبارها .

وهذا صحيح .. فقد أضاف الناس كثيراً من أخبار الجود إلى حاتم الطائي وهي لم تقع له ولا لأحد من الكرماء المعروفين ، وبعضها قد وقع لأناس آخرين على سبيل التحقيق .

وكذلك فعلوا بأخبار الحكمة مع لقمان ، وأخبار الشجاعة مع عترة وأخبار الطب مع بقراط ، وأخبار كل شخصية نموذجية سمعوا بها في زمان من الأزمان .

لكن الأصح أنهم يضيفون إلى الشخصيات النموذجية ما هو من جنس أخبارها وما ليس من جنسها ، فإذا كان الأمر الأعم أنهم يراعون التناسب في جنس الأخبار فلا يمتنع مع هذا أنهم يضيفون إليها أخباراً أخرى لاتتناسب بينها وبين تلك الشخصيات ، ويكتفيهم منها أنهم يعرفون علمًا مشهوراً يتكلمون عنه كلما أرادوا التعامل بمعرفة المشهورين .

ومن طرائف ما حديث لنا من ذلك ونحن ندرس « الانشاء » في احدى المدارس الثانوية أن تلميذاً نقل في موضوعه عدة أسطر من الشواهد الفلسفية نسبها إلى الشاعر ملتون الانجليزي ، واتفق في ذلك العين أنني كنت معننياً بمعارضة قصائد ملتون على رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وكانت أعيد النظر في كل مكتب ملتون من المنظوم والمنثور ، ولم يكن

الكلام الذي نسبه التلميذ الى ملتون مما يناسب أقوال هذا الشاعر وموضوعاته ، ولم أذكر أنتي رأيت له كلاماً مثله ، فلما حقت الأمر علمت أن التلميذ قد جروا على هذه العادة للتهويل على أساتذة اللغة العربية الذين لا يعرفون لغة أجنبية ، وان التلميذ رأى أمامه مدرساً عريباً فلم يخطر له أنه يعرف لغة غير العربية ، ولم يخطر له بطبيعة الحال أن ملتون كان موضوع قراءته الوحيد على وجه التقرير في ذلك الحين ، فادعى ما ادعاه وهو يحسب أنه في أمان ، وأنه على ثقة من زيادة درجة أو درجتين .

ولما سألته على مسمع من زملائه بالإنجليزية : أين وجدت هذه العبارة من كلام ملتون ؟ دهش ولم يكدر يصدق أذنيه ، ثم تبين أنه من الجهل بملتون وكلمه بحيث لا يعلم أنه صاحب كتب ومصنفات ، وكل ما عرف عنه أبيات من المخطوطات سمع أخاه يستظرها وسمع أن ملتون هو ناظمها ... وليس أكثر بين العامة والجهلاء من الاحالة على أقوال المشاهير الذين لا يعرفون عنهم شيئاً غير أسمائهم ، فمنهم من يحيل على مشاهير عصره ومن يمنع في التعامل فيحيل على مشاهير العصور الغابرة ، ومنهم من له لباقه الوضع والأخلاق فهو مجتهد في وضع الأقوال التي ينحلها مشاهير الرجال حسبياً يتوهם من مقدارتهم وتأثير أقوالهم ، ولهذا يتفق أحياناً أن تتحرف « الشخصية النموذجية » من دلالتها الأولى الى غير تلك الدلالة ، حتى يتبعدها ما بينهما وتصلح كل منها لتمثيل شخصية نموذجية غير الشخصية الأخرى ..

وعلى هذا النحو انحراف شخصية « لقمان الحكم » فإنها تستحق وحدها دراسة مستقلة من هذه الوجهة دون غيرها ، وتعنى بها دلالة « الشخصية النموذجية » في العصور المتتابعة وكيف يطرأ عليها الانحراف عن وضعها الأول شيئاً فشيئاً حتى يصبح أن تصبح عنواناً على انسان آخر أو عدة آناس غير صاحبها .

ففي مبدأ الأمر عرف لقمان بطول العمر وامتداد الأجل في أزمنة متعددة ثم تأول المتأولون طول عمره بحكمته وسحره وعرفانه سر الحياة والموت ،

وإنه بهذه المعرفة قرن عمره بأعمار سبعة نسور كان يربيها عنده واحداً بعد واحد حتى انتهى أجله بانتهاء أجل النسر السابع فمات معه في لحظة واحدة ، ومن حكمة الموعظ والسحر والعلم بأسرار الحياة تحولت حكمة لقمان «الحكيم» إلى الطب والعلاج وغابت عليه خلة القدماء الذين تعودوا أن يكتموا عن الناس أسرار صناعتهم فلا يبوحون بها إلا على قدر ولا يختصون بها غير الصنفوة المختارين من تلاميذهم ورماديهم ، ولاشك أن حكاية «ماء اللفت» هي أحدث هذه الأخبار الموضوعة أو المختلقة ، ولكنها مع ذلك حملت معها بقايا العصور الغابرة من أوصاف هذه الشخصية النموذجية كما عرفها على التتابع أبناء تلك العصور .

وخلالص الحكاية التي تروى على عدة روايات أن ولـي الأمر في عهد لقمان جسـه لغضـبه عـلـيه أو خـوفـه مـن سـحرـه وـمـكرـه ، أو لـضـنه عـلـيه وـعـلـى النـاسـ بـأـسـرـارـ حـكـمـتـهـ وـطـبـهـ ، ثـمـ سـمـعـ فـي جـبـسـهـ بـمـرـضـ اـنـسـانـ يـوـشـكـ أـنـ يـمـوتـ وـدـوـأـهـ فـي مـاءـ الـلـفـتـ ، وـشـقـ عـلـيـهـ أـنـ يـخـالـفـ عـادـاتـهـ أوـ يـخـالـفـ أـمـرـ الـحـاـكـمـ فـلـمـ يـشـأـ أـنـ يـبـوـحـ بـسـرـ الشـفـاءـ الـاـ بـأـسـلـوبـ التـورـيـةـ وـالـجـنـاسـ ؛ فـصـاحـ فـي سـجـنـهـ يـقـولـ : «ـمـاتـ الـعـلـيلـ وـمـاـ أـلـفـتـ لـهـ دـوـاءـ» .. فـعـلـمـ السـامـعـ الـعـلـيمـ بـأـسـلـوبـهـ أـنـ مـاءـ الـلـفـتـ هـوـ دـوـاءـ الـعـلـةـ ، فـأـعـطـاهـ الدـوـاءـ وـشـفـاءـهـ .

وفي هذه الحكاية مسحة من كل شخصية نموذجية تشكل بها لقمان في تاريخه ، وأخرها شخصية الطبيب التي لم تظهر في العلم الحديث إلا حين شاعت تسمية الطبيب بالحكيم ، وشائع التداوي بماء اللفت بين العامة وهم يتداوون به إلى اليوم .

### الشخصية النموذجية

وقد انحرفت «الشخصية النموذجية» التي عرف بها أبو نواس على هذا النحو فصارت في آخر الأمر إلى هذا النموذج الأخير ، وذاك هو نموذج العاذق اللبق السريع إلى الجواب المفحم ذي الدرائية بالخارج السهلة من الورطات العسيرة ، وقد كان أبو نواس ولاريـب على حظ من

اللباقة غير قليل ، وكان يحسن الجواب ويتحيل على اللذات ، ولكنه لم يكن آية الآيات في زمنه على سرعة الجواب والخروج من المأزق ، بل لعله كان إلى التورط في المأزق أقرب منه إلى الدراءة بمحارجها ، ولعله كان من أولئك الذين نسميهم في عصرنا « باللحمة » لتعذر الجواب عليه في مواقف العرج ، فلم يكن يحسن الدفاع عن نفسه حين تتألّب عليه التهم بين أيدي الخلفاء والأمراء ، ويروى في أخبار مجونه أنه كان يذهب إلى مجالس القيان متعمداً اخجالهن فينقلب الأمر عليه ويخرجلنه ويفحمنه فلا يغير جواباً ولا يقدر على البقاء في المجلس ، وأبياته في جنان مشهورة حيث يقول :

وَإِنْ وَقَتْ لَهُ كِيمَا يَسْكُلْمَنِي  
فِي الْمَوْضِعِ الْخَلْوِيِّ لَمْ يَنْطِقْ مِنَ الْحَصَرِ

ولا يكون كذلك من هو مثال « الشخصية التموذجية » في سرعة الجواب وافحام النظراء ، ونحسب أنه لم يكن صالحًا بطبيعة تكوينه للافحام والاحراج ، فإنه كان — كما تواتر وصفه — أثخ نحيف الصوت مضطرب الأعصاب ، وليس أيسر من احراج مثله بمحاكاة لثغته ونحافة صوته واضطرابه ، وإنما آلت « شخصيته التموذجية » إلى هذه الصورة بحكم الشهرة وما يفهمه كل جيل من مناسباتها وأحوالها ، فإذا تحولت به الشهرة من شخصيته الأولى إلى شخصية الشاعر الملائم للبلط المنادم للآباء في ساعات السكر والغضب والنزوات والبدوات فلا جرم ت تكون النكتة الحاضرة والحيلة السريعة من أدواته وآلاته ، ويصبح تصور الناس لصفات الشاعر هنا تابعاً لما يتتصورونه من صفات الأمير المطاع ، حتى ليكون من صفاتـه في بعض الأزمنة أنه يغضـب ويأمر بالقتل بغير سبب ، وأنـه يدين ويعـفو في لحظـة واحدة ، وأنـه لا يقبل الكلام الا أنـ يكون من بـابـ المـلـحة أوـ الـكـنـاـة أوـ الـجـنـاسـ .

هذه الشخصية التموذجية « حديثة » ولا ريب طرأت بعد عصر أبي نواس بعده أجيال ، وسنعرض لحقيقة هذه الشخصية في الفصول التالية

ونعود به الى الأصل الذي نجم منه النموذج الأول ، ولكننا نزيد على ما تقدم في هذا الفصل أن الشهرة النادرة التي ظفر بها أبو نواس لم يكن مدارها كلها على شخصيته النموذجية ، بل يرجع الكثير منها الى اقترانه بطاراز آخر من الشخصية النموذجية لعله أشهر أمثاله في التاريخ العربي أو في تاريخ العالم ، وتلك هي شخصية هارون الرشيد الذي قيل عن أبي نواس أنه كان شاعره ونديمه ، وأنه كان يلازمه في حله وترحاله ، ويطلع على أسرار بيته وخفايا حرمه .

\*\*\*

ولامر ما شاعت عن هارون الرشيد هذه الشهرة ، وتعلم من لا يعلم شيئاً عنه أن يتشبه به كلما قضى ليلة لهو ومرح وخيل اليه أنه أحاط نفسه بكل ما يشتته المشتت من الترف والمتع ، ولم يكن هارون الرشيد بهذه الصفة على التحقيق ، ولم يكن شاهروه بهذه السمعة جبيعاً يحسنون النية ويجهلون معنى ما يفترون ، فربما كان منهم من يحقن على الخلافة العباسية ويختلق المثالب لها ولأقطابها على سبيل التغيرة لخصوصها . وربما كانت نوادر ألف ليلة كلها أو جلها من الأخبار الموضوعة للتشهير بدولة والترويج لدولة غيرها ، وقد كان أبو نواس ذريعة للتشهير بالخلفاء في زمانه قبل تمادي الزمن واختفاء الحقيقة أو نسيانها ، فكان أعداء الخليفة الإمام ابن هارون يعييرون فلا يجدون في عييه ما هو أقدح وأقبح من مصاحبة أبي نواس وتقريره الى مجلسه ، فلا عجب أن تعمل الدعوة بعد قرن أو قرنين عملاً يجول فيه الملحق والمفترى كل مجال ، ولا يرى من يعترضه بين العامة اذا جمع في تهمة واحدة بين الخليفة المثالي من بنى العباس والشاعر المثالي من أبناء عصره ، وهو أبو نواس .

والمحافظة على اسم ذي كلمتين أسهل من المحافظة على معالم شخصية انسانية تحتاج المحافظة عليها الى علم بخصائص الطابع والنفوس وعلم بواقع التاريخ ومطامع السياسة . ولكن الطوائف التي شاع بينها اسم هارون الرشيد كانت كالطوائف التي شاع بينها اسم أبي نواس ، أو كانت

هي ايها كما يقول النحاة . فتناولت بالتحريف اسمه كما تناولت معالم شخصيته ، وسمته هارون الرشيدى كما سمت صاحبنا أبا النواس بتشديد الواو ، ولعل تلقيب هارون الرشيدى قد نشأ في مصر مع أقوال الدعاء الفاطميين فيها فحسبه المحدثون والسامعون منسوباً إلى رشيد أو سبقت النسبة إلى أسلتهم لأنهم يسمونها مقتنة بكثير من الأسماء ، ولا نخالها من تصحيف المطبعة حين طبع كتاب ألف ليلة وليلة بمصر غير مرة ، فان تصحيف المطبعة انما جاء على ما هو ظاهر بعد تصحيف اللسان .

\* \* \*

وجملة القول أن « شخصية نموذجية » واحدة تفعل الأعاجيب في تزويد صاحبها بالأخبار والأوصاف من حيث لا يحتسب ، فماذا تفعل شخصيتان اثنتان !! ..

لا جرم يظفر الحسن بن هانيء بنصيب من الأخبار والأوصاف والمعالم الشخصية لم يظفر به شاعر عربي غيره في الشرق أو المغرب ولا في الزمن القديم أو الزمن الحديث .. ولا جرم يحتاج بعد ذلك إلى تمييز وجهه الصحيح بين شتى الوجوه التي عرضت على الناس باسم أبي نواس .

الآن نعود فنقول أن هذا النصيب الكبير من الشهرة لم يأت من جانب « الشخصية النموذجية » وحدها ولا من تلاقى الشخصيتين النموذجيتين بالحق وبالباطل حيث التقت شخصية الشاعر وشخصية الخليفة ..

فمن مزايا السمعة السيئة أنها تكشف الحسد عن صاحبها من ذوي السمعة الحسنة ..

وقد كان أبو نواس سيئ السمعة ولا مراء ، وكان من أنداده الشعراء وأضرابه في سوء السمعة من يحسده وينفس عليه مكانته ولهج الناس بأخباره وأشعاره . أما ذوى الوقار من علماء الأدب واللغة ورواة الشواهد والأمثال فقد هان عندهم في ميزان الجد والوقار فلم يحسدوه ولم يضنووا عليه بالشهادة « اللغوية » والتزكية العلمية ، ولم ينكروا عليه البصر باللغة

والسلامة من الخطأ ، وأجمعوا ، أو كادوا يجمعون ، على أنه أسبق المحدثين : بعد الجاهلين والمخضرمين في مقام الاستشهاد باللفظ المحرر والأسلوب العزل والنسيج القويم ، ولو كان له بينهم وقار كوقار أبي الطيب أو أبي العلاء — لما خلصت له هذه الشهادة بغير بخس وانتقاد : فقد تكفلت لهم بيخسه وانتقاده سمعة سيئة لانتقاداً لهم من عندهم مزيداً عليها ، وربع أبو نواس من هذه « المزية » منزلة الأستاذين المتلقين في اللغة والأدب ، فأخذ من أهل الوقار كما أخذ من أهل المجنون ، ونجا من الهمال حيث استحق الهمال بميزان الخلق والدين .

\* \* \*

ولا يزال بعد كل هذا مدد آخر من امداد الشهرة التواصية غير الشخصية التموذجية وغير شهادة العلماء الأجلاء والرواة الثقات .. ذلك المدد الآخر هو الفاكهة المحرمة ، أو الفاكهة المحببة ، على العهد بين كثير من الناس أن يحبوا كل من نوع ويلهجو بكل محظوظ .

فقد كانت الفاكهة المحرمة بضاعة أبي نواس سواء حرمتها شريعة الأخلاق أو حرمتها شريعة الأديان ، وكانت الزندقة والشذوذ بعض ما يبيع في سوق الفسوق .. و شأن الفاكهة المحرمة أن يسأل عنها سرّاً من لا يسأل عنها علانية ، وأن يقاربها من يألفها ويتجسس عليها من يجهلها وينكرها ، وأنها من بضائع السوق السوداء كما تقول في العصر الأخير ، فهي من بضائع المساومة والمفالة .

وفي عصرنا هذا نظير لأبي نواس في الآداب الغريبة سيناني الكلام على المشابهة بينه وبين أبي نواس في بعض الفصول التالية ، لأنها مشابهة بمقاييس الأدب والخلق والمزاج والدراسات النفسية ، وأهم من ذلك فيما نحن بصدده أنها مشابهة في أسباب الشهرة بالفاكهة المحرمة وما يصح أن يسمى بالزنقة الاجتماعية .

فالشاعر الايرلندي الحديث « أوسكار وايلد » أشبه « الشخصيات التموذجية » في الآداب الغربي بـ أبي نواس ، ومهما يكن من قيمة أوسكار

وأيلد الفنية فشهرته أكبر من قيمته بكثير ، ولم يعرف في القرن التاسع عشر أديب استهجن سيرته كما استهجن سيرة « أوسكار وأيلد » ولا أديب شاعت كتبه من أجل ذلك كما شاعت كتب هذا الأديب المحروم المجدود ، وقد ترجم إلى كل لغة أوربية وكتب عنه النقاد في كل بلد وتضاعفت الكتابة عنه بعد شيوع التحليل النفسي والباحث العلمية في مسائل الجنس والأخلاق ، وإنما أصابه هذا النصيب في سوق الفاكمة المحرمة التي اتجر فيها من قبل أبو نواس .

\* \* \*

وكل سبب من أسباب هذه الشهرة هو في الواقع غطاء على حقيقة أبي نواس فوق غطاء ، فهي تخفيه ولا تبديه ، ومن عمل الدراسة النفسية والدراسة التاريخية أن تبرزا تلك الحقيقة من وراء تلك الأغطية ، وهذا ما سنبدأه في الفصل التالي بالكلام على سيرته النفسية : وهي السيرة الترجسية ..

## الترجمة

كان أبو نواس اذن « شخصية نموذجية » .

ولكنها ليست هي الشخصية التي شاع بها ذكره بين الأميين وأشباه الأميين ، وبين طائفة من خاصة المطلعين على الأدب الفصيح ، وهي الشخصية التي تقوم على الحيلة والجواب السريع والقدرة على الخلاص التردد من المأزق والمحرجات .

فما هي اذن حقيقة الشخصية النواصية التي أشاعت ذكره في أيام حياته وقبل أن تتحول بها الشهرة من دلالة إلى دلالة ؟

أيسر ما يقال في كلمة واحدة أنه « إباحي » .

وقد كان حقاً إباحياً غالياً في الإباحة ، إذا كان المقصود بالإباحة أنه كان يستحل المحرمات ويختلف الدين والعرف والطبيعة .

ولكن الإباحي قد يخفي رذائله وموبقاته ، وقد يداري الناس ويتسنم بسمة الصلاح والتقوى ، ولعل الأكثرين من الإباحيين في عصر أبي نواس خاصة كانوا على هذه السنة ، لأنهم كانوا باتفاق واصفيه عصر شكوكه واحتلاط وتفاق ..

وأيسر ما يقال بعد ذلك أنه « إباحي متهتك » يظهر أمره ولا يتكلف لاخفائه ..

وذلك كذلك وصف صحيح . فمن قال عن أبي نواس أنه « إباحي متهتك » فقد وصفه بما كان عليه . لأنه كان يقارف المنكرات ويعلنهما ولا يحفل بعذاراتها ، وهذا يكفي للصدق في وصفه على حقيقته ، ولكن لا يعني شيئاً إذا كان المقام مقام دراسة نفسية . إذ المرء قد يستريح الرذائل

ويتهتك في البطالة ويتمادي في تهتكه غاية التمادي لعلتين متناقضتين ترجع كل منهما إلى خلال نفسية بعيدة من خلال الأخرى في بواتها وظواهرها ..

فقد يتهتك المرء لأنه هين على نفسه يعلم أنه هين على الناس ، مسلم بحقارته ، شاعر بقلة الجدوى من التستر والمداراة . وأنه يهبط من المهانة إلى حضيضها ، فلا ينفعه أن يتحجب ولا يصره أن يتكشف ويتبدل ، ومثله في هذا مثل الوضيع الساقط الذي لا يالي أن يخرج للناس في مبادله أذ ليس له زمي غير المبادل ، ولسان حاله كلما أحاطت به نظرات الاحتقار قول القائل « أنا الفريق فما خوفي من البلل » .. بل لعمل النظرات لا تحفل به وتختلطه لهوان شأنه فلا تقف عنده محترقة أو غير محترقة ..

هذه حالة من حالات التهتك أو المجنون ، وهو كلمة واحدة في اللغة العربية تعبر عن الإباحة المتهتكة .

أما الحالة الأخرى فهي نقىض هذه الحالة في بواتها وظواهرها ، لأن صاحبها يتحدى بها الناس عامدًا أن يسخر منهم ويكتشف رياهم ، وقد يهون عليه شأن الرياء والصراحة ، فلا يعلن رذائله كراهة للرياء وحبًا للصراحة . بل يعلنها لأنه يريد أن « يقرر شخصيته » ويشعر الناس بوجوده ويستخف بما يسترون ويعلنونه ، فلا هو مكتثر لهم متنزعين ولا هو مكتثر لهم معلزين .

الحالتان نقىستان : حالة من ينسى « شخصيته » ولا يراها أهلاً للذكر مشهور<sup>٢</sup> أو غير مشهور ، وحالة من يقرر « شخصيته » ويتعهد الجهر بالمخالفة لأن الجهر هو سبيله إلى هذا التقرير .

فأية الحالتين هي حالة أبي نواس ؟

ليست هي الحالة الأولى على التحقيق ، لأن ماروي عنه وماروي من كلامه يعربان عن رغبة في التهتك والمجاهرة به ولا يقنان عند حد الجرأة وقلة التكلف للمداراة .

ولا نستقصي هنا كلامه في هذه الأغراض ، فان لهذا الاستقصاء  
مواضعه عند تقاده وتحليله . ولكننا نجتزيء بأبيات قليلة في جملة أغراضه  
تشير بغير عناء الى هذا المعنى .

فهو الذي يقول في الجهر بمعاقرة الخمر بيته المشهور :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر  
ولا تسقني سرّاً اذا أمكن الجهر

وهو الذي يقول في العشق :

الحمد لله أني على حداثة سني  
فقت المحبين طرفة بعض ما شاع عنى  
وهو الذي يقول في مقارفة اللذات عامة :

أطيب اللذات ما كان ذ جهاراً بافتتاح

وهو الذي سمي السمعة السيئة جاهماً يحتفظ به ولا يفرط فيه حين نصح  
له أبو العتاهية بالتوبه فقال ساخراً منه :

أتراني يا عتساهي تاركاً تلك الملادي؟

أتراني مفسداً بالنساء لك بين المُسرد جاهي!

ومهما يكن من تبذهله فلم تكن مسألة التبذل عنده علمًا بهوانه ورضاء  
بهذا الهوان ويأساً من دفعه بالصيانة والمداراة . اذ كان معروفاً عنه أنه كان  
يتعد أن يلقى ذوي الوجاهة والرئاسة باليه والكبراء ، وكان يذكر ذلك  
في شعره فيقول في غير موضع :

لقد زادني تيهًا على الناس انتي

أراني أغناهم وان كنت ذا فقر

واتما كانت مسألة التبذل عنده مسألة ظهور متعمد واستخفافاً برأى  
الناس لأنّه يريد أن يلقي في روعهم أنهم أهون لديه من أن يتستر لهم وأنّ  
ينزل عن لذاته لمرضاهم ، وأنهم من هوانهم عليه يتحداهم ويطلب  
مدحهم و يؤثرها على ثيائهم .

والواقع أن الإغاظة والظهور هنا بيت القصيد ، وأن صاحب هذا المزاج

قد يهمه أن يفيظ جمهرة الناس بالمخالفة وإن كانت مخالفة إلى التقوى والصلاح ، لأن « الظهور » وإثارة الشعور بما الهوى الغالب عليه.

ولو كانت الإباحية النواصية مقصورة على ما شهير به أبو نواس من « دمان السكر وایثار الذكران على الاناث لما فسرتها ولا فسرت شيئاً منها هذه الظاهرة النفسية الواضحة : ظاهرة التحدي بالإباحية المتهتكة . فإن صاحب الإباحية المقصورة على دمان السكر وایثار الذكران على الاناث قد يخجل منها ويسترها ويجهل اجتهاده للخلاص منها ، وقد يتهمي به الأمر إلى التهتك الذي وصفناه في الحالة الأولى وهي حالة المهانة والاسنكافة إليها ..

وانما تفسر آفات أبي نواس جميعاً ظاهرة نفسية أخرى هي « النرجسية » التي جعلناها عنواناً لهذا الفصل ، وفيها تفسير لآفته الكبرى وتفسير للأفات الصغرى التي تتفرع على جوانبها .

هذه « النرجسية » شذوذ دقيق يؤدي إلى ضروب شتى من الشذوذ في غرائز الجنس وبواضع الأخلاق ، ويلتبس الأمر من أجل هذا بين النرجسية وتلك الضروب المختلفة من الشذوذات الجنسية ، وهي مخالفة لها في دخيلتها ، مناقضة لبعضها في ميلها وزراعتها ، فقد تميل بصاحبها إلى العلاقة الطبيعية بين الذكر والأخرى أو تميل به إلى علاقة شاذة بين شخصين من جنس واحد ، كما كان يحدث أحياناً من أبي نواس في غزله بالذكر تارة وغزله بالمؤنث تارة أخرى ، وفي الجمع أحياناً بين ما يزعمه عشقه لأكثر من فتاة واحدة وما يزعمه عشقه لأكثر من فتى واحد ، ولا أصل العشرين في نهاية المطاف غير النرجسية في قرارها العميق .

### ما هي النرجسية ؟

و قبل أن نشرح هذه النرجسية كما يفهمها المحللون النفسيون نذكر نشأة اللفظ والاصطلاح ، لأنها ذات صلة قوية بالمعاني التي أوجت إلى

المحللين النفسيين أن يطلقوا الكلمة على مدلولها بين الآفات الجنسية على  
الخصوص ..

كان اليونانيون الأقدمون يطلقون اسم نرجس على فتيان  
الأساطير بارع الحسن ساحر الشمائل ، يفتن من يراه ويشقي بجماله  
وتيه قلوب العذارى الخفرات فلا يلتفت اليهم ولا يستجيب لضراعتهم ،  
ولم يزل كذلك حتى ضجت السماء بدعاء عاشقاته وصلواتهن الى الآرباب  
أن يصرفوهن عنه أو يصرفوه عنهن ، واستجابت « نرسسي » ربة القصاص  
والجزاء الى هذا الدعاء فقضت عليه أن يهيم بحب نفسه ويلقى منها الشقاء  
الذى تلقاه منه عاشقاته . قال رواة الأساطير : « فما هو الا أن ذهب يشرب  
من ينبوع صاف حتى لمح بصورته في مائه ، فوقف عندها يعجب من جمالها  
وأذهله الفتنة عن شأنه فلم يرح مكانه مطرقاً الى الماء ليتملى تلك الصورة  
ويرتوى من النظر اليها ، فلا يزدده النظر الاهفة وشوقاً ولا تزيده الهفة  
الا هزاً وذبولاً حتى فني . وذهبت عرائس الماء تطلب رفاته فلم تجد في  
مكانه غير نرجسة مطرقة ترنو الى الماء ولا ترفع بصرها الى السماء ،  
فالنرجس أبداً مطرق مفتوح العين لا يشبع من النظر الى خياله على حاوي  
الجدائل والغدران . »

وتروى الأسطورة على رواية أخرى ، فيقول الرواة أنه لما لمح طلعته  
في الماء حسب أنها عروس ينبوع فألقى بنفسه فيه يحاول أن يمسكها ففرق  
ولم يعش الباحثون عنه على جثمانه ، ولكنهم وجدوا في ينبوع نرجسة  
على مثاله ففسروها على حافظه ، وكانت أباً للزهر الذي يعرف باسمه  
ويتطبع في عشقه لصورته بطبع أيه .

ومن غلوتهم في عشق « نرجس » لنفسه يزعمون أن حملة الأرواح في  
نهر الموت الذي يفصل بين الدنيا والآخرة عجبوا له حين رأوه مطرقاً الى  
النهر ولم يزل منهم العجب حتى نظروا حيث ينظر وعلموا أنه برح الدنيا  
ولم يرح مفتوناً بخياله كما كان وهو بقيد الحياة .

وللحصة علاقة بقصة أخرى عن عروس الأساطير تسمى

« الصدى » Echo وترتبط قصتها بقصة نرجس لأنها كانت تهواه .

قالوا : ان هيرا زوجة زيوس أبى الآلهة والأرباب خرجت كعادتها تتجسس على خليلات زوجها وتعقب الحور اللائى يسعدن بقربه من ورائها ، فلما كانت في بعض الطريق لقيتها عروس الصدى فشغلتها عن سعيها بشرتها وفضولها وحلاوة أحاديثها التي تحكى بها مناجاة ضميرها ، خلما غابت عنها نظرت حولها فإذا بالحور والعرائس الآلهات قد تغفلنها وهي مشغولة مع عروس الصدى ، فقضبت على تلك العروس الثڑارة وقضت عليها أن تعيي بابتداء الكلام فلا تقدر على النطق الا تردیداً لما يلقى اليها.

ثم هامت عروس الصدى برجس وهو على دأبه من الهياج بنفسه ، وأبلها الحب لأنها عجزت عن مفاتحته بفرامها ، وكادت تيأس لو لا أنها خلفت به يوماً ينادي أحد رفاقه ، ويصبح به من بعيد : ألا أحد في هذا المكان .. !

فستحت لها الفرصة وأجابته قائلة في شوق وحنين : أحد في هذا المكان ..

قال : هلم

قالت : هلم ..

فأعرض محنقاً وهو يقول : « لا . لا . لست أعني هذا . سآموت ولا يكون لك سلطان عليّ »

فلما مضى في سبيله غير ملتفت إليها عافت نفسها ولاذت بالكموف والمغاور فلا يحسها السامع بعد ذلك الا في كهف أو مغارة ، ومن هنا كانت علاقة الصدى بمن يحب نفسه ويروقه أن يستمع إلى كلامه معاذ اليه ..

ويرى الكاتب بلوتايك أن كلمة نرجس مأخوذة من الكلمة نارس أو نارك Narcosis الأغريقية بمعنى الخدر والفيبيوية ، ومنها الكلمة ناركوسنس Narcosis التي تطلق على النبات المخدر المذهب للحس . ولم يكن النرجس من هذا النبات

ولكنهم أطلقوا عليه اسمه كأنه قد تعاطى المخدر وبدا من يراه كالساهمن  
المسبوٰت ..

وكل هذه الأقاويل عن النرجس والصدى والغدر والسبات لاحقة بما  
تنطوي عليه آفة « النرجسية » من الغرائز أو من الميول والأحساس .  
 فهي آفة متصلة بالغبوبة والنشوة والهياق وحب المصاب بها لللامحه وكلامه  
ولهذا وقع عليها اختيار المحللين النفسيين ، فلم يجدوا اصطلاحاً أوفق منها  
لأعراض تلك الظاهرة النفسية ، مع عراقة الاصطلاح في اللغة اليونانية التي  
يختارونها لابداع الأسماء الجديدة في العلوم كما فعلوا مثلاً  
السيارات الفلكية أو العناصر والعقاقير التي تكشف حديثاً ، وأوقفها  
عندهم ما اشتهر في الأساطير .

وأول من أدخل هذا المصطلح في الطب النفسي الدكتور هافلوك إليس  
Havelock Ellis رائد المباحث الجنسية المشهور ثم توسع الأطباء النفسيون  
في دراسة هذه الآفة وتبعوا أعراضها ولوازمها واستقصوا ما هو من لوازمها  
الأولية وما هو من لوازمها الثانوية أو التبعية ، فأصبحت بعد هذه  
الدراسات قسمًا قائمًا بنفسه من شذوذات الغريرة الجنسية واشتملت على  
آفات متعددة تنطوي تحت عنوان واحد هو عنوان النرجسية .

### الاشتهاء الذاتي والتوثين الذاتي

وتعني هنا شعابها التي تتصل بدراسة أبي نواس وموضوعات عشقه  
وغزله ، وأهمها شعبتان : تسمى أحدهما الاشتهاء الذاتي Auto-erotism  
وتسمى الأخرى التوثين الذاتي Auto-Fetishism وبينهما فرق دقيق ولكنه  
غير حاسم لأن أعراض كل منهما قد تنساب إلى الأخرى في مسارب النفس  
الخفية ودخائل الغريرة المكنونة . وما أكثر المسارب والدخائل في هذه  
الشئون ..

فالاشتهاء الذاتي يغلب على الحالات الجسدية التي تقترب باختلال  
وظائف الجنس في صاحبها ، ويبلغ من اختلال هذه الوظائف أن المصاب به

يعني اذا أطل النظر الى بدن عاريًّا في المرأة وما اليها . وانه يشتهي بذاته كأنه بدن انسان غريب عنه ، ولكنها شهوة يبالغ فيها المريض ، لأن الاعجاب بالابدان الغريبة لا يستغرق شعور المرأة كما يستغرق الاشتئاء الذاتي صاحبه ويغريه على الدوام بتأمل جسده ومعاودة النظر اليه ، ويحدث أحياناً ألا يكون النظر استحساناً محضاً ، بل أسفًا لبعض النقص واجتهد في تحسينه والمغالطة فيه .

والتوثين الذاتي يغلب على الحالات العاطفية والفكرية ، فيتخذ المصاب به من نفسه وثناً يبعده ويعزّه ويدللله ، ويشوب هذا التوثين حب كحب المرأة لمشوقة ، فهو لا يخلو من اختلال وظائف الجسد ولكنه لا يبلغ بها مبلغ الحالة الأولى .

وتلازم الاشتئاء الذاتي والتوثين الذاتي معًا لوازم متفاوتة في درجة الالتصاق بالآفة وتوابعها .

فمن أبرزها وأقواها لازمة التلبيس او التشخيص Identification ومنها لازمة العرض Exhibitionism ولازمة الارتداد Regression .

### لازمة التلبيس والتشخيص

فلازمة التلبيس والتشخيص لاغنى عنها في هذا الضرب من الشذوذ الجنسي وهو عشق الانسان لذاته من الناحية الشهوانية ، فالشاذ في حب جنسه أو حب الجنس الآخر يجد طلبه ويقضي مأربه . أما الذي يشتهي بذاته فليس في وسعه أن يقضي مأربه منه بغير الاحتيال لذلك بالتلبس والتشخيص ، فهو يلبس شخصيته شخصاً آخر يتوهם أنه هو ذاته أو يحل محل ذاته ، وكما يفعل جالد عميرة حين يضع أمامه صورة أو يتخيل في ذهنه عشيقة يتوهם أنه يواعدها يحدث للمصاب بالاشتئاء الذاتي أنه يختار شخصاً آخر يحل محل نفسه في أوصافه البدنية أو الخيالية ، ويتعلق به وهو في الواقع متعلق بذاته .

ولازمة العرض تشمل الاظهار بجميع درجاته ، فإذا أمعن في الجسدية

والشواغل الحسية شوهد المصاب به وهو يكشف عورته ويعرض أعضاءه  
ويتعرى من ثيابه أو يلبس الثياب التي تشبه العري ولا تستر ماوراءها .  
ولكن الأكثر الأعم في لازمة العرض أنها لا تمنع هذا الامعان إلا في حالة  
الجنون وما يقاربه ، وأنها تحول إلى الظهور ولفت الانظار على أساليب  
لا تحصى ، وقد يتهمي بها التناقض أحياناً إلى اعلان التقوى والظهور بين  
الناس بأثار التعذيب والتمرين وسمات العبادة واذلال النفس بتشوهه  
الجسد وتلوثه ..

ومن لم ينته التناقض به هذا المتهى يشاهد عارضاً نفسه بالأزياء الغربية  
والألوان الصارخة ، ماضياً في كل عمل من أعماله العامة على سنة الاشتهر  
بالمخالفة ، على حد القول الشائع : « خالف تعرف ! »

أما الارتداد فهو يتعري الشواذ على أطوار متعددة ، وإنما يتعري  
النرجسين من تلبيس ذواتهم بغيرهم ، أو خلع ذواتهم على شخص آخر  
يلتمسون المشابهة بينهم وبينه ، ولكنهم لا يظفرون في كل حين بشخص  
قام الشبه بهم في كل صفة وصبغة . فإذا اتفق لأحدهم أنه رأى شخصاً  
بنسبه في الملامح والقوام ويغالقه في القوة فالذي يحدث في هذه الحالة  
أنه ينتحل صفة القوة لنفسه كأنه ارتدها اليه من الشخص الذي تلبس  
بملامح ذاته ، وتنافوت درجات الارتداد بتناول المصاب في درجات المرض  
فنع المصاين من ينتحل صفة ليست له ولكنها قابلة للادعاء كالقوة والمهارة  
والمهابة ، ومنهم من ينتحل صفة ليست له ولكنها لا تقبل الادعاء كالطول  
واللون الأبيض أو الأحمر ، فيكون قصيراً ويروض نفسه على اعتقاد  
الطول أو أسمراً ويروض نفسه على ادعاء البياض والشقرة ، بل قد  
يدعى الوصفين المتناقضين إذا تناول بالتلبيس والتشخيص مثالين مختلفين .

وهذه الحالة عرضة للاعاجيب في أوهامها وأخيالتها ، فقد تفضي بصاحبها  
إلى مجراة الطبيعة والشذوذ في وقت واحد فيخلع ذاته على امرأة مشتهاة ،  
فهو من هنا طبعي في حبه للجنس الآخر ، ثم يتشبه بالنساء لأنه أعاد اليه  
بالارتداد خصلة من خصال تلك المرأة لا توجد في الرجال ، فهو من

هنا شاذ عن السواء يحس احساس المرأة نحو الرجل الذي تهتم به  
وتتصباه ..

\* \* \*

هذه اللوازم تطبق على أبي نواس في خلائقه الأولية وخلائقه التبعية  
وتفسر جميع أحواله حيث لا يفسرها ضرب آخر من ضروب الشذوذ في  
السائل الجنسية ..

فالشذوذ الذي يميل بصاحبه إلى عشق أبناء جنسه والعزوف عن  
الجنس الآخر آفة لا تطبق على أبي نواس ، لأنّه يغازل الجواري كما  
يغازل الغلمان ، وكلامه كثير في استحسان الفتاة لأنّها كالغلام واستحسان  
الغلام لأنّه كالفتاة .

فهو يقول في جارية :

غلام والا فالغلام شبيهها  
وريحان دنيا لذة للمعانق

ويقول في غلام :

من كف ذي فتح حلول شمائله  
كانه عند رأى العين عذراء

ويقول في اخت وأخ :

يديرهما دعجاء رود وادعج  
أخ وأخته في القوم واسمها اسم  
يقال له معنٌ فاما نكسته  
لتدعوا أخته يوماً فمنكسه نعم

والشذوذ يعني حب الإنسان لجنسه Homosexuality لا يفسر هذه  
الحالة بل يزيد بها إبهاماً عند البحث عن أسباب النزعة ومواضع الزيف فيها ،  
وانما تفسرها الترجسية وما طبع عليه المصابون بها من اختلاف الهوى  
حسب اختلاف التلبيس والتشخيص . فإذا اشتهر ذاته ولبسها بواحلة  
من الجنس الآخر ظهر أنه مستقيم على سواء الطبيعة ، وهو في الحقيقة

شاذ على الحالتين ، لأن العلة هي الاشتاء الذاتي ولازمة التلبيس والتشخيص ..

وقد كان هذا التلبيس يبدو في غزل أبي نواس صراحةً مكشوفاً حين يختار لهواه غلاماً الشغ كأبي نواس ، وان كانت لثغة هذا بالراء ولثغة ذاك بالسين ، فيقول :

وا بأبي الشغ لاججته      فقال في غنج واختان  
لما رأى متى خلاف ليه :      كم لقي الناث من الناث  
نازعته صهباء كرخيتة      قد حلت من كرم حراث  
أو يختار غلاماً لا يحسن النطق بالراء تكسيراً لها كما يقول :  
يسسر الراء وتكسيرها      يدعو مع السقم الى الحتف  
أو يختار « طبیاً » يعجبه منه ما يصنعه فوه بالراء :  
يادوب قلبي من ظبی کلفت به

ما تصنع الراء في فيه اذا نطقا  
وتعجبه البحة التي كانت احدى خواصه الصوتية ، فلا ينساها وهو يقول في وصف غلام :

وبه غنة الصبا تعليها      بحنة الاختلام للترشيف  
وكان هذا التلبيس يبدو كذلك مكشوفاً على نحو آخر حين يقول في جارية تتشبه بالكتاب :

مؤذرة مؤثثة      بما ألم ، وبـي ألم  
تجبر ذيل مؤذرها      وفارسـيـاـ قلم  
ويذكر مثال الحسن في الجنسين اذا تكلم عن حسناء كما يقول فيمن عرضوها عليه ليتزوجها :

ولو أنها في الحسن كانت كيوسف  
وبليسيـنـ أوـ كـانتـ كـخطـ مـثالـ  
وقالت : تزوجني على مهر درهم  
لقلت اغـسـرـيـيـ عنـيـ فـمـهـرـكـ غالـ

وما أشار اليه في مجونه ، ولا حاجة الى ايراده ، انه كان يخاطب  
عشيقه من الغممان فيقول لهم انه كان مشوّقاً مثلهم ويحكى لهم كيف  
يتشبهون به مع عاشقيه ، وفي نسيبه بالنساء تدليل لنفسه يوميء الى أنوثة  
كامنة في طبعه كما يقول لاحداهن :

لا تفجعِي أمي بواحدها    لن تخلي مثلي على أمي  
وفيه استغاثة تحكي استغاثة المرأة بأخواتها :

تجمعوا علموني    يا إخواتي كيف آتني  
يا ويلتسا أي شيء    بين العشنا واللمات

فهو في طبيعة النرجسية يسهل عليه أن يلبس ذاته لكلا الجنسين ،  
وأن يكون شاداً في حالة ومساوياً للفطرة في حالة ، وما كان على الفطرة  
في الحالتين ..

ومما هو خليق بأن يتأنى عنده الدارسون للنرجسية ولوازمهما أن  
« جناناً » كانت أحب معشوقاته اليه وأنها كثنا جاء في كتاب ابن منظور  
عن أخبار أبي نواس كانت تحب النساء وتميل اليهن ، فربما كان هذا  
الكلف الخاص بهذه الفتاة لأن لازمة التشخيص والتلبيس تتحقق بها على  
نحو لا يتحقق بغيرها ، اذ كانت لها السمات النفسية والبدنية التي تراءى  
فيها ميول الجنسين ..

وخليل بالدارسين كذلك أن يلتقطوا الى سر هيامه بالجارية « حسن »  
واستيحائه من اسمها معنى التوحيد بينه وبينها كما قال متغزاً بها متشفعاً  
لديها بهذه الحرمة :

ان لي حرمة فلو رُعيت لي    لا جوار ولا أقول قرابة  
غير أنني سمي وجهك لم أحر    مه في اللفظ والهجا والكتابة  
فإذا ما دعيت غير مسكنٍ    لم أقصر حفظاً له في الإجابة  
فاكتبي وانظري الى شَبَهِ الا    حرف ثم اجمعهما في الحسابـة

فليس أقرب في مسارب الشعور الجنسي من الانتقال بتداعي الخواطر  
بين هذا التشبيه والتقرير وبين عادة التشخيص والتلبيس .

فهو في طبيعة النرجسية يسهل عليه كما قدمنا أن يلبس ذاته لـ كل الجنسين وأن يكون شاذًا في حالة ومساوقًا للفطرة في حالة ، وما كان على الفطرة في الحالتين .

### لازمة العرض

وتنطبق عليه لازمة العرض كما تُنطبق عليه لازمة التلبيس والتشخيص . ولعل لازمة العرض أظهر فيه ، لأنها من شأنها أن تتلمس وسائل الظهور . فلم ينظم شعرًا في الخبريات أو الفزول أو المجنون إلا تبين منه أن الجم بالمحرمات أدنى إلى هواه من المتعة بالمحرمات :

وان قالوا حرام ، قل حرام ولكن اللذادة في الحرام  
وتکبر المتعة في حسه وفي وصفه بمقدار المحالة لا بمقدار المتعة  
واللذادها فلا يتساوى شراء الخمر والفسوق بمال حلال وشراؤهما بمال  
حرام :

واركب الآثام حتى يبعث الله الأنامـا  
فلكم ثلثا بدينا ر قمرناه غلامـا  
وشربنا يومـا ذا كـ يباقـه مـ داما  
لانصرف في حـ رامـ أبدا الا حـ راما

أو كما قال ، فيما نسب إليه ، ان الخمر لا تشرب الا بشـ من خنزير  
مسروق من زانية ... وكأنـا نعمـت نـفسـه وهو يـنـعـتـ مـحبـوبـهـ الذـيـ يـقـولـ  
فيـهـ :

كـ طـالـ بـ مـ شـ لـ أـ قـ يـ لـ : خـ الـ لـ اـ تـ ذـ كـ رـ  
أـ نـ كـ بـ بـرـ النـ اـ سـ غـ يـ وـانـ تـ غـ شـ وـاـ يـ كـ بـرـ  
وـ منـ اللـ غـوـ أـ نـ يـ بـحـ الـ بـاحـ جـ دـ عنـ مـذـهـبـ أـبـيـ نـوـاسـ فـيـ الزـنـدـقـةـ ،  
فـلـيـسـ لـهـ فـيـ الزـنـدـقـةـ مـذـهـبـ غـيـرـ «ـ العـرـضـ وـالـاظـهـارـ »ـ ...ـ وـقـدـ روـيـ عـنـهـ  
أـنـهـ اـنـصـرـفـ مـنـ بـعـضـ الـمـواـخـيـرـ سـكـرـانـ فـرـ بـمـسـجـدـ قدـ حـضـرـ فـيـ الـصـلـاـةـ  
فـدـخـلـ فـقـامـ فـيـ الصـفـ الـأـوـلـ ، فـقـرـأـ الـأـمـامـ .ـ «ـ قـلـ يـاـ أـيـهـ الـكـافـرـوـنـ »ـ قـالـ

أبو نواس : ليك ! فلما قضيت الصلاة لبيوه وساقوه للحساب ... فأي مذهب من مذاهب الزنادقة يسول لصاحبه هذا المجنون . إنما هي آفة العبث بالمخالفة ولا شيء سواها يغريه بهذا السخف الذميم .

ومن اللغو كذلك أن يقال كما قال بعض المستشرقين أنه كان يكره الاشارة الى الطلول في مطلع القصائد ولعًا منه بالتجديد ونفورًا من القديم ..

فما كان ينبع على الشعراء بكاء الطلول الا ينبع من وراء ذلك معيشة الباذية على أهلها أجمعين ، وبهذه النزعة كان يكثر من التعریض بالعرب العدنانيين والشعر بالعرب القحطانيين ولم يكن له نسب ثابت في هؤلاء ولا هؤلاء، وقد كان من شعراء عصره من لهم نسب ثابت في اليمن أو نسب ثابت في الحجاز فلم يجعلوا هذا النسب هجراهم كما جعله أبو نواس وإنما أغراه بالخطب في هذا المعرض الشائق انه كان مسرع النار في عصره ، وكانت النفوس تستثار به حيث لا تستثار بغيره . فقد طاح النزاع بين القبائل بالدولة الاموية وطاح هذا النزاع بال الخليفة الأمين في دولة العباسيين ، وخافت العصبيات يومئذ أشد ما تخف في حقبة من العقب ، ومن هنا كان أمر الخلفاء له بذكر الطلول كما قال :

دعاني الى وصف الطلول سلط     لقد ضقت ذرعاً أن أجوز له أمرا  
ولم يكن هذا الأمر تأييداً منهم لمذهب من مذاهب الأدب على سواه ،  
ولكنه كان اتقاء للشعب وابعاداً لباب الخصومات والعصبيات ، ولو لم  
تكن المسألة مسألة عرض واظهار عند صاحبنا - لما عناه هنا رأى الأقدمين  
ولا رأى المحدثين ، فقد كان ينحو في الطرد والفزل والمدح والمجاء منحى  
الشعر القديم ويلهج بمحاكاته على نمط لم يؤثر عن أحد من نظرائه  
ومعاصريه ..

ومن تغفل هذه الازمة في خليقه - لازمة العرض والاظهار والتجدي  
بالمخالفة - انه جعل الصلاح تهديداً لا بل يس في قصيده التي يقول منها :  
لما حفاني الحبيب وامتنعت     عني الرسائلات منه والخبر

ذكر حبيبي ، والحلم والفكر  
في خلوة الدموع تنحدر .  
أقرح جفني البكاء والسمير  
قلب حبيبي وأنت مقتدر  
ولا جرى في مفاصلني السكر  
أروح في درسه وابتكر  
أزال دهري بالخير ألتسر  
حتى أتاني الحبيب يعتذر

واشتد شوقي فكاد يقتلني  
دعوت إبليس ثم قلت له  
أما ترى كيف قد بليت وقد  
انـأنت لم تلق لي المسودة في  
لا قلت شعراً ولا سمعت غناً  
ولا أزال القرآن أدرسـه  
وألزم الصوم والصلة ولا  
فـما مضت بعد ذاك ثلاثة

الـى آخر القصيدة :

قال رزين الكاتب عن سبب نظمـه لهذه القصيدة : « اجتمعنا يوماً  
وأبو نواس وعليـ بن الخطـيل في سوق الـكرخ ، وكـنا نجـتمع ونـتناشد  
الأـشعار ونـذاكر الأخـبار ونـتحدث بها ، فقالـ أبو نواس : أدـبر من كانـ في  
نـفسي وـكان أـسرع العـلـقـ إلى طـاعـتي ، فـما أـدرـي ما أـحتـالـ له ؟ فقالـ علىـ  
ابنـ الخطـيل يـمازـجه : ياـ أـباـ عـلـيـ ! سـلـ شـيـخـكـ وأـسـتـاذـكـ يـعـطـفـهـ عـلـيـ .  
فـقالـ أبوـ نـواسـ : مـنـ تـعـنـيـ ؟ فـقالـ : مـنـ أـنـتـ فيـ طـاعـتـهـ لـيـلـكـ وـنـهـارـكـ ، يـعـنـيـ  
إـبـلـيسـ ! فـانـ لمـ يـقـضـ لـكـ هـذـهـ الـحـاجـةـ فـماـ يـنـبـغـيـ لـكـ أـنـ تـسـأـلـهـ مـسـأـلـةـ وـلـاـ  
تـقـرـ عـيـنـهـ بـعـصـيـةـ ، فـقالـ هوـ أـسـدـ لـرـأـيـهـ مـنـ أـنـ يـخـلـ بـيـ أوـ يـخـذـلـيـ .. وـانـقـضـيـ  
مـجـلسـنـاـ ذـلـكـ . فـلـمـ كـانـ بـعـدـ أـيـامـ اجـتـمـعـنـاـ فيـ ذـلـكـ الـمـوـضـعـ وـأـخـذـنـاـ فيـ  
أـحـادـيـثـنـاـ ، فـضـحـكـ أـبـوـ نـواسـ .. فـقلـلـاـ لـهـ : مـاـ أـضـحـكـكـ ؟ فـقالـ : ذـكـرـتـ قـولـ  
عـلـيـ بنـ الخطـيلـ يـوـمـئـذـ : سـلـ شـيـخـكـ يـعـطـفـهـ عـنـكـ .. حـيـنـئـذـ قـدـ سـأـلـهـ  
ياـ أـباـ الـحـسـنـ فـقـضـيـ الـحـاجـةـ ، وـمـاـ مـضـتـ وـالـلـهـ ثـالـثـةـ حـتـىـ أـتـانـيـ مـنـ غـيرـ أـنـ  
أـبـعـثـ إـلـيـهـ وـمـنـ غـيرـ أـنـ أـسـتـرـيـهـ ، فـعـاتـبـنـيـ وـاسـتـرـضـانـيـ ، وـكـانـ النـفـضـبـ مـنـيـ  
وـالـتـجـنـيـ . وـأـحـسـبـ الشـيـخـ - يـعـنـيـ إـبـلـيسـ - كـانـ يـشـمـعـ عـلـيـنـاـ فـيـ وقتـ  
كـلـامـنـاـ » ..

هـذـهـ هـيـ الـقـصـةـ كـمـاـ روـاهـ رـزـينـ الـكـاتـبـ لـاـ يـعـنـيـنـاـ صـحـتـ روـايـتـهـ أـوـ لـمـ  
تـصـحـ ، فـانـ القـصـيـدةـ لـأـبـيـ نـواسـ لـاـ تـرـوـيـ لـأـحـدـ غـيرـهـ ، وـلـوـلـاـ دـخـيـلـةـ طـبعـ

مطوية على آفتها ولوازمها لقد كان اقتراح علي بن الخليل خليقاً أن يوحى إلى أبي نواس أن يتوجه بالطلب إلى أبليس على غير ذلك الأسلوب ، ولكنه جرى على دأبه فصنع مع أبليس ما يصنعه مع الناس ، فهو يتحدى الناس بالمعصية والفسق ويتحدى أبليس بالصلاح والعفاف ، وهي أذن خلة واحدة ذات صبغتين !

وتتمثل هذه الشهوة «النرجسية» شهوة المخالف والمغاظة في قصيدة أخرى صور فيها أبليس بصورة المتسلل إليه بغاياته ليختار منها ما يحلو له وهو يأباهما غواية بعد غواية ولا يزيد على أن يقول له «لا» من قبيل المكايضة والمعاندة لا من قبيل الرهد والعفاف.

قال :

في كل ما يؤثمني خصم  
ثم هو يتباهي نجم  
عتصم أن أهبطه الرجم  
بتائب توبته وهم  
يزينهما صدر لها فخر  
أسود يحكي لونه الكرم  
يرتج منه كفـل فـعم  
ليس في لبـته نظم  
بحسن منه النقر والنغم  
شابـه ما قلت لك الحزم  
منك على رغمك ، يا فـدم  
غيرـذا من فـعلـك الفـشم  
نمـتـ إلى الصـبحـ وأـبـلـيسـ لـيـ  
رأـيـتـهـ فيـ الجـوـ مـسـتـعـلـيـاـ  
أـرـادـ لـلـسـمـعـ اـسـتـرـاقـاـ فـماـ  
فـقـالـ لـيـ لـمـاـ هوـ مـرـجـبـاـ  
هـلـ لـكـ فيـ عـذـراءـ مـمـكـورـةـ  
وـوـارـدـ جـثـلـ (١)ـ عـلـىـ مـتـهـماـ  
فـقـلـتـ :ـ لـاـ .ـ قـالـ فـتـىـ أـمـرـدـ  
كـأـنـهـ عـذـراءـ فـيـ خـدـرـهـاـ  
فـقـلـتـ :ـ لـاـ .ـ قـالـ فـتـىـ مـسـمـعـ  
فـقـلـتـ :ـ لـاـ .ـ قـالـ فـتـىـ قـلـ مـاـ  
مـاـ أـنـاـ بـالـأـيـسـ مـنـ عـسـودـةـ  
لـسـتـ أـبـاـ مـرـةـ اـنـ لـمـ تـعـدـ

ولا يخطيء القاريء في هذه الابليسيات التي تروى لأبي نواس أو تروى عنه ، ما تحتويه من خبيثة التعلل باللوعة والامتياز والظهور بين الأقران ، فمما رواه والبة بن الحباب أستاذ أبي نواس أنه «كان نائماً ، وأبو نواس

(١) أي شعر غريب .

غلامه نائم اذ أتاه آت في منامه فقال : أتدرى من هذا النائم الى جنبك ؟  
قال : لا .. قال هذا أشعر منك وأشعر من الجن والانس أما والله لأفتن  
بشره الثقلين ولأغرن به أهل المشرق والمغرب . قال : فعلمت انه ابليس  
فقلت له : فما عندك ؟ قال : عصيت ربي في سجدة فأهلكني ، ولو أمرني  
أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت .»

ومن رضاة أبي نواس أن يسجد ابليس له ولا يسجد لآدم ، أما والبة  
فحسبه أن يقول غلامي أبو نواس !

وقد كان من منافع ابليس في مجون أبي نواس أنه يكفل له وجاهة  
التمييز بالخمرة التي هو كفؤ لها دون عذالة ، فهو يخصه بها ويصرفه  
عذالة عنها ..

دعوت ابليس ثم قلت له    لا تسق هذا الشراب عذالي  
وما كل من يشرب الخمر نظيرًا لأبي نواس :  
فالخمر قد يشربها عشر    ليسوا اذا عدوا بأكفارها

وكثيراً ما تبدو شهوة الوجاهة والظهور في ولع أبي نواس بشرب الخمر  
كائناً ما كان نوعها . فهي فضلاً عما تخيله لشاربها من العظمة والسلطان  
ليست مما يرتقي الى « كفاءته » كل شارب وطالب ، وأبو نواس حين  
يشربها أجدر بشربها من أمم وآحاد ، وعلى لسانها يقول :  
فاستوحشت وبكت في الدن قائلة

يا أم وريحك ، أخشي النار واللهم  
فقلت لا تحذرية عندنا أبداً

قالت : ولا الشمس ؟ قلت الحر قد ذهبها

قالت : فمن خاطبني هذا ؟ فقلت أنا

قالت فبعلبي ؟ قلت الماء ان عذبا

قالت : لقاحي . فقلت الثلج أيرده

قالت في بيتي ؟ فما أستحسن الخشبـا

قلت القساني والقادح ولدها  
 فرعون : قالت لقد هيجت لي طربا  
 لا تمكنتني من العريض يشربني  
 ولا اللثيم الذي ان شمني قطبا  
 ولا المجروس فان النصار ربهم  
 ولا اليهود ولا من يعبد الصليب  
 ولا السفال الذي لا يستفيق ولا  
 غر الشباب ولا من يجهل الأدباء  
 ولا الاراذل الا من يهقرني  
 من السقاوة ، ولكن أسفني العرباء  
 يا قهوة حرمت الا على رجل  
 أثرى فاتلف فيها المال والشباب ..  
 ولم يكن عرضأً أنه كان يدعى لها جلالة الشأن على الملوك ، ويزيد هذا  
 المعنى كقوله :  
 ومدامة تحييا الملوك بها      جلت مآثرها عن الوصف  
 وكقوله :  
 ومدامة سجد الملوك لها      باكرتها والديك قد صدحا  
 أو قوله :  
 ومدامة سجد الملوك لذكرها      جلت عن التصريح بالاسماء  
 أو كقوله :  
 صهباء فضلها الملوك على      نظرائها لفضيلة القدم  
 وكذلك تردید ذكر التاج عند ذكر سقاتها كما يقول :  
 تتجت من كرم كسرى      قبل ابان التاج  
 وغزال من بنى الأص      سفر معصوب بتاج  
 شخصه مني بعیند      وهو مني كالمنساجي  
 أو كما يقول :

لها تاج مرجان واكليسل لؤلؤ  
يدور بها ظبي غرير متوج بتاج من الريحان ملك القراطق  
فإن الخمر أداة صالحة للتدليل الذي يكمن في أعماق «النرجسية»  
وحب أبي نواس لها حب للتدليل الذي لا تستغني عنه طبيعة الافتتان بالذات  
أو توثيق الذات ، ومن هذا التدليل هذا الترنم بالتاج والملك والامتياز  
بمقام للشرب لا يكافئه كل مقام ، وما كان هذا الشعور خبيئة عميقة في  
نفس الشاعر «النرجسي» وحسب بل كان على طرف لسانه ، وكان أحياناً  
يلحي السكر في سبيل أحلامه ، وهو لا يلتفت إلى مغزى ما يقول . حيث  
قال :

ألا رب احسان عليٌ ثقيل عليه ، ولا معروف عند بخييل  
يقوم سواه أو مخيف سبيل  
إذا نوه الزحفان باسم قتيل  
لتحمي مسال الله من كل فاجر أخني بطنزة للطيات أكول  
وأصبحت الحمى السكر والسكر محسن  
كتفى حزناً أن الجود مقتدر  
سأبغي الغنى أما جليس خليفة  
 بكل فتى لا يستطار جنانه  
فها هنا حلم مستقل عن حلم الخمر ولكنه لا ينفك عن لازمة «النرجسي»  
المدلل لنفسه ، ويؤكد ينسى صاحبه — وهو من الساخرين — انه عرضة  
للسخرية التي لا سخرية بعدها حين يتخيله القاريء نديمًا لخليفة لا يقبل  
منادمه بغير شرط بل يشترط فيه «السواء» .. ثم يشرب الى عزة أكبر  
من هذه العزة فيزبن له الحلم أنه قاطع سبيل مخيف ليجمع الفنائيم وينفق  
خمسها في سبيل الله ، ويحرمه على الولاة ذوي البطنة الذين يأكلون  
الطيات .. ولا يغلط فيقول : ويسربون المحرمات .. فمثل هذا الفلط من  
أبي نواس غير معقول حتى في الأحلام !

ونحسب أن الفارق قد اتضاع من هذه الأمثال بين أنواع التفكير  
والاباحة ، ولا سيما اباحة «الشخصية العاتية» واباحة «الشخصية  
النرجسية» ..

فالعاطي الذي يستبيح المحرمات يبطل التحرير والتخليل ولا يعرفهما

كما قال أبو الطيب في وصف الأسد :

في وحدة الرهبان الا أنه لا يعرف التحرير والتحليل

ويود لو فرض على الناس حرامه وحلاله شريعة يأخذهم بها وينزلها منزلة الشريعة التي درجوا عليها . أما الشخصية النرجسية فلا يلوح من عملها وقولها أنها تريد ابطال المحرمات بل يلوح من كل أعمالها وأقوالها أنها على تقىض ذلك ت يريد أن تستبقى شيئاً محرماً لستبيحه وأمراً ملزماً لتنعم بعصيائه ، وشأنها شأن الطفل المدلل الذي يعطي هواء ويقىس هواء ودلالة بمقاييس التجني والهران ، والولع بما يمتنع والاعراض عما يبذل ويسهل مناله ، أو يستباح .

والتدليل هنا هو قوام توئين النفس والشعور بهذا التوئين من الآخرين وغاية المبؤى هنا في الطفل المدلل أنه يكلف أهله مالا يوجد ويأبى ما هو موجود وميسور ..

وتلك هي الإباحية النرجسية التي تقرن بتوئين النفس وتدعيلها ، ولا نموذج لها في الأدب العربي أوفى لعوارضها ولوازمتها من أبي نواس .

### الازمة الارتداد

أما «الارتداد» ، وهو الازمة الثالثة التي ذكرناها من لوازم النرجسية فهو الذي يعرف أحياناً باسم الصفات الثانوية وليس من طبيعته أن يظهر قبل المراهقة ، وربما تأخر إلى ما بعد المراهقة بسنوات إلى أن توجد النوازع الجنسية التي لا تتأتى الاستجابة لها حين يكتفي النرجسي بتوئين نفسه ..

ويسمى الارتداد بالصفات الثانوية لأنه لا يبلغ مبلغ التشخيص والعرض في ملازمة النرجسية ، ولأنه يأتي مرجوعاً في شخص واحد ، ويأتي لهذا على ثلاثة درجات .

أولاها - توئين النفس ..

وثانيتها - خلع الشخصية على انسان آخر ، ومن المتعذر أن يكون هذا

الانسان نسخة مكررة من الشخصية النرجسية كما تهواها ففيها لابد شيء  
من الاختلاف بالتحسين أو بالقصير  
وثلاثة الدرجات — أن تعود الشخصية النرجسية فتستعيض الملامح  
المختلفة وتلبس بها وتحسبها من ملامحها وصفاتها ، وبخاصة اذا رأت  
أنها ناقصة فيها ..

ولا حاجة الى استقصاء شواهد « الارتداد » في شعر أبي نواس ، فكل  
ما وصف به أكفاء المنادمة والظرف وجعلهم من أقرانه لا يخلو من هذا  
الارتداد ، وكان قريباً في تداعي الخواطر — أو تداعي الهواجس — أن  
يرى أنه يشبه « حسناً » اسمًا ورسمًا اذ كان مفتوناً بطول قامتها وهو  
غير طويل :

طويلة خوط المتن عند قياسها      ولبي بالطويلات المتون ولو ع  
ويخطر على البال أن أكثر الصفات المرتدة انساً كانت من صفات المخلوع  
محمد الأمين ، ومن جهه ايات أنه كان صديق الخسر وان كان ينهاه عنها  
لينفي عن سمعته قالة السوء .

بل قيل — وما هو بالخاطر البعيد — إن شغفه بالأمين انما كان شغف  
عاشق لا شغف تابع بمتبوع ، فما كان أبو نواس بالذى يبقى على ولاته  
بعد خلع الخليفة تشيعاً لرأي أو تعصباً لمذهب ، وتقول طائفة من الرواية  
أن أبيات الشاعر الدالية التي يقول منها :

أصبحت صبّاً ولا أقول بنـ من خوف من لا يخاف من أحد  
إن أنا فسكت في هـواي له      أحسست رأسي قد طارعن جسدي  
انما نظمها في الأمين ، وانه كان يشرب معه يوماً فنشط الأمين للسباحة  
فلبس ثيابَ ملاحٍ ولبس غلامه كوثر مثل لباسه ووقداً في البركة ونظر  
أبو نواس الى بدنَ الأمين فرأى مالِم ير مثله ، فلما كان من غد جاء الحسين  
ابن المنذر مسلماً عليه . قال الحسين : فسألته عن خبره مع محمد فقال  
ويلك ! رأيت الفتنة ، وأنشد هذا الشعر .. فقلت له ويحك اتق الله في  
رأسك ، فإنه ان بلغه قتلك .

ولعل أبا نواس لم يحفظ للأمين من ذكره ما هو أدنى إلى طبعه من  
معاقرته الخمر ومن مجوئه وملاحتة:

أأرفضها والله لم يرفض اسمها      وهذا أمير المؤمنين صديقها

فإذا كانت لازمة «الارتداد النرجسي» بحاجة إلى مورد يستعير منه  
الشاعر ما ليس عنده من الزينة الشخصية فليس أخرى من الأمين أن يكون  
هذا المورد الرفيق ، مع ما تقدم من ولع الشاعر بتزديد الزهو بسمات  
الملوك وزينة التاج والأكليل .

\*\*\*

وخلاله القول في النرجسية أن أبا نواس كان من الشواذ في تكوينه  
الجنسي ودوافعه النفسية ، ولكن شذوذه غير الشذوذ الذي اشتهر به  
وهو إيثاره الذكران على الإناث ، ولا بد من التفرقة بين الشذوذين لأن  
النرجسية تفسر أطوار أبي نواس جميعاً والشذوذ الآخر لا يفسرها ،  
وهذا عدا ضرورة التفرقة بين الشذوذين للكشف عن بواطن السريرة  
وفهم الأخلاق الخاصة والأخلاق الاجتماعية .

فغرام أبي نواس بالجنسين وانحرافه مع بنى جنسه فاعلاً ومنفعلاً أمر  
لا يفسره إيثار الذكران على الإناث Homosexuality ولكن النرجسية  
تفسره كل التفسير من جميع نواحيه .

والنرجسية تفسر الولع بالمجاهرة الإباحية ولكن الشذوذ الآخر  
لا يفسرها ، لأنه قلما يغري صاحبه بالمجاهرة وكثيراً ما يوحى إليه التخيّل  
والاستثار ، وإذا تبدل فانياً يتبدل لاعتقاده أنه أهون من أن يلفت الأنظار  
وأهون من أن يبالي الإهانة ، لا لأنه يعمل على لفت الأنظار والاستهانة  
بالملام ..

وقد تكون التفرقة هامة للعلاج النفسي عدا هذا الاعتبار من جانب  
النقد والتاريخ . وستكون هامة للعلاج النفسي لا محالة يوم تكتشفه  
خصائص الفرد ومفرزاته وعلاقتها بالأطوار الجنسية والنفسية ، فقد

يصبح تعديل هذه المفرزات بالعلاج الجسدي ميسوراً كما يصبح ضرورياً  
لتقويم الأبدان والأفكار ..

### أبو نواس وأوسكار وايلد

واعتقادنا في أمثال هذه الدراسات أن المقارنة أفضل وسائل التمييز فيها ، وأن أفضل المقارنات ما كان بين المتباعدين في البيئة والزمان ، فأن التشابه بين أبناء البيئة الواحدة والزمن الواحد لا يميز الأضداد ، ولكننا إذا قارنا بين اثنين تفرقهما البيئة والزمان ثم رأينا علامات التشابه بينهما واضحة فهذا هو الدليل القاطع على فعل العلة التي يشتراكاً فيها.

وقد أسلفنا أن الشاعر العصري أوسكار وايلد كبير الشبه ب أبي نواس في لوازم النرجسية ، وهما مختلفان بعدها في كل شيء : في الزمن والموطن واللغة والدين والطبقة الاجتماعية ، ولكنهما على هذا يتماثلان في كل لازمة من لوازم النرجسية ، ويختلفان فيكون اختلافهما أدل على وحدة المزاج ..

ففي أوسكار وايلد تلقى الملامح الأنثوية وحصل الشعر المرسلة والصوت الذي تمازجه الرخامة ..

وفي تلقى حب الظهور ولفت الأنظار وشغل الأذهان ، ولم تسكن مصطلحات التحليل النفسي قد شاعت في أيامه فلم يصفوه بحب المرض كما كانوا يصفونه به لو عاش بعد زمنه بخمسين سنة ، ولكنهم أطلقوا عليه اصطلاح العرف الذي يقابل اصطلاح التحليل النفسي تمام المقابلة وقالوا إنه نموذج حي للزهو المتبرج Dandyism ومنه جاءت كل بلواء ..

وليس الزهو المتبرج كل ما هنالك ، بل هو الزهو الذي يصد ويفضب كما قال صديقه اندريله جيد الأديب الفرنسي المعروف في ذكرياته عنه ، وكان يتكلم بلغة عصره — لغة الثورة الفرنسية وأعقابها — فيقول إن

المستبددين ثلاثة : « مستبد يطغى على الجسد ، ومستبد يطغى على النفس ، ومستبد يطغى عليهمما معًا . أما الأول فيسمونه الأمير ، وأما الثاني فيسمونه الحبر والكافر ، وأما الثالث فيسمونه الرأي العام »

وكانت لذته الكبرى أن يتحدى الرأي العام ويثيره ، ويتعين بفضائله أو الخطيئة ، ويكتب وهو يدافع عن الشاعر الفرنسي بودلير - زميله في الترجسية - : « إن ما يسمى الخطيئة عنصر جوهري من عناصر التقدم تأسن الدنيا بغيره أو تشيح أو تنصل من كل لون ، فهي بما تتطوي عليه من التطلع تزيد تجارب النوع الإنساني ، وهي بتوكيدها المزايا الفردية تعجينا من ارهاق القوالب المطردة »

وقال : « إن الطيبة على المثال الذي تفهمه السوقة سهلة بينة فكل ماتطلبه مقدار من الذعر ونقص في الفكر التخييل ومعيار دارج من معايير كرامة المساطير » ..

أما الخطيئة العظمى عنده فهي البلادة ، وعلامات الحضارة عنده اثنتان : الثقافة والفساد .

وذهب الى امريكا وعاد منها ينعي على قوم غاية البطولة في عرفهم ان يكون الرجل على غرار واشنطن لا يحسن أن يخلق لك كذبة واحدة .

وذهب الى بلدة من بلاد افريقيا الشمالية التي يعشها طلاب الفراغ وخرج منها وهو يقول لأندريله جيد : « غاية مناي أن أكون قد نجحت في افساد هذه القرية »

وكتب ونظم وتحدث وعمل ليشر بمذهب واحد يتكرر في صيف مختلفة وهو أن الفن والعلم منعزلان وينبغي أن ينعزلا في مقاييس الأخلاق ..

وما يستوقف النظر غرام أوسكار وايلد بقصة فرجس في الأساطير الاغريقية قبل أن يشتق منها النفسيون اصطلاحهم على عادات تلك الأفة الجنسية أو النفسية ، فمن أحاديثه مع اندريله جيد أنه قال له ذات يوم بغير تسييد : إنك تصغي بعينيك . ولهذا أقصى عليك القصة الثالثة :

« لما مات نرجس أصبحت بركته كأساً من الدمع المر بعد أن كانت من الماء الزلال ، وأقبلت عليها الأزهار باكية عسى أن تغشى لها وتغمرها . فقلن لها حين رأين هذا ... لا عجب أن تحزني حزنك على نرجس ، فما كان أجمله وأحلاته ..

« فأجبات البركة : أو كان نرجس جميلاً حلوًّا كما تصفه !

« قالت الأزهار ومن ذا الذي يعرف جماله ان لم تعرفيه ؟ لقد كان يمر بنا ولا ينظرلينا ، ولكنه كان ينحني عليك ويدمن النظر اليك . وفي مرآة مائذ العجميل كان يستجلب عينيه جماله هو في تلك المرأة .

وعادت البركة تقول : « ولكنني أحببت نرجسًا اذ كان ينحني على حافتي وينظر اليّ . لأنني كنت أنظر الى عينيه فأرى جمالي متجلباً في تينك العينين » ..

\* \* \*

وما كان وايلد الا ناظراً في أعماق سريرته حين لمح بواطن النرجسية فلم يلمحها في نرجس وحده ، بل لمحها في البركة معه ، فإذا هي نرجسية متقابلة بمرأتين ..

هذه هي النسخة العصرية من أبي نواس ، وتمامها أن أوسمكار وايلد كان يتصل بالجنسين ، وكان متزوجاً وله ولدان.

وأتم من ذلك في المشابهة أن أوسمكار وايلد لم يكن يدمن الخمر كما يدمنها أبو نواس . وهذا على دين التحدي بالاباحية هو المقصود فأن تحريم الخمر لم يبلغ في مجتمع وايلد تلك الشدة التي بلغها في مجتمع أبي نواس ، فلا إثارة في اعلان حبها هنا كالإثارة التي يتعتمدتها أبو نواس في اعلان حبها هناك ..

## الجنس والنفس

أشرنا قبل ختام الفصل السابق الى فعل الغدد في التفرقة بين الأمزجة ، والى آثارها المرجوة في علاج أمراض النفس والجسد مع تقدم العلم بأسرار كل منها على حدة أو على التعاون بينها وبين الغدد الأخرى .

وكل ماعرفه العلماء حتى اليوم من الأسرار لا يعدو أن يكون مقدمة وجيزة من كتاب ضخم متعدد الأجزاء والأبواب ، ولكنه على قلته ييدو كالخوارق التي لا تقبل التصديق لولا أنه محسوس مؤيد بالتجربة المتكررة ، وسينجلي من أسراره مع الزمن مايعلم المنكرين المتهججين كثيراً من الأنفة والروية قبل التهمج والانكار .. فان الذين استغربوا أسرار الروح بالأمس فأنكروها لغرائبها ليحارون اليوم بين تلك الغرابة وبين الغرابة التي تحيط بكل غدة من هذه الغدد في عملها المفرد وعملها المرتبط بغيرها . إإن أغرب الغرائب ليدخل في حكم المألوف اذا قيس الى هذه الغرائب ، وهي كما أسلفنا لما تجاوز مقدمة الكتاب ..

هذه الغدد تعمل معا كالفرقة الموسيقية التي يعطي كل منها اللحن الذي يناسبه ويناسب آلات الفرقة بآجمعها .

بل هي في تجاريها أدق من ذلك وأعجب .. لأن الآلة الموسيقية اذا اختلت في أداء لحنها لم تصلاح لها آلة أخرى . أما هذه الغدد فكل اختلال فيها تتصدى لاصلاحه غدة أخرى بعينها ، واذا اختلت غدتان في وقت واحد تعاونت الغدد الأخرى على تعويض عملهما ، وبادرت كل واحدة منها الى أداء مهمة لم تكن تؤديها قبل ذلك ، ولا يقع الاختلاط بين هذه المهام المتقابلة ، أو المتناقضة في بعض الاحوال ، الا اذا كان

الفساد قد عم البنية جميعها فلا يرجى لها صلاح .  
والمعروف من عملها حتى اليوم في توجيه الجنس وتحويل الأحوال  
النفسية يهول العلماء بما يرونه اليوم وما يتظرون غداً أن يروه ، ويحسب  
بعضه من الحقائق المقررة ويحسب بعضه الأكبر من الفروض والتأويلات ،  
بل من الظنون والتخمينات ، وهذه هي المرحلة الخطيرة في طريق هذا  
العلم الجديد .. لأنها توجب الحذر والاتباه ، وقد يفوت الأوان اذا توغل  
الباحثون مدفعين وهم لا يذرون ولا يتبعون .

لقد مضت القرون الأولى ودراسة « الجنس » مهملة أو مسكت  
عنها باتفاق العلماء والجهلاء على السواء ، وقد توافثوا جميعاً على  
السكتوت لأنهم لم يفلتوا بعد من أسر الطوطمية وتحريماتها ولا من وهم  
المتوهفين أن العلاقة الجنسية دنس معيب أو أنها وصمة مخجلة لمن يتحدث  
بها ولم يسمعها ولم يعنى بها ولو للعلم والعلاج .  
ثم اندفع العصر الحديث من الحظر الى الثرثرة بالجنس في الدراسات  
وغير الدراسات ، وأوشك الخطر من الافراط في القول أن يضارع الخطر  
من الافراط في السكتوت ، أو يزيد عليه .

وهذه كما أسلفنا مرحلة الحذر والاتباه ، يواجهها الباحث كما  
يواجهها القاريء والسامع ، وبخاصة حين تذكر أن كثيراً من البحث في  
هذه المرحلة ضرب من الظن والتخمين .

ووسيلتنا نحن في الحذر والاتباه ، أن نقسم أقوال الباحثين النفسيين  
في مسائل الجنس الى قسمين : ملاحظات ، وتعليلات أو تحريرات .  
فاما الملاحظات فالكثير منها مقبول مقصور على الواقع والمشاهدات .  
واما التعليلات فالكثير منها تخمين يجوز عليه ما يجوز على كل تخمين ،  
ولا استثناء في هذا الحكم لمذهب أحد من المتخصصين أو غير المتخصصين  
فما اتفقت مدارس التحليل النفسي على أساس واحد من أسس البواعث  
النفسية الكبرى ، فما الظن بغير الأسس من الفروع والتشعيب ؟  
وليس أشهر في هذه المدارس النفسية وما اليها من مدارس فرويد

Freud وونج Jung وأدلر Adler ورانك Rank وسليفان Sullivan

وهو وهي Prinzhorn Horney Fromm وبرنر هورن Prinzhorn وهم أقطاب النفسيين في القارة الأوروبية ولا نذكر النفسيين في إنجلترا وأمريكا لأن أقطابهم لا يتواضعون في علم النفس « السيكلوجي » إلى التطبيق وتحليل الأخلاق على مثال المدارس الأوروبية ، ولا سيما مدارس أوروبا الوسطى ، وأعلى ما ترتفع إليه هذه المدارس عندهم أنها بمناسبة المحاولات البوليسية للكشف عن الأمراض بدل الجرائم والجنایات ..

وإذا سألنا هذه المدارس عن الدافع الأكبر في النفس الإنسانية فماذا نسمع ؟ فهو الجنس ؟ فهو تغليب الشخصية ؟ فهو الفريزة الاجتماعية ؟ فهو الدوافع الوعائية ؟ فهو الدوافع غير الوعائية ؟ وهل هي موروثة أو مكسوبة ؟ وهل هي قابلة للتعديل قبل الولادة أو بعد الولادة ؟

إن الجواب عن كل سؤال من هذه الأسئلة خمسة أجوبة أو ستة لا تتفق مدرسة واحدة على أحدهما كل الاتفاق ، فضلاً عن الاتفاق عليها بين المدارس المتعددة . وربما ابتدأ الباحث منهم برأي في تجربة الأولى ثم عدل عنه إلى غيره في تجربة لاحقة ، ولا يستطيع في الحالتين أن يقول إنه يقرر « علمًا » قاطعًا باليقين ، منزهاً عن ظنون التأويل والتخيين ، وربما اتفقوا على الاصطلاح كما تتفق مدرسة فرويد فيما بينها على اصطلاحات أستاذها التي يطلقها على دوافع الوعي الباطن ودوافع النزعـة الحيوـية ، من قبيل الـيد hand والـلـيد libido والـذـات العـليـا Super-ego إلى أشباه هذه الاصطلاحات المختـرعة .. ثم يفسـرـونـها ويـشـرحـونـ محـورـهاـ الذـيـ تـدورـ عـلـيـهـ فـاـذـاـ هـمـ آـشـتـاتـ مـتـفـرـقـةـ فيـ التـصـوـيرـ والـتـعـلـيلـ ،ـ يـنـقـضـ أـحـدـهـ مـاـيـبـتـهـ زـمـيلـهـ ،ـ وـقـدـ يـنـقـضـونـ جـمـيـعـاـ مـاـأـثـبـتـهـ الأـسـتـاذـ عـنـدـ وـضـعـ الـاصـطـلاحـ أوـ عـنـدـ التـصـرـفـ فـيـهـ بـعـدـ الـمـراـجـعـةـ .

وأولى الأقطاب النفسيين بالعذر من تعليقاته وتميماته هو رائدتهم الأول سigmوند فرويد . وإنما كان الأولى بالمحاذرة لأنه الرائد الأول وفيه إلى جانب فضائل الرواد كل عيوب الارتياد ، ومنها الاقتحام .

فالفضل الذي يشكّر عليه فرويد لا نزاع فيه بين مؤيديه ومخالفيه ، فقد دخل بالتحليل النفسي في دور جديد لم يسبق إليه ، ولكنه وثب منه إلى تعليلات وتعميمات لا تستند إلى الواقع والمعلومات ، وقد بطّلها وتفنّدّها جميع الواقع والمعلومات ، كدعواه الأخيرة عن ارادة الموت في الإنسان ، وأتها ارادة كامنة فيه كارادة الحياة .

وقد بدأ فرويد عمله بالعلاج الطبي ، ثم عكف على دراسة الأعصاب واتّصل منها إلى دراسة الحالات النفسية وهو في نحو السادسة والثلاثين ، ثم بنى فلسفته في مسائل الجنس النفسية على أحوال العلاج أو على حجرة الاستشارة Consulting Room كما يقول نادوه .

وكان أستاذه في طب العلاج النفسي الدكتور بروير Breuer الذي نقل هذا الطب من تجارب التنويم المغناطيسي وشعوذاته إلى الإيحاء البريء من الشعوذة ، وكان معه الأول في علاجه على قاعدة «التسرية» أو رد الفعل التمثيلي Abreaction وهي تتلخص في البحث عن الصدمة العصبية التي أحدثت المرض ثم إعادة تمثيلها للمربيض بحيث يشعر بمنشأ العلة في نفسه ، وقد استمد هذا العلاج من الراحة التي يشعر بها الإنسان إذا رأى شكواه النفسية ممثّلة في قصة يقرأها أو ينظر إليها على المسرح ، فأصحاب في الملاحظة ولم يتّوسع في القياس .

ولكن فرويد زاد على الصدمة العصبية التي يعرفها المربيض أنه بحث عن صدمات الوعي الباطن والصدمات التي لا يعيها أحد ، فكان على بر الأمان وهو يتبع الأعراض المرضية في كل مربيض على انفراد ، ولكنه لم يلبث أن وثب من حجرة الاستشارة إلى العالم بأسره وإلى النوع الإنساني من أبعد نشأته ، بل إلى الكيان الحيواني ومن وراءه الكيان المادي الذي يخبط فيه فلاسفة ما وراء الطبيعة ولا يحسبونه في علم التجربة والمشاهدة ولا يستخرجون منه علاج الأبدان والأخلاق .

وحسبك حذراً من تعليلاته وتعميماته أنها تجعل الشذوذ أساس الحياة الإنسانية ، فكل إنسان مصاب بعقدة الأب أو عقدة «أوديب» المكتوبة ،

وكل انسان عرضة من جراء هذه العقدة للقلق في بيته النفسية وعلاقاته الخارجية ، وليس العقائد والشعائر والعبادات والفنون الا تعبيراً عن هذا القلق أو دفاعاً عن النفس أمام طغيانه في داخلها وخارجها .  
عقدة أوديب هذه ماهي ؟ وفي أي عصر كان الانسان الهمجي براء من كيتها ؟ ..

ان عقدة أوديب Oedipus Complex هي غيرة الابن من أبيه على أمه وتقابلاها عند المرأة عقدة الكتر Electra وهي غيرة البنت من أمها على أبيها ، ويقول فرويد أن هذه العقدة ترجع الى أيام قيادة القطيع ثم قيادة العشيرة ثم كفالة العائلة ، وفي هذه الأدوار يوجد ذكر واحد — وهو الأب — مستثاراً بجميع الإناث في القطيع أو العشيرة أو العائلة ، وتنجم نزعات الانحراف الجنسي بين سائر الذكور ، كما تنجم بينها المؤامرة على قتل الأب تخلصاً من احتكاره للإناث ..

هل شوهدت حالة من حالات الجماعات الإنسانية كانت سابقة لهذا الكبت المزعوم ؟ هل توجد الآن حالة كهذه بين الجماعات الهمجية التي تقاس عليها الجماعات البدائية في الأزمنة السحيقة ؟ وان كان هذا التطور معروضاً في القدم فكيف عرفناه ؟ هل وجد بين جماعات الحيوانات مثال لهذه النوازع يتأنى لنا أن نشاهد ما يقاس عليه ؟

من المحقق أن كل ما شوهد ويشاهد من أطوار الجماعات الإنسانية أو الحيوانية لا يسمح بهذه الوثبة الطويلة الغريبة في التعليل والتعميم ، على أن الوثبة انطولوجية الغريبة لم تتفق عند أطوار الإنسان الأول أو الحيوان الأعمى ، بل جاوزتها بعيداً جداً الى ما وراءها فاستخرجت من أطوار المادة «غير العضوية» ما يسميه فرويد غريزة الموت ويقاد يحصر فيه كل دفعه لا تحتويها الغرائز الجنسية .

ففي طوبية الانسان — على رأي فرويد — دوافع ضارة به تهيء له طريق الموت من حيث لا يشعر ولا يريد ، ومرجع هذه الدوافع حنين المادة في كيانه الى حالتها الأولى قبل الحياة ! ..

هذا ضرب من التعليلات التي تنقض الحس والعلم والمشاهدة ولا يعززها اللفظ في عبارة فرويد نفسها اذا أراد أن نفهم من اللفظ أصدق معانيه ..

فهل فارقت المادة في الجسم الحي شيئاً من خصائصها «غير العضوية» حتى يقال إنها تحن الى معاودته ، وأن حنينها الى معاودته هو الذي يسمى بغريرة الموت .. هل فارقت قانون الجاذبية ؟ هل فارقت قوانين اللون والاضاءة ؟ هل فارقت قانوناً واحداً من قوانين الطاقة سواء نظرنا الى الطاقة الحيوية كأنها طاقة مادية أو طاقة روحانية ؟

الواقع أن المادة تحافظ على خصائصها هذه مع قوة الحياة كما تحافظ عليها مع كل قوة ، وينبغي أن يقال اذن إن غريرة الموت تعم الكون كله مادامت للمادة هذه المقاومة أو هذا القصور الذاتي مع كل طاقة . فمن أين جاءت الطاقة التي لا تحتويها المادة ؟ والى أين تنتهي اذا نحن ذهبنا تنخط في هذه التعليلات والتعيميات .

انت لا تستطيع في هذا العصر أن نصف المادة حتى «بالقصور الذاتي» الذي يعزلها عن الطاقة ، ولا تستطيع أن تقول إنها ذات طاقة تريد مالا تريده الحياة ، ولو كان معنى الارادة المقصود أنها تطير قانوناً لافكارها من طاعته فلا تستطيع أن تفهم غريرة الموت على أي معنى من معاني فرويد ومدرسته وكل معنى تفهمه قد يصدق على المادة التي تحيط بالجسم الحي والمادة التي تكمن فيه .

أقل ما يقال عن هذه التعليلات والتعيميات أنها لم تثبت حتى يسوغ لنا أن ثبت ما يقوم عليها ، وغاية ما تنتهي اليه أنها خواطر موحية توميء الى مواضع البحث والمناقشة ، وتتفرق الى كل مفترق حتى يختار منها الناقد ما هو أحرى بالاتباع .

فمن أراد أن ينظر فيها على أمان فلينظر اليها كأنها ضرب من الحدس لا يزال يتعدد بين الافتراض والاحتمال ، ولি�أخذ به على حسب اقترابه من المعرفة العلمية في تجارب الفرد وتطور الوظائف الجنسية .

ونسيمها المعرفة العلمية عمدًا للتمييز بينها وبين العلم المقرر ، اذ لم تبلغ المعرفة بالعدد وتطور الجنس مرتبة العلم المقرر الذي تتفق عليه جميع المذاهب وتتساوى تجاربه في كل حالة ، وليس من السهل أن يرتفع إلى هذه المرتبة في مدى هذه السنوات القصار ، لأنه متعلق بحياة الحيوان والانسان ولا يسهل ضبط الملاحظات على نمط واحد في جميع الاحياء . ومن المعرفة العلمية العامة أن الغدد الصماء وثيقة العلاقة بتكون الجسم وتكون وظائفه الجنسية على الخصوص ، وهي الغدة النخامية والغدة الصنوبرية في الدماغ ، والغدتان الدرقيتان والشبيهتان بالدرقيتين في الرقبة ، والغدتان السعريتان في أعلى الصدر ، والغدتان الكظريتان فوق الكليتين والخصيتين في الرجل والمبيضان في المرأة . وليس من غرضنا في هذا السياق أن توسع في شرحها وبسط وظائفها وإنما نكتفي بالمعلومات الحديثة عن كل منها فيما يتعلق بالوظائف الجنسية والأطوار العاطفية أو النفسية .

فقد كان المنظور قبل هذه الكشوف أن الخصيتين والمبيضين هي الغدد الجنسية دون غيرها في جسم الرجل والمرأة . فتبين بعد مراقبة الانسان واجراء التجارب الكثيرة على الحيوان أن الغدة النخامية ذات أثر كبير في تكوين خصائص الحي ومنها خصائص الرجولة والأنوثة .

### الجنس

فال�性ية تفرز الخلايا المنوية والخلايا البنينة Interstitial المعروفة باسم خلايا ليdig Leydig وهي التي ترتبط بها صفات الرجل الثانوية ، فيشبه الرجال في بعض الصفات ويشبه النساء في صفات أخرى على حسب افراز الخلايا البنينة (١) وهي تتلقى التنبية بافراز من الغدة النخامية وتتوقف سلامتها على سلامة هذه الغدة .

(١) كتاب الغدد الصماء Endocrinology تأليف ويلر Werner .

وتبين من تجارب الدكتور ستيناخ Steinach أن وقف الخلايا المنوية يضاعف إفراز الخلايا البيانية ويجدد العيوية .

ومن تجارب الأستاذ زوكمان Zuckerman أستاذ التشريح بجامعة برمجهام أن الطيور وسائل الحيوانات التي يراد تأخير مواسم الولادة عندها تغير مواسم العمل عندها بمقدار ما تعرض له من النور ، وأن التجارب المتكررة أظهرت أن هذا التأثير يسري من غددها النخامية إلى غددها التناسلية ، وينقطع أثره في الأحيان التي تستحصل الغدة النخامية منها ..

وإذا أفرط عمل الغدة النخامية تضخم الجسم وأصابه المرض الذي يسمى بمرض الأفراط النخامي Hyper-pituitarism فتطول العظام وتمتد القامة نحو ثمانى أقدام .

وتعاون الغدة الدرقية والغدة السعترية على ائماء الجسم الى سن المراهقة ولكن الغدة الدرقية موكلة بنمو التطور والغدة السعترية موكلة بنمو الجسم والبدانة . فإذا حقنت الشفدع ( فرخ الصندع ) بافراز الغدة السعترية كبرت وتضخمت وهي على شكلها ، فإذا حقنت بافراز الغدة الدرقية تطورت وتحولت الى ضفدع وهي على حجمها .

ويحدث عند ضمور الغدة الدرقية أو إزالتها مرض التوقف العقلي والبدني Cretinism فلا يتقدم المصاب به من حالة الطفولة العقلية أو الجسدية ..

ويفهم من هذا أن النمو مرتبط بالفداد جميعها ولا يرتبط بالفداد الجنسية أو التناسلية وحدها .

ولابد من استمرار الغدة الدرقية في أداء وظيفتها قبل المراهقة وبعد البلوغ وتمام النضج في الجنسين . أما الغدتان السعترية والصنوبرية فتنموان إلى سن المراهقة ، ثم تسلمان الجسم إلى عمل الغدة التناسلية التي تبدأ في تلك السن وظيفتها المولدة .

وشوهد فعل الغدة الكظرية في الصفات الجنسية ، فتبين أن الطفل

الذي تختل غدته الكظرية قبل الولادة يصاب بحالة شبيهة بحالة الجنس المشكّل *Pseudo-hermaphroditism* الذي يتميز فيه الجنسان بعض الصعوبة ..

أما إذا اعتبره الخلل بعد الولادة فقد تميز فيه صفات الجنس وتصاحبها سرعة المراهقة ، فتظهر ملامح الذكورة أو الأنوثة في الخامسة أو السادسة ..

وقد تصاب الغدة بعد سن المراهقة فينبت الشعر على جسم المرأة وينتشر صوتها وتشتد عضلاتها.

وقد بسط بروستر Broster في كتابه « غلاف الغدة الكظرية » أحوال نحو عشرين فتاة أصبن في غلاف غدتين الكظرية فقللت أصواتهن وتقطعت بطنوهن بالشعر وأشبه البظر عندهن شكل الذكر الصغير ، ولا يلزم في جميع هذه الأحوال أن تغير أطوارهن الانوثية ، وقد يشفى غلاف الغدة ويختفي ورمها فتزول هذه الأعراض وتعود الفتاة إلى أنوثتها.

ويشاهد على وجه التقرير أن الم渥اطف والأحساس ترتبط بأعمال الغدة الكظرية ، وأن أعمال الدماغ ترتبط بالغدة الدرقية وأن تكوين العضل يرتبط بالغدة النخامية .

أما الغدة الصنوبرية فعملها مهم جداً ولكنها لم يتميز من عمل الجزء المقارب لها من الدماغ Hypothalamus فلا يتيسر الآن على سبيل اليقين أن يعرف أي هذه الآثار من فعلها وأيها من فعل الدماغ كله .

ويذكر للفيلسوف ديكارت على سبيل الاعجاب بيداهه الفلسفية أنه أدرك شأن هذه الغدة قبل ثلاثة قرون ويخطر له أنها مركز القوة الروحية وعزز هذا الخاطر عنده أنه رأها الغدة المفردة دون غيرها بين عقد الجسم كله ، ويعترض عليه المحدثون بأنفراد الغدة النخامية ، فيرد عليهم أنصاره مشيرين إلى انقسام الغدة النخامية كأنها غدتان .. !

وكل غدة من هذه الغدد الصماء تفرز في الدم مباشرة مادة خاصة بها يطلق عليها اسم الهرمون من الكلمة هرماؤ Hormao اليونانية بمعنى التنبيه أو التحرير ، وكل هرمون من هذه الهرمونات يؤثر في الهرمونات الأخرى ويتأثر بها ، ولا ينحصر تأثيره في مفرزات الغدد الصماء دون غيرها بل يسري إلى الغدد الأخرى للتعاون تارة والمقاومة أو التعويض تارة أخرى وقد لاحظ الأستاذ هوسي Houssay من بونيس ايريس بالأرجنتين أنه عند استئصال البنكرياس والقعدة النخامية معًا من جسم الحيوان لا تنشأ من إزالتهما الإصابة بمرض السكري كما تنشأ من إزالة البنكرياس وحده (١) ولوحظ مثل هذا التجاوب بين الغدد التي تفرز هرموناتها في الدم مباشرة كالصماء أو تفرزها بالواسطة كالغدد الأخرى .

ودللت مراقبة التوالد في الكائنات الحية على أن هذه الغدد تبدأ في الظهور مع انقسام الجنسين ، ولا تميز خصائصها كل التمييز في أنواع الأحياء التي تميزت فيها الذكورة والأنوثة .

وهنا ينبغي أن نذكر أن الأحياء توالدت قبل أن يكون فيها جنسان متميزان ..

فالالميا Ameba مثلاً — وهي حيوان من خلية واحدة — تتولد بالانقسام ، فتنشق الخلية شقين ينمو كل منهما حتى يستوفي نموه ثم ينشق مثل هذا الانشقاق ..

ويتم التوالد في أحياء أرقى منها بالتنوع أو الإزهار تشبیهًا له بتنوع الكم من فرع الشجرة فإذا أدرك الحيوان سن الولادة شوهد على ظاهره تنوء يكبر حتى ينفصل ويستقل بكيانه ، ويجرئي السؤال على هذا النحو في الأحياء التي تتعدد خلاياها ومنها بعض ديدان الماء والطحالب .

(١) الغدد التي في داخلنا تأليف جون إيلنج .  
« The Glands Inside Us »، by John Ebling.

## التوالد

ويتم التوالد في أحياء أرقى من الطحالب بالطريقة الجرثومية *Polysporogonia* أي بانعزال بعض الخلايا داخل الجسم وتطورها حتى تشابه جرثومتها الأصلية ، ثم تخرج من جسم الحيوان كالجذن من الرحم ، وتأخذ في النمو ثم التوالد على هذا المثال ، والحيوانات المرجانية والدودة المشعبة من هذا القبيل ..

ويلي هذا التوالد الجرثومي توالد متوسط بين هذه الطريقة وطريقة الحيوان ذي الجنسين ، ويسمى البوغية أو الفبارية *Sporogonia* ويجري التوالد فيها بانعزال خلية واحدة من الجسم تبدأ بالنمو بعد انعزالها وتتعدد خلاياها وهي في جسم واحد حتى تشابه أصلها الذي نشأت فيه ، وهذه الطريقة شائعة في بعض الفصائل من النباتات السفلية.

ويلي الطريقة البوغية طريقة تسمى بالتوالد العذري *Parthenogenesis* ويکاد يحسبها بعضهم نكسة من طريقة أرقى منها .

فتتولد من الحيوان جرثومة قابلة للنمو بغير تلقيح ، وهي نفسها قد تلقيح فيختلف النتاج ، كما يحدث في جراثيم النحل الذي تنمو خلاياه غير الملتحمة فتصبح ذكوراً وتنمو خلاياه الملتحمة فتصبح إناثاً ، ولا يبقى النوع بغير هاتين الطريقتين .

ومن الأحياء الطفيليية ما يجمع بين الذكورة والأنوثة ، ومنها ما يجري التلاقي فيه بين حيوانين كل منهما لاقح وملقوح ، كالدودة التي تسمى دودة الأرض *Earthworm* والقوقة الحلزونية *Snail* وأعلى من هذه الطبقة قليلاً حيوانات تتناوب الذكورة والأنوثة موسمياً بعد موسم ، فالمحار *Oyster* أنثى ويصبح ذكراً في موسم تالي ، وقد يرتد إلى الأنوثة في موسم يليه ..

والطبقة التي تعلو على هذه الطبقة هي طبقة التوالد من جنسين يستقل كل منهما بوظيفة لا يؤديها الجنس الآخر . والمسافة شاسعة جداً بين أدنى

الحيوانات من هذه الطبقة وبين الانسان ، ولكن الانسان مع هذا لا يزال محتفظاً في كيانه بأصول التوالد في طبقات الاحياء ، ويوجد في شبك المبيض مثلاً جزء كخصية الرجل ولا يقال فيه إنه الجزء المقابل للخصية وحسب ، ويصح أن يقال بعبارة أخرى أن كل أتشي تطوي في لباب المبيض « مشروع » خصية (١) قد ينمو حتى يعمل عمل الخصية في الذكور ويفير أطوار المرأة في صفات الجنس الثانية .

ويؤخذ من شواهد متكررة أن مبيض الاشني يفرز الهرمون المذكر المسمى بالاندروجين Androgen كما يفرز الهرمون المؤثر المسمى بالاستروجين Estrogen . ومن التجارب في الحيوان أن الدجاجة التي يستأصل مبيضها يضم عرقها ولا تعود إلى النمو الطبيعي الا اذا أفتحت بالاندروجين دون الاستروجين ، مما يفيد أن مبيض الدجاجة لا غنى له عن افراز الاندروجين لاستقامة كيانتها .

ويحتاج الذكر كما هو معلوم الى وقت للنضج واستيفاء كيان الرجلة أطول من الوقت الذي تحتاج اليه المرأة ، فينضج الشاب في نحو العشرين وتتضاجع الشابة في نحو الثانية عشرة فإذا ألقح الحيوان بهرمون المرأة — أي الاستروجين — بكرا نضجه والتجمت كراديس ججمته Epiphyses قبل الأوان ..

والمعلوم أن الذكر في الحيوانات الفقارية أجسم من الاشني فإذا خصي الذكر والأشني من صغار الحيوانات فالخصي يعطّل نمو الذكر ويعجل نمو الاشني ، كأنما هرمون الاشني يعطّل النمو فإذا غاب نما الجسم واذا بقي أبطأ نموه . ويجري العلماء هذه التجربة على نحو آخر . اذ يلقوهن ذكور الجرذان واناثها بالاستروجين فيتعطّل نمو الذكور والاثاث (٢) .

كذلك يحدث تضخم البروستاتة في الشيخوخة لنقص افراز هرمون

(١) تقرير نوناك ولونج عن اورام المبيض وعلاقتها بالغيرات الجنسية الثانية  
Ovarian Tumours Associated with Secondary Sex Changes by Novak and Long.

(٢) « الفردد التي ف داخنا » تأليف جون إبلنج  
« The Glands Inside Us », by John Ebling.

الذكر ، أي الاندروجين ، وزيادة افراز هرمون الاشئ ، أي الاستروجين. ويشاهد على الأغلب أن أثر الاندروجين في عموم الجسم أقوى من أثره في جهاز التناسل مباشرة ، فإذا نقص نقصت في الرجل صفات الذكورة الثانية وإن لم يضعف جهازه التناسلي فتغلب عليه بعض أطوار الانوثة ولا تعطل قدرته على التوليد.

ومن هذه المشاهدات المترکرة يجتمع ذوق التجارب إلى القول بأن غياب أطوار الرجولة يبرر أطوار الانوثة ولا يحدث عكس ذلك ، أي أن غياب أطوار الانوثة لا يعطي الرجل صفات جنسه النفسية أو الجسدية.

وأيًّا كان مقطع الرأي في هذه التجارب فالثابت من أطوار الصبغيات والnasals أن أنوثة الجنين مطردة حيث يغيب الصبغي الذي ينفرد الذكر بافرازه ، وأنه حيث يوجد هذا الصبغي يكون الجنين ذكرًا على الدوام .

فمن عجائب الخلقة أن الخلايا المولدة التي تصل إلى رحم المرأة تبلغ نحو مائتي مليون خلية . كل خلية منها تحتوي على أربعة وعشرين صبغة وكلها متشابهة إلا بعض صبغيات الذكر ، فإن الصبغي الرابع والعشرين منها يشتمل على خلية واحدة ذات جزئين مختلفين ، ولا يأتي هذا الاختلاف إلا على النسبة التي يتعادل بها عدد الذكور وعدد الإناث في النوع الإنساني بوجه التقرير ..

وأعجب من ذلك أن هذا الصبغي Chromosome يعين جنس المولود ولكنه لا يعين الطبائع الموروثة ، بل يرجع توريث هذه الطبائع إلى النسلات genes فتنتقل إلى بعض الذرية ولا تنتقل إلى بعضها ، لأن النسلات تتزاوج وتتلاقى نسلات الأب ونسلات الأم . ويختلف الولدان من ثم في الذرية الواحدة ولا يندر أن يكون الذكر وارثًا لصفات أمه وأن تكون الإناث وارثة لصفات أبيها ، بل لا يندر أن تكون الصفات الموروثة منقوله من الأجداد والأسلاف : صفة من الجد الأبوي وصفة من الجد الأموي ، وكلتا الصفتين قد خفيتا في الأب والأم على السواء .

وكثيراً ما يirth الولد استعداداً تحول البيئة دون ظهوره ، ولكنه

لا يكسب في البيئة خلقاً لم يكن على استعداد له بتكونيه .  
وقد تقدم أن الصبغيات في النوع الانساني أربعة وعشرون أحدها هو الذي يعين الجنس فينمو الجنين ذكراً أو أنثى على حسبه ، ويبقى ثلاثة وعشرون صبغياً تعمل في تكوين الجنين ، فهذه الحقيقة يبني عليها بعض العلماء رأياً قوياً في تعليل الوراثة المختلفة ، ويسمون هذه الصبغيات بالمستقلة أو الذاتية *Altosomes* تمييزاً لها من الصبغي المختص بتعيين جنس المولود ، ولم ينكشف بعد من مراقبة مواليد الانسان ما يكفي للجزم برأي في علاقة هذه الصبغيات الثلاثة والعشرين بوراثة الأخلاق والمزايا لأن التجارب على الحيوان لا تصلح للقياس عليها .

ولكن العلماء يتبعون البحث على هذه الخطوط الواسعة أملاً في الوصول الى تعين عمل الصبغيات جميعاً في نقل الأخلاق والخلال الموروثة ، وهو بحث عويص محفوف بالمجازفات والصعوبات ، ندرك شيئاً من صعوباته كلما أحضرنا في خلتنا دقة النسلة التي تعد بمئات الملايين في افراز الغدة الواحدة ، وتحمل فيها ما ظهر وما خفي من خلائق الآباء والأجداد من طرف الأبوة والأمومة الى أجيال لاندرك أولها في القدم ولا نهايتها في المستقبل . ومن المجازفة الشديدة أن يتصدى أحد — بالغاً مابلغ علمه — لمحاولة التعديل في مثل هذه النسلة الدقيقة حتى يمحو منها خلقاً أو يسويه من عوج الى اعتدال .

### الفوارق بين الجنسين

وبعد فهذه عجالة توخيانا الالمام فيما بما هو ضروري من المعرفة العلمية من أعمال الغدد وتطور الوظائف الجنسية ، فما هي التبيبة التي تنتهي اليها ؟

انها لا تنتهي بأية حال الى تهوين الفوارق بين الجنسين ولا الى زعم الزاعم أن الانسان مزدوج الجنسين *Bisexual* مختلط الذكورة والانوثة بطبيعته ، وان الشذوذ الجنسي فيه فطرة عامة تتخذ اطوارها على حسب

العمر من الطفولة الى تمام النمو في الجنسين ، كما يقول فرويد ومتبعوه . ان النتيجة التي تنتهي اليها بحوث المختصين بتطور الجنس لا تنتهي الى هذه النتيجة ، بل تنتهي الى نتيجة تناقضها ، وهي ان الفوارق بين الجنسين تتعدد وتتنوع وتتشعب حتى لا يكفي لتعيينها جهاز التassel وحده ولا بد معه من دلائل أخرى تنطوي فيها وظائف العدد وسائر اطوار البنية ..

وإذا كانت هذه الخصائص لا توافر جمیعاً في بنية واحدة فهذا شأن جميع الخصائص في كل تركيب من تركيبات الاحياء أو الجماد فلا يوجد انسانان ولا شجرتان ولا حجران على مثال واحد ، ولا يلزم من ع soma المادة الكربونية مثلًا ان الفحم والماس والسكر أشباه لا فوارق بينها في جميع المزايا والقيم والاغراض .

وللنوع الانساني ولا شك خصال عامة يشتراك فيها الجنسان ولكن التطور الجنسي لم يتقدم هذا التقدم ليتشابه الجنسان في النهاية وإنما تقدم الجنس لتظهر بينهما الفوارق الالازمة ، ويبيّن كل منها بعد ذلك انسانًا فيما عدا هذه الفوارق لأنها لا تخرج الذكر من انسانته ولا تخرج الاشي من انسانتها ولن يكون النوع الذي يتميّز اليه نوعاً واحداً اذا اختلافاً في كل شيء .

وقد وجدت حالات من الشذوذ الجنسي لا شأن لها بالخصائص الموروثة ومرجعها كلها الى العوارض الاجتماعية أي العوارض التي تطرأ بعد الولادة ..

فالذين راقبوا الشذوذ الجنسي في الحيوانات وجدوا انه يعرض للقردة والكلاب وبعض الطيور كالحمام . ولكنه لا يعرض لها الا في غيبة الاناث وحين يتربى الذكور من هذه الحيوانات في مكان واحد تعزل فيه ولا تظل على شذوذها بعد اختلاطها باناثها .

والذين راقبوا الشذوذ الجنسي في القبائل البدائية وجدوا كذلك أنه

يعرض للناشئين وهم منعزلون في المزارع والغابات ، ثم يتبعونه بالسخرية والاشمئاز ..<sup>(١)</sup>

وهذه هي العوارض التي يتخذها بعضهم شاهدًا على النزعة الفطرية في الشذوذ الجنسي لأن الحيوانات والمجتمع يباشرونه كأنما كانت استقامة الفطرة وفقًا على الحيوان والمجتمع المختلفين عن المدينة.

وقد درست في عواصم المدينة أحوال الشواد المحترفين فلم يوجد بمعظمهم شذوذ في تكوين البنية ، ودللت دراستهم وفحصهم على أنهم يحترفون البغاء طمعًا في الكسب ولا ينقادون للغواية بداعف فطري من النزوة الجنسية ..

وتُفعل البواعث النفسية فعلها في حالات شتى من الشذوذ الجنسي الذي لا يقبل التعليل بغيرها ولا يتأتى خلوه منها ، اذ لا يخفى ان الصلة بين الرجل والمرأة لا تقوم على الوظيفة التناسلية بمفردها ، بل تسبقها في المجتمعات المتحضررة ومجتمعات البداوة أحياناً أسواق نفسية ومطالب اجتماعية ، فيجوز أن يكون الرجل سليم البنية ولكنه لا يروق المرأة ولا يثير شعورها أو يستولي على عواطفها ، ويجوز انه يشعر بذلك فيحجم عن طلب المرأة هرباً من المهانة وألم الخيبة ، ويجوز أن يحسن من نفسه ضعفاً فيتجنب الصلة التي تخجله أمام شريكه ، ويجوز أن ينفر من امرأة واحدة ذات شأن عنده ، أو ينفر من امرأة واحدة أضرته واحتقرها أو احتقرته فيسحب احتقاره على جميع بنات جنسها ، ويجوز أمثل ذلك كثير من علل الشذوذ الجنسي الذي ينفر صاحبه من المرأة ولا يمكن أن يخلو من البواعث النفسية .

فإذا قيل مثلاً ان الناشيء الذي نقصت وظائف الرجولة عنده يتشبه بالنساء وينقاد لشهوات الرجال ، أو قيل ان الناشئة التي جارت فيها هرمونات الذكورة على هرمونات الانوثة تتشبه بالرجال وتتعشق بنات جنسها ، فكيف يمكن أن نعمل بعلة الهرمونات حالة الناشيء الذي لا يحب

(١) النمو في حالة الجديدة بالياف مرجعيت مين .

Growing up in New Guinea by Margaret Maine

المرأة ولا يميل بعاطفته الجنسية الى غير أبناء جنسه ؟ ان زيادة الهرمونات المذكورة خليةة أن تصرفه الى الافراط في حب الاناث ، وإن نقصها خلقياً أن يلحقه بالمتاثرين : أما الرغبة الجنسية التي تقيد الرجل بأبناء جنسه فليس لها تعليل معقول من قبل الهرمونات ولا بد من الرجوع بها الى الحالات النفسية والعادات العارضة ، سواء نشأت من ظروف المجتمع أو من البيئة المنزليّة في نطاقها المحدود .

وقد أحصى هرشفيلد Hirschfield وستيكل Steckel وستيناخ Steinack وغيرهم حالات كثيرة يعزى النفور فيها من المرأة الى علل نفسية ولا ارتباط لها بفعل الهرمونات وما اليها ..

احدى هذه الحالات حالة فتى كان يحب أمه حب العبادة ثم ماقت فوقع في صندوقها على رزمة من الأوراق قرأها فوجد أنها رسائل غرامية ، وعلم منها أن أمها كانت تخون أباها وتخون عشاقها وأنهم كانوا يتبدلون في الكتابة اليها عن أ方言ين الرذيلة التي كانوا يقتربونها منها ويستعيدون ذكرها ..

واحدى هذه الحالات حالة فتى أصابه المرض من امرأة يهواها وغيرها حالة فتى أذلهه فتاة وصدمته في كبرياته فجعل يتمثلها في كل فرد من بنات جنسها ، وأشباه ذلك حالات تحصى بالمئات .

فمن السخف أن يقال — اعتماداً على المعرفة العلمية في مسائل العدد وتطور الوظيفة التناسلية — أن هذه المعرفة أثبتت أن الشذوذ الجنسي طور من أطوار العمر كما هو مذهب فرويد وشيعته ، أو أن الشذوذ الجنسي جنس ثالث مستقل بين الذكورة والأنوثة كما هو مذهب هرشفيلد وطائفة من تلاميذه ، وكل ما يصبح بعد هذه المعرفة العلمية في العصر الحديث أن الشذوذ الجنسي قد يرجع الى أصل في البنية ، وأنه قد يرجع الى علل نفسية أو عوارض اجتماعية ، ويجزم طبيب من أقطاب النفسيين الجنسيين بنفي العلل البيولوجية . ويقصر علل الشذوذ كلها على الصدمات العصبية والعادات المكتسبة . وهذا الطبيب هو ولهم ستيكل الذي كان

مديرًا للكلية الطبية بجامعة فيينا ، وصاحب التواليف المعتدة في العلاج النفسي والتحليلات النفسية وأشهرها كتاب « الأمراض العصبية في الشواذ » The Homosexual Neurosis وكتاب « حب الجنس المزدوج » Bisexual Love وهو موضوعان لنفي العلل البيولوجية الموروثة واثبات العلل النفسية والعصبية بالأمثلة المستمدة من تجاربه الشخصية .

وقد سجلت الاحصاءات التي أشرف عليها لجان العلماء المسؤولين من خولوا درس هذه المسائل في الجامعات والمدارس والمستشفيات والحقول والمعاهد المزدحمة بأفراد الجنسين أو أفراد الجنس الواحد ، فدللت هذه الاحصاءات على أن نسبة الشوادع مدى الحياة لا تزيد على أربعة في المائة ، وأن الحالات التي تعرض بعض الناس للشذوذ الجنسي قد ترعرع أمثالهم للاتصال بالحيوان ، وأن الوسائل المصطنعة في العواصم تشجع الشذوذ ومنها البئر والمباءات التي يديرها طلاب الكسب ويتردد عليها طلاب الاستطلاع من تستهويهم تجربة اللهو حيثما اطلقوا منه على لون غريب ، ولا نظير لهذه البئر والمباءات في القرى الصغيرة فهي لذلك قليلة الشوادع بين أبنائها وبناتها بالنسبة إلى العواصم الكبرى (١) .

ويترجح معظم العلماء في تقرير القواعد والمواصفات التي يسوقونها مساق العزم واليقين في هذه الأمور فلم يسلم من الملامة أمثال جريجوريو مارانون الإسباني Gregorio Maranon لأنه سرد في بحثه العلمي عن تطور الجنس Evolution of Sex أشباهًا وللامتحن زعم أنها تلازم الشوادع تميزهم من غيرهم ، وربما شملت هذه الملامة أناسًا من أجل الاستاذة الموقرين بين تلاميذهم ومربيديهم من طبقة هرشفيلد وسييناخ المتقدم ذكرهما ، أو طبقة العلامة الفرنسي أندريله تريدون André Tridon صاحب كتاب التحليل النفسي والأخلاق لأنه زاد عليهم فعم الحكم على طائفة كاملة لا تجمع بينها ملامح خاصة بل يجمعها اليتم أو فراق الآبوين .

(١) السلوك الجنسي عند ذكور الاتساع تأليف الدكتور كينسي وزملائه .  
Sexual Behaviour in the Human Male, by Kinsey and Others.

فمثل هذه التعميمات ، في الحق ، تهجم لامسوغ له من العلم ولا من أدبه ، ولستنا نقصد بهذا أن الشواد مجردون من الملامح والخصائص التي قد تدل عليهم ، ولكننا نقصد أنها قد توجد فيهم وفي غيرهم ، وقد تميز الشواد حين تفترن بدللات كثيرة تلتصق بهم مجتمعة ولا تميزهم متفرقة وسنضرب المثل على ذلك بهذه المياسم المتعددة حين تجتمع في شخصية « أبي نواس » ..

وينبغي أن ثوب إلى قسطاس مفهوم لا يعترض التفرقة بين العالمة الجسدية وهي عرض من أمراض الشذوذ الجنسي وبين هذه العالمة بعينها وهي لا تدل على مرض من أمراض النفس ولا تتعدى موضعها من البنية ..

فالنفسانيون متتفقون على أن العاهات النسبية إنما هي توقف في النمو أو احتباس له يعيق المصاب أن يستوفي نمو العاطفة أو الفكر أو الحاسة الاجتماعية أو وظائف البنية ، وتفترن بهذه العاهات أحياناً عالمة محسوبة أو عادة جسدية فانية . إلا أن هذه العلامات قد تكون موضعية فلا تدل على نقص مستتر ، كعثرات النطق مثلاً ، فإنها قد تدل على احتباس القوى الناطقة عند دور الطفولة فيظل الرجل طفلاً تلازمه عيوب النطق الناقص إلى سن الشيخوخة ، وقد تطرأ بعد تمام النمو فيلتحق الرجل في الخمسين أو الستين إذا سقطت ثنيايه ، ويتمتم أو يرت لسانه إذا اصطدم واختل جهازه الصوتي دون مساس بعاطفته وشعوره .

كذلك الطفل اليتيم أو الطفل الذي افترق أبواه وتربى مهملاً أو مدللاً في حضانة أم جاهلة لاهية ، فهو عرضة للشذوذ الجنسي إذا كان ضعيف المزاج في بيئه مغربية ، شبيهاً بالنساء في شماته وملامحه ، ولكنه قد يندفع إلى السطو والاجرام إذا كان قوي المزاج متغلباً على أقرانه ، وقد يسلم من الشذوذ والاجرام معًا وهو ضعيف المزاج مشابه للنساء إذا نشأ في بيئه بعيدة عن مغريات الرذيلة والجريمة ، أو كانت الرذيلة والجريمة في بيئته مما ينفر الطفل ويثير سخطه واشمئزازه ..

فالعلامات الجسدية وحدها لا تكفي لتبسيز الشواذ والدلالة على عاهات الأخلاق والطابع ، ولا بد منها من قرائن عدة تتناول البيئة في نطاقها المحدود وفي نطاق المجتمع الكبير ، وتأتي دلالتها حتمية قاطعة متى ثبت المرض وتجمعت أعراضه الأخرى .. أما قبل ذلك فهي دلالة ناقصة تسقط من كل تقدير صحيح .

\* \* \*

وسنرى عند تطبيق هذه العلامات على أبي نواس نماذج من الاعراض التي لا تدل على شيء حين تنفرد ولا تنقض دلالتها حين تجتمع .. فان اعراض البنية والتربية البيئية ونشأة المجتمع وأحداث العصر قد اجتمعت في حالته الخاصة دون سائر الحالات التي وجد فيها شعراء عصره ، فجعلته تلك « الشخصية النموذجية » التي تكاد لا تكرر في جيل .

## شخصية أبي نواس

والآن نستطيع أن تثبت من سيرة «الحسن بن هانئ» صاحب الشخصية النموذجية التي وجدت حقاً ولم يخلقها الوهم من تصورات السامعين به على حسب اختلاف الأوقات والأحوال.

وهذه الشخصية النموذجية غير شخصية «أبي نواس» .. هي شخصية «نرجسية» باصطلاح النفسيين المحدثين على أن تفهم «النرجسية» فيما يخالف تعليقات «فرويد» وتعيماته .. وهي تلك التعليقات والتعيمات التي لا يقرها أحد من نظرائه وأنداده ، ومنهم أناس ضارعوه في المنزلة العلمية والشهرة العالمية بعد أن تلمذوا عليه.

فليست النرجسية طوراً طبيعياً من أطوار العمر يمر به كل إنسان ولكنها آفة نفسية تولد مع صاحبها في رأي بعض النفسيين وتنشأ من التربية البيئية وعوارض المعيشة الاجتماعية في رأي آخرين ..

فمن الذين أنكروا تعليل فرويد لهذه الآفة العالم الفرنسي الدكتور رولان دالبيج Daubieг الذي عقب على مذهب فرويد بمجلدين ضخمين خلاصتهما أن فرويد لا يفرق بين منهج العلاج وفلسفة علم «النفسيات» وقد تناول دراسة الترجسية خاصة فقال في لمحجة حاسمة : «ولكن هل لدينا ما يسوغ الذهاب إلى أبعد من هذا المدى لنقول كما قال فرويد إن الترجسية درجة طبيعية في التطور الجنسي ؟ هنا لا تتردد في الإجابة عن هذا السؤال بالنفي ، فليس التطور الجنسي سلسلة متتابعة من الشذوذات وليس النمو الجسدي كذلك سلسلة متتابعة من

السوخات .. » (١)

(١) الجزء الثاني من كتاب دالبيج .  
Psychoanalytical Method and The Doctrine of Freud.

ومن معارضيه هرشفيلد المؤلف الموسوعي في النفسيات الجنسية ، وهو يتناول الترجسية في الفصل السادس من الجزء الأول من كتابه عن النفسيات الجنسية وهو كذلك ينكر أن الترجسية درجة طبيعية في التطور الجنسي ويردّها إلى فعل الغدد واختلاف تركيب البنية .

ومنهم الدكتور لوينفلد Lowenfeldt مؤلف كتاب « الجنسيات والأمراض العصبية » وعنه أن الترجسية ليست طوراً طبيعياً أو درجة طبيعية ولكنها انحراف يميل إلى الشذوذ الجنسي ويجري أحياناً في مجرى واحد مع غرام الترجسي بأبناء جنسه .

ومنهم الدكتور سادجر Sadger تلميذ فرويد الذي يخالف أستاذة ويوافق الدكتور لوينفلد في رأيه وتفسيره (١) .

ومنهم امام مدرسة مستقلة عن المدارس الاوربية وهو الدكتور ولیام مکدوجال ورأيه في كتابه « اجمال العلل النفسية » أن غرام الطفل بنفسه حالة غير حالة الترجسية (٢) .

ومنهم سيدة طبية (٣) تطبق العلل النفسية على الخصوص من الوجهة الأنثوية وهي الدكتورة كارين هورني Horney التي تقرر في كتابها عن الأساليب الحديثة في التحليل النفسي أن فرويد لم يفرق بين تعظيم النفس وتمديدها Self-Inflation وبين الترجسية بمعنى عشق النفس والتدلّل بها من الناحية الجنسية .

فالترجسية التي تتبع أعراضها في الحسن بن هانئ ليست حالة طبيعية تلاحظ على انداده وفي مثل عمره . ولكنها حالة منحرفة ولد بعض أعراضها وجاءته الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر الذي نشأ فيه وعاش فيه سائر حياته ، وهي حالة لا يشابهه فيها أحد من شعراء عصره ولم يخطيء معاشروه الذين أفردوه بها وأحسوا أنه هو دون غيره :

(١) يراجع المجلد الثاني من مجموعة الدكتور عائلوك اليـس بـاب الترجسية وفيه المام بهذه الآراء .

Outline of Abnormal Psychology . (٢)  
New Ways in Psycho-analysis . (٣)

تُملِّك «الشخصية» النموذجية التي طبعت بطبع واحد لم يتعدد في زمانه ولعله لم يتعدد على هذا النمط بعد زمانه.

ولقد توافقت الدلالات والاعراض على تمييز هذه الشخصية النموذجية فاجتمعت فيها دلالات التكوين ودلالات النشأة البيتية ودلالات المجتمع ودلالات العصر بحذاييره حيث عاش بين البصرة والكوفة وبغداد أو حيث عاش فترة من عمره في الديار المصرية.

وعلينا أن نقيم الفاصل الواضح بين هذه الدلالات في سيرة الحسن بن هاني، وبين هذه الدلالات بعینها حين تؤخذ متفرقة وحين تنفرد كل منها بالاستدلال على «شخصية مجهولة».

فالآفة هنا ثابتة والدلالات إنما تأتي بعد ذلك لتطبيقها واستخراج أسبابها ومراجعة هذه الأسباب على النشأة والبيئة.

فليست الدلالات هنا هي التي تهم الحسن بن هاني، وتقيم البيئة على اتصافه بأفته النفسية، ولكنها قرائن تتطلب التطبيق والمشاهدة بينها وبين الآفة الموجودة، فلا حرج من الاستدلال بها وهي متفرقة أو من الاستدلال بها وهي مجتمعة.

أما الاعتماد على أشباه هذه الدلالات لاثبات آفة غير ثابتة فهذا هو موضع الحرج والاناء، فان كلام منها قد يؤخذ على حدة فلا يدل على شيء وقد تجتمع معه فييقى الشك في حقيقة الارتباط بينها ومتقدار التتوافق في جوانب هذا الارتباط وتلaciقها حقاً على وجهة واحدة.

لهذا يجوز أن يعتمد الباحث على بعض الاعراض في دلالتها على هذه الشخصية ولا يجوز أن يعتمد عليها في سائر الشخصيات، ومرجع ذلك إلى ثبوتها مجتمعة ومتفرقة ثبوتًا لا خلاف عليه.

وبناءً بدلالات التكوين الجسدي كما جاءت في أوصاف لم يخالفها أحد من مترجميه ..

## التكوين الجسدي

قال ابن منظور في أخبار أبي نواس : « كان حسن الوجه رقيق اللون أبيض حلو الشمائل ناعم الجسم ، وكان في رأسه سماحة وتسفيط أي كان شعره منسدلاً على وجهه وقفاه — وكان أثخ بالراء يجعلها غينًا ، وكان نحيفا وفي حلقه بحة لا تفارقه .. »

وقال من سيرته مع والبة بن العباب « فرأى بدنًا حسناً ، وكان جليل الوجه وحسن البدن ، فأطار عقله ». »

وقال في سبب تسميته بأبي نواس : « سئل مرة أخرى فقال : سبب كنتي أن رجلاً من جيرانى بالبصرة دعا أخواناً له فأبطا عليه واحد منهم فخرج من بابه يطلب من يعشه إليه ليستحثه على المجيء إليه فوجدني مع صبيان ألعب معهم وكانت لي ذئابة في وسط رأسي فصاح بي . يا حسن امض إلى فلان وجيئني به ، فمضيت أعدو لأدعو الرجل وذئبتي تتحرك فلما جئت بالرجل قال أحسنت يا أبو نواس ، لتحرك ذئبتي ، فلازمتني هذه الكنية . »

وكان يعتز بفراهة بدنـه . قال أبو القشير : « نظمت الشعر وأنا غلام وأبو نواس غلام وكـنا جـمـيـعـاً نـضـرـبـ المـوـدـ وـكـنـتـ أحـسـنـ وجـهـاـ منـ أـبـيـ نـوـاسـ وأـبـوـ نـوـاسـ أـطـبـعـ مـنـيـ فـتـفـاخـرـاـ بـالـشـعـرـ وـغـيـرـهـ ، ثـمـ قـلـتـ لـهـ : أـنـيـ أـجـمـلـ مـنـكـ وـجـهـاـ ، فـقـالـ بـلـ أـنـاـ أـحـسـنـ مـنـكـ وـجـهـاـ وـأـفـرـهـ .. »

وكان لا ينسى ملاحظـهـ وـتـيهـ بـهـ وقد جـاـوزـ الشـبـابـ كـمـاـ قـالـ مـنـ شـعـرـهـ :

تـيهـ عـلـيـنـاـ أـنـ رـزـقـتـ مـلـاحـةـ فـمـهـلـاـ عـلـيـنـاـ بـعـضـ تـيهـكـ يـاـ بـدـرـ فـقـدـ طـالـمـاـ كـنـاـ مـلـاحـاـ وـرـبـمـاـ صـدـدـنـاـ وـتـهـنـاـ ثـمـ غـيـرـنـاـ الـدـهـرـ

وـتـكـادـ تـمـثـلـ لـنـاـ مـنـ هـذـهـ الـمـلـامـحـ صـورـةـ نـرجـسـيـةـ لـلـحـسـ وـالـعـيـانـ قـبـلـ النـرجـسـيـةـ النـفـسـيـةـ التـيـ يـدـورـ عـلـيـهـ بـحـثـ عـلـمـاءـ الـأـمـرـاـضـ النـفـسـيـةـ ، فـالـبـيـاضـ وـالـرـقـةـ وـالـنـعـومـةـ وـالـمـلـاحـةـ وـالـشـعـرـ التـهـدـلـ أـشـبـهـ مـاـ تـكـوـنـ بـلـامـحـ الـفـتـىـ

ترجس الذي هنا على الجدول فاستحال نرجسة واتخذه الاسطوريون.  
اليونان نموذجاً للجمال المفتون بمحاسنه .

ودللات التكوين الأخرى تتم هذه الملامح فيما تسمعه الأذن ولا تراه العين ، فاللغة وبجة الصوت تشيران الى تكوين وسط بين كيان الصبي وكيان الشباب الناضج . وليس هذا الاحتباس في جهاز الصوت موضعياً لا يرتبط بحالة كامنة في وظائف البنية لأنه غير مقصور على لغة اللسان بل شامل للحنجرة كما يbedo من بحة الصوت التي لا تفارقه . ولعلهم لو كانوا في زمانه يعرفون مراكز الدماغ التي تسيطر على النطق عامة لاضافوا الى ذلك لوازم أخرى مع اللغة والبحة الحنجرية . ولكن ما ذكروه كاف للدلالة على أن النقص شامل لجهاز النطق كله وما يليه من الغدد التي تسيطر على اعداد البنية للمراهقة وليس بالمقصور على الحنجرة واللسان . ولا يخفى أن جهاز النطق شديد العلاقة بالنمو الجنسي في الرجال على الخصوص فلا يدرك الرجل سن النضج حتى يغليظ صوته ويعمق ويزيراً لسانه من ل肯ة الطفولة ولثغات الحروف فإذا عم النقص لسانه وحنجرته كان لذلك علاقة بوظائفه الجنسية مدى الحياة .

وتنضاف الى لغة أبي نواس وبعه ظاهرة لها علاقة بالنفسية الجنسية وبالكيان الجسدي المتصل بهذه النفسية :

فالضفيرة التي كانت مرسلة من رأسه تنبئ من الوجهة النفسية التي كان أهلها يشعرون بها ولا ريب عن صبي شبيه بالبنات ترسل له الضفائر تدليلاً ومجاراة لسيماه الغالبة عليه وهذا التدليل من علامات الترجسية التي يرجع فيها الى أثر البيت والتربية .

ويظهر أن أبي نواس قد أراد الاحتفاظ بهذه الضفيرة بعد بلوغه سن الرجولة معتزاً بزيارة شعره ، فأشفق من السخرية والعبث ولم يسترح الى نبدتها مرة واحدة فاستعراض عنها بتسفيط شعره وبقاءه منسداً على جبهته وقذاله ، وهذا ، الى نعومة الجسم وخلوه من الشعر ، علامة جنسية لا تهمل مع اضافتها الى غيرها من العلامات المتوافقة .

فالمعهود في شعر الرأس أنه من العلامات الجنسية الثانوية وأنه على صلة بهرمونات الذكور والإناث على السواء .  
ويتعرض الرجل للصلع بعد سن الشباب على الأغلب ، فقلما يصلع الشبان في أبان القوة الجنسية .

ولو وقف الأمر عند هذا لما احتاج إلى بحث طويل ، فيكفي أن يقال إن غزارة شعر الرأس مرتبطة بالقوة الجنسية ، ثم يتراكم الشعر مع تقدم السن وتناقص هذه القوة .

ولكن المشاهد أيضاً أن النساء قليلات الصلع وأنه قلماً يصيب الخصيان المجبوبين قبل البلوغ .

فبماذا يكون تعليل الصلع مع النظر إلى جميع هذه الملاحظات ؟ هل يأتي من ضعف هرمونات الذكورة ؟ إن كانت هذه هي العلة فالأولى أن يصاب به النساء والخصيان .

فهل يأتي من قوة تلك الهرمونات ؟ على هذا التقدير ينبغي أن يصلع الشبان ولا يصلع الشيوخ .

والتعليق المعقول إذن أنه يأتي من تحول طبيعة هرمونات الذكورة فإذا كانت في نشأتها قوية غالبة ثم شاخت معشيخوخة البنية حدث الصلع وإن لم تكن من نشأتها قوية غالبة لم يتم تحول الشعر عن حالته .. وإذا بقيت على قوتها بقي شعر الرأس كأنه في سن الشباب .

فأبوا نواس إذن بقي على حالة واحدة من صباه إلىشيخوخته ، فحكمه في هذه الحالة حكم النساء والخصيان .

وإذا أضيف إلى هذا خلو جسمه من الشعر واحتباس جهازه الصوتي عند الحالة التي تتوسط بين الصبا والشباب كانت هذه العلامة أيضاً خلقة أن يلتفت إليها ولا تهمل في سياق الفحص عن الجنسيات والتفسيات .  
ولا حاجة إلى الإسهاب في الكلام عن شعوره بمحاسن بدنه شعوراً نرجسياً كالعشق الذي يعنيه الأطباء النفسيون فان مفاخرته لا بغي التشير

واعتزازه بفراحة بدنـه وذكريـ التي كان ينعمـ بهـ فيـ صباحـ وأشبـاهـ ذلكـ منـ نوادرـهـ وقصـائدـ مجنـونـهـ تـغـيـيـ عنـ الاسـهـابـ فيـ هـذـاـ الـبـابـ.

### البيت

وعنوان النرجسية التي اندرستـ اليـهـ منـ تـرـيـةـ الـبـيتـ هيـ تلكـ الصـفـيرـةـ التيـ ظـلتـ مـرـسلـةـ مـنـ رـأـسـهـ إـلـىـ السـنـ التـيـ يـلـعـ فـيـهاـ معـ الصـيـانـ ،ـ سـوـاءـ كـانـتـ هيـ سـبـبـ تـسـمـيـتـهـ بـأـبـيـ نـوـاسـ أوـ كـانـ لـهـذـهـ التـسـمـيـةـ سـبـبـ غـيرـهـ .ـ فـهـوـ طـفـلـ مـدـلـلـ فـيـ كـفـالـةـ أـمـهـ ،ـ وـرـبـماـ دـلـلـتـهـ لـأـنـهـ وـحـيدـهـ كـماـ قـالـ فـيـ :

شـبابـهـ :

لاـ تـفـجـعـيـ أـمـيـ بـواـحدـهـ لـنـ تـخـلـفـيـ مـثـلـيـ عـلـىـ أـمـيـ  
فـقـدـ عـاشـتـ حـتـىـ شـاختـ وـقـالتـ فـيـهاـ العـارـيـةـ «ـعـنـانـ»ـ تـهـجـوـهـ وـتـهـجـوـهـاـ :ـ  
عـلـيـكـ أـمـكـ (ـخـذـهـ)ـ فـانـهـاـ كـنـديـرـةـ  
والـكـنـديـرـةـ بـالـفـارـسـيـةـ هـيـ الـعـجـوزـ الـخـرـفـةـ .ـ

وـلـاـ يـمـنـعـ أـنـهـ وـاحـدـهـ مـاجـأـهـ فـيـ تـرـجـمـتـهـ مـنـ سـيـرـةـ أـخـيـهـ وـأـخـتـهـ فـرـبـماـ كـانـاـ  
أـخـوـيـهـ لـأـيـهـ :ـ اـذـ كـانـتـ أـمـهـ قـدـ تـلـقـلـتـ مـنـ أـيـهـ وـهـوـ غـلامـ صـغـيرـ وـلـبـثـ بـعـدـ  
ذـلـكـ فـيـ كـفـالـةـ أـمـهـ ،ـ وـلـاـ يـبـعـدـ أـنـ يـكـوـنـ أـبـوهـ قـدـ تـزـوـجـ قـبـلـهـاـ أـوـ بـعـدـهـاـ.  
وـمـنـ أـسـبـابـ التـدـلـيلـ التـيـ أـحـصـاـهـاـ أـطـبـاءـ الـأـمـراضـ الـنـفـسـيـةـ أـنـ تـشـتـميـ  
الـأـمـ أـنـ تـرـزـقـ بـنـتـاـ لـنـفـرـتـهاـ أـوـ وـحدـتـهاـ وـاقـتـرـابـهاـ مـنـ الشـيـخـوـخـةـ التـيـ تـخـتـاجـ  
فـيـهاـ إـلـىـ عـنـيـةـ الـمـرـأـةـ ،ـ فـتـرـزـقـ وـلـدـاـ ذـكـرـاـ بـدـلـاـ مـنـ الـبـنـتـ التـيـ تـتـمنـاـهـ ،ـ  
وـيـحـدـثـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ أـنـهـ تـرـبـيـ الـوـلـدـ تـرـيـةـ الـبـنـاتـ تـسـلـيـهـ لـهـاـ وـمـغـالـطـةـ  
لـأـمـنـيـتـهـاـ ،ـ وـلـيـسـ هـذـهـ الـأـمـنـيـةـ بـعـيـدةـ مـنـ خـاطـرـ أـمـهـ لـأـنـهـ كـانـتـ أـمـرـأـةـ مـنـ  
قـرـىـ الـأـهـواـزـ تـزـوـجـ بـهـاـ هـانـيـهـ وـهـوـ فـيـ جـيـشـ الـأـمـوـيـنـ ثـمـ تـقـلـلـهـاـ إـلـىـ الـبـرـصـةـ  
بـعـدـ قـيـامـ الدـوـلـةـ الـعـبـاسـيـةـ .ـ فـجـاءـتـهـاـ وـحـيـدةـ مـنـقـطـةـ عـنـ أـهـلـهـاـ ،ـ وـجـعـلـتـ  
تـعـيـشـ فـيـ مـوـطـنـهـاـ الـجـدـيدـ بـارـضـ الـأـطـفـالـ وـصـنـعـ الـجـوـارـبـ وـبـيعـ الـمـلـابـسـ  
لـنـسـاءـ الـبـيـوتـ ..

يـقـولـ أـنـدـريـهـ تـرـيـدونـ Fridonـ فـيـ كـاتـبـهـ «ـ التـحلـيلـ الـنـفـسـيـ وـالـاخـلـاقـ»ـ :ـ  
«ـ اـنـ الـمـحـلـلـينـ الـنـفـسـيـنـ مـتـفـقـونـ جـمـيـعـاـ عـلـىـ تـكـوـينـ الشـذـوذـ الـجـنـسـيـ

في صورته المنفعلة . فان الصبي الشاذ المنفعل هو في جميع الحالات ابن أم أو زوجة مطلقة فارقت زوجها بالموت أو المجر و المقاضاة عقب ولادة الطفل فنما الطفل مضطراً الى التماس قدوة يقتدي بها فوجد هذه القدوة في أمه وكبير وهو يحاكيها في الاعراض عن النساء والبالاة بالرجال ، وأصبح كالمرأة في كل اعتبار غير اعتبار التشريح ، ثم يدرك الرغبة الجنسية على النحو الذي تدركه المرأة فيتمنى مثلها أن يحرزه رجل كما يحرز النساء » ..

ويجاري النفسيين في مثل هذا الرأي أستاذ لعلم الامراض النفسية قليل الشطط في آرائه ، وهو الدكتور جوردون آلبورت Allport أستاذ هذا العلم بجامعة هارفارد ، فيقول في كتابه عن الشخصية والترجمة النفسية (١) : «إن الولد النحيل الذي يعاني جرحًا نرجسيًا يجد ملذًا له في أن يصبح عشيراً مدللاً Pet لأستاده».

قصة أبي نواس مع أستاده والبة بن الحباب هي تطبيق لهذه الملاحظات من الغلة والمعتدلين من العلماء النفسيين .

ولم يكن التدليل هو كل ما ابتنى به أبو نواس في صباح من معانع الآفات الجنسية ، فقد قيل إن أمه كانت تستخدم صناعاتها في الاتجار بملابس النساء للجمع بين الغواصي وطلابهن في بيتها « وكان لها بيت تنادى فيه الغواصي » ولصقت به هذه السمعة إلى ما بعد شبابه ، فقال فيه الشاعر ابن عبد الحميد اللاحمي :

أبو نواس بن هاني وأمه جلبسان  
والناس أفطن شيء إلى دقيق المعانى  
وكانت الجارية عنان تغري به السفهاء والعيارين أن يصيغوا به كلاما  
رأوه :

أبو نواس اليماني وأمه جلبسان  
والنفل أفطن شيء إلى حروف المعانى

Personality and Psychological Interpretation, by G. Allport. (1)

و ترييد بالغسل أبا نواس ، و تشير الى امرأة كانت كما قيل تأخذ أولاد الزنا و تربيهم ، وهي أمه جلبان ! «  
أما أبوه « هانيء » فالأرجح أنه من سلالة زنجية تسمى الى مولى من اليمن وكان أسود شديد السواد قال فيه ابنان :

هانیء الجون ابوده زاده الله هسوانا

وكان أبو نواس يتعصب للبيانية أحياناً ، ويجهو من أجلهم الزاربة  
كثيراً ، ولكن أصدق الأقوال في نسبة ما قاله فيه الرقاشي أنه :  
واضع نسبة حيث اشتهر فإذا ما رأبه ريب رحل

فقد إدعى زميلاً أنه من ولد عبيد الله بن زياد بن ظبيان منبني عامر  
من تيم اللات الذي ينتهي نسبه إلى وائل .. فقيل له : إن الرجل الذي  
تلعن إليه لا عقب له ، لأنها فلوج ومات ولا ولد له . فترك الاتساب إليه  
وذهب يتنقل بين الانساب اليمانية حيث شاء ، ولم يلبث أن هجا اليمانية  
فقال :

لأزد عُمانه بالملب نزوة اذا افتخر الأقوام ثم ثلين  
وبكر ترى أن النبوة أنزلت على مسمع(١) في الرحم وهو جنون  
وقالت تيم لا نرى ان واحداً كاحفنا حتى الممات يكون  
وفي غير هذا الكلام يهجو نزاراً فقوله :

واهـج نـزاراً وافـر جـلـتها واهـتك السـتر عن مـالـبـها  
وـفـي هـذـه القـصـيدـة يـقـول مـفـتـخـراً بـقـطـطـان :

فافخر بقطحان غير مكتتب فحاتم الجود من مناقبها  
ولا ترى فارساً كفارسها ان زلت المهام عن مناكبها  
عمرو وقيس والاشتران وز يد الخيل أسد لدى ملاعيبها  
وربما تعاجم وتنكّر للعرب جمِيعاً كما قال :

تراث أبي ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقيت تميم ولا بكر وربما فضل منادمة العجم على منادمة العرب حيث يقول :

(١) مسمع أبو قبيلة في ربعة،

قادتهم ارتاب في آدابهم فالفرس عدو سكرهم محسوم  
ولقارب الاحرار أنفسهم وفخارهم في عترة معذوم  
ويستكثر في قصيدة أخرى منادمة الشراب على الأمم جميعاً غير العرب  
فيقول :

لا تكنتني من العريض يشربني      ولا اللثيم الذي ان شمني قطبا  
ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا      ولا المجروس فان النصار بضمهم  
غير الشباب ولا من يجهل الآدبا      ولا السفال الذي لا يستيق ولا  
ولا الأراذل الا من يوقدرنني      من السقاة ، ولكن أستقني العربا  
وهكذا راح أبو نواس ينخر اليوم بما ازدراءه أمس ويمح لهذه  
المناسبة أو تلك ماذمه لمناسبة أخرى ، ويلهج بهذه المفاخرات والمهارات  
في مطالع القصائد ليتعلى على العرب طلولهم وبواديهم ويتؤثر عليها التغنى  
بالمداومة والمنادمة ، أو يلهج بها في المدائح ليقبح في كل نسب غير نسب  
المدح ، أو في الاهاجي ليعيّب من يقصده بالمجاء ، وكانت هذه النعمة  
هجيراه لا يكاد يسكن عنها في باب من أبواب المعصية .

ومن اللغو أن تؤخذ هذه المهارات مأخذ الدعاوى الجدية التي يتحققها  
مدعيعها ويعول على تحقيقها ، فان المرء لا يلهج هذا اللهج بشيء الا أن  
يكون له مساس بهوى دفين يغريه باللطف فيه على غير مشيئته ، والمساس  
بالموى الدفين هو الذي يسميه العصريون بالعقدة النفسية ، وها هنا  
عقدة نفسية على متناول اليد لاتعن特 السائل عنها من قريب ولا تلتجئه  
إلى سر غير مكشف .

فليس في نفس الترجسي عقد آلم لها من تلك التي تمسها في فتنتها  
بذاتها وتمسها من ثم في شهوة العرض والمعارضة ، ونزوة التحدى  
والاستارة ..

ومشكلة النسب تنس أبو نواس في هذه وتلك أي أنها تمس فتنتها  
بذاته ، وشهوة العرض والمعارضة في دخلة طبعة .  
فليس أثقل على الفتى المغمور النسب في أبويه معاً من المفاخرات التي

تعالى بها الا صوات من حوله ولا يسمع له بينما صوت .  
وقد كان العصر عصر المفاحرة بين الشعوبين والعرب أجمعين وكان  
عصر المفاحرة بين القحطانيين والعدنانيين وكان عصر الماجزة والمعاجزة  
بين الملوين والعباسين ، ولم يكن أبو نواس قصیر اللسان متزویاً عن  
الناس فيسكت وينزوي ، ولم يكن صغيراً عند نفسه فيعرف عليها بالصغر  
واللهانة ..

ونخالها العقدة الوحيدة التي شقت بها نفس أبي نواس ، لأن العقدة  
النفسية لا تعيش في دخائل الاباحين ، اذ كانت العقدة بطبيعتها كبتاً  
وكتماناً وكانت الاباحية مجاهرة بما يكتبها الناس ويكتموه ، ولكن مشكلة  
النسب شيء لا يباح به ولا يكشف الا على المغالطة والتحدي ، وهذا  
ما فعله أبو نواس ..

ولاشك أن هذه العقدة كانت من أقوى بواعث أبي نواس على معاقرة  
الخر وألفة مجالسها ، واختيار المجالس التي لا تسمع فيها المفاحرة  
بالأنساب أو تسمع فيها ولكنها تعاب على سنة الظرفاء والأحباب :

راح الشقي على الربع يهم  
والراح في راحي ، فرحت أهيم  
بزمزمين عدوا بسدفة ليلة  
والليل ملتبس الظلام بهيم  
نادتهم أرتاض في آدابهم .  
فالفرس عدو سكرهم محسوم  
ولفارس الاحرار أنفسُ أنفسٍ  
وفخسارهم في عترة معروم  
وإذا أنا نادم عصبة عربية  
بدرت الى ذكر الفخار تميم  
وعدت الى قيس وعدت قوسها ..  
سييت تميم وجعهم مهزوم

وبنو الأعاجم لا أحاذر منهم  
 شرّاً فمنطق شربهم مذموم  
 لا يندخون على النديم اذا اتشوا  
 ولم اذا العرب اعتدت تسليم  
 وجميعهم لي حين أقعد بينهم  
 بتذلل وتهيب موسوم

نعم وهذه هي العقدة . فهو يختار المنادمة حيث لا مضائقه بالماخر  
 والدعاوی وحيث يرى من حوله التوقير والتسليم . ولكنه لا يمسكت  
 سکوت الواجب الذليل في غير هذا المجال بل يصل صولته هاجيًّا أو  
 مباھيًّا ليتحدى ويستثير .

ولاشك أن ولاءه لقوم من اليمانية غير مكذوب من أساسه ولكنه  
 ولاء العبد الذي تدرج من الفخر بسادته الى ادعاء ولائهم ثم ادعاء  
 نسبهم . وليس من المصادفات أن يكون اسم أبيه هانئاً كاسم بطل اليمن  
 الشهور في حرب ذي قار « هانيء بن مسعود بن بكر » وقائد قومه في  
 النصر على جيش الأکاسرة . وليس من المصادفات أن يسمى أخوه أبا  
 معاذ على اسم معاذ بن جبل الغزرجي الذي كان من اليمن وكان رسول  
 النبي عليه السلام الى اليمن وقضىها المختار لها ديتها وارشادها ، وكذلك  
 جاءت نسبة أبي نواس الى الدّوين من اليمانيين . بل كذلك اختصار  
 أبو نواس جميع أساتذته او أكثرهم من اليمانية وأصحاب الولاء فيهم .  
 منهم يعقوب الحضرمي وخلف الأحمر وأبو زيد الانصاري وغيرهم من  
 المتنميين الى اليمن بالنسبة او بالولاء .

فليس هذا مما يتفق بالمصادفة ولكن صاحبنا علم أصل ولائه ونما  
 وترعرع وهو يستمع الى الأسماء اليمانية في بيته فأراد أن يغرس عقيدته  
 في الاتساب الى اليمانية بالايحاء الى نفسه والتماس القربي لكل لاهج  
 مثله بهذه النسبة ومكثها بهجو النزارية عسى أن يقبله القحطانيون فيتمكن  
 بينهم بالاغضاء والسكوت ان لم يتمكن بينهم بلحمة الآباء والأجداد .

وأصل هذه الدعوى كلها على ما هو ظاهر أن هاتئاً أباه كان من زنج اليمن أقرب بلاد العرب إلى جلب الزنج من طريق البحر الأحمر ، ولم يختلط قومه طويلاً بغير الزنج . فلم يفارق أباه سواد لونه وتزوجت أخته من عبد يسمى فرجاً القصار وولد الشاعر أبيض بلون أمها ، فاختاز من النسب أقربه إليه ، ولم يختره الا وهو مستعد للإنكار وتشديد النكير على من يذكر دعواه ، وبخاصة حين يجد من طبعه نزوعاً إلى تشديد النكير للتحدي والاثارة .

والحسن الصغير - على هذا - قد أخذ من بيته الترجسية مولوداً وأخذها وهو يتربى مدللاً مهملًا محرومًا من الرعاية الرشيدة ، وأخذها من مشاهداته فيه وهو يخطو إلى الفهم ويظن أنه يتعقل ما يراه فليس أعون على الإباهية الترجسية من مشاهدة الرياء حاسراً بغير قناع في حظائر الأسرار بين جدران البيت .. وخلق بمثابة العبرة بالعرف لا يكتثر له وهو يرى المساتير من الرجال والنساء أمام الناس بادين على حقيقتهم في خلوات الفجور والمجون !

### بيئة المجتمع

وتطبق البلية من بيئة المجتمع حيث فتح الحسن عينيه على الدنيا الغريبة من مدينة البصرة فرحة العالم كله في ذلك الزمان .

فالبصرة في موقعها مثابة الطلاب والقصد من كل بلد وكل نحلة وفيها محاسن الحضارة ومساوئها مبذولة لمن يشاء كيف شاء . وكل مصيبة فيها بغية من العلم والأدب أو من الكسب والتجارة ، أو من اللهو والغواية أو من الثورة على الدولة والولاء لها في ذلك الزمن المريج المتقلب بين شتى الدعوات والغاراث .

وكان من حولها قطاع الطريق يتربصون بالقوافل برّاً وبحراً وينهبون من استطاعوا نهبها ثم ينفعون السلب على الخمر والقمار والدعارة في الحاضرة الكبيرة ، ولا يزالون بين اجراء وآخر واحتفاء كلما أنسوا غرة

من الدولة وشاغلاً من حفاظ الأمن أو أحسوا لها شدة ويقظة في تعقب  
الشطار والخراب ..

وكان عصر أبي نواس أول عهد البصرة بالبوهيمية المترددة المتهجمة  
كما عرفتها مدن الحضارة حيث شاعت وفشت في أدوار القلقل والمنازعات،  
في ذلك العصر أخذ « البوهيميون » يغدون من مواطنهم الآسيوية  
الهنديّة ويزحفون إلى الغرب جموعاً أو متفرقين ، بل جيوشاً أو عصبات  
على حسب المكان الذي يغيرون عليه ..

هؤلاء هم الزط أو النور أو البوهيميون بعاداتهم وأساليبهم التي تجمع  
بين غارات الفتاك والعدوان وغارات الفواية والمداع المبذول ، حيث  
يستطيع الفتاك أو يروج المداع ..

والزط هم البوهيميون بعيونهم ، والكلمة مصحفة من الكلمة أوروبية  
قديمة أطلقت عليهم لأن الأوروبيين حسبوهم قادمين من الديار المصرية ،  
فسموهم تارة « جيتو » وتارة « جيسي » Gipsy من الكلمة جيسيانو  
أو جيسيانو التي يطلقونها على المصريين ، إلى أن قامت طائفة منهم في  
أوسط أوروبا فغلب عليهم اسم البلد الذي أقاموا فيه واشتهروا من ثم  
بالبوهيميين ..

والبوهيمية بعاداتها وأساليبها معروفة لم تتغير منذ تسربت إلى بلاد  
الحضارة ، وأولها التشرد وقلة المبالغة بالعرف الاجتماعي ، وطلب الكسب  
احتياطاً أو اختلاساً أو متاجرة باللذات والشهوات حينما انفت . وهذه  
على الأقل هي البوهيمية كما اصطلاح عليها العرف الشائع بين أبناء  
الحضارة وصفاً لما عهدوه من عادات « الزط » المترحلين .

وكان هؤلاء الزط ينزلون حيث نزلوا إلى جوار الحواضر ومهم  
فيياتهم يرددن لهم البيوت والديار وقد يكشفن لهم « غارات المدن للإغارة  
عليها كلما أمكنتم الفرصة أو العوز .

قال ابن خلدون : « هم قوم من أخلاق الناس غلباً على طريق البصرة  
وعايشوا فيها » ..

وتفاقم خطبهم أيام الخليفة المعتصم فاجترأوا على مهاجمة المدن ونهب بيادرها وحمل أرزاها ، ولم يأمن شرهم حتى جرد لهم قائدة عجيفاً وحصراهم بقطع الأنهار وسد مسالك الطرق ثم أسر منهم أكثر من عشرة آلاف مقاتل نقلهم إلى عين زربة فأخذهم الروم بنسائهم وذارياتهم في غارة من غاراتهم على تخوم آسيا الصغرى .

أما في جيل أبي نواس فلم يكن قد وفد منهم على حيرة البصرة غير طلائع متفرقة ، يقطع بعضهم الطريق في الbadية وينزل بعضهم إلى جوار الإرباض المتطرفة ، ويجرؤن على عادتهم التي تلخصها كما أسلفنا كلامنا : التشرد والتحلل من عرف المجتمع وأداب الحضارة .

وكانت الفئة التي اشتهرت باسم « الشطار » بعض طلائع هؤلاء الأخلاط وهم المثل المقتدى به عند أبي نواس كما جاء في مجوهه وخربياته ، ومنها فيمن يقول إنها لامته على صحبتهم جاهلاً شرورهم :

ولحة باللسم تحسب أنتي      بالجهل أوثر صحبة الشطار  
ومن كلامه في منادمة الفتاك :

خدريس عطر النك      به كالمسك السحق  
انما طابت لذى فتك      تردى بفسق  
جاهر الناس بما يأ      تيه في ضنك وضيق  
وبدا في الناس مشهو      رأ كذى الرأس العليق

أي كالفاتك الذي يأخذه أولياء الأمر ويحلقون شعره ويظوفون به للتشهير ، وفي كل هذا مواضع تأمل لما يتحدث به الوعي الباطن من سرية أبي نواس أو يحن إليه مزاج الإباحية والغرام بالخروج على العرف المألوف ..

ومن أمانيه في هذا المقصود أن يقطع الطريق ان لم يرتفع الى منادمة الخلفاء ..

سأبغى الفنى إما جليس خليفة      يقوم سواء ، أو مخيف سهل

بكل فتى لا يستطيع جنانه اذا نوح الزحفان باسم قتيل  
 لنحمس مال الله من كل فاجر أخي بطنية للطبيات أكول  
 ولما خرج من بغداد ينوي الرحلة الى مصر أحب أن يمثل الشطاره بزمه  
 وثيابه اذ كان لا يقوى على تمثيلها بسيوفه وحرابه ، فخرج كما جاء في  
 أخباره لابن منظور « بزي الشطار » ، مصففاً شعره موسمًا كميه يجرر  
 ذيله على حد قوله في مجوئياته :  
 « يجرر آذیال الفسوق ولا فخر »

ويروى في ترجمته أنه سأله أستاده والبة بن الجباب أن يخرج الى  
 البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم  
 منهم ، فقام بالبادية سنة ثم قدم ، ففارق والبة ورجع الى بغداد .  
 ولم يرد في ترجمة أديب من بني عصره أنه ذهب الى صحراء بني أسد  
 ليتعلم العربية والغريب فيها ، فالراجح أنها كانت جمحة من جماداته في  
 مصاحبة الشطار ثم أشفع من معبتها وسكت عنها مخافة الطلب والقصاص .

\*\*\*

تقول الدكتورة كارين هورني في مراقبتها النسوية للنرجسيين لأنهم  
 يتعلقون بالمشروعات ولا يثبتون عليها ، ويتنقلون من حرف الى حرف ومن  
 مظهر الى مظهر ليطمئنوا الى تمثيل الشخصية التي يستريحون اليها .

ويقول فليشر Flesher في كتابه عن الصحة العقلية والوقاية من الأمراض  
 النفسية أو العصبية (١) . « ان اشتئاء القوة المشتق من غريزة العدوان  
 وحب النفس النرجسي يشترك على التساوي في هذه الرغبة - رغبة  
 التشبه بالكبار في كل مايفعلون .. وان اعجاب الطفل بقدرة الكبار ينبغي  
 أن يعزى الى تمديد الشخصية الغالبة في النرجسيه ليخلعها على أحدهم ،  
 وبخاصة خلال الطور الأول من أطوار الافتتان بالذات .»

فإذا كانت الشطاره حلمًا من أحلام اليقظة تکبح مخاطرة الفنام  
التحليل الرقيق الذي لا قبل له بتلك المخاطر المستهولة ، ففي البيئة

Mental Health and Prevention of Neurosis.

(١)

الاجتماعية التي ترعرع بينها هذا الغلام ألوان مستطاعة مما يحلم به ويسهل اليه طبعه ويرضي أهواء النرجسية في طويته . ويكاد أبو نواس يتشكل بكل شكل منها على التعاقب أو في وقت واحد ، متبعاً للمطالب المتنافرة التي لا يتأتى له الجمع بينها ، ولا يجمع بينها عنده إلا تجاريته للشخصيات الجذابة التي يقتدر أنها تلتف إليه الأنظار وتوافق « الفتنة الذاتية » التي لا تستقر على قرار .

فتعلم العزف على العود ودق الدفوف ليسلاك مسلك المسمعين والقيان بين طلاب الملاهي والفنون ، وتعلم التنجيم وتعلم اللغة وتعلم الفقه والحديث وتعلم القراءة والتجويد ، ونظم الشعر وروى قصائد الفحول ، وتعلم العطارة والتجارة ، وتعلم الأخبار والأنساب ، وتردد على معاهد الدرس ومعاهد الرقص والسكر والمجون وتداول هذه الأدوار كأنما بخلع لباس دور من أدوار التمثيل ليلبس غيره على المسرح ، ولكنه مسرح الحياة ..

وروى أبو هفان « أن أبو نواس لما تأدب ونشأ وظرف ورغب فيه فتيان البصرة للمصادقة قال : لا أصادق الا رجلاً غريباً شاعراً يشرب الخمور ، يصفها ويصف المجالس ، ويكون له سخاء وشجاعة . فذكروا له جماعة . فلم يحب أن يكون الرجل من أهل بلده ، فهرب إلى الكوفة ، وذكر له بها رجل من بنى أسد يقال له والة بن الحباب ، يشرب الخمر ويقول الشعر ويجمع الخصال التي أرادها ».

وهذا تلقيق ظاهر لا نخاله يروي قصة واقعية ، ولكنه اذا أريد به تمثيل « الشخصية النواصية » أصدق من التاريخ في تصور هذه الشخصية ولا يكون أبو نواس الا هكذا في اختياره للناس والتذرع السفر والإقامة ..

وأياً كانت الشخصية التي يتلبس بها للعرض والظهور ، لقد كانت وراءها جميعاً تلك « النرجسية الجنسية » التي تغريه أن يتشكل بجميع هذه الأشكال ويتطور بجميع هذه الأطوار ، وما نسيها ولا انسليخ منها

وهو يغشى معاهد الدرس والتقوى ، وكان كل أمرد يغشى معاهد الدرس على هذا المثال في عرفه كما قال :

إذا ما وطيء الأمر  
فقل حل لنا عقداً  
فإن كان عروضاً  
وان أعجبه التحو  
وان مسال الى الفقة  
وان كان كلامياً  
وميله الى الخير  
وخرده فيما شئ  
وقل : هذا قضاء الله  
واتهى مصراً :

فيامن وطيء المسجد  
من ذي بهجة أغيد  
أنا قست على نفسي  
فهذا الأمر لا أجحد

وقد كان يستند الى سارية في معهد من هذه المعاهد حين كتب اليه ابن منذر يسأله بأبيات من الشعر فيما روى الرواة فأجابه يفهمه أنه يتصدى للجباء وزينة الأزياء :

أذل عندي من مدحلك لي سود العمال ولين القمح

ويخيل اليها أنه لو بنت في بيته اجتماعية تختلف بيته تلك لما اثنى عناته الى غير المواطن التي تجذبه اليها آفته النفسية ، فانما هذه الآفات كالثمرات في التربة المزروعة تمتضى كل ثمرة من أرضها و هوائها و ضيائها ما يلائم بذورها ويتواءم طعمها وشكلها ولو أنها .. والى جانبها على مد الباع ثمرة أخرى تمتضى من التربة والجعو طعم غير ذلك الطعم وشكل غير ذلك الشكل ولو أنها غير ذلك اللون ... وفي البذور سر ذلك التباعد على القرب بين الثمرتين .

أما وهو قد بنت بين إباحية الشطار وإباحية الشذاذ من جميع الآفاق

في مألف الغواة والفساق ، فقد كانت المحن أقوى من طاقة المقاومة عنده لو أنه يقاوم ، وإنما كان على عكس ذلك ينطلق انطلاقه ليسقى النظرة في حلبة الجماح والمجاراة .

### العصر السياسي

العصر الذي أحاط بحياة أبي نواس بيتدىء من أوائل القرن الثاني للهجرة إلى نهايته ، وهو عصر سقطت فيه دولة بنى أمية وقامت فيه دولة بنى العباس ، وأمثال هذا العصر في تواريخ الأمم يتسم بسمات الانقلاب ويشيع فيها اليأس من جانب والمجازفة من جانب ، ويتبادل فيها الولاء غير مرة بين النجم الأفل والنجم الطالع ، ولا تطول فيها الثقة بشيء حتى تثوب الأمور إلى قرار .

كان فيها لسان حال الأمويين يتrepid في صيحة ابن سيار :

أرى خلل الرماد ويمض جمر  
ويوشك أن يكون له ضرام  
وما أدرى ولست أخال Adri  
أليقاظ أمية أم نیام  
ففري عن رحالك ثم قولي  
على الاسلام والعرب السلام  
ومثلها أبيات عباس بن الوليد :

اني أغىذكم بالله من فتن  
مثل العجائب تسامي ثم تندفع  
ان البرية قد ملت سياستكم  
فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا  
ولم يكن بنو أمية خلوا من ذلك البلل الذي قال ابن الوليد أنه عم  
البرية ، فان الأمويين انقسموا في بيت الملك منذ ابتدعوا عادة التوصية  
لولاية العهد باثنين في وقت واحد ، يزاحمهما من بينهما من لم تشتمله  
الوصاية ، فلم ينقض عهد خليفة من خلفائهم دون مؤامرة من هنا ودسيسة  
من هناك ، ونفاق يتراءى هنا وهناك .

وهذه المؤامرات في بيت الملك تقابلها في الرعية شعب متفرقة بين الفرس  
والعرب ، وبين القحطانيين والمعاذانيين من العرب أنفسهم ، بل شعب

متفرقة بين كل معسكر من هذه المعسكرات ، فلا القطانيون ولا العدنانيون مجتمعون على هوى واحد ، ولا الخلاف حيث كان يرجع الى سبب واحد . فربما تمرد أناس من الفرس لشلل الضريبة ولا سبيل الى تخفيفها كلما افتقرت الدولة المتداعية الى المال للتدعم والتقويم او افتقرت اليه لاستشراء عادات الترف واتشار الغضب والاختلاس بين العمال ، وربما تمرد أناس منهم لأنهم على حد قول القائل :

اذا لم يكن للمرء في دولة امريء نصيب ولا حق تنسى زوالها  
فلا تسلم الدولة من عداء السوقه الفقير الذي حرمته الدولة رزقه  
وعداء السيد الغني الذي حرمته الدولة ميراثه من الجاه والعتاد ؟  
ووراء هؤلاء جميعاً قوم لا يرضون عن أحد ولا يرضي أحد عنهم ،  
وهم الغوارج الذين حكموا على هذه الطوائف جميعاً بالكفر وجردوا  
مرتكب العاصي من الاسلام ، وليس أكثر من مرتكبيها في ذلك الزمان .

وبعد شناق طويل في معسكر الدولة الذاهبة تقبل الدولة الجديدة وهي مشعبة بين فرعين : فرع بنى عليٍّ وفرع بنى العباس ، وقد والاها من والاها في ابان الدعوة اليها باسم العلوين ثم اتفق وجود زعيم بنى العباس بالكونفة عند انهزام بنى أمية فبادر أعونه الى مبايته وذاع يومئذ أنها بيعة الى حين انتظار امام العلوين ، ولم تمض غير سنوات حتى وضح أن العباسين لا ينزلون عنها وتولى الأمر خليفتهم الثاني بعد أن كان الغالب على الظن أن الخليفة الأول يوصي بها لصاحبها العلوي من أيام الدعوة وهو محمد « صاحب النفس الزكية » .. فنشط محمد لها وآزره العديد الجم من الأهواز والعراق واقتصر أخوه ابراهيم البصرة فدان له أهلها ، وتمت البيعة له أو كادت لو لا غلبة أبي جعفر على بغداد . فلم يلبث أولياء العلوين في البصرة أن تحولوا فجأة أو على مهل الى ولاء العباسين . كل هذا وأبو نواس في سن الفهم والوعي ينأى العاشرة ، ولا يفوته أن يعي ما يرى من تبدل الحال وتبدل الولاء وتقلب الناس مع السلطان والمآل ..

ثم تساند الدولة الجديدة ويستطيع فيها نجم الرشيد . ثم يذهب الرشيد والناس لم يتركوا الحديث عن المستخلفين الموعودين من أئمة العلوين ، ولكن الرشيد يقسم الدولة بين ولديه و يجعل للأمين ولاية العهد بعده و يجعل للمأمون ولاية الشرق برعاية أخيه ، فلا يمضي قليل حتى يتقضى العهد بين الأخوين ، ويعيش الشاعر على مقربة من قصر الملك بغداد ، فيرى سيد القصر بين خاصته وجنته وذويه وهم يتداولون تسليمه الى عدوه مرة بعد مرة ، ويقتله من أوتمن عليه ..

وكان الشاعر يذهب حيث ذهب فلا يلقى في الرقعة الطويلة العريضة غير الثورة واشرافها ومقدماتها ، وقسم له في مصر أن يشهد بوادرها وان يعين واليها « الخصيب » على تسكينها ، فخاطب الشاغبين بأبياته التي يقول فيها :

منتحكم يا آل مصر نصيحتي     ألا فخذوا من ناصح بنصب  
ولا تثروا وثب السفاهة تحملوا     على حد حامي الظهر غير ركوب  
فإن يك باق افالث فرعون فيكم     فإن عصا موسى بكف خصيب  
رماكم أمير المؤمنين بحية     أكول لحيات البلاد شروب  
ولم تكن هذه الثورة يومئذ الا إلى عودة ; ولم تنقم بعد عودتها إلى  
أن حشد المأمون جيوشه بقيادته ، ولم يعتمد في قيادتها على أحد من ولاته .

والذين زاملوا أبا نواس في هذا العصر كثيرون ، منهم الشعراء والأدباء ، ومنهم الظرفاء والندماء ، ومنهم العلماء والحكماء ، ولكن أحداً منهم لم يبتل بمحنة العصر كما ابتلي بها ، وليس ذلك لأنه كان مستعداً للاباحة بتكوينه وتربيته وحسب ، بل لأنه عاش في قلب التقلبات ولم يكن أثراها فيه مقصورةً على المعية في الزمن ، فأبواه كان من جندبني أمية وضع رزقه في الجيش الاموي بقيام الدولة الجديدة ، وأمه من الأهواز ، حومة القتال بين كل خصم وكل خصم ينazuه ، ومن جراء هذه المنازعات وحرمان زوجها الرزق الريـب هاجرت من موطن قومها الى البصرة ، وهذه البصرة كانت حومة أخرى للدعوة السياسية جهراً وسرّاً وبالاقناع

والارهاب ، فلما آن لوليد هذين الأبوين آن يفهم ويعقل فهم آن الدنيا كلها نفاق وشقاوة ولم يعقل من أحداثها وخلائقها الا أنها مباحة ورياء .

### العصر الثقافي

وتصطليح على الفتى محتة العصر الثقافي ومحنة العصر السياسي في ضربة واحدة ، فقد كانت مدن العراق يومئذ ملتقي كل ملة ومجتمع كل نحلة ، وكان ينشي البصرة والكوفة مجوس وزنادقة كما ينشاها أهل الهند والصين على اختلاف عاداتهم وشعائرهم ومطالبهم في أوقات جدهم ولهمهم ، وكان من حوله مشتجر المذاهب حتى في النحو والفقه بل في الفلسفة وعلوم الكلام ، وما يجاورها أحياناً من حذقة المتعالين ودعاؤى المتظرين ، وتعدى اللفظ بالخلاف والجدال في هذه المسائل طائفة المتأدبين والمتخذلين الى سواد الناس من يطلع في الكتب الغريبة أو يطلع في الكتب المأثورة أو لا يطلع على هذه ولا تلك ولا يرجع في اعتقاده الى اطلاع ..

فالاباحية التي نادى بها بابك الغرمي في السنة الأولى من القرن الثالث للهجرة لم تفاجيء العراق ولا جيرتها من البلاد الفارسية ، ولكنها كانت نحلة يدين بها ألف من العامة وسود الناس في شمال العراق ، ويتفلسف بها المتخذلون من المتظرين ليجعلوا لها محللاً من الفكر والطبيعة كأنها تبالي العلال والحرام ، وهي في جوهرها تستبيح كل محظور . وقد هزم « بابك الغرمي » جيشاً بعد جيش من أقوى الجيوش العباسية ، ولم يهزمه قائد المعتصم الجبار ابراهيم بن مصعب جموع الغرميين الا بعد أن قتل منهم ستين ألفاً وشتت أكثرهم فلbusوا في انتظار الفرصة الى حين ، ثم أغار عليهم جباره الآخر حيدر بن كاوس الافشيني فطاولهم وطاولوه حتى ظفر بزعيمهم وساقه مع أهله أسرى الى بغداد .  
ولم يقض أبو نواس سنة واحدة بعد خروجه من البصرة والكوفة الا حيث ينعم كما أسلفنا في « قلب التقلبات » ولا يلامسها ملامسة

« المعية » في الزمن وحسب . فلما طلت بوادر الثورة في مصر كان هو ضيف الخصيـب ونديـه ، ولـما استفحـلت الثورة في عاصمة الدولة كان هو ضيف الأمـين ونديـه ، ولـما أقصـاه الأمـين عنه حذارـ من وصـمته كان ذـو الرئـاستين – داعـية المـأمون – يصفـ القوم جـمـيعـاً فيـقـول إـنـهم « أـهل فـسـقـ وـفـجـورـ وـخـمـورـ وـمـاخـورـ .. »

بلـ كان رـهـطـ الرـنـدقـةـ قـاطـبـةـ يـقـيمـ حـيـثـ أـقامـ أبوـ نـواسـ ..

وـمنـ آفـاتـ الـابـاحـةـ فيـ العـصـرـ الثـقـافـيـ ماـيـسـبـ أـباـ نـواسـ وأـضـرـابـهـ خـاصـةـ فـيـغـرـيـهـ بـالـابـاحـةـ حـيـثـ لـايـغـرـىـ بـهـ كـلـ نـابـتـ فيـ ذـلـكـ العـصـرـ أوـ مـطـلـعـ علىـ مـذاـهـبـهـ الثـقـافـيـةـ .

فالـهـوـسـ بـالـابـاحـةـ – اـحـجـاجـاًـ عـلـىـ تـفـاقـ الـعـلـيـةـ وـأـرـبـابـ الـمـقـامـاتـ – اـنـماـ يـعـتـرـيـ أـباـ نـواسـ وأـضـرـابـهـ لـأـنـهـ يـرـشـحـونـ أـنـفـسـهـمـ بـحـكـمـ ثـقـافـتـهـمـ لـأـرـفـعـ الـمـنـاصـبـ وـأـشـرـفـ الـمـجـالـسـ وـأـوـجهـ الـمـرـاسـمـ . فـهـمـ أـكـفـاءـ أـهـلـهـاـ بـالـثـقـافـةـ وـالـدـرـايـةـ أوـ أـرـجـحـ مـنـهـمـ كـفـاءـةـ وـكـفـايـةـ ، وـلـكـنـهـمـ يـُـصـدـونـ عـنـهـاـ وـيـرـوـنـ مـنـ أـهـلـهـاـ الـاحـتـجاـزـ عـنـهـمـ وـالـاعـتـزاـزـ عـلـيـهـمـ بـسـمـتـهـمـ وـمـهـابـتـهـمـ ، فـلـاـ يـلـعـجـمـهـمـ شـيـءـ كـمـاـ يـلـعـجـمـهـمـ الـولـعـ بـهـتـكـ ذـلـكـ الـحـجـازـ وـتـلـويـثـ ذـلـكـ السـمـتـ وـاسـتـباحـةـ ذـلـكـ الـذـمـارـ ..

فـلـاـ يـعـانـيـ الـوـضـيـعـ الـجـاهـلـ مـثـلـ هـذـاـ الدـافـعـ الـعـنـيفـ إـلـىـ اـسـتـباحـةـ الـوـقـارـ الـذـيـ يـتـدـثـرـ بـهـ سـادـةـ الـجـمـعـمـ . وـلـاـ يـعـانـيـ الـوـجـيـهـ الـعـالـمـ دـافـعـاًـ مـثـلـهـ ، لـأـنـ وـقـارـ الـجـمـعـمـ وـقـارـهـ ، وـسـيـادـةـ الـعـرـفـ سـيـادـتـهـ .. وـإـنـماـ يـعـانـيـ أـشـدـ الـمـعـافـةـ وـضـيـعـ يـتـسـامـيـ إـلـىـ الـوـجـاهـةـ بـحـقـهـاـ وـلـاـ يـزالـ مـذـوـدـاًـ عـنـهـاـ ، مـنـظـورـاًـ إـلـيـهـ بـيـنـ أـهـلـهـاـ مـنـ عـلـ وـانـ ضـارـعـهـمـ فـيـ مـرـاتـبـهاـ وـمـرـاسـمـهاـ .

وـعـلـىـ هـذـاـ الرـفـفـ الـمـضـطـربـ بـيـنـ الـضـعـةـ وـالـوـجـاهـةـ كـانـ أـبـوـ نـواسـ .

لـاـ حـرـمـةـ لـهـ بـيـنـ الـحـرـمـاتـ ، فـمـاـلـهـ يـغـارـ عـلـيـهـاـ مـنـ الـابـاحـةـ وـالـاـبـذـالـ؟!

وـلـاـ نـعـرـفـ اـسـمـاًـ أـصـدـقـ مـنـ اـسـمـ الـهـوـسـ يـطـابـقـ ذـلـكـ الـولـعـ بـعـرـضـ الـابـاحـةـ وـالـتـحـديـ بـهـ كـمـاـ اـشـتـهـرـ بـهـمـاـ أـبـوـ نـواسـ غـيرـ مـزـاحـمـ فـيـ هـذـهـ الشـهـرـةـ بـيـنـ أـبـنـاءـ عـصـرـهـ .

فلا يكفي لاغراء المرأة بهذا الولع أن يكون صاحب مذهب في الزندقة فقد يعتقد الزنديق استحلال المحرمات فيبيحها لنفسه ويقارفها سرًّا أو لا يعن نفسه بالستر والتجمل ، ثم لايزيد على ذلك .

ولا يكفي لاغرائه بذلك الولع أنه يتحدى ذوي الوقار لأنهم يحتقرونه ويترفعون عليه بسمتهم وكبرياتهم . فان المرأة اذا تسامى الى الرفعة وبنده أهلها قد يضطر اخضطرار المفistez المحقق الى هتك السستار عن ريايئهم والاستخفاف بصياتهم وهو يود لو لم تلجهته الضرورة الى هذا المأزق المكروه ، وفرق بعيد بين هذا التحدي المستكروه وبين ارتياح المرأة الى عرض الاباحة كأن العرض غرض مقصود لذاته ، وكأنه لذة أمتغ من اللذات التي يستبيحها .

وقد كان أبو نواس يتقي من حسن السمعة ما يتقىه الانسان السوي من مذمتها ، وقد أشرنا الى طرف من كلامه في ذلك عند الكلام على النرجسية ، ونشير هنا الى نادرة هي جماع النواذر في هوی العرض وشهرة السوء .. رواها ابن منظور في أخباره فقال إن اخواناً له أشاعوا « أنه تاب ونزع عما كان عليه من الفسق والخمر ، فأقبل الناس يهنتونه » ، فجعل يكذب ذلك ويقول : والله أنا شر مما كنت . فلما كثر ذلك عليه دعا بخمار يهودي غلام وأجلسه في جانبه ومعه خمر ، فكلما جاء من يهنته يقول لليهودي قبل أن يتكلم : صبت لي من خمرك ، فيشرب قدحًا ثم يقبل اليهودي ويقول للذي جاء يهنته : قد رأيت صحة التوبة ! ثم قال في ذلك :

قالوا نزعت ولماً يعلموا وطري  
في كل أغيد ساجي الطرف مياس  
كيف التروع وقلبي قد تقسمه  
لحظ العيون ولوف الراح في الكاس  
اذا عزمت على رشد تكتبني  
رأيان قد شغلـا يسري وفالاسي

فاليسير في القصف واللذات أخلسها  
 والعسر في وصل من أهوى من الناس  
 لا خير في العيش إلا في المجنون مع الأ  
 كفاء والحرور والسررين والأس  
 وسمع يتغنى والكتوس لها  
 حث علينا بأخmas وأسداس  
 يا موري الزند قد أعيت قوادمه  
 أقبس اذا شئت من قلبي بمقابس

فليس هذا ولع المتمذهب بزندقة ولا ولع المضطرب على رغمه ، وإنما  
 هو هوس المفلوب على طبعه منحرفاً عن الخلق السوي في كمين هواه .  
 والانحراف الوحيد الذي يفسر هذا المرض في جميع أعراضه هو  
 النرجسية أو الغرام باللذات .  
 قداء أبي نواس هو النرجسية بدخلائها وتوابعها وخفاياها وألوان  
 شذوذها .

وليس داء الشذوذ الجنسي بمعنى الشغف بأبناء جنسه والاعراض  
 عن المرأة ، فإنه لم يكن يعرض عن المرأة ، وليس الشذوذ الجنسي بهذا  
 المعنى دافعاً إلى العلانية والإباحة ، وعلماء الأمراض النفسية يدرسون  
 حالتين من أحوال هذا الشذوذ لكل منها أسبابها وعوارضها وعلاقتها  
 بسلامة البنية ماجمالاً وبالغدد الصماء على التخصيص ، وكل منها  
 كذلك ملابستها البيئية والاجتماعية ، فلا يتشابه الشاذ الفاعل والشاذ  
 المنفعل باللاماح والسمات ولا بالأخلق وعواملنشأة البيئية والاجتماعية ،  
 ثم لا يتشابهان في العلاج النفسي عند الأطباء المختصين .  
 والقرائن التي تفسر احدى الحالتين من الشذوذ لاتفترس الحالة  
 الأخرى ، بل لعلها تناقضها وتبطلها ، فلا يمكن أن يجتمعوا إلا في شذوذ  
 واحد هو شذوذ النرجسية بل يجتمع معهما في النرجسية هوى المرأة  
 وغير هذا الهوى من العادات المريضة كالدلك أو جلد عميزة ، وقد كان

أبو نواس أول من لمح به من الشعراء ونظم فيه لمناسبات لادعى  
لاستقصائها . وهذا الدللك من أعراض المتعة الترجسية حيث يستخدم  
الترجسي خياله لتشخيص ذاته . Autoerotic Gratification

\*\*\*

وجملة القول أن هذه الآفة تفسر كل عادة من عادات الحسن بن هانيء  
وكل خبر من أخباره وكل نزعة من نزعاته : تفسر غرامه الفاعل والمنفعل ،  
وتفسر غرامه بالنساء وكل ما عرف عنه من الشذوذات الجنسية ، وتنفس  
ولعه بالعرض والعلانية واستهتاره بسوء القالة .. لأن هذا كله يتولد من  
تشخيص "الذات" بالصورة التي يستعملها الترجسي ويتخيلها في خوالجه  
الجنسية ، ومن هيامه بالعرض والعلانية ولفت الأنظار إلى «الذات»  
وتقرير وجودها بالتحدي والمخالفة ، أو ما يسمونه في التعبير الشائع  
بالمكايضة ، ويوشك أن يقتضوه على الشواغل الجنسية دون غيرها .

وكما أمعن الباحث النفسي في دراسة هذه الشخصية بدا له أنها من  
كل وجه «شخصية نموذجية» في بابها ، وأنها «لقطة» لا تغفر بها  
المشرحة النفسية في كل دراسة . ففيها أثر التكوين المولود وأثر البيت  
وأثر البيئة الاجتماعية وأثر العصر من جانب السياسة وجانب الثقافة ولديها  
ثبت العلامات التي يشكك فيها النفسيون اذا طرأ مفتردة متفرقة  
لاتتصل بالقرائن الأخرى فإذا اتصلت جميعاً كما اتصلت في هذه  
الشخصية النموذجية فهي أدل ماتكون على اعراضها وآفاتها .

## الشيطان

للسatan تاريخ قديم مع الشعر ، وموقع متغلل في الدراسات النفسية ، وأولها دراسة الدخائل المرضية .

فحن نعلم من أدب الجاهلية قصة أولئك الشياطين الذين يصجرون الشعراء ويوسوسون لهم بدقائق المعاني وخفايا الأفكار التي لا ينفذ إليها الناس بغير معونة الجن . ونعلم من شعر النابغة أن الجن هي التي بنت سليمان بن داود هياكل بعلبك كما قال :

الا سليمان اذ قال الملك له  
قم في البرية فأحددها عن الفند  
وخيّس الجن اني قد أذنت لهم  
يبنون تدمر بالصفاح والعمد

ولكن الشيطان هنا شيطان فني أو أستاذ فنان لأشأن له بوساؤس الضمائر ووساؤس الأخلاق ، وكل شأنه أن يصنع ما يعجز الإنسان عن صنعه لدقته أو ضخامته وفخامته ، وقد كان أرباب الفصاحة كما قال أبو العلاء :

.. كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن .

هذا الشيطان « الفن » لا يعني أصحاب الدراسات النفسية ولا مدخل له في الوساوس المرضية ، إنما يعنيهم الشيطان « الأخلاقي » الذي يرمزون به لحالة من حالات الضمائر على سوء أو على عوج ، لأنهم يرمزون به أبداً لقيمة وجدانية تشخيص في ضمير الإنسان على نحو من الانحاء . وعلى هذا لم يكن الشيطان عندهم شيئاً واحداً بل عدة شياطين ،

وهم يصاحبون الشعراء أيضًا في هذا المجال ، ولكن الآية في هذا المجال معاكسنة يقوم فيها الشعراء بصنع شياطينهم على الصورة التي يتخيلونها ... فكل شيطان هو بطل يصوره الشاعر كما يصور أبطال ملاحمه وتاريخه ، ويکاد كل شيطان من هذا القبيل أن يعرف باسم شاعره المختار ..

فهناك الشيطان رمز الكبriاء والتمرد ، وقد صوره الشاعر الانجليزي ملتون Milton في فردوسه المفقود وصورة الشاعر الايطالي Carducci في نشيده الى ابليس ، وأجمع النقاد على أن الشاعرين قد صوراه مريدياً متكبراً ثائراً لأنهما عاشا في ابان ثورة عنيفة فوضعا على لسانه الكلام الذي يريدانه ويختفيانه في مضامين القول أو يعلنانه ..

ومع هذا الارتباط بين ثورة انجلترا وشيطان ملتون ، وبين ثورة ايطاليا وشيطان كردوتشي ، يرى النقاد أن هذين الشيطانين نسخة مقتبسة من أقدم الشياطين التمردين في آداب العالم المحفوظ ، وهو رب اليوناني القديم بروميثيوس Prometheus الذي تمرد على رب الأرباب زيوس ليعلم أبناء آدم ما أخفاه الأرباب عنهم ، ويتخذ من هؤلاء الآدميين تلاميذ له ومربيين .

وملتون وكردوتشي مسيحيان ، ولكن النقاد يقولون إن الشيطان في شعرهما أقرب الى صورة بروميثيوس من الصورة التي مثلها العهد القديم لا بليس الرجيم ..

وعلماء النفس يستنبطون من صورة بروميثيوس والنسخ المنشورة عنها أن التمرد عريق في طبيعة الإنسان .

وهناك عدا الشيطان الذي يرمز الى التمرد والكبriاء شيطان يرمز الى السحر والمعرفة الباطنية وهو مفستوفليس بطل رواية فوست من نظم جيتي شاعر الألمان .

واسم مفستوفليس على الأرجح منحوت من ثلاثة كلمات يونانية بمعنى الذي لا يحب النور ، لأنه يتعلم المعرفة ويعلمها كأنها ضرب من

التجسس في الظلام على الأسرار الالهية ، فهو يلتسمها في السحر والطلاسم  
ويجعلها أغاظاً يتولى حلها لن يشاء .

وهذا الشيطان كما صوره جيتي والشعراء من قبله ، يصنع أكسيز  
الحياة ليطيل به العمر ويرد به الشباب إلى الشيوخ ويسامون به على  
الضمائر والأرواح فمن باعه الحياة الأبدية أخذ بديلاً منها المتعة والقوة  
والسيطرة بالمعرفة في حياته الأرضية .

و عند النفسين أن هذا الشيطان متمرد متكبر كذلك الشيطان ولكنه  
يتمرد بعقله من حيث يتمترد ذلك الشيطان بنفسه ، و سلاحه المعرفة من  
حيث يتسلح زميله القديم بالشجاعة العربية .

ولم يبتدع النفسيون المحدثون هذه الفكرة بعلمهم الحديث اذ الواقع  
أن الأقدمين من أهل الثقافة اليونانية أو العبرية كانوا يحسبون المعرفة  
كلها ضرباً من التمرد والتطاول على علم الآلهة العليم . فاليونان الأقدمون  
كانوا يسمون هذا الفضول الإنساني بالهويري Hubris وال عبرانيون  
الأقدمون كانوا يسمون الشجرة التي أكل منها آدم بشجرة المعرفة ولا  
يحمدون من الإنسان أذ يتطاول إلى علم الآلهة .

فالتمرد خلة مشتركة بين شيطان ملتوٰن و كردوتشي وشيطان جيتي وقد  
فضل جيتي شيطان المعرفة لأنّه كان في عصر النهضة العلمية بيلاده ،  
وفضل الشاعر الانجليزي والشاعر الإيطالي شيطان الغضب والتحدي  
لأنّهما كانا يغضبان ويتحديان ويمثلان ثورة الأمتين على سلطان الملوك  
وسلطان الكهان ..

وتزداد على هاتين « الشخصيتين » الشيطانيتين صورة أخرى من قريحة  
شاعر شرقي ، يتخيلها في بعض أحلامه ويرينا فيها الشيطان فاتناً وسيماً  
يكذب بملاحتة أقاويل أبناء آدم عن دماته وقبحه ، لأنّهم مطرودون  
موتارون ! ..

ذلك الشاعر الشرقي هو (السعدي) صاحب البستان والجلستان ،  
وأكثرهما مترجم إلى اللغة العربية .

فمن قصائده تلك القصيدة التي يتحدث فيها عن حلم رأه كما زعم  
أو كما تخيل ، فيقول : ..

«رأيت الشيطان في حلم .. فيا عجباً لما رأيت ..

«رأيته على غير ما وهمت من صورة شنعة تخيف من ينظر اليها ..

«قامة كفرع البانة . عينان كأعين الحور . طلعة كأنها تضيء بأشعة  
النعيم ! ..

«قاربته وسألت : أحق أنت الشيطان المريد ؟ أحق ذاك ولا أرى ملكاً  
له جمال محياك ؟ ولا عيناً قد نظرت الى شبيه سيماك .

«ما بال أبناء آدم يتخدونك لهم ضحكة فيما يصورونك ؟

«وفي وسرك أن تجلو لهم وجهاً كصفحة البدر ، ونظرة تنهل بيهجة  
الرضاوان ؟ وابتسامة تشرق بالنعيم ؟ »

«أولئك الرسامون يغتصبونك الى العين ، وحمامات الانس تكشفك  
لنا في صورة تنقبض لها القلوب ! »

«ويقولون لي : إنك كالليل البهيم .

«وما أرى أمامي الا الصباح المثير .

\* \* \*

«سألت وتسمعت ..

«فتدرك الحلم الساحر ، وترفع له صوت فخور ،

«ولاحت على طلعته كبراء ، وقال :

«لا تصدق ياصاح أنه مثالي ذاك الذي رأيت فيما يمثلون ..

«فإن الريشة التي ترسمني تجري بها يد عدو حسود .

«سلبتم النساء ، فسلبوني الجمال ...

\* \* \*

وهذه صورة للشيطان لاستغربها من مصورها . فقد كانت للسعدي  
طبيعة يمتزج فيها التصوف بالحكمة العملية ، وقد طاف الرجل أقطار  
المشرق وجاس خلال فارس والعراق والهند وعاش بين الوشایات وقصور

الأمراء والوزراء ورأى أناساً بعد أن سمع عنهم وسمع عن أناس بعده أن رآهم، فخرج من سياحاته وتجاربه وهو يعلم ماوراء الثناء وماوراء المذمة، وشعاره في الحياة «ألا تصدق كل مايقال». ولا شك في أنه لم يصور الشيطان على تلك الصورة التي تخيلها أو حلم بها إلا بعد أن رأى الشياطين من الأنس في أجمل صورة وقاد الأمر بعقله فخطر له أن الشيطان خادع محتال، وأنه لن يخدع الناس ويستهويهم بوجه يقابلونه بالنفور والاعراض ..

وتزداد بعد هذه الشخصيات الشيطانية المتباudeة أو المتقاربة شخصية أخرى يدعونها مثالاً للشيطان الذي يخلقه الشاعر على صورته ، وذلك هو شيطان الشاعر الروسي لرمتوف Lermontov الذي عاش في أوائل القرن التاسع عشر وسمع من بعيد بمقلات الفكر في غرب القارة الأوروبية . فهذا الشيطان الذي صوره لرمتوف هو لرمتوف بعينه مزيداً . عليه مايتمناه ولا يناله لأنـه انسان ، فـانـ الشـيطـان يتـشكـل بما شـاءـ منـ الأـشـكـافـ وـيـظـهـرـ لـلـعيـانـ أوـ يـتـوارـىـ كـمـاـ يـشاءـ ، وـقـدـ يـتـوارـىـ عنـ قـومـ وـيـدـوـ لـغـيرـهـ وـهـمـ فيـ مـجـلسـ وـاحـدـ .

وهـذاـ الشـيطـانـ مـسـكـيـنـ مـعـرـضـ لـلـفـواـيـةـ باـخـتـيـارـهـ ، فـهـوـ يـحـبـ فـتـاةـ مـنـ الـأـنـسـ وـيـتـرـاءـيـ لـهـ مـتـجـمـلـاـ فـيـ أـبـهـجـ حـلـلـهـ فـتـهـوـاهـ وـتـكـادـ أـنـ تـجـفـوـ خـطـيـبـهاـ مـنـ أـجـلـهـ ، ثـمـ يـغـارـ الشـيطـانـ مـنـ ذـلـكـ الـخـطـيـبـ فـيـقـتـلـهـ وـيـنـقـلـ جـثـتـهـ إـلـىـ الـفـتـاةـ لـتـوـقـنـ مـنـ وـفـاتـهـ وـتـنـسـاـهـ فـتـنـقـلـ الـآـيـةـ وـتـحـزـنـ عـلـيـهـ حـزـنـاـ يـحـجـبـ عـنـ عـيـنـيهـ مـحـاسـنـ الـحـيـاةـ فـتـأـوـيـ إـلـىـ الـدـيرـ وـتـنـذـرـ الـرـهـابـيـةـ مـدـيـ الـحـيـاةـ .. وـيـجـنـ جـنـونـ الشـيطـانـ فـيـلـاـحـقـهـ وـيـتـصـدـىـ لـهـ الـمـلـكـ الـحـارـسـ عـنـدـ بـابـ الـدـيرـ وـتـصـطـرـعـ قـوـةـ الـشـرـ وـقـوـةـ الـخـيـرـ فـيـهـمـ الـمـلـكـ وـيـتـصـرـ الشـيطـانـ ، وـيـنـفـذـ إـلـىـ حـجـرـةـ الـفـتـاةـ فـيـلـكـ الـجـسـدـ وـتـصـعـدـ الـرـوـحـ إـلـىـ السـمـاءـ .

ولـمـ يـتـصـرـفـ لـرـمـتوـفـ كـثـيرـاـ فـيـ نـقـلـ هـذـهـ الصـورـةـ مـنـ ذـاتـ نـفـسـهـ ، وـلـمـ يـتـعـدـ بـالـحـادـثـةـ كـلـهاـ عـنـ الـمـكـانـ الـذـيـ أـقـامـ فـيـهـ وـهـوـ يـكـتـبـ الـقـصـةـ ، فـقـدـ أـجـراـهـاـ فـيـ بـلـادـ الـقـوـقـازـ حـيـثـ كـانـ يـقـيمـ مـنـفـيـاـ مـغـضـوبـاـ عـلـيـهـ ..

هذه نماذج من الشياطين ، بين نموذج الشيطان المتكبر المتمرد ونمزوج  
الشيطان الوسيم القسيم ونموذج الشيطان الساحر الساخر ونموذج  
الشيطان الخادع المخدوع .

### ولعه بالشيطان

وقد كان أبو نواس كثير اللهج بذكر الشيطان ، كثير التعويل عليه في  
غواياته ومحاصراته ، فأي هذه الشياطين هو شيطانه « المختار » .. وأي  
أثر لشخصية أبي نواس في شخصية ذلك الشيطان ؟  
ان شيطان أبي نواس هو الشيطان الذي يريده ، أبو نواس ، أو هو  
الشيطان الذي يلزم أبا نواس .

ففيه كل خلة من هذه الخلال بالقدر الذي يتتفع به أبو نواس . فيه  
التيه والخبث والعلم والحيلة والظرف على حسب الطلبة الموقوتة وال الحاجة  
العارضة ، وكأنه لم يخلق الا لأبي نواس خاصة ، ولا عمل له الا أن  
يرضي أبا نواس ولو خالق مهمة حياته وهي الاغراء بالمعاصي والذنوب .  
فمن مهمة ابليس أن يغرى الناس بشرب الخمر ما استطاع ، ولكن  
مطلوب عند أبي نواس بأن يكف عنها عذاله ومن يترفع عن مشابهتهم  
ایاه في تعاطيها ..

ناديت ابليس ثم قلت له لا تسق هذا الشراب عذالي  
وابليس في صورته عند أبي نواس تيه خبيثه  
عجبت من ابليس في تيهه وخبث ما أظهر من نيته  
وهو في صورته عنده عليم ففيه يستثنئه فيقتنه ..

الي قصدت الى فقيه عالم  
متسلك حبر من الأجرار  
متعمق في دينه متفقه  
متبصر في العلم والأخبار

قلت النبيذ تحله فأجاب لا  
 إلا عقاراً ترتعي بشار  
 قلت : السماع فما علست أجابني  
 إلا بتحقق العود والمزمار  
 قلت : المنادم من يكون ؟ أجابني  
 لا تعدن عن ماجن عيار  
 قلت : الصلاة فقال فرض واجب  
 صل الصلاة وبت حليف عقار  
 أجمع عليك صلاة حول كامل  
 من فرض ليل فاقضه بنهار  
 فلت الصيام فقال لي : لا توجه  
 وأشدد عرى الافتخار بالافطار  
 إلى أشباه هذه الفتاوى الإبليسية .  
 وهو عنده طريف يعينه على فساده :  
 لم يرض الإبليس الطريف فعالنا  
 حتى أغان فسادنا بفساد  
 ولكنه في كل أولئك الإبليس خاص بأبي نواس ، يخدمه على الطلب  
 ويؤثره بالخدمة ويذلل له من يعصيه ..  
 فرده الشيخ عن صعوبته  
 وصار قوادنا ولم يزل  
 وكانت خلق الإبليس لأبي نواس على تفصيل « المزاج النرجسي » الذي  
 يتدلل ويتأنى ولا يسلك الإبليس الا أن يجاريه في دلاله وتأييه .  
 وليستحضر القاريء صورة طفل مدلل يسوم أبويه ما يرضيه وما  
 يغضبه ففي آية صورة يتمثله ؟  
 انه اذا شاء أن يهدد أبويه أنذرهم لا يأكلن الطعام ولا يشربن الدواء  
 ولا يدخلن الجسام حتى يرى ما يشتتبه بين يديه وانه ليسوق الحران

أحياناً فيرفض كل شيء ويلوبي وجهه عن كل سلوى .  
أليس هذا هو أبا نواس بعينه حين يهدد إبليس وينذره :  
ان انت لم تلقي لي المودة في  
صدر حبيبي وأنت مقتدر  
لا قلت شرعاً ولا سمعت غناً  
ولا جرى في مفاصلي السكر  
ولا أزال القرآن أدرسـه  
أروح في درسه وأبتـكر  
أليس هذا هو أبا نواس بعينه وهو يزعم التوبة ويتجنى على إبليس  
فيأبـي كل مايذله له من شهوة ومتاع :  
هل لك في عذراء ممـكورة  
يزينها صدر لها فخم  
ووارد جسل على مبنـها  
أسود يحـكي لونـه الـكرم  
فقلـت « لا ». قال: فـتـي أمرـد  
يرـتـجـ منـه كـفـلـ فـعـمـ  
كـأنـه عـذـراء في خـدـرـها  
ولـيسـ في لـبـتهـ نـظـمـ  
فـقلـتـ « لا ». قال: فـتـي مـسـنـعـ  
يـحـسنـ منـهـ النـقـرـ والنـغـمـ  
فـقلـتـ « لا ». قال: فـيـ كلـ ماـ  
شـابـهـ ماـ قـتـ لكـ الحـزمـ  
ماـ أـنـاـ بالـآـيـسـ منـ عـسـودـةـ  
منـكـ عـلـىـ رـغـمـكـ ياـ فـدـمـ !

وينم أبو نواس على أخفي الخفايا بين جوانحه حين يعجب من تيه  
إبليس على آدم ثم خدمته لشهوات أبنائه ، أو بعبارة أخرى لشهوة ابنه

## أبي نواس خاصة :

عجبت من ابليس في تيهه  
وخبث ما أظهر من نيته  
تاه على آدم في سجدة  
ومسار قواداً لذرته  
أو على الأصح أنه قد صار قواداً « خصوصيّاً » لأبي نواس:  
فرده الشيخ عن صعوبته وصار قوادنا ولم يزل

فن هنا ننتهي الى عقدة العقد في طوية الشاعر ، وقد أسلفنا أن مثله لا يتعرض كثيراً للعقد النفسية لأنه يروح برذائله ولا يكتسم أقبحها وأفضضها فلا سبيل للعقد النفسية الى طويته من قبل هذه الرذائل ، ولكن مشكلة النسب المدخل هي العقدة التي غلبته فكانت من دوافعه الى إدمان الخسر ومن بواعث الاحتيال عليها بالحيل المتواترة التي يصطنعها « مركب النقص » في أمثل هذه المشكلة .

فبماذا يفخر الفاخرون بالآباء من الآدميين قاطبة أكثر من أنهم أنباء آدم؟... ومع هذا يتيمه ابليس على آدم ولا يتيمه على ابنه « أبي نواس » خاصة حين يخدمه ويقاد يفرغ لخدمته قبل سواه .

بل مع هذا يأبى ابليس أن يسجد لآدم ولا يأبى أن يسجد للحسن ابن هانيء ! .. كما جاء في حديث والبة : « ترى غلامك الحسن بن هانيء؟ قلت ما شأنه ؟ قال . ان له شيئاً ، فوالله لأغونين به أمة محمد ، ثم لا أرضى حتى ألقى محبتة في قلوب المرائين من أمته وقلوب العاشقين لحلوة شعره قال والبة : فعلت أنه ابليس ، فقلت : فما عندك ؟ قال عصيت ربى في سجدة فأهلكني ، ولو أمرني أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت » ..

ورواية القصة على هذا النسق اليق من واياتها بسياقها ، وسواء كان والبة قد أوحها الى غلامه او كان غلامه قد اوحها اليه لقد رسخت في ذهن الغلام وأعجبته وارتقت به هواجس أحلامه وأمانيه الى الفانية

القصوى من الفخر بالآباء ، وهل بعد آدم غاية يرتفع إليها أبناء : آدم وحواء ؟ ..

### الشيطان ومذهب فرويد

ويدعونا الكلام عن الشيطان وعقدة الأب أو النسب الى استطراد في مذهب «فرويد» حول هذا الموضوع ، يدور على قصة مصور من أبناء القرن السابع عشر فقد أباه وحالف الشيطان ودفعته الى هذه المحالفاة الشيطانية تلك العقدة النفسية التي يسميها فرويد بعقدة أوديب ، ويقول في شرحها إنها عقدة تتولد من حب الطفل لأمه وغيرها عليهما من أبيه ، ويقاد فرويد يزج بهذه العقدة في تعليل التاريخ الإنساني من أوله غير قائم باستخدامها في تعليل المسائل الفردية والأزمات الوجودانية التي تتعري هذا وذلك من حين الى حين.

وعقدة أوديب في رأينا لا تؤخذ جملة ولا ترفض حملة .. اذ ليست كل غيرة على الأب غيرة جنسية ، وبخاصة حين تكون الأم هي كل شيء في حياة الطفل الرضيع فيغار عليها غيرة على حظوظه وغيره على طعامه وغيره على سلامته وغيره على كل شيء يحسه ويدركه ، وقد رأينا كلاماً تغافر من كل شيء يعني به صاحبها ومن كل أحد يدله أمامها ، ولا تختلف هذه الغيرة باختلاف الذكورة والأنوثة ولا باختلاف الحياة والجهاد ، وإذا كان الجنس يفسر كل شيء على رأي فرويد فهو لايفسر شيئاً على الاطلاق ولا يميز لنا بين دافع وداعم من دوافع الحياة .

ومن ضعف مذهب فرويد في هذه النقطة أنه يفترض حيناً أن الطفل الذكر يغار من أبيه على أمه ويفترض حيناً آخر أنه يغار من أمه على أبيه ويجب أن يستثثر بالأب استثماراً جنسياً كاستثمار الزوجة بالزوج ، ثم لا ينجح أقل نجاح في التفرقة البيولوجية «الحيوية» أو النفسيه بين الطفل الذي يغار من أبيه على أمه والطفل الذي يغار من أمه على أبيه . وهذا الشطط في تعليلات فرويد وتخيّلاته يعيشه عليه تلاميذه قبل

العلماء المعارضين له في أساس مذهبة فيرى ادلر Adler أن عقدة أوديب ليست غريبة أساسية تستقر في الوعي الباطن لكل وليد ، وإنما هي ميل عارض يحدُثه سوء التصرف من بعض الآباء وبعض الأمهات . ويرى ينج Jung أن الطفل لا يدرك في أمّه صفة جنسية وأن « عقدة أوديب » إنما تستحكم عند مفارقة الفتى لبيت الأسرة الذي عاش فيه بين أبويه فان لم تشغله في هذه الآونة وشحمة روحية لجت به علاقته بالبيت ولم يستطع أن ينفل عن الفارق بين جو الأسرة بمنائه وعطفه وجو العالم الخارجي بقوته وعنقه ، ودارت نفسه حول شعوره بأمه أو شعوره بأبيه . وقد وضع « ينج » عقدة « الكترا » Electra إلى جانب عقدة « أوديب » خلال تفسيره لما يشاهد من ميل البنات إلى الآباء وميل البنين إلى الأمهات .

أما سليمان Sullivan فلعله أكثرهم توفيقاً في تفسيره لحب البنات للأباء وحب البنين للأمهات . فإنه يرد ذلك إلى سلوك كل من الآبوين نحو الطفل المخالف لجنسه . فالآب لا يتدخل مع بناته في الخصوصيات والأم لا تتدخل مع أبنائها الذكور فيما يقابل هذه الخصوصيات عندهم ويؤدي هذا إلى استخفاف البنات لوطأة الآباء وشعورهن بالأمان معهم ، كما يؤدي إلى استخفاف البنين لوطأة الأمهات وشعورهم بالأمان معهن ، فإذا شاب هذا الشعور مسخيف من النظرة الجنسية فهو عارض لا يعمق إلى مكمن الغرائز في باطن كل إنسان .

عقدة أوديب قابلة للتفسير بتغيرات كثيرة غير العاطفة الجنسية وهي في القصة التي نسرد خلاصتها صالحة للمقارنة بين بطلها وبين أبي نواس ، لأنها تشتمل على عقدة الأب ومحالفة الشيطان وبطلها فنان يتعاطى الخمر ويكثر منها أحياناً فتجسم أمامه الرؤى والأشباح .

تناول فرويد موضوع هذه القصة في تقرير مفصل كتبه سنة ١٩٢٣ وبناء على وثيقة مأخوذة من دار المحفوظات الإمبراطورية بمدينة فيينا فحوها أن المصور كريستوف هايتزمان من أهالي بافاريا عاهد الشيطان

وكتب معه عقداً موقعاً بالمداد الأسود ثم عقداً موقعاً بالدم على أن يبيعه روحه ويُسعد بمعوته . وحدث ذات يوم ( ٢٩ أغسطس سنة ١٦٧٧ ) أن هذا المصور كان يصلّي في الكنيسة فسقط مصروعاً وجيء به إلى الأستقفال فاعترف له بتلك المعاهدة وتسلّم إليه أن يسأل السيدة العذراء أن تعتقه من أوهام الرجيم و تسترد منه الوثيقة التي تسلط بها عليه . ثم رأى المصور بعد فترة قضاها في التوبة والتکفير أن الشيطان جاءه بوثيقة الدم وحفظ عنده وثيقة المداد الأسود ، فشفي من داء الصرع برجهة ثم عاودته النوبات وتمثلت له في خلالها الأطیاف المقدسة من عليين ، ووقع في روعه أنها لا ترضي عنه ما بقيت في حوزة الرجيم تلك الوثيقة السوداء -

ويستدل من الأوراق المحفوظة على سر هذه المعاهدة ، وهو حالة اليأس والهبوط التي استولت على الفتى بعد فقد أبيه فحرمته للذلة الاقبال على العيش ، ثم حرمته فوق ذلك قدرته على اتقان فنه فاضطررت موارد رزقه وغامت على عقله غيمة الخوف والتشاؤم ، وظهر له الشيطان في إيهام هذه الأزمة .. فساومه على روحه ، وأطعمه في رد كل بما فقده من بشاشة العيش وبراعة الفن ، فانقاد له ولكنه رفض ما عرضه عليه الشيطان من العلم بطلasm السحر والملائكة بالمسرات والأموال ولم يطلب منه الا طلبة واحدة ، وهي أن يكون ابن جسده وأن يندمج فيه روحًا وبذلنا ، بعد تسع سنين وأن يحل في خلال هذه السنوات التسع محل أبيه ..

١٠ ولقصة حواش متفرعة لخصها فرويد في رسالته وعلق عليها فكان موفقاً في جوهر تعليقاته ..

قال ان عجز المصور عن اتقان فنه بعد وفاة أبيه يان هو الا طاعة  
مرجأة Deferred obedience لأن أباه كان ينهاه عن الاحتراف بهذا الفن  
فعصاه أثناء حياته وغام عليه تبكيت الضمير. بعد موته ففر من هذا الفن  
وعزف عنه نفسه وتعذر عليه اتقان صوره . فكسدت سوقه ومارت

تجارته وثقلت عليه أعباء العيش وتبيكت الضمير فساورته الأوهام وود الخلاص . وهو يؤمن كغيره من أبناء القرون الوسطى بقدرة الشيطان على السحر والطب ، فخيل إليه الوسوس أنه عاقده واعتمد على سنه ، وشخصه في صورة أبيه الذي يحنو عليه ويرعاه .

قال فرويد ما فحواه : إن شعور الابن بأبيه — ولا سيما الابن المختل لهذا المصور — هو شعور مزدوج متقابل Ambivalent يرى أبوه في صورة الحامي المودود وفي صورة العائق المخيف معاً ، فهي صورة تلتبس في باطن السريرة بصورة الشيطان المقتدر المرهوب ، وما كان الشيطان عند ذلك المصور إلا بديلاً من أبيه لا يبغي منه إلا الحماية والإنقاذ .

والقصة في جملتها تفري بالمقارنة بين هذا المصور وأبي نواس ، فكلاهما فنان وكلاهما يعاشر الخمر وكلاهما يحالف الشيطان على نهجه .. والاغراء بالمقارنة يأتي من أوجه الشبه ومن أوجه الاختلاف بين « الشخصيتين » ..

فأبو نواس لا يشعر بالذلة فلم يصبه الغسل ، ولا يثقل عليه نهي أبيه عن مزاولة فنه ، فلم يعجز عن قرض الشعر في حياة أبيه ولا بعد موته .

الآن الواضح من سيرة أبي نواس أن الشيطان كان بديلاً عنده من المعلم لا من الأب . وكان كل من معلمييه الذين طالت عشرتهم له في صباح فاسقاً شاداً يتخذ معه شكل الشيطان في تعليمه ايات الفجور والانقياد للشهوات ، فوالبة بن العباب معلمه الشعر زنديق ماجن ، وبدر الجمي البراء معلمه العطارة على هذه الخلقة من الفجور والمجون ، وقد تقدم في الفصل السابق أن التلميذ الترجسي يتوق إلى أستاذ يكون عنده بمثابة العزيز المدلل Pet ويتعلّم إلى مكانة خاصة لديه فهذا الشيطان الذي كان أبو نواس يسميه شيخه هو بديل الأستاذ حين شب عن طوق التسلّم على والبة الشاعر وبدر العطار .

ولو كان أبو نواس يعاقد الشيطان سراً لاختبله الوسوس الذي اختبل

المصور وأوقع في روعه أنه هالك مابقي في يد الشيطان ذلك العقد الموقع  
بالمداد الأسود وذلك العقد الموقع بالدم ولكن أبا نواس كان يحالف  
الشيطان ويجهر بمحالفته وكان يلعنه ويحسب أن اللعنة هي التحية  
المحبة إليه فسلم من الخبر بالعلانية وإن لم يسلم من كل عقدة نفسية  
تتعلق بالنسبة كما سترى في بيان العقدة التي أجهائه إلى ادمان السكر  
والهياق بالخمر هياق المفتون .

## أبو نواس والخمر

نكرر هنا أن طبيعة أبي نواس لم تكن من الطبائع التي تسفل إليها العقد النفسية ، لأنها كان يبوح بربائله ويتكشف بها . ويتعمد أن يجده الناس بها علانية ، وإنما تكمن العقدة النفسية في طوية الإنسان أو تسفل إليها من الكبت وطول الكتمان .

الإ عقدة واحدة هي الاستثناء لهذه القاعدة ، وهي عقدة الادمان .. فقد كان ادمانه الخمر هوساً ولم يكن مجرد عادة أو لذة ذوقية ، ولا بد وراء كل هوس من عقلة نفسية .

فما هي هذه العقدة التي أصابت نفساً محصنة من العقد فغلبتها ولم تفلح فيها اباحتها ولا العلانية التي عاش فيها من طفولته إلى ختام عمره ؟ إنها غلبته لأنها جاءته من قبل طبيعته ، وتعني بها الطبيعة الترجسية .. فهي الطبيعة التي تزين للترجي عادات العرض والظهور ، وهذه العقدة النفسية ليست مما يتقبل العرض والظهور ، لأنها مهينة لصاحبها مذلة له بين قومه ، وهي خسارة النسب في عصر الأنساب والأحساب .

وربما خطر لبعضهم أن إنساناً مثل أبي نواس في مجونه واستخفافه لا يعيى بمثل هذه العقدة ولا يتحرج منها وهو لم يتحرج قط من منكر أو رذيلة . لكنه عند النظر إليه خاطر خاطيء لا يثبت على التأمل والمراجعة . فإن احتمال الهوان يهدم الترجسي ولا يقى له بقية يعصم بها ، وأما احتمال الملام والنقد فقد يجارى طبيعته اذا كان فيه معنى التحدى ولقت الأنظار . وقد يهزأ الترجسي باللام والنقد مع علمه برياء الآتين وتذبذب الناقدين واعتقاده أنهم مثله في التجور وان خالفوه في الظهور .

وينبغى أن نعرف قوة هذه العقدة النفسية في زمان أبي نواس خاصة قبل أن نعرف السر في غلبتها عليه وعلاجه لها بادمان السكر والتهافت على عشرة الندماء ..

فالعصر الذي عاش فيه أبو نواس كان مترنح الانساب والاحساب بين كل انسان وكل انسان في الدولة الاسلامية .

هب فيه الشعويون يفاخرون العرب ولا يعترفون لهم بفضل غير فضل النبوة ، ثم يغمزون فضلهم هذا بتعميرهم بما جنوه على عترة النبي عليه اسلام ومخايرتهم ايامهم باتتصارهم لتلك العترة وتشييعهم لآل البيت من العلوين والعباسين ، ولم يزل هؤلاء الشعويون يفخرون على العرب بالحضارة والصناعة والترف والكياسة حتى قال قائلهم : « لا يفلح العربي الا ومعه النبي يوحى اليه ! »

والعرب أنفسهم كانوا فيما بينهم يتنازعون الفخار بين قحطان وعدنان أو بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وكانت كل قبيلة من القحطانية تفاخر القبائل الأخرى بالكثرة والعزّة وسوابق التاريخ ومكارم الآباء والابطال ، وكذلك كانت تفعل كل قبيلة من قبائل العدنانيين .

بل كان أبناء البيت النبوي العلوين والعباسيين يتنافسون على شرف النسب ويرى أبناء العباس لأخوتهم شرفاً لا يرونه لأبناء علي ، لأن العباس عمٌ وعلي ابن عم . فيقابلهم أبناء علي بالارتفاع إلى فاطمة الزهراء ، وهي بنت النبي عليه السلام .

وتکاد لا تسمع بأحد في ذلك العصر الا سمعت حوله بفخر نسبة أو بمنازعة له عليه ، ولا استثناء في ذلك للخلفاء المتبدلين بل لعلمائهم أحقر من على دعوى النسب من غيرهم على سبيل التعويض والعزاء .

فهذا والبه بن الجباب أستاذ أبي نواس لم يهبط أحد الى حضيض المهانة والزراية كما هبط بين سواد الناس وبين زملائه من الشعراء والأدباء ، وكان مع هذا يستطيل عليهم بنسبة العربي ويدعوا شـ اعـ رـ كـ اـ بـيـ العـ تـاهـيـةـ الىـ هـ جـوـهـ وـ اـ نـ كـارـ نـ سـ بـهـ وـ اـ نـ زـوـلـ بـهـ الـىـ طـبـقـتـهـ ، اي طبقة

الموالي المعترفين بحرمانهم من عراقة النسب ومن الأصالة العربية ، فيقول له فيما قال :

وابن الحباب صلية (١) زعموا ومن الحال صلية أشقر  
ويقول :

هلم الى الموالي الصي مد في سعة وفي رحب  
فأنت بنـاـ لعمر الله أـشـبـهـ منـكـ بالـعـرـبـ

وقد تلخص هذا الشغل الشاغل بالنسبة في ذلك العصر حقيقة مشهورة في علم الأنساب ، وهي ظهور أول كتاب عن الأنساب في تلك الفترة لامام النسائيين ابن الكلبي صاحب جمهرة الأنساب المتوفى حوالي سنة خمس ومائتين للهجرة ، وقد ظهر في مدينة الكوفة وهي من بيتات أبي نواس . ذلك هو مبلغ شغلان العصر بالنسبة وهو المهم في هذا الصدد لأنه هو مقاييس قوة العرف في هذه المسألة التي تمحن بها طبيعة أبي نواس ، وكلها ت Shawf إلى العرض والظهور .

أما مبلغ شغلان أبي نواس بها فهو من التواتر والتواتر بين الشواهد والأعراض بحيث تكتفي فيه الإشارة دون الأسباب .

فلا خفاء بلهفة أبي نواس على النسب العربي يتلمسه تارة في هذه القبيلة وتارة في غيرها من اليمانية أو النزارية حيثما اتفق مقامه وتفتحت له أبواب الدعوى والاتمام ، وما كان هو يكره أن ينخر في الحالات بالنسبة لو سلم له هذا الفخر بين أربابه المسلمين لهم بحقه ، فمن شعره في الخمريات ذلك الحوار الذي دار بينه وبين الخمار يسأله عن نسبة ويجيبه :

و خمار طرقت بلا دليل سوى ريح العتيق الخسرواني  
فقام اليه مذعوراً يلبي وجوف الليل مثل الطيلسان  
وقال : أمن تيم ؟ قلت كلا ولكنني من الحي اليماني  
وأشد من ذلك إبانة عن هذه اللهفة المطوية في قراره نفسه أنه كان .

---

(١) صلية أي عربي فتح .

يهجو فلا يقع على هجاء لأحد أقبح من الأصل الخسيس كما قال للرقاشي :

والله لو كنت جريراً لما  
كنت بأهنجي لك من أصلكا  
وكما قال للهيثم بن عدي :

الحمد لله بهذا أعجب العجب      الهيثم بن عدي يصار في العرب  
وأدق منه في الإبابة عن طوية الشاعر قوله لحمدان بن زكريا :  
ما أنت بالحسر فتلحى ولا      بالعبد نستعقبه بالعصا  
فرحمة الله على آدم      رحمة من عم ومن خصصا

وموضع الدقة الذي نعنيه هنا وثوبه بالنسبة إلى أبي الآباء آدم ،  
وهو الذي أعجب الشاعر لأن إبليس يتنه عليه ولا يتنه على ذريته ،  
وداخله الوهم أن إبليس قد أبى له السجود ولا يأبى السجود لابنه أبي  
نواس ألف سجدة .

وربما كان أشد من ذلك ماباينة عن لهفته على النسب أنه يمدح خليفة  
يتسع للشاعر مجال تعظيمه وتميزه بالصولة والنعمة والسبايا والسمات  
ما صدق منها وما كذب فلا يرى مدحًا له أبلغ من نسبة :

أبوك الذي لم يملك الأرض مثله  
وعمرك موسى الصفوة المتخير  
أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر  
ومنصور قحطان اذا عد مفتر  
وعبد مناف والداك وحمير  
فمن ذا الذي يرمي بهميك في العلا

وفي مقطوعة غير هذه يقول في هذا المعنى :

رأضينا بالأمين عن الزمان  
فأضحى الملك معمور المغاني  
فقد بلغتنا تلك الأماني  
إليه ولادتان له اثنستان  
إذا نسبت ولا كالخيزران  
كلا خاليه منتخب يمامي  
 بشكري الدهر مرتهن اللسان

وتنطوى هذه اللهفة في نفس انسان لم تكن المهانة هيئه عليه بل كان  
تياماً بطبيعته «النرجسية» :

لقد زادني تيماً على الناس أنتي أراني أغناهم وإن كنت ذا عسر

وكان يهتم الفرصة للتعالي على الذين يتعالون عليه فكان يجلس  
حيث جلس ويتلقي التحية من القادة والرؤساء فلا ينهض لواحد منهم .  
ولم ينهض لأحد حياء غير أبي العتاهية .. وفي هذا أيضاً دالة على دخلة  
نفسه من هذا الجانب . ! فقد كان أبو العتاهية من الموالي وكان في شبابه  
على زي المختفين وكان هو معاصره الوحيد من الشعراء الذي صافاه  
ولم يقاطعه أو يترفع عنه وتکاد نرى أن اتماءه إلى والبة في صباحه إنما  
كان لدخلة كهذه الدخلة . فان والبة كان مطعوناً في نسبة وكان أيضاً  
كأبي نواس - أو أشد بياضاً - وأبواه أسود كأنه زرزر كما قال أبو  
العتاهية :

مالي رأيت أباك أسود غر بيب القذال كأنه زرزر  
وكأن وجهك حمرة رئة وكان رأسك طائر أصفر

وقد تناقصت علاقة الشاعرين بوالبة فأبو العتاهية يهجوه لأنه مثله  
في عقدة نفسه وأبوا نواس يأله لأنه مثله في محاولة الخلاص من  
شبهة نسبة ..

ونعتقد أن أبا نواس إنما تشبت بالكتنية وترك اسم أبيه فراراً من هذا  
النسب المدخول . فهي مناط الدعوى عنده ولم يكن نسبة الصحيح إلا  
مبنة له من السفلة والعلية على السواء .

كانت الجارية عنان تريد النكایة به فتذكر له اسم أمه جلبان ، وكان  
الخليفة الأمين يسبه فيذكر له اسمها الآخر «شجمة» وكان أباً وابن ومن لف  
لله من الشعراء يهجونه فيسمون آباء «هنيئاً» أو النساج المستتر على  
حريسه وما شاكل ذلك من المثالب التي كان يعني الجواب عنها على تعجله  
بالهجاء حين يشاء . فلا جرم تساوره العقدة فلا يجد لها حلاً في غير الادمان

## لماذا يشرب الخمر ؟

والمؤرخ النفسي أن يكتفى بما تقدم للإبانة عن شدة اهتمام العصر بالتب وشدة اهتمام أبي نواس به في عشرته لكل طبقة من طبقات المجتمع الذي احتواه . الا أنها نرى على الدوام أن ديوان الشاعر أصدق ترجمة لحياته الباطنية ، ويصدق هذا على أبي نواس كما يصدق على سائر الشعراء المطبوعين وهو أصدق ما يكون على خمرياته التي تفليس بدلائل العقدة النفسية ومركب النقص الذي يساوره من اتسابه إلى كل من أبويه .

فهو يشرب الخمر لأنها شراب الملوك أو الشراب العريق الذي عاش مع أجداد الأكاسرة والقياصرة قبل مدار الجوم :  
تحيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار

وهو يستريح إلى تربتها حيث لا فخار بالإباء والأجداد بين الندامي الذين يهابونه ويتذللون بين يديه :

وإذا أنادم عصبة عربية  
بدرت إلى ذكر الفخار تميم  
وبنوا الأعاجم لا أحاذر منهم  
شراً فمنطق شربهم مذموم  
وجميعهم لي حين أقعد بينهم  
بتذلل وتهيب موسوم

وجنونه المتسلط عليه أن يفتح كل خمرية أو يتخللها بالنعي على الطلول والرسوم ومن يذكر الطلول والرسوم ، ومن ذاك مالا نحصيه :

لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلة  
كانت تحل بها هند وأسماء  
حشا لدرة أذْ تُبَنِيُّ الْخِيَامَ لَهَا  
وأن تروح عليها الإبل والشاة  
له بكير كما يبكي التوى رجل  
على العالم والاطلال بكاء  
ومنه :

أعرض عن الربع ان مررت به  
واشرب من الخمر أنت أصفها  
ومنه :

أيا باكي الاطلال غيرها البلى  
بكير بين لا يجف لها غرب

ومنه :

وتذكر عهد جدتها الخطوب  
تحت بها التجية والتجيب  
ولا عيشاً فعيشهم جديب  
وأين من الميادين الدروب

دع الأطلال تسقيها الجنوب  
وخلن لراكب الوجناء أرضاً  
ولا تأخذ عن الاعراب أرضاً  
فأين البدو من ايوان كسرى

ومنه :

وما أن سُبَّتِي زينب وكعوب  
لمثلي وان طال الزمان سلوب

دع الربع ما للربع فيك نصيب  
ولكن سُبَّتِي البابلية أنها

ومنه :

وَالْهُ عَنْهُ بَابَةُ الْعَنْب

عَذْهُ عَنْ رَسْمٍ وَعَنْ كُتُبٍ

ومنه :

والوصف للموماة والفلة

يا أيها العاذل دع ملحتي

ومنه :

وغير اطلال مي بالجرد

سُقِيًّا لغير العلياء فالسندر

ومنه :

لا تبك رسم بجانب السندر

ولا تجُد للدموع بالجرد

وبيت القصيد من هذا الموس بالمعنى على الرسوم والظلول انما هو  
الازداء بأهلها وبعيشهم وفخارهم الذي عز عليه أن يجاريهم فيه ، والاشادة  
بالخمر التي لا يدرك الكفاءة لها كل شارب ، ولا يسمو الشاربون لها  
إلى مثل شمائل أبي نواس :

وعجبت أسأل عن خمارة البلد

عاج الشقي على رسم يسائله

لادر ذرك قل لي من بنو أسد ؟

يكي على طلل الماضين من أسد

ليس الأغاريب عند الله من أحد

ومن تميم ومن قيس ولفهمما ؟

نعم كل الأغاريب من شمال أو جنوب ، وما ينخرتون به من حسب

حسيب وعيش جديب !

وأحياناً ينقل هذه النفرة من مفاخر القبائل والأنساب إلى لسان الخمار

الذى يقصد اليه :

فقلت له ما الاسم قال سموأل على أنتي أكنتي بعمره ولا عمرأ  
وما شرفتي كنية عريمة ولا أبستني لا ثناء ولا فخرأ  
لا جرم تصبح المنادمة قرابة تعنى عن قرابة النسب بين أناس لا يتفاخرون  
ولا يتعاظمون :

فذلك ما حيت له واني أبر بشله من والديه  
ورابعها فلندمان حق سوى حق القرابة والجوار

\* \* \*

ولم يخف على أحد من أبناء عصره ما كان يعنيه بالانحاء على الطلول  
 وباللجاجة في هذا الانحاء ، ولم يكن هو يخفي مقصدته منه وهو يتبعه  
 بالانحاء على الاعراب من كل قبيل ، ويفاصل بين الخيام وايوان كسرى .  
 وبين الدروب والمياذين ، فلهذا نهاء الخليفة عن الاستراز في هذه  
 اللجاجة وأمره بوصف الطلول فقال :

دعاني الى وصف الطلول مسلط     لقد ضفت ذرعاً أن أجوز له أمرا  
 فليس اللهج بالنعي على الطلول دعوة الى الجديد كما يتراءى من النظرة  
 السطحية الى ظاهر العبارة . ولم يأمره الخليفة بالكف عنه لأنه تجديد  
 ينكره ، ولكنه فهمه على معناه الذي لا يفهم على سواء من هذا التهوس  
 بتحقيق الاطلال وأهل الاطلال ، وخشي منه مغبة بين القبائل المتحفزة في  
 تلك الآونة ، فنهاه عنه نهياً عن هجاء سياسي لا تحمله عقباه ..

وبعد فهل كان أبو نواس يتتجنب بكاء الاطلال ما يشاراً للتجديد أو  
 ايشاراً لمذهب كائناً ما كان من المذاهب الفنية ؟ كلام . فانه لم يدع الى  
 تجنبها الا لايسترود من ذلك الى النعي على أهلها ومفاحر أنسابها .. والا  
 فمطالعه في بكاء الاطلال والديار تزيد على مطالع الشعراه من معاصريه  
 أو المتقدمين عليه ، وهذه بعض تلك المطالع المتكررة .  
 قال في أحدها :

هل عرفت الربع أجيلى     أهله عنه فـ زالا

وقال في مطلع آخر :

ألا حي أطلال الرسوم الطواسما  
عفت غير صقع كالحمام جوانما

وفي مطلع آخر :

لمن طلل لم أشجه وشجاني

وفي مطلع آخر :

الآلارى مثلى امترى اليوم فى رسم

وفي مطلع آخر :

لمن الديار تسربلت بيلها

وفي مطلع آخر :

هل لديار حيئها درس

وفي مطلع آخر :

غتنا بالطلول كيف بلينا

وفي مطلع آخر :

ألا حي أطلالا بسيحان فالعذب

وفي مطلع آخر :

ألم تربع على الطلل الطماس عفاه كل سحم ذي ارتجام؟

فالأطلال لا تهمه اذن الا ليستطرد منها الى عقدته والى التنفس غنها

بالخمر كلما برمت بمخاير النسب من تميم ومن قيس ومن أسد .. وليس

الاعاريب جميعاً عند الله من أحد .

ومنادمة الخمر هي «الوجاهة» التي يسمون بها الشاعر على النظراء

وهي التي تنفتح فيه الزهو والفحار بديلاً من زهو السادة الاصلاء وفخار

الأبناء والآباء ..

### نوبات السامة

وشة خلة أخرى من خلال الطبيعة الترجسية تعرضها لادمان الخمر وما  
اليها من عقاقير التخدير ، وتلك هي نوبات السامة التي تعاود الترجسي

كلا خلا الى نفسه وفرغ من العمل ، ان كان له عمل يشغله .

فالوقت ثقيل على الطبيعة الترجسية تدفعه بكل ما تستطيع من الشواغل والملاهي ؛ وعواطفها الموكلة بشيء واحد — وهو عشق الذات — لاتزال أبداً في حاجة ملحة الى التنبية والاستثارة .

وقد يتصرف الترجسي بدقة الحس أو رقة العاطفة وخفة الشعور ولكنه محروم من تلك الدوافع الحيوية التسديقة وتلك الطبائع العميقه التي تستجيش النفس أبداً بما يشغلها ويجدد نشاطها ويوثق روابطها بالعالم وما فيه . فإذا ترك الترجسي لنفسه لم يجد فيها ما يملأ فراغه كله ولم يزل متلماً للفرجة والتسلية والنشوة التي تلهيه وترضيه عن ذاته وتجدد لها أشواطها فيما يعنيها من فنتتها وغوانتها .

ومن ثم يتسرّب حب الخمر الى الطبائع الترجسية ، فإذا اعانتها بواعث أخرى من غواية الطبع أو البيئة ت ADVISOR بها حب الخمر الى الادمان والاصرار عليه ..

ويلاحظ في خسيفات أبي نواس هذا الولع بكل ماينبه الشعور ويدفع السآمة ويوقع في خلده أنه مشغول بما يشغل ويثير . فهو مع السكر والسماع لاينسى أن يشنل لنا مخافة صاحب الحان وذعره وانتباشه من النوم في وجل وريبة ، ويوشك أن يكون وصف الخوف ملازمًا لكل قصة من قصص السعي الى الحانات والبحث عن الجيد النقيس من الشراب . فيعجبه أن يرى الساقى بين الخوف والرجاء حيث يقول :

لما قرعت عليه الباب أوجله وقال بين مسرّ الخوف والراجي  
أو فرعاً شديداً الفزع كما قال :

فقام لدعوتني فزعاً مروعاً وأسرع نحو اشعال الذبال  
أو متنلاً ذعراً كما قال :

فلما قرعننا بابه هبَّ خائفاً وبادر نحو الباب مستنلاً ذعراً  
ومثله قوله :

فقام الي مذعوراً يلقي وجود الليل مثل الطيسان

ومثله :

فَقُرْبٌ من مَدْلَاجِنَا بَعْدَ هَجَّةٍ  
وَلَيْسَ سَوْى ذِي الْكَبْرِيَاءِ رَقِيبٌ  
تَأْوِمَ خَوْفًا أَنْ تَكُونَ سَعَايَةٍ  
وَعَاوِدَهُ بَعْدَ الرَّقَادِ وَجِيبٍ

ومثله :

يَارَبِّ صَاحِبِ حَانَةٍ قَدْ رَعَتْهُ فَبَعْثَتْهُ مِنْ نَوْمَةِ الْمُتَزَمِّلِ  
وَهَكَذَا يَرُوقُهُ أَنْ تَسْتَهِيرَهُ الْخَمْرُ وَهُوَ يَسْعَى إِلَيْهَا وَتَسْتَجِيْشُهُ وَهُوَ  
يَسْرِبُهَا وَيَسْتَمِعُ إِلَى نَدْمَائِهَا .

وَمَا هُوَ غَايَةُ الْحَرْمَانِ عِنْهُ ؟ وَمَا هُوَ عَقَابُ الْبَخْلِ عَلَى الْخَمْرِ بِالْمَالِ ؟  
إِنَّهُ لَا شَيْءٌ غَيْرُ الشَّعُورِ بِطُولِ الْوَقْتِ وَثُقْلَةِ الْمُلْلِ حَتَّى تَكُونَ السَّاعَةُ  
كَالْجِينِ ..

وَاصْرَفْنَاهَا عَنْ بَخِيلٍ دَانَ بِالْأَمْسَاكِ دِينًا  
طَوْلَ الدَّهْرِ عَلَيْهِ فَيَرِي السَّاعَةَ حِينًا

وَلَهُذَا نَرَى الشَّاعِرَ يَسْتَرِيحُ إِلَى كَرِ الأَيَّامِ بِأَسْمَائِهَا فِي شِعْرِهِ كَمَا  
يَسْتَرِيحُ الْمَسَافِرُ الْمَلْوُلُ إِلَى عَدْدِ الْفَرَاسِخِ وَالْمَراحلِ الَّتِي خَلَفَهَا وَرَاءَهُ ،  
وَكَثِيرًا مَالْغَطُ قَرَأَهُ بِسَا أَرَادَهُ مِنْ احْصَاءِ هَذِهِ الأَيَّامِ وَلَا مَرَادَ لَهُ غَيْرُ  
الْأَسْرِ وَرَبِّ بُفَوَاتِهَا وَعَدَهَا وَهِيَ تَنْقَضُ وَتَنْصُرُ وَهُوَ يَشْعُرُ بَعْدَهَا «بِالْوَجَاهَةِ  
النَّرْجِسِيَّةِ» لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ الْبَخِيلُ الَّذِي طَوْلَ الدَّهْرِ عَلَيْهِ .

وَمِنْ كَلَامِهِ فِي هَذَا الغَرضِ ذَلِكَ الْبَيْتُ الْمُشْهُورُ :

أَقْسَنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمَيْنَ بَعْدِهِ وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسٌ

وَمِنْهُ :

تَبَرَّكَ الْمَرءُ إِذَا مَا دَاقَهَا يَرْخِي الْأَزَارَا  
وَيَرِي الْجَمِيعَةَ كَالْسَّبْتِ وَكَالْلَيْلِ النَّهَارَا

وَمِنْهُ :

فلم نزل في صباح السبت تأخذها  
 والليل أجمعه حتى بدا الاحد  
 ثم ابتدأنا الطلا باللهو من أمم  
 في نعمة غاب عنها الضيق والنكد  
 حتى بدت غرة الاثنين واضحة  
 والسعد معترض ، والطالع الاسد  
 وفي الثلاثاء أعملنا المطي بها  
 صهباء ما فرغتها بالمزاج يد  
 والأرباء كسرنا حد سورتها  
 والكأس يضحك في تيجانها الزبد .  
 ثم الخميس وصلناه بليلته  
 قصفاً وتم لنا بالجمعة العدد

ويلحق بهذا طيُّ الشهور والشهرين بين حفاثات القفص وقطربيل كما حدثوا  
 في بعض خمرياته أنه أقام بقطربيل من أول يوم في رجب إلى آخر يوم في  
 شعبان ثم عاد ليشرب قبل أن تثبت رؤية الهلال ، ونسبوا إليه أنه قال :  
 لو شئت لم نبرح من القفص      تأخذها صفراء كالجص  
 نسرق هذا اليوم من شهونا      فربما يعنى عن اللص  
 وهذا الملل وذاك الفتور من مغرياته بالشراب وادمان المعاقة : إلا أنه  
 ادمان حسي لا يلزم منه أن يتھوس صاحبه بالخمر ذلك التھوس الذي ينبع  
 على العقد النفسية ويلمع فريسته كأنما يركبها الشيطان فلا يدعها أو  
 يوردها المورد الذي يبغىه .

وينبغي ألا ننسى في معرض المغريات التي سولت لأبي نواس ادمان  
 الشراب باعثاً قوياً نظنه أحدي هذه المغريات ظن الاحتمال والترجيح ،  
 وذاك هو سوء العيش ونقص الغذاء وافتقار الجسم إلى الحركة والتنفس .  
 فان أبا نواس قد عاش في ضنك وفاقته معلم أيامه على غير ما يتوصهم  
 المتوجهون ، وكان يسمى نفسه العاشق المفلس في بعض شعره ، ويبالغ

فيما أنفقه على الخمر أحياناً فيروي لنا أنه أنفق عليها الثمانين ديناراً التي  
عاد بها من مصر ممتليء الوطاب بجوائز الخصيب ، وما في كل يوم يمتليء  
الوطاب هذا الامتلاء ! فإذا كانت جوائز الخصيب التي كافر بها المكاثرون  
لم تختلف عليه إلا هذه الدنانير الثمانين فما الظن بأيامه الأخرى التي  
تفرقت بين السجن والقصاء وتبدل السادات والأولاء ؟ تلك حال  
لا يستبعد على صاحبها أن يحوجه سوء العذاء إلى استفزاز البنية بالكحول  
وما إليه ، كأنه بديل من الفخر بالأباء ، وبديل من السآمة والخواء .

\* \* \*

ونرجع إلى المقابلة بين أبي نواس وأوسكار وايلد في هذه الخلطة ،  
خلطة الادمان ، تطبيقاً لما أسلفناه من أن الاختلاف بينهما يثبت المشابهة كما  
يثبتها الوفاق ..

فالشاعر الايرلندي لا يشكوا من عقدة النسب لأنه من سلالة النبلاء ،  
ولا يشكوا من سوء العذاء لأنه من الأغنياء ؛ ولا يدفع السآمة بالخمر  
وحدها لأنه مقدر على السياحة والتردد على المقاصف والملاهي والتشاغل  
باقامة المأدب وحضورها عند من يدعونه إليها ؛ وليس من همه أن يتحدى  
الناس بالشراب ، لأن بيته عصره لم تكن كذلك البيئة التي كان أبو نواس  
يتحداها حين يقول :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر  
ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر

ولهذا اختلف الترجسيان في أمر الادمان ، فكان اختلافهما أدل على ،  
الآفة المشتركة بينهما من الوفاق .

## الفن وأبو نواس

أحق الشعر النواسي بالدراسة التفسية — بعد الخمريات — هو شعره في الغزليات والنسكيات ، ولكن البحث النفسي يتضاعفان قبل ذلك لأن تكلم عن طبيعة فنه على الجملة ، فانا اذا فهمنا طبيعة الفنية لم نجد صعوبة في فهم عاطفة الحب ونوازع العقيدة كما عبر عنها بقصائد الغزل أو القصائد الدينية ..

وصفة ما يقال في طبيعة فنه أنه ظاهرة من ظواهر العرض الذي أشرجت عليه الطبيعة الترجسية ، وإذا كان الكلام عن شاعر فالعرض الترجسي والعرض الفني تعبيران متراداً .

يواجهنا الشعر النواسي بالغاز لاتفهم حيث تتلاقي الزندقة بالنسك ويتألّح غزل المؤنث وغزل المذكر ويمتزج المهل والجد ، ولكننا اذا أدخلنا في حسابنا طبيعة العرض الترجسي ومشتقاته ولو ازمه لم يبق من هذه النقاوص لغز يستعصي على الفهم ، وأصبحت هذه الالغاز في كثير من المناسبات وهي المفتاح الحاضر الذي يحل كل اشكال .

فالعرض الفني هو قوام شعر أبي نواس ، لا يهمه أن يتغزل أو يرثي أو ينظم في النسك والحكمة ، وإنما يهمه أن « يعرض » من طويته « دوراً مسرحيّاً » يلفت النظر ، وكل عروضه الفنية هي مسرحيات تتميز بالموضوع ولكنها تساوى في صبغة واحدة : هي صبغة التمثيل .

ولا تقصد بهذا أن شعره خلو من الشعور ، بل تقصد به أن العرض هو الباعث الأول عليه ، وما عدا ذلك من شعور واقعي أو شعور فني فهو تابع من توابع الباعث الأصيل .

ولا يغيب عن بالي أن المثل المقترن في فنه يستوحى شعور الدور الذي يمثله من سلبياته وخياله ، ولا يغيب عن بالي الى جانب ذلك أن « التشخيص » Identification فطرة في النفس الترجسية يبلغ من غلبتها على الحس أن يخلع الإنسان شخصيته على كائن غيره ، وهو لا يشعر بذلك كل الشعور في صميم وعيه . فليس من العسير على الفطرة الفنية المطبوعة على التشخيص أن تستوحى الشعور الذي يلائم عملها الفني وتودعه قال الكلام المطبوع فإذا هو مطبوع .  
نظم هذه الآيات في رثاء خلف الأحمر :

لما رأيت المنسون آخذه  
كل شديد ، وكل ذي ضعف  
بت أعزى الفؤاد عن خلفه وبات دمعي ان لا يقضى يكفر  
أنسي الرزايا ميت فجعت به أنسى رهين التراب في جدف<sup>(١)</sup>  
وكان من مضى لنا خلفاً فليس منه اذ بان من خلف

ولم يكن خلف الأحمر قد مات حين نظمها ، وسواء كان نظمها مستجبياً لاقتراح خلف على الشعراء أصحابه ، أو كان نظمها بغیر اقتراح منه فأبوا نواس هو الشاعر الوحيد الذي رویت له مرثاة لخلف الأحمر في حياته ، وبقية القصة في بعض الروايات جديرة بالشاعر في عبته وسخريته ، فان خلفاً على ما قبل قد استحسن أبيات الرثاء فقال له تلميذه الهازلي : يا أبا محرز ! مت ولتك عندي خير منها ، فقال خلف : كأنك قد قصرت ؟ قال : لا . ولكن أين باعث الحزن ؟

وندع الرثاء وهو معلق بفقد يوم ، وننظر في شعر النسك الذي لا يتوقف النظم فيه على غير الناظم ، فانما كان يطرق هذا الباب أو يدعه كأنه دور من أدوار التمثيل يأخذ منها ما يأخذ ويوزع منها بين زملائه ما يحبونه وما يكرهون أن ينافسهم عليه .

قال أبو مخلد الطائي : جاء أبو العتاهة الى عندي فقال لي : إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحبت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئاً ، فاني

<sup>(١)</sup> اي ثغر .

قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعرا ، وللزهد شوقي ... ببعثت الى أبي نواس فجاء الي وأخذنا في شأننا ، وأبو العتاية لا يشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبي نواس : ان أبا اسحاق من قد عرفت في جلالته وتقده ، وقد أحب أنك لاتقول في الزهد شيئاً ... فوجم أبو نواس عند ذلك وقال : يا أبا مخلد ! قطعت على ما كتبت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع . وقد فعلت ولا أخالف، أبا اسحاق فيما رغب فيه !

فمعارض الشعر اذن في عرفه وعرف زميله أبي العتاية أدوار توزع على حسب الحاجة الى العرض الفني لا على حسب البواعث الصادقة من بالهام السريرة ... وليس مما يفوت الناقد في هذه القصة ان أبي العتاية كان أثيراً عند أبي نواس وأنه دون غيره من معاصريه كان لديه في مقام التوفيق والاستجابة للرجاء ، وتلك احدي العلامات على عصبية الانحراف التي تقرب بين المنحرفين كأنها من وشائج اللحم والدم ، وقد كانت هذه المصبية على أشدتها بين الشاعرين وكانت القرابة بينهما في هوس الانحراف أشد من قربة النسب المدخول ، ولو كان في المقام متسع للبحث في دخيلة أبي العتاية لفضلنا هنا أخباره ودلائل أطواره ، ولكن قصة واحدة من قصصه تصور لنا هذه الطبيعة المضطربة بين المجنون والنسك فتبعدونا من بعض جوانبها كأنها ملامح مكبرة مؤكدة من أبي نواس ، فهمما زميلان في أكثر من زمالة ، وهذه القصة تريينا أن أبي نواس كان على حق حين قبل من أبي العتاية أن يستأثر دونه بالرهديات .

حدث مخارق المعني قال : جاءني أبي العتاية فقال : قد عزمت على أن أزود منك يوماً تبهه لي ، فمتى تنشط ؟ فقلت : متى شئت . فقال : أخاف أن تقطع بي . فقلت : والله لا فعلت وأنه طلبني الخليفة . فقال : يكون ذلك في غد ... فلما كان من غد باكرني رسوله فجئته فأدخلني بيته له نظيفاً فيه فرش نظيف . ثم دعا بمائدة عليها خبز سميد وخل وبقل وملح وجدي مشوي ، فأكلنا منه ، ثم دعا بسمك مشوي فأصبنا منه حتى

اكتفينا ثم دعا بحلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفاكهة  
 وريحان وألوان من الأنبياء فقال : اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت  
 وشربت ، وصب قدحًا ثم قال : غنني في قولي :  
 .. أحد قال لي ولم يدر ما بي ..  
 فعنيته فشرب قدحًا وهو يبكي آخر بكاء ، ثم قال : غنني في قولي :  
 ليس لمن ليست له حيلة ميسورة خير من الصبر  
 فعنيته وهو يبكي وينشج ، ثم شرب قدحًا آخر ثم قال : غنني فديتك  
 في قولي :  
**خليلي مالي لا تزال مضرتى تكون من الأقدار حتماً من الحتم**  
 فعنيته أياه ..

وما زال يقترح عليَّ كل صوت غنى به في شعره فأغنية ويشرب ويبكي  
 حتى صارت العتمة . فقال : « أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع »  
 فجلست . فأمر ابنه وغلامه فكسر كل ما يديننا من النبيذ وآلتة  
 والملاهي ، ثم أمر باخراج كل ما في بيته من النبيذ وآلتة فأخرج جميعه فما  
 زال يكسره ويصب النبيذ وهو يبكي حتى لم يبق من ذلك شيء . ثم  
 نزع ثيابه واغتسل ، ثم ليس ثياباً بيضاً من صوف ، ثم عانقني وبكي ، ثم  
 قال : « السلام عليك يا حبيبي وفرحي من الناس كلهم ، سلام الفراق  
 الذي لا لقاء بعده » وجعل يبكي ويقول : « هذا آخر العهد بك في  
 حالة تعاشر أهل الدنيا » فظننت أنها بعض حماقاته وانصرفت وما لقيته  
 زماناً . ثم تشوقة فأتتها فاستأذنت عليه فأذن لي ، فدخلت فإذا هو قد أخذ  
 قوسرين - أي وعائين من قصب - وتنبأ أحدهما وأدخل رأسه ويديه  
 فيها وأقامها مقام القميص ، وثقب الأخرى وأخرج رجليه منها وأقامها  
 مقام السراويل .. فلما رأيته نسيت كل ما كان عندي من الغم عليه  
 والوحشة لعشرته وضحكـ والله ضحـكاً ماضحةـ مثلـهـ قـطـ . فقال :  
 « من أي شيء تضحك ؟ » فقلـتـ : « سخـنـ اللهـ عـيـنـكـ ؟ـ هـذـاـ أيـ شـيءـ هـوـ ؟ـ  
 من بلـفـكـ عـنـهـ أـبـهـ فعلـ مـثـلـ هـذـاـ مـنـ الـأـنـبـيـاءـ وـالـزـهـادـ وـالـصـحـابةـ أوـ الـمـاجـنـينـ ؟ـ

انزع عنك هذا ياسخين العين » فكأنما استحق مني ، ثم بلغني انه جلس حجاماً فجهدت أن أراه بتلك الحال فلم أره ، ثم مرض فبلغني انه اشتئى أن أغنيه فأتيته عائدًا فخرج الى رسوله يقول : « ان دخلت الى جدلت لي حزناً وتأتني نفسي من سماعك الى ما قد غابتها عليه ، وأنا استودعك الله وأعتذر اليك من ترك الالقاء . ثم كان آخر عهدي به »

وهذه القصة التي قصها علينا مفارق تمثل لنا نسخة من نسخ العرض المضطرب بين المجنون والنسك وترينا وشبيحة من وشائج القرابة في الانحراف بين نفس أبي العناية ونفس أبي نواس ، وسنرى فيما بعد أن القرابة بينهما أوثق من ذلك ولا سيما في باب النسك والتوبة وأن الحكمة التي تقول لنا إن الجنون فنون أعمق وأصدق مما أراد القائلون.

وبديه أن أبي نواس لم تكن به حاجة الى طبيعة العرض في معظم الأبواب التي قال أبو العناية أنه ترك النظم فيها كالمديح والهجاء وما فيه الشعرا ، فهذه الأبواب قد اصطلاح الناس جميعاً على بدايتها وفهموا أنها تدور على العطاء والمنح والمودة والجفاء فلا حاجة للشاعر الى خلق أسبابها من عنده ، ولكن باباً من الأبواب تركه أبو العناية وأكثر أبو نواس من النظم فيه قد كان يصدر منه عن طبيعة العرض ولا تدعوه الي حاجة الشاعر الى الكسب أو الى التسلح بالمدح والهجاء لترغيب الأصدقاء . وترهيب الأعداء ، وذلك الباب هو باب الطرد ووصف الصيد فكل بواعته عند أبي نواس فانما هي من قبيل العرض الفني بغير مشاركة من البواعث « المعيشية » المصطلح عليها بين معاصرها .

ولا يعتمد الناقد على تعليل قصائد الطرد بطبيعة العرض لو كان أبو نواس من هواة الصيد في غير صحبة يجاريها كما يجاري كل صحبة .

وانما يكون الشعر من « العرض الفني » حين يكون مداره على الصورة والحكاية وهكذا كان شعر أبي نواس في قصائد الطردية على الإجمال ، فإنه وإن صاحب الصيادين على ما يظهر من بعض شعره ، لم يؤثر عنه انه كان يحب الطرد والصيد ذلك الحب الغلاب وإنما نظم فيه

ليعرض قدرته على النظم في هذا الباب ، فاختار أكثر طردياته من الرجز وهو وزنه التقليدي عند الشعراء ، واصطعن فيه الغريب ليحكى أمام الرجال رؤية بن العجاج وهو مشهور بكثرة غريبه في أراجيزه ... فكل ما في هذا الباب « عرض فني » تحصر بواعته في هذه الرغبة ولا تعبر عن باعث تقسي غير هذا الاباعث ، ومن اتقان العرض انه كان يتخير القوافي الفخمة العسيرة كالطاء والظاء ومن أمثلتها قوله في وصف كلب :

أَنْعَتْ كَلْبًا جَالَ فِي رِبَاطِهِ	جول مصاب فَرُّ من إمساكه <sup>(١)</sup>
عِنْدَ طَبِيبِ خَافِ من سِيَاطِهِ	هَجَنَا بِهِ وَهَاجَ مِنْ نِشَاطِهِ
كَالْكُوكَبِ الدَّرِيِّ فِي انْخِراطِهِ	عِنْدَ تَهَاوِي الشَّدِّ وَانْبَاطِهِ
يَقِيمُ الْقَائِدِ فِي حَطَاطِهِ	وَقَدْهُ الْبَيْدَاءِ فِي اعْتِباَطِهِ <sup>(٢)</sup>
لَا رَأَيُ الْمُلْهِبِ فِي أَقْواطِهِ	سَابِحَهُ وَقَرْ فِي التَّبَاطِهِ <sup>(٣)</sup>
كَالْبَرْقِ يَذْرِي الْمَرْوَ بِالْتَّقَاطِهِ	مُثْلِ قَلْيَ طَارَ فِي انْفَاطِهِ <sup>(٤)</sup>
وَانْصَاعُ يَتْلُوَهُ عَلَى قَطَاطِهِ <sup>(٥)</sup>	أَغْضَفُ لَا يَأْسَ مِنْ خَلَاطِهِ

إلى آخر الأرجوزة على هذا المثال .

ومن هذا الباب على حرف الظاء :

أَعْدَدْتْ كَلْبًا لِلْطَّرَادِ فَظَاهَرَ	إِذَا غَدَا مِنْ نَهَمِ تَلْظِيَّهِ
وَجَاذِبِ الْمَقْوَدِ وَاسْتَلْظَاهُ	كَانَ شَيْطَانًا لِهِ الْظَّاهَرُ
يَكْظُ أَسْرَابِ الظَّبَاءِ كَظَاهِرِهِ	حَتَّى تَرَاهَا فَرْقًا تَشَظِّيَّهُ
يَجُوزُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ حَظَاهُ	حَتَّى تَرَى جَمِيعَهَا مُفْتَظَاهًا

( أي مفتظاً : معتزراً )

وقس على ذلك سائر طردياته وهي من أجود منظوماته ، وبوعتها كلها ما علمنا من حب العرض الفني المتمكن من خليقته من ناحية الطبيعة . الترجسية والهبة الفنية ، فلو لا أن رؤبه قد أغرب في رجزه ، ولو لا أن ،

(١) أي جول مجنون يعالج بالسعوز فر من الطبيب المالمج

(٢) أي يصرع القائد ويمشيط الأرض كما تعيطها الربيع أي بسرها

(٣) الملهم ثور الوحش ، والأقواخ - القطنان ، والالتحاط الجرى السريع

(٤) أي يقدف الحجارة كما تطير الفتات من المقلة

(٥) على قطاطه أي على مثاله والاشتبه ، المدى اذناه الى ابراء

الطرد ينظم في الرجز ، ولو لا أن أبي نواس قد حفظ الغريب وأحب أن يعرضه فلم يجد لعرضه باباً غير هذا الباب ، لما الح على هذا الباب ينظم فيه ويعيد النظم على السهل والصعب من قوافيها .

وقد أجمع مؤرخو الأدب لعصر أبي نواس على سعة علمه بالغريب وأغرق بعضهم في توسيعة نصبيه من العلم به حتى زعم أنه لم ينظم الشعر الا بعد أن حفظ ألف أرجوزة ثم أمره أستاذه خلف الأحمر بنسيانها . وأعرق هو في مثل هذه المبالغة فقال انه لم ينظم الشعر الا بعد أن روى لأكثر من ستين شاعرة وناهيك عن الشعراء الفحول . فإذا تركنا جانب الأغراق من هذه الأقاويل فالذى يبقى ثابتاً لا مبالغة فيه أنه كان وافر العلم بالغريب والأراجيز وأنه احتاج الى العرض في هذا الباب لأنه كان في شعره كله سهلاً قليلاً لايطرق الحوشى من الألفاظ الا في الندرة النادرة . ولابد هنا من ملاحظتين على تقليد أبي نواس للقدمين حين يكون هذا التقليد سبلاً للعرض ولفت النظر ذاولى هاتين الملاحظتين أنه كان حريصاً على محاكاة الأعراب في أسلوبه ونبي هنا الازراء على جفاء الأعراب ولأن العرض في باب الطرد لا يتأنى له مع بذ جفاء الأعراب . والملاحظة الثانية أنه اجتنب التصرف في مطالع الأراجيز فهي تحكم مطالع القدمين في هذا الباب ومنها تكراره « أنت كلباً » و « قد أُغشدي » و « يارب » و « ملأ » .. وكلها مما تفتح به الأراجيز وهو يحافظ عليها حتى حين يترك الأرجوزة الى ما يشبهها من المجموعات كما قال :

ربما أغدو معى كلبي طالباً للصيد في صحي

ثم يعود في هذا الوزن العفيف الى الأغراب في الغريب فيقول :

فسمونا للحزير به (١) فدفعناه على أطيب

فاستدرّته فدرّ لها يلطم الرفقين بالترّب

فادرّها وهي لاهيّة في جحيم الحاذِ والغرب (٢)

(١) الحزير : الأرض النططة

(٢) الحاذ ما يحاذيك من الجنيين والغرب والظهر

قد مخلو لأن من عصب  
 جاب ذيفه عن القلب (١)  
 ضمك الكسرىن بالشعب  
 ت فتخاء عن (٢) لمب  
 ودنا فوه من العجب (٣)  
 أزماً منه على الصلب  
 تلك لذاتي وكنت فتى  
 ففري جماعهن كما  
 غير يفسور أهاب به  
 ضم ليحيى بمحظمه  
 واتهي للباهايات كما كسر  
 فتعاي التيس حين كبا  
 ظل بالوعسae (٤) ينفضه  
 لم أقل من لذة حسي

وقد غير هنا البحر ولم يستطع أن ينزع عن لوازم العرض في باب الطرد  
 وهي الأغرب في اللفظ . فملاً هذا البحر المستخف بالجlamid الجافية من  
 مفردات اللغة الوعرة لأن الغرض الأكبر هو اظهار القدرة على الأغراض  
 ومحاكاة الاعراب ..

فالشاعر على هذا ماض مع طبيعة العرض تملّي عليه هذه الطبيعة أن يعني  
 على الأطلال فينعاها وتملي عليه أن يحدو حدو الأقدمين فيبالغ في محاكاتهم  
 ويتنزع من درايتها باللغة شملة بدوية لا ملامعة بينها وبين أسلوبه حيث  
 يلبس للحضر لبوسه ويناجي أيناهه وبناته بما يأنسون من لغة الأندية  
 ومجالس اللذات ..

وقد سئل الشاعر عن جيده وردّيه فقال : اذا أردت أن أجده قلت مثل  
 قصيدي : « أيها المتناب من عفره » واذا أردت العبث قلت مثل قصيدي :  
 « طاب الهوى لعميده » .. فاما الذي أغنى فيه وحدي وكله جد « فادا  
 وصفت الخمر » .

وهذه رواية تشكّلنا في صحتها أو تشكّلنا في صواب أبي نواس حين  
 يحكم على شعره . فان قصيده : « طاب الهوى لعميده » ليست من شعره  
 [رديء على كثرة الرديء منه . ولكن الصواب — لو كان أبو نواس ينفذ

(١) البغور الذي بلون المغار والدف الجنب

(٢) الفتخاء المقباب والمهما بين الجبلين من هاوية

(٣) العجب آخر الشود المقرى

(٤) الومساة رابية من دمل

إلى دخلية طبعه — أن يقول : ما نه يجيد حين يجسح قريحته للعرض الفني ،  
ويسفّ ويهبط حين ينسى العرض ويترك قريحته في مبادلها !

\*\*\*

على أن النرجسية قد استوفت نصيتها من كل مسماتها فليس التهافت على العرض كل ما يجنيه الفنان من الطبيعة النرجسية ، وليس بالنادر أذ يستفيد منها نفخة من لطافة الحدس وشفافية الحس تلهمه الخواطر التي تدق على الطبيعة الخشنة . وهذه المزية لم يحررها أبو نواس ، فأفادته زكارة في كثير من طرائفه كأنها زكارة تلك اللغة الموحية التي كان يتضامن بها مع أدائه ويعنيها بقوله :

أزور محمدًا فإذا التقينا  
تكلمت الضمائر في الصدور  
فأرجع لم آلـه ولم يلمـني  
وقد رضي الضمير عن الضمير  
أمور ليس يعرفها بـسوانا  
يـحـيـرـ لـطـفـها بـصـرـ الـبـصـيرـ  
أو يعنيها بـقولـهـ :

تـجـمـعـ عـيـنـيـ وـعـيـنـهاـ لـغـةـ  
مـخـالـفـ لـفـظـهـاـ لـعـناـهاـ  
إـذـاـ اـقـضـاـهـاـ طـرـفيـ لـهـاـ عـدـةـ  
عـرـفـتـ مـرـدـودـهـاـ بـفـحـسـوـاهـاـ  
فـانـ لـمـ تـكـنـ طـرـائـفـهـاـ مـنـ وـحـيـهـاـ وـلـاـ شـكـ قـسـطـ  
غـيرـ يـسـيرـ ..

## غزل المؤنث والمذكر

### الحب والغزل

قال أبو نواس في جنان :

يتدي منه وينشبع  
وجهها بالحسن متقب  
تنقي منه وتنتب  
واسْتُزادت بعض ما تهـب  
عودة لم ينـها أرب (١)  
رـبـ جـدـ جـرهـ اللـعـبـ

ما هـوى لـاه سـبـبـ  
فـتـتـ قـلـبيـ مـحـبـةـ  
خـلـيـتـ وـالـحـسـنـ تـأـخـذـهـ  
فـاكـتـسـتـ منـهـ طـرـائـفـهـ  
فـهـيـ لـوـ صـيـرـتـ فـيهـ لـهـاـ  
صـارـ جـدـاـ لـاـ لـعـبـ بـهـ

وقال في عريب :

حـبـيـ لـهـاـ ،ـ وـالـحـبـ شـيـ عـجـبـ  
أـوـ كـاذـبـاـ ،ـ بـالـجـدـ أـوـ بـالـلـعـبـ  
ذـوـ صـبـوـةـ مـنـ عـجـمـ أـوـ عـرـبـ

صـيـرـنـىـ عـبـدـاـ لـهـاـ مـذـعـنـاـ  
لـوـ وـعـدـنـىـ مـوـعـدـاـ صـادـقـاـ  
ظـنـنـتـ أـلـيـ نـلتـ مـالـمـ يـنـسـلـ

وقال :

نـقطـ مـنـ طـسـولـ مـاـ اـخـتلـعـ  
كـ وـالـهـسـمـ قـدـ نـضـجـ  
يـ وـأـهـلـيـ مـتـىـ الفـرـجـ  
جـ زـيـادـ ،ـ وـقـدـ خـرـجـ  
بـكـ فـيـ أـضـيـقـ الـحـرـجـ

جـفـنـ عـيـنـيـ كـادـ يـسـ  
وـفـؤـادـيـ لـعـرـ جـبـ  
خـبـرـيـنـىـ فـسـدـاـكـ نـفـسـ  
كـانـ مـيـعـادـنـاـ خـرـوـ  
أـنـتـ مـنـ قـتـلـ عـائـذـ

وقال في دنانير :

بـيـنـ الضـلـوعـ وـأـخـرىـ بـيـنـ أـحـشـائـيـ

صـلـيـطـ مـنـ جـهـاـ نـارـينـ وـاحـدـةـ

(١) أي أنها اختارت فلم تبق ماتختار إذا عادت إلى المحسن لتأخذ منها غير ما عندها.

فمَّا يَعْبُرُ عَنِي غَيْرُ اِيمَانِي  
عَلَى الْفَرَاشِ وَمَا يَدْرُونَ مَا دَائِي  
وَصَلِيْ مُشِيتْ بِلَا شَكٍ عَلَى الْمَاءِ

وَقَدْ حَمِيتْ لِسَانِي أَنْ أَبِينَ بِهِ  
يَا وَيْحَ أَهْلِي أَبْلِي بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ  
لَوْ كَانَ زَهْدِكَ فِي الدِّينِ كَرْهَدْلِيَّ  
وَقَالَ فِي حَسْنٍ :

هَامَ قَلْبِي بِهِمْوَاهَا  
فَاسْأَلُوا مِنْ قَدْ رَآهَا  
فَتَتَهْ حِينَ بِرَاهَا  
تَعْلِيْنَا شَفَتَاهَا  
حِينَ تَحْوِيْهِ يَدَاهَا  
بَصْرِيْ خَوْفَ سَنَاهَا  
لِيَتَنِي كَتَنَسَاهَا

طَفْلَةَ خَسُودَ رَدَاحَ  
قَدْهَا أَحْسَنَ قَدَّهَ  
مَا بِرَاهَا اللَّهُ الْأَ  
تَنْشَرَ الدَّرِّ إِذَا غَزَّ  
وَتَرَى لِلْعَسْوَدَ زَهْوَ  
رَبِّا أَغْضَيْتَ عَنْهَا  
هِيَ هَمِيْ وَمَنَّاهِي

وَقَالَ فِي عَنَانَ :

لَخَلَعْتُ عَنْ رَأْيِي عَنَانِي  
أَحْفَلَ مَقَالَةَ مِنْ نَهَانِي  
لَمْ أَغْنَ عَنْ حُبِّ الْفَوَانِي  
فِي النَّفْسِ تَجْبِسُهَا الْأَمَانِي  
دَعْنِي فَشَائِلَكَ غَيْرُ شَانِي  
مَا قَدْ لَقِيتُ عَلَى عَنَانَ  
سَارَاحَ فِي غَلْقِ الرَّهَانِ؟  
غَيْرُ الذِّي يَهْسُوْي عَصَانِي  
وَشَرَبَتْ صَافِيَّةَ الدَّنَانِ  
بِيرَ نَزَلَنِ مِنْ غَرْفِ الْجَنَانِ  
كَأَسَّ عَقْدَنِ بِهَا لِسَانِي  
فَةَ كَالْتَسَائِلِ الْحَسَانِ  
لَأَمْرِّ أَمْرَارِ الْعَنَانِ  
يَخْتَالَ تَحْتَ قَضَيْبِ بَانِ

لَوْلَا حَذَارِيْ مِنْ جَنَانَ  
وَرَكِبْتُ مَا أَهْوَى وَلَمْ  
وَخَرَجْتُ أَخْبَطْ سَادَرَمْ  
قَدْ ذَبَتْ غَيْرَ حَشَاشَةَ  
يَا مِنْ يَلْوَمْ عَلَى الصَّبَا  
لَمْ تَلْقَ مِنْ حَرِّ الْهَوَى  
أَنِّي تَرَدَ عَلَيَّ قَلْبِيْ  
قَلْبِيْ إِذَا كَلْفَتَهَ  
قَدْ خَضَتْ فِي لَجْجِ الْهَوَى  
وَمَضَّمَخَاتْ بِالْعَبَ  
رَاضِعَتَهَنْ مِنْ الصَّبَا  
أَقْبَلَنْ مِنْ بَابِ الرَّصَا  
يَحْفَنْ أَحْسُورَ كَالْفَرَزا  
يَمْشِي بِرْدَفَ كَالْنَقَّا

ه من الهوى ما قد دعاني  
والكأس واغنَ عن الزمان  
تهوى فشكل العيش فان  
ان زلت عن دار المهاون  
ولقد أقول لمن دعا  
أبلغ هواك من الفنا  
لا يشغلنُ غير ما  
ودع المسوان لأهله  
وقال في جنان :

عنك ان كنت عاقلا  
انت ان كان غافلا  
عام لم تنسج قابلا  
ذهبت عنك باطلا  
دع جسائنا وجهما  
لا تذكر بنفسك المو  
أنت ان لم تمت بهما الى  
رجست نفسك التي  
وقال فيها :

ميسان مبتهج ريس ب  
في طي مئرها كثيب  
يشي ناعلاها قضيب  
قد شفني حزن مذيب  
صل كالشارار له ليين ب  
ولقد سباك منعم  
خود يحصل وشاحها  
وإذا تقسوم لشأنها  
فالويل لي ما حل بي ؟  
بين الجوانح والمفا  
وقال في منية :

وكيف بنام من ضمن السقاما  
وراجعت الصباة والفسrama  
وفارقت الجزيرة والشاما  
سلام مسلم لقي الحماما  
اذا بزرت تشبهها الفلاما  
وتشرب من فتوتها المداما  
أبت عيناي بذلك أن تناما  
بكيت من الفراق لما ألاقي  
رجعت الى العراق برغم أتفي  
على شط الشام وساكنيه  
مذكرة مؤثثة مهأة  
تعاف الماء والعسل المصفى  
وقال موريأ أو مصرحاً :

كشفت عدأ لهم عن به الكلف  
لمن تهجن اسمها أو خطه ألف  
ما ينكِم بعد ذا البيان مختلف  
لما تكشف عنني أتي كلف  
جيم وجدت لها نونين بينهما  
يضمها من ثقيف بعض دورهم

وقال من غزل المذكر :  
 غزال به فتر وفيه تأثر  
 وأحسن مخلوق وأجمل من مشى  
 أقول له يوماً وقد مضني الهوى  
 أطلت عذابي فيك يا خير من نشا  
 فقال : ألم يأنِ ان مترك الصبا  
 ومالك ياهذا ؟ وما لي ؟ وما تشا ؟  
 فقلت له : أقصر عن اللوم سيدى  
 فمن ذا يطيق الصبر عن مشبه الرشا  
 أرى لك وجهًا فتت القلب حسنه  
 به ينجلبي كرببي وقد ينجلبي العشا  
 أنتقتني ان قلت ماني أحببته  
 ولاذب لي ان كان في الناس قد فشا  
 كتمت الهوى حتى أضر بمحاجتي  
 وكان الهوى طفلاً صغيراً فقد نشا  
 فرق لي المولى ففازت بموعد  
 وقال انتظري قبل مقابل العشا

وقال منه :

ومعشوق الشمائل والدلائل  
 كقرن الشمس في قد الغزال  
 تأزر بالملائحة وارتداها  
 وسريل بالكمال وبالجمال  
 ضيا شمس تفرع في قضيب  
 ودعص نقا ترجرج في اعتدال  
 له في خده خال مليح  
 بنفسي ذاك من خد وحال  
 وقال :

مستيقظ اللحظ في أفنان وستان  
 قبلت فاه فحياني بريحسان

مستعد للاماني حسن منظره  
عف القمير ولكن لحظه زان

يا من تائسق باريه وصورة  
دعصاً من الرمل في غصن من البان

وقال :

وظبي تقسىم الأجا  
ل بين الناس عيناه  
وتوري البث والأشجا  
ن في القلب ثنياها  
وتحكي البدر وقت التم  
للأعين خسداها  
تعالي الله ما أحس  
ن ما صورة الله  
ولو مثل نعش الحس  
ن شخصاً ما تعمداه  
له آخررة قد أش  
بهرت في الحسن دنياها  
فلو أنا جسدنا اللا  
بنفسي من اذا ما النا  
ي عن عيني واراه  
ل يغشاني وأغشاه

وقال :

متنايه بجيدها صلف  
لا يستطيع كلامه تيهما  
ما آن يمل الدهر قاريهما  
لو كانت الأشباح تعرفه  
أجلله إجلال باريها  
حتى يكون جميعه فيما  
لوقت لا تقبضت

وقال :

أيهـا الناس ارحموني  
كلـمـوهـ فـيـ سـكـونـ  
لا تـشقـونـ عـلـيـهـ  
كلـسوـهـ اليـوـمـ يـرـضـيـ  
عنـ أـسـيـرـ فـيـ يـدـيـهـ  
لو رـأـيـتـمـ حـيـنـ يـمـشـيـ  
كـاسـراـ مـنـ حـاجـيـهـ  
فيـ اـزـارـ قـدـ لـواـهـ  
ثمـ دـلـىـ طـفـيـهـ

قلتم ذا الفتاك حقاً  
ليس ما نحن عليه  
وقال موريأً أو مصرحاً :

لكن اذا عيل صبري  
ذكرته في هجساتي  
عین ولام ويم  
عليحة النغمات

وقال كذلك :

لم أزل أخلع في الحب الرسن  
وخفوني ساكيات دمعها  
منذ أبصرت هلالاً طالعاً  
فيه شف فؤادي في الهوى  
وبسم بسعدها ألقني  
وفؤادي عند ظبي مرتهن  
والحسنا في حشوه مني الحزن  
يشنى بقوام كالغضّن  
وبحاء ، فيه قلبي قد فتن  
وبidal سل روحي من بدن

\*\*\*

هذه أمثلة متفرقة من غزل أبي نواس في المؤنث والمذكر ، جمعناها بين جدّها وهزلها ، وبما يقتضيها واعتداها ، وجيدتها ورديتها ، وعرضناها معًا ليقابل بينها من يشاء كما قابلنا بينها ، فهي على ما نرى سواء في لبابها وقشورها ، لا يجزم الناقد برجحان غزل المؤنث منها على غزل المذكر ولا برجحان غزل المذكر منها على غزل المؤنث ، وإذا اتفق تفضيل قطعة من هذا الغزل على قطعة من ذلك الغزل فكما يتفق تفضيل القطعة على الأخرى في الغزل الواحد ، أو كما يتفق التفاضل بين كلام الشاعر في بعض أغراضه أو في جميع أغراضه ، فلا يكون الشاعر مجيداً في كل ما يقول ولو قصر النظم على بابه الذي فرغ له ولم يستحسن له قول في غيره ..

وتتشابه الصفات واللاماح التي يهواها الشاعر في معشوقاته ومعشوقيه ، وبهوى المعشوقة أحياناً لأنها « مذكرة مؤنثة » ويهوى المعشوق أحياناً لأنه « مفتر و فيه تأنيث .. » فكما يكون من محبيات الأشى إليه أنها تشبه الغلام في بعض أوصافه كذلك يكون من محبيات الغلام إليه أنه يشبه الأشى في بعض الأوصاف .

انما جزم بعض النقاد برجحان غزله في المذكر على غزله في المؤنث لأنهم ساقوا أنفسهم اضطراراً الى هذا الترجيح ، وفرضوا فرضهم الاول بغير فهم لحقيقةه ثم ألموا أنفسهم تناجه عن اعتساف لا دليل عليه .

فرضوا ان الشذوذ الجنسي شيء واحد يستلزم أن يكون الشذوذ منحرفاً الى هوى أبناء جنسه ، ثم وجدوا أبي نواس يتغزل بالجواري كما يتغزل بالعلماء ووجب أن يعللوا هذه الغرابة فعللوها بالصدق في أحد الغزلين والكذب في الغزل الآخر ، وليسكthem اذا رجعوا الى الحقيقة لم يجدوا علامات الصدق عندهم ينفرد بها غزل المذكر أو غزل المؤنث ، سواء نظروا الى التعبير عن الشعور أو نظروا الى الاجادة الفنية ، وهذا على فرض أن الاجادة الفنية شرط من شروط الشعور الطبيعي في أهل الفنون وفي سائر الناس .

وتصحيح هذا الخطأ انسا يكون بالرجوع الى العلل النفسية كما شرحتها الدراسات الأخيرة ، فأصل الخطأ سوء فهم الشذوذ الجنسي الذي انطوت عليه طبيعة أبي نواس ، فلم يكن شذوذ يستلزم الشعف بأبناء جنسه دون غيرهم ، ولم يكن جنسه هو سوية غير مشترك حتى يظن به أنه يبيل الى جنس واحد . وانما كانت له طبيعة جنسية تتشبه بكل الجنسين وتتشكل بهذا الشكل مرة وبذلك الشكل مرة أخرى ، على حسب غوايات الطبيعة النرجسية ، ومن ثم جبه الفتى لأنه كالفتاة وجبه الفتاة لأنها كالفتى ، ونظرته الى المرأة بعين المرأة في بعض الأحيان .

واذا اعتبرنا برجحان الغزل بما ينم عليه من حرارة الشعور فربما توافقت الآراء على أن غزله في جنان أنم على حرارة الشعور من سائر غزله ، فان لم تتوافق الآراء على ذلك فلا نعرف قصيدة في غزل المذكر يحسبها النقاد راجحة بحرارة الشعور على سائر القصائد الفزلية .

والملامح في غزل أبي نواس جميعه على الصورة التي يشخص بها نفسه في ذات معشوقه أو معشوقته على دأب النرجسيين ، وقد مر بنا أنه كان يعجبه من يتنزّل به أن يلعن بالراء وأن يتشبه بالأدباء ، وأن يقتدي به

بوم كان معشوقاً في صباح ، ولم تفارقه هذه الخلقة الترجسية حتى بعد أن

كبر واتهلهل ، فكان يقول في معشوق ملتح :

قال الوشأة بدت في الخد لحيته

فقلت لا تكثروا ، ما ذاك عائبـه

الحسن منه على ما كنت أعهـده

والشـعر حـزـلـهـ منـ يـطـالـبـهـ

أبـهـ وأـكـثـرـ ماـكـانـتـ مـحـاسـنـهـ

أنـ زـالـ عـارـضـهـ وـاخـضـرـ شـارـبـهـ

وـصـارـ منـ كـانـ يـلـحـيـ فيـ مـوـدـتـهـ

إـنـ سـيـلـ عـنـيـ وـعـنـهـ قـالـ صـاحـبـهـ

وبديهـ أنـ النـظـرـ فيـ غـزـلـ أـبـيـ نـوـاـسـ لـامـحـلـ فـيهـ لـلـكـلامـ عـلـىـ وـفـاءـ العـشـاقـ  
بـالـعـنـيـ الـذـيـ عـرـفـهـ قـرـاءـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ مـنـ أـخـبـارـ الـعـذـرـيـنـ ،ـ بـلـ لـاـ مـحـلـ فـيهـ  
حـتـىـ لـتـجـلـلـ الـذـيـ كـانـ يـنـاسـبـ سـمـتـ الشـعـرـاءـ الـغـزـلـيـنـ مـنـ أـمـثـالـ اـبـيـ أـبـيـ  
رـبـيـعـةـ ،ـ فـقـدـ كـانـ بـيـثـةـ أـبـيـ نـوـاـسـ بـعـيـدةـ عـنـ بـسـاطـةـ الـبـداـوةـ بـعـيـدةـ عـنـ تـجـمـلـ  
ذـوـيـ الـبـيوـتـاتـ مـنـ الـقـيـانـ وـالـعـقـائـلـ ،ـ وـكـانـ بـيـثـهـ عـلـىـ الـأـكـثـرـ بـيـنـ الـجـوارـيـ  
وـالـقـيـانـ وـبـيـنـ الـمـتـعـرـضـينـ لـشـعـرـاءـ الـمـجـونـ مـنـ الـغـلـمـانـ .ـ وـقـدـ زـادـ عـدـدـ  
مـعـشـوقـاتـ الـمـذـكـورـاتـ فـيـ دـيـوـانـهـ عـلـىـ عـشـرـ ،ـ مـنـهـ جـنـانـ وـدـرـ وـدـنـانـيـ وـبـنـاتـ  
وـحـسـنـ وـمـنـيـ وـمـنـيـ وـسـمـجـةـ وـعـنـانـ وـمـكـنـونـ وـعـرـيـبـ وـقـاتـلـ ،ـ عـدـاـ الـلـاتـيـ  
تـغـزـلـ بـهـنـ وـلـمـ يـذـكـرـ اـسـمـاءـهـنـ ،ـ وـكـانـ بـيـثـ لـوـعـتـهـ لـعـنـانـ فـيـ اـبـانـ مـنـاجـاتـهـ  
لـجـنـانـ ،ـ فـيـقـولـ :

لـوـلاـ حـذـاريـ مـنـ جـنـانـ لـخـلـعـتـ عـنـ رـأـيـ عـنـانـيـ

.....

يـاـ مـنـ يـلـوـمـ عـلـىـ الصـبـاـ دـعـنيـ فـشـانـكـ غـيرـ شـانـيـ

لـمـ تـلـقـ مـنـ حـرـقـ الـهـوـيـ مـاـقـدـ لـقـيـتـ عـلـىـ عـنـانـ

وـتـغـزـلـ بـشـلـ هـذـاـ العـدـدـ أـوـ أـكـثـرـ مـنـ الـعـشـوقـيـنـ ،ـ فـلـمـ يـحـرـصـ عـلـىـ ظـاهـرـ  
الـوـفـاءـ فـضـلـاـ عـنـ مـضـمـرـهـ وـمـكـنـونـهـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ عـرـفـ الـبـيـثـةـ يـتـطـلـ مـنـهـ هـذـاـ

المظہر فی غزله بالمؤنث أو غزله بالذكر ، فسا کان الغزل فی عرفهم الا تسلیة وترجیة فراغ وشغلاً بثرثرة المجالس ووشایات المجتمع ومناوشات الأندية التي يجتمع فيها الشاربون وطلاب السماع، والمسعات أو المسمعون من القيان والمفنين ..

ذلك كان ديدن العصر يجعلته .. أما الزيادة من أبي نواس على عرف عصره فهي زيادة الطبيعة الموكّلة بالعرض والتخيّص ، وهي زيادة الطبيعة النرجسية التي يجعل العاطفة نحو غيره كالمنقوله أو العاريه المستردّة ، لأن النرجسي كما تقدم يمثل نفسه في غيره ولا يجب ذلك الغير الا بمقدار الدور الذي يحكّيه أو الذي لا يليث أن يخلعه ، وبخاصة حين يكون النرجسي كأبي قراس « مشترك الجنس » قادرًا على تمثيل شخصه في الاناث والذكور ، وعلى تمثيل نفسه محبوبًا للرجال والنساء .

ويبدو لنا أن شعره الذي يعلن فيه زهده في المرأة انما كان من إعراض المرأة عنه لا من اعراضه هو عن المرأة ، وأنه كان يشتئي المرأة فلا يستهويها فيداري خيته معها ويوهم الناس أنه يتركها باختياره ولا يتركها على الكره منه ..

وكان يعجب الناس أن يتحدثوا بعجائبها وشدود طبعها فيجمع المتكلمون عنه على رفضه الزواج ، ولم يصدقوا كل الصدق على ما يظهر من قوله يخاطب ابنته له :

يا ابنتي أبشرني بسيرة مصر  
وتنمي وأسرف في الاماني

وقوله عن تركها في بيته :

تقول التي عن بيتها خف مرکبی  
عزيز علينا أن نراك تسیر

ولابد من الرجوع بشيء من مبالغات أبي نواس في الولع بالعلماني إلى البدعة التي نشأت في زمانه ولم تكن لها سابقة في الأدب العربي قبله ، فلم يسمع عن شاعر من الجاهلين والمخضرمين أنه نظم الشعر غزلاً بالذكر ،

ولم يكن غزل ابن منادر قبيل أبي نواس بقليل على هذا التهتك والمجون الذي فشا حوالي منتصف القرن الثاني قبل نهايته ، ففي هذه الفترة كان غزل المذكراً بدعة يلهم بها من لم يكن من أهل الفسق والمجانة ، ومن أخبار ابن منظور التي رواها عن أبي نواس انه عشق فتى يسمى جسلاً الدارمي وكان لا يشرب الخمر ولا يعشى معارض الشبهات ، وقد تغزل تحسين غلاماً ولما يجاوز العشرين .. وفي هذا الفتى يقول أبو نواس :

يا واصف الخمسين لو تعدل لكان فيهم اسحق الاول  
وصفت خمسين فميّزتهم وأنت أنت الطيبة المغزل  
جمال دع عنك لنا وصفهم أنت وربى منهم أجسل

\*\*\*

وما كان من خيّمٍ أبي نواس - وهو المطبوخ على العلانية والتحدي - أن يشهد البدعة ولا يتمادي فيها حتى يسبق متدعيمها ، فالافراط في غزل المذكراً لا يحسب كله على أبي نواس ولا يتغذى كله دليلاً على نوازعه وأهوائه . ويصدق عليه في هذه الخلة ما يصدق على الشيطان في أمثال الغربيين ، فليس هو من السواد الحالك بحيث يرسّه الرسامون !

نَمْ تتحسر الشهرة عن زياداتها وتشوب الطبيعة الى حدودها ، فتبدي لنا الحسن بن هانيٌ في تلك الحدود على حقيقة شذوذ الجنسي الذي يفسر غزله بالمؤنث وغزله بالمذكر ، ويفسر تأثيره في صباحه ويفسر بالغته ودعواه . وذلك هو شذوذ الطبيعة النرجسية التي مكتنها فيه بيئته من أهله وعصره ومعاشيه ..

## عقيدة أبي نواس

ينقسم الناس الى مؤمنين وجاحدين ، أو كافرين .

وهذا تقسيم شائع في اصطلاح المباحث الدينية . ولكن الباحثين النفسيين يفهمون الاستعداد النفسي وارتباطه بتركيب البنية وببواطن السريرة ، فهم يقسمون الناس على حسب هذا الاستعداد الى قسمين آخرين وهما الدينيون واللادينيون ..

وهناك فارق أصيل بين الجاحدين واللادينيين :

فالجاحد قد ينكر دينًا لم تطمئن سريته الى عقائده وشعائره ويظل متفتح القلب للايمان بدين آخر ، وقد ينكر الأديان التي يعرفها جميعاً وي Jihad في انكارها بحماسة تشبه حماسة المؤمن المستبسلي في جهاده ، ولعله ينكر الأديان التي يعرفها تشوقاً الى دين يسمى عليها ويرتفع لديه الى المثل الاعلى الذي يحلم به ويتمناه .

فإن لم يكن منكرًا للدين على نحو من هذه الأنحاء فهو مهم بالدين على أية حال ، وليس مكان الدين من باطنه خواء لا يتسع لايeman ولا لانكار ولا مناقشة ولا انتظار .

أما اللادينيون فهم مخالفون للجاحدين في هذه الخلطة ، اذ هم لا يخلون بالدين ولا ينبطون لقبوله ولا لأنكاره ، ولا يشغلون عقولهم به لحة عين كأنهم ولدوا قبل وجود الأديان فلم يسمعوا بها ولم يشعروا فقط بخاطر من خواطرها ، فهم غرباء منقطعون عن هذا الشاغل القوي من شواغل الوجودان . إن الجاحد قد يكون عدوًّا أو مهادنًا أو على الحيدة بين معاشرين . أما اللاديني فليس هو بعدو ولا مهادن ولا محابٍ ، ومجمل القول فيه أنه غريب عن الميدان ..

وذلك كما تقدم فارق أصيل بين الجاحدين واللادينيين : فمن أي  
النريين كان الشاعر أبو نواس ؟  
لم يكن عن يقين من اللادينيين ، لأنه لم ينقطع قط عن اللهج بالآدیان  
وان كان ليهجه بها لهجًا لا يطيب للمتدينين الصالحين .

وليقل من شاء ما شاء في زندقته ومجونه وعصيائه ولغو لسانه ، فإنه  
بعد كل ما يقال من هذا القبيل بعيد جدًا أن يحسب من اللادينيين الذين  
صغر مكان الدين من فوسهم فلم يشغلهم منه شاغل ولم يكن فيه ولا في  
أهلة ما يهمهم على وجه من الوجه .

وإذا صرفا النظر عن نوع اشتغاله بشأن الدين فليس بين شعراء  
العربية من عنده هذا الشأن كما عنده ... اذ هو لم يذكر قط مجلساً من  
مجالس لهوه ولا معرضًا من معارض غزله الا وأشار معه الى جوهر الدين  
او علاقته الدينية ، بغير داعية من دواعي الموضوع أو المقام .

ولو ذهبنا نستقصي هذه الاشارات لأوشكنا أن ننقل ديوان غزله  
ومجونه ، ولكننا نجتزيء بما يكفي للدلالة على هذه النزعة العجيبة في  
فريحته ووجданه ..

منها في موعد :

وظباء يتلون سفرًا من الانجليز      ل باكرن سمسحة قربانا  
ومنها :

سفراء مجدها مرازبها      جلت عن النظرة والمشل  
ومنها : خذها على دين المسيح اذ انهى  
عن شربها دين النبي محمد  
ومنها : آذنك الناقوس بالفجر  
غمرد الراهب في العسر  
ومنها : حراماً كان أوله حلالاً  
فخل الحِلْ يذهب بالحرام  
ومنها في الفرزل :

يا سمّي الكلم من كلام الله  
وشيء الذي تلبت في السج  
ن سنينا وكان برًا نجيئا  
أنزل قد سمت قلبي التعذيبا  
وابن قاري القرآن غضاً كا

ومنها في الغزل أيضًا :

الا يا قمر الدار  
ويَا نفحَة نسرين  
ويَا عرش سليم  
ويَا مزمور داود  
ويَا كعبة بيت الله  
لقد أصبحت من جب  
ويَا مسكة عطمار  
وان اذا هم بأسفار  
اذا يتلى بأسحار  
هذا ركن وأستار  
لَكَ بَيْنَ الْخَلْدِ وَالنَّارِ

ولا نهاية لهذا المعنى الا باستغافل خمرياته وغزلياته ، فهو لا ينفي في قصائده هذه « يتحرش » بالدين والعبادة ، وينبذ تحرشه هذا على الماطفة التي ينم عليها التحرش عادة ، وهي عاطفة ليست من العداء وليس من الازدراء ، ولكنها شغلان يشوبه العبث واهتمام لا يقوى على الجد ولا على الترك والنسيان ، وفهمه ميسور اذا قسناه على كل تحرش من قبله في العواطف الانسانية .. فالتحرش قبل كل شيء اهتمام ..

#### مغالة بقية اللذة

وهذا الاهتمام بذكر الحرمات في شعر أبي نواس انما هو معالاة بقيمة ذاته وتقريره بين الشعور بها والشعور بالقداسة ، فليس هو في وعيه الغفي خطأً من قيمة الحرمات بل رفع لقيمة اللذات واعتراض بمقاربتها لمكان الصون من العبادة والتقوى .

دخل أبو نواس السجن لاتهامه بالزنقة، وطال جسه حتى زار السجن خال الوزير الفضل بن الريبع يتفقد السجناء ويتحرجى أسباب سجنهم ؛ فسأل أبا نواس : أزنديق أنت ؟ قال : معاذ الله .. قال : لعلك من يعبد الكبش ؟ .. قال : أنا آكل الكبش بصوفه . قال : فلعلك من يعبد الشمس ؟ قال : اني أترك القعود فيها بغضًا لها فكيف أعبدها ؟ .. قال : أفتذبح الديك ؟ قال : ذبحت ألف ديك . لأن ديكًا مرة نقرني فحلفت لا آخذ ديكًا الا ذبحته .. فسأله : ألك ذنب غير هذا ؟ قال : لا والله ! .. اتهموني اتي أشرب شراب أهل الجنة وأنام خلف الناس ... قال : —

وكان في غفلة — فأنا أيضًا أفعل مثل هذا فلماذا جبست؟ ثم خرج إلى الفضل فقال : ماتحسنون جوار النعم . تجسون من لا ذنب له ! ولم يكذب الخبيث في جواب واحد ، فما كانت له نحلة من هذه النحل ولم يعتقد شيئاً من عقائد الزنادقة في عصره عن جد ودرائية ، ولكن الذين جبسوه على هذا لم يظلموه ولم يعتقلوه لغير جريمة فإنه لم يدع تهمة تلحقه بالزنادقة الا تعرض لها وأورد نفسه كل مواردها ، وأعلن من كلامه وفعاله ما يثبتها ويستغني عن الشهود والبينة عليها .

على أن المحتسبين المولكين بالزنادقة والمفسدين لا يعوزهم الشهود من كانوا يحبون الواقعية بالشاعر بسياته وحسناه على السواء ، فلم يكن أكثر من حсадه بين أنداده كما قال محمد بن عمر « ولم يكن شاعر في عصر أبي نواس الا وهو يحسده لليل الناس اليه وشهوتهم لعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه ». وأشد من حсадه سعيًا إلى الواقعية به من كان يهجوهم أو يترفع عليهم أو يسخر منهم ، وهم غير قليلين .

وأكثر منهم عدداً من كانوا يشهدونه ويسمعونه وهو يجهز بالعصيان والدعوة إليه ، ويقول في بعض غزله :

يا أحمد المرتجمي في كل ناثبة قم سيدى نصر جبار السماوات  
أو يقول في بعض مجونه يخاطب الفيلسوف ابراهيم النظام :  
قولا لا ابراهيم قولأ هترا غلبشى زندقة وكمسرا  
أو يقول :

وصرفت معرفتي إلى الانكار  
وتعجلني من طيب هذى الدار .  
أخرى واحزم من تنظر آجل  
علمي به خبر من الاخبار  
ما جاءنا أحد يخبر أنه  
في جنة مذمات أو في نار  
ومن لم يسمع شعره فربما سمع نوادره وشهد مساخره ، وقد دخل  
المسجد مرة وهو على أقبح السكر وسمع الامام يقرأ : « قل يا أيها  
الكافرون » فصاح به من ورائه : ليك . وشرب في يوم مطير فوضع

قدحه تحت السماء فوق فيه المطر وقال ملن حوله : « أتم تزعمون انه ينزل مع كل قطرة ملك ، فكم تراني أشرب الساعة من الملائكة » ثم شرب ما في القدر ..

ولعله كان يتحدث هنا وهناك بمذهب الثنوية ويروي كلامهم في الظلمة والنور ، ويهرف بما يعرف وما لا يعرف من هذه الأمور .

وقد مضى أبو نواس ومتهموه والشهود عليه ومضى عصره كله وبقي من أخباره انه كان يتزندق لأنه كان ي الفلسف ، وأنه اطلع على علم النجوم ، وعلوم الاوائل من الهند والروم ، فراغ عن اليقين ، ومرق من الدين ، اذ كانت كلها علوماً منقوله عن الكفرة والملحدين .

أما آن أبو نواس سمع شيئاً من تلك العلوم وألم بطرف من آراء القوم كذلك فهو من أقوال له نذكر منها :

تحيرت والنجوم وقف لم يتكن بها المدار  
وهو من قول أهل الهند أن مدارات الأفلاك يحيط بها مدار واحد ،  
 وأن الأفلاك الصغار تدور وتعود إلى المدار ، ولكن المدار الأكبر إذا اتهى  
من دائرة توقف كما كان قبل الحركة ، ف تكون القيمة ويعود السكون  
سيرته الأولى دواليك .

وربما كان من ذلك قوله :

حتى بدت حركات مخلوقة من سكون  
وربما سمع كلاماً في الطيائع على مذهب الاقمين كما يؤخذ من  
قوله :

سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار  
لا يعجب السامعون من صفتني كذلك الثلج بارد حار  
أو سمع أسماء الكواكب باليونانية وطوالها التي نقلها اليونان عن  
العراق قديماً فتحدث بها كأنها من المستحدثات :

صورة المشتري لدى بيت نورالي لـ الشمس أنت عند اتصاب  
ليس «زاوיש» حين سار أمام الحـ سوت والبدر اذ هوى لأنصبـ

منك أسمى بما تشن به الأفة  
 س عند اتقاصي دَرَّ العِجلاب  
 لا و « بهرام » تستقل به العه  
 رب بالليل زائدًا في الحساب  
 منك أمضى لدى الحروب ولا فهو  
 ل في العين عند ضرب الرقاب  
 والمشتري وزاويش « زيوس » شيء واحد ، وبهرام أو المريح سيار  
 يقال عنه في الأساطير انه إله الحرب ، والعقرب برج من البروج المتشمة  
 في الفلك ، والمنجمون المخروفون يزعمون المزاعم عن مقارنات السيارات  
 والبروج ودلائلها على الوفر والرخاء أو على الحرب والقطخط ... ومن  
 سمع الحذقة بهذه الأراجيف في نظم الشاعر خيل اليه أنها هي المعیمات  
 التي قادته الى زندقتة ومروره ، ولا شأن لهذا بذلك الا أن يكون شأن  
 السعود والنحوس التي هذر بها المنجمون — في وادي النهرين على  
 الخصوص — من قبل التاريخ .

ولعله سمع كلاماً في الصفة والموصوف من قبيل قوله في حُسن :  
 ان اسم حسن لوجهها صفة ولا أرى ذا في غيرها اجتماعا  
 فهي اذا سميت فقد وصفت فيجمع الاسم معنیان معا  
 الى نظائر من هذه الأقاويل يستطيع المتلقي أن يجمعها في بضعة أيام  
 وهو يجلس الى المتفقهين بها من من تعمقوا فيها أو تخطفوها لاماً ثم لا يقال  
 عنه أنه عرف ما ينافق الدين أو يبيح المحظورات ، ويغري المرأة برکوب  
 رأسه في الموبقات ..

ولقد كان ابراهيم النظام من أعلم أهل زمانه بهذا الذي يسمونه علوم  
 الأوائل وكان أبو نواس يحضر عليه فينهاء عن التبذل ويدركه الوعيد  
 ويقول له ان من ترقب وعد الله فعليه أن يحذر وعيده ، فلا يرعوي عن  
 لفوه ومجونه حتى يئس منه فطرده من مجلسه فنظم فيه قصيدة التي  
 اشتهرت بالابراهيمية ومطلعها :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني والتي كانت هي الداء  
 وفيها يسخر منه :

فقل لمن يُدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء  
 لاتحضر العفو أن كنتم امرءاً آخر جماً فان حظركم بالدين ازراء  
 فالذين اتهموا أبا نواس لم يظلموه ولم تعوزهم البيانات على دعوته  
 للفساد ولعلمهم قد ظللموا الفلسفة وعلوم الاوائل فظنواها مدرجة المطلعن  
 عليها الى الزندقة ومذاهبتها ، ولا زندقة هنا ولا مذاهب ولا شيء غير  
 المجنون وحب الظهور ، وعند أبي نواس منه - كما أسلفنا - أسباب  
 لم تكن عند أحد من معاصريه ! ولكن لم يكن يعييه من نفسه كما كان  
 يعييه من غيره على حد قوله في أبان اللاحقي اذ كان يتظرف بادعاء  
 الزندقة :

لادر در أبان مير بالهـروـان ولـى دـنـ لـأـوـانـ بالـبرـ والـاحـسانـ الى اـنـقـضـاءـ الـاذـانـ بـذاـ بـغـيـرـ عـيـانـ ؟ تـعـاـيـنـ الـعـيـنـانـ فقال : سبحان ماني (١) فقال : من شـيـطـانـ هـيمـنـ الـشـيـانـ وـلـبـ اـذـنـ وـلـسـانـ أـمـ مـنـ ؟ فـقـمـتـ مـكـانـي سـةـ وـذـوـ غـفـرانـ عنـ مـنـكـرـ الـقـرـآنـ بـالـكـفـرـ بـالـرـحـمـنـ بـالـعـصـبـةـ الـجـانـ	جـالـستـ يـوـمـاـ أـبـانـاـ وـنـحـنـ حـضـرـ رـوـاقـ الـأـ حـتـىـ اـذـ ماـ صـلـةـ الـأـ فـقـنـامـ مـنـدـرـ دـيـ وـكـلـمـاـ قـالـ قـلـنـاـ فـقـالـ : كـيـفـ شـهـدـتـمـ لـاـ أـشـهـدـ الـدـهـرـ حـتـىـ فـقـلـتـ : سـبـحـانـ رـبـيـ فـقـلـتـ : عـيـسـىـ رـسـوـلـ فـقـلـتـ : مـوـسـىـ نـجـيـ الـ فـقـالـ : رـبـكـ ذـوـ مـةـ أـنـفـسـهـ خـلـقـتـهـ وـقـلـتـ : رـبـيـ ذـوـ رـحـمـ وـقـمـتـ أـسـبـحـ ذـيـلـيـ عـنـ كـافـرـ يـتـمـرـيـ يـرـيدـ أـنـ يـتـسـنـاـوـيـ
--	--

(١) امام المأذن القائلن بالهين : الله التور ، والله الظللة ..

## أبو نواس ماجن

والجان في عرف تلك البيئة هم الظرفاء ، والمجون هو الطرف على اعتقادها وفي طليعتها أبو نواس : نصح له الأمير أبو العباس محمد أن يتوب عن المجون فقال له : أما المجون فما كل أحد يقدر أن يمحن ، وإنما المجون ظرف .. ولست أبعد فيه عن حد الأدب أو أتجاوز مقداره ، أما العاصي فاني أثق فيها بعفو الله عز وجل وقوله تعالى ، فوالله لو أذن السندي يقول ما قاله الله عز وجل لوقت به ، فكيف يقول رب العالمين وهو يقول : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً » ..

والصبة المجان الذين أراد أبناء اللاحقى أن يتشبه بهم هم طائفة من زملاء أبي نواس كمحمد عجرد ووالبة بن الحباب ومطيع بن اياس وقاسم ابن زنقط وعيسي بن غصين وعييد العاشقين الذي لقب بذلك لجمعه عاشقاً ومملوكه وعاشاً وجاريته ، وغيرهم من يكررونه في السن أو يقاربونه ولكنه كان أشهرهم بمنحاصهم في المجون ، لأن دواعيه إليه أكثر وشعره فيه أسيئ ، فهو يحل من هذه الطائفة محل « الشخصية التمودجية » التي تقدم الكلام عليها ، معظمهم مثله من الموالى الذين فتحت لهم ثقافة العصر أبواب المعرفة ، وكلهم من الذين ابتلوا بمركيات النقص على اختلافها ، وليس فيهم من تسلط عليه جميعاً كما تسلط عليه .

فلا زندقة عند صاحبنا ولا فلسفة ، وكل ما عنده ولو بالظهور وضعف عن مقاومة الغواية والفحور .

وبغير « دراسات نفسية » أو تحليلات عويسة في البواطن الخفية ، أيكمن أن يكون انسان كأبي نواس منكراً للدين كله مواجهًا للظلم المجهول بذلك الانكار ؟

ليست المعضلة في هذا السؤال معضلة الصلاح وال بصيرة . الروحانية ، وليس فقدان الصلاح وال بصيرة الروحانية هو كل ما يلزم للانكار

والاصرار عليه ، فقد يكون المرء مجردًا من صلاح الدين والخلق مفتر  
الوجودان من البصيرة الروحانية ثم لا يقوى على مواجهة الموت الأبدي  
والظلام السرمدي على يقين واصرار ، ولا بد له في هذا الموقف من صرامة  
واقتحام يواجه بهما تلك المخافة التي لا مخافة مثلها في الحياة ولا بعد  
الحياة ..

فهل طبيعة كالطبيعة التواصية تبني على ذلك المعدن الصلد الجسور  
وهل عنده من الشكوك ما يتغلب في أعماق طبعه على تعاليات الامل  
والرجاء ؟ ..

لو اجتمع شهود العالم ومعهم الأطباء النفسيون على زعم كذلك الرعم  
لما اقنعوا أحداً بزعمهم الذي تنقضه كل لحمة وسداة في نسيج هذه  
النفس الرخية الملهلة . ولكن الأطباء النفسيين على الأقل لا يزعمون له  
تلك القوة الصماء ، لأن طبيعته والقوه باشكالها وأنواعها لا تتفقان .

وأقرب من ذلك الى المأثور أننا أمام نفس ضعفت عن غواية التهور  
وغواية الفجور ، ولم تخل قط من شاغل بالدين تتمسح به أو تتحرش به  
كما تقدم في صدر هذا المقال ، وأعيتها عقيدة العزم والمناعة فاحتالت  
حياتها كي تظفر بعقيدة تركن اليها ، فوجدتها في نحلة من نحل عصرها ،  
نحالها هي النحلة الوحيدة التي تكلف النواسي الاطلاع على مراجعها ؛  
أو على مايلائمه من تلك المراجع فطابت له ، وقبلتها سيرته على الكره  
منها ، لأنها لا تستطيع الخلو من عقيدة ولا تستطيع عقيدة العزم والمناعة .  
تلك هي نحلة « المرجئة » كما توسع فيها طلاق الرخصة من قبل أبي  
نواس وقد وسعوها بأهواهم فوسعوا لهم كل ما اشتتهو .

### نحلة المرجئة

نشأت فرقه المرجئة على اعتدال وحكمة في أيام الخلفاء الراشدين  
واعتصم بها الذين كرهوا الخوض في الخلاف بين اجلاء الصحابة بعد  
مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فتركوا الامر لله يحكم فيه يوم الدين

وسموا بالمرجئة لأنهم لم يتعجلوا الحكم على فريق من الفريقين وجماع  
هذا الرأي في الشعر قول ثابت بن كعب الملقب بقطنة :

ولا أرى الامر الا مدبرا نكدا  
الا يكن يومنا هذا فقد أبدا  
أن نعبد الله لم نشرك به أحدا  
ونصدق القول فيمن جار أو عندها  
والمرشكون استووا في دينهم فددا  
في الناس شر كاذاما وحدوا الصمداء  
سفك الدماء طريقاً واحداً جددا  
أجر الحساب اذا وفي الحساب غدا  
رد وما يقضى من شيء يكن رشدا  
 ولو نعبد فيما قال واجتهدا  
عبدان لم يشرك بالله مذ عبادا  
شق العصا وبعين الله ما شهدنا  
ولست أدرى بحق أية وردنا  
وكل عبد سيلقى الله منفردا  
وكان ثابت بن كعب صاحب هذه القصيدة - وهو شاعر مجاهد -  
يعتدل على العجادة المثلثي بين الطرفين : طرف الغوارج الذين يتهمون  
على التكفير جزافاً وطرف الطوائف المتنازعة التي كانت تخطب في التهم  
ذات اليمين وذات الشمال فلا تكفير لأحد آمن بالوحدانية والوحى المنزل  
ولا جدوى من الخبط بالتهم بين عثمان وعلي أو بين فرقه وفرقة من  
الصحابة ، وأمرهم جميعاً موكل الى حساب الله .

أما عصر أبي نواس فقد تباعدت فيه الفجوة بين الطرفين الى أقصى  
مداها ، فجزم الغوارج بتکفير كل من عداهم وحملوا السلاح لقتاله  
واعتبروا كل من خالف الدين في معصية ارتكبها كافراً مخلداً في العذاب ،  
وتعددت فرق المرجئة فنجم منهم من كاد يسقط الأوامر والنواهي ويقول

ان الايمان عقيدة في القلب لا شأن لها بأعمال الجوارح ، فكل من اعتقاد  
الوحدةة والوحى المزدوج فله جزاء المؤمنين يوم الحساب .  
ونقتبس هنا بعض ما كتبه الشهورستاني عن هذه الفرق في كتابه  
« الفصل في الملل والتخل » حيث قال في الجزء الرابع :

« .. غلاة المرجئة طائفتان : احدهما الطائفة القائلة بأن الايمان قول  
باللسان وان اعتقاد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله عز وجل من أهل الجنة  
وهذا قول محمد بن كرام السجستانى وأصحابه وهو بخراسان ويت  
 المقدس . والثانية الطائفة القائلة ان الايمان عقد بالقلب وان أعلن الكفر  
بلسانه .. فهو مؤمن كامل الايسان عند الله عز وجل .. وهذا قول أبي  
محرز جهم بن صفوان السمرقندى مولى بنى راسب كاتب العارث بن  
سرنج التميمي أيام قيامه على نصر بن سيار بخراسان ، وقول أبي الحسن  
علي بن اساعيل بن أبي اليسر الاشعري البصري وأصحابهما .. وقالت  
طائفة الكرامية : المنافقون مؤمنون مشركون من أهل النار ، وقالت طائفة  
منهم أيضاً : من آمن بالله وكفر بالبيى صلى الله عليه وسلم فهو مؤمن  
كافر معاً ليس مؤمناً على الاطلاق ولا كافراً على الاطلاق ، وقال مقاتل بن  
سلیمان : — وكان من كبار المرجئة — لا يضر مع الايمان سيئة حلت أو  
قلت أصلاً . ولا ينفع مع الشرك حسنة أصلاً »  
الى آخر هذه الأضاليل التي لا طائل تحتها ، فلا جرم يتلقف أبو نواس  
رأياً كهذا ويتهافت عليه ليجمع بين لهوه واعتقاده الايمان ، وطفق ينادي  
بانكار الشرك ولا يبالغ ما عداد فقال :

ترى عنـدنا ما يـخط الله كـله  
من العمل المردى الفتنى مـاخلا الشرـكا  
وقـال .

ترى عنـدنا ما يـكره الله كـلـه  
سوـى الشرـك بالـرحـن ربـ المشـاعـر

ثم تشبت بأن الكبائر لا تسلك صاحبها مع الكفار ولا تحقره الرجاء في

عفو الله ، فكان من أقواله الكثيرة في ذلك :

وثقت بعفو الله عن كل مسلم  
فلست عن الصهباء ما عشت مقصرا  
ومنها : غادر المدام وان كانت محمرة  
فللسكباء عند الله غفران  
ومنها : تكثّر ما استطعت من الخطايا  
فإنك بالسخ ربي غفرانا  
بعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا  
ومنها : خوفتني الله ربكم وكيفي رجاؤه عندي  
ومنها : ياكبير الذنب عفوا لا سه من ذنبيك أكبر  
ومنها :

لم - وعفو الله بذلك ول غداً عند الصراط  
خلق الغفران الا لامريء في الناس خاط

ويبدو أن أقوال المرجنة هي أكثر المراجع التي تتبعها من أولها ، فاز المرجنة في زمانه لم يصطنعوا الصمت والعزلة في معركة الفتن ، وإنما كان هذا ديدن الصالحين من الصحابة أيام الشقاق بعد عهد عثمان بن عفان رضي الله عنهم ، وأكثرهم في ذلك الوقت أخذوا بالحديث الذي رواه أبو بكر عن النبي عليه السلام وفيه أنه « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، لأنّا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له أهل فليلحق بأهله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه ... فقال رجل : يا رسول الله ! من لم تكن له أهل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج ان استطاع النجاة .

فالي هذا المسلك من مسالك المرجنة الأولين ثاب أبو نواس في أخريات أيامه حين اضطررت نيران الفتن بين طلاب الخليفة ، فقال :

خل جنبيك لرام  
 مت بدء الصمت خير  
 ربما استفتحت بالمر  
 رب لفظ ساق آجا  
 انما السالم من الجَ  
 فالبس الناس على الصح  
 وعليك القصد ان الدَّ  
 شبت يا هذا وما تر  
 والمنايا آكلات  
 وامض عنه بسلام

وليس من المستبعد أن كلامه الذي حمل على الانكار إنما كان شططاً في الدعوة إلى الإرجاء ، كقوله في الخلاف بين القدرية والجبرية :  
 يا ناظرًا في الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر  
 ماصح عندي من جميع الذي يذكر إلا الموت والقبر  
 أو كقوله :

ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة مذمات أو في نار  
 إلى آخر الأبيات ، اذ كييفما كان قوله فالمرجع في « الاستعداد » للعقيدة  
 إلى معدنه وطبيعته ، وليس من معدن هذه الطبيعة أن تقدم على ظلام  
 المجهول منكرة ثابتة الجأش على الانكار ، وليس من معدنها كذلك أن  
 تغلب الغواية بمناعة العزم والتوبة بين وهن الطبيعة وقوة الاغراء . وما كان  
 من دأبه أن يخفي هذه التقىصة فيه لأن أخفاءها يسومه الكبت وهو لا يقوى  
 عليه ، وقد صدق وصف نفسه اذ قال :

ما أبعد النساك من قلب تقسيمه  
 قطربل فقرى يني فكلوا ذي  
 أو كما قال بعناد الأطفال :

فسلا والله لا والله

ومن قبيله قوله :

غررت بتوبتي ولحيثت فيما  
 فُشقي اليوم توبك ، لا أتوب

وهو يردد هذا الاعتراف على طريقته المطردة في جميع أحواله ، وهي « اتخاذ الفضيلة من الضرورة » كما يقول الغربيون في أمثالهم ، فإذا اعترف بنقيضته لاح من اعتراfe بها كأنها مفخرة يباهي بها المحرومين منها ، وتلك خديعة الطبع الضعيف .

### أشعاره في النسك والتوبة

أما أشعاره في النسك والتوبة فلم يكن جاداً فيها طول حياته إلى ما قبل وفاته ، فمنها ما كان يصطنعه خوفاً من الأمين حيث يصرح قائلاً :

أطع الخليفة واعصِي ذا عزف  
وتنح عن طرب وعن قصف

أو قائلاً :

ولئن وعدتك تركها عدة اني عليك لخائف خلقي

أو قائلاً :

ولهم ولتأبيب الامير تركته وفيه للام منظر وسماع

وقد يفلو متوكلاً في وصف تقواه كما قال يخاطب الفضل ابن الريبع :

أنت يا ابن الريبع ألمتني النسـ

ك وعودتيه والخير عادة

فارعوى باطلي وأقصر حبلى

وتبدل عفة وزمادة

لو تراني ذكرتك الحسن البصر

ي في حسن سنته او قتادة

المسابيح في ذراعي والمصحـ

ف في لبني مكان القبلـة

واذا شئت أن ترى طرفة تعجبـ

ب منها مليحة مستفادة

فادع بي لا عدلت تقويم مثلِ  
 وتفطن لوضع السجادة  
 تَرَأْثُ من الصلاة بوجهي  
 توْقِنَ النَّفْسُ أَنَّهَا مِنْ عبادة  
 لَوْ رَأَهَا بَعْضُ الْمُرَايِّنَ يَوْمًا  
 لَا شَتَرَاهَا يُعِذُّهَا لِلشَّهادَةِ  
 وَلَقَدْ طَالَمَا شَقِيقَتْ وَلَكِنْ  
 أَدْرَكَتْنِي عَلَى يَدِيكَ السَّعادَةِ  
 عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ « نَهْيٌ سِيَاسِيٌّ » لِجَأَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ دَفْعًا لِسَوْءِ  
 السَّمعَةِ الَّتِي لَصَقَتْ بِهِ مِنْ مَصَاجِبَتِهِ وَقَدْ يَجْهَرُ بِذَلِكَ فَيُصَيِّحُ كَالنَّافِرِ  
 الْمُغَضِّ .. ..

أَنْمَنْهَا وَاللَّهُ لَمْ يَمْنَعْ اسْمَهَا .. وَهَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَدِيقُهَا  
 هَذَا أَوْ يَكُونُ النَّظَمُ فِي النِّسَكِ بِاِبْاً مِنْ أَبْوَابِ « الْعَرْضُ » وَصَدَقَ  
 التَّمْثِيلُ ، لِيَقُولَ اهْ قَالَ فِي النِّسَكِ وَهُوَ مَاجِنٌ مَالِمٌ يَحْذِقُهُ النِّسَكُ ... وَرَوَى  
 مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ بْنُ بَيْهَسِ الْكَلَابِيُّ أَنَّ أَدِيَّاً مِنْ بَغْدَادَ أَسْمَعَهُ عَلَى سَبِيلِ  
 التَّنْوِيهِ بِشَاعِرِيَّةِ أَبِي نُوَاسَ أَبِيَّاً فِي الرَّهْدِ وَ« لِيْسَ هُوَ مِنْ طَرِيقِهِ .. »  
 وَهَذِهِ هِيَ الْأَبِيَّاتُ :

كَأَنَّكَ لَا تَظْنَنُ الْمَوْتَ حَقًا أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبْقَى إِذَا مَا اسْتَكْمَلَتْ أَجَلًا وَرَزْقًا وَلَا أَحَدْ بِذَنْبِكَ مِنْكَ أَشْقَى إِذَا جَعَلْتَ إِلَى الْلَّهِ زَادَ	أَخْيَ مَا بَالَ قَلْبُكَ لَيْسَ يَنْقِنُ إِلَّا يَا ابْنَ الَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا وَمَا لِلنَّفْسِ عِنْدَكَ مِنْ مَقَامٍ وَمَا أَحَدْ بِزَادَ مِنْكَ أَحَظَى وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوِيَ اللَّهِ زَادَ
--	---

وَكَانَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةُ يَقُولُ : سَبَقْنِي أَبُو نُوَاسُ إِلَى ثَلَاثَةِ آيَاتٍ وَوَدَّدَتْ  
 لَوْ أَنِي سَبَقْتُهُ إِلَيْهَا بِكُلِّ مَا نَظَمْتُهُ . فَانْهَ أَشْعَرَ النَّاسَ فِيهَا مِنْهَا قَوْلَهُ :  
 يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفُوا اللَّهُ هُوَ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَرَ  
 وَقَوْلُهُ :

من لم يكن لله متهمًا  
لم يمس محتاجًا إلى أحد  
وقوله :

إذا امتحن الدينًا ليبت تكشفت  
له عن عدو في ثياب صديق

قال : وقد نظمت في الزهد ستة عشر ألف بيت ووددت لو أن أبا نواس  
له ثلاثها بهذه الأبيات ، والبيت الأخير من قصيدة أولها :

الا رب وجهه في التراب عتيق  
ويارب حسن في التراب رقيق  
ويارب حزم في التراب ونجدة  
ويارب رأي في التراب وثيق  
فقل لغريب الدار أنك راحل  
إلى منزل ذاتي المحل سحيق

وحدث من شاهد أبا نواس لما حج مع جنان ، وقد أحرم أنه لما جه  
الليل جعل يلبي بشعره ويجدو بطبعه في صوته حتى اجتمع به كل من  
سمعه ، وجعل يقول :

إلهنا ما أعد لك مليك كل من ملك  
ليك قد ليت لك ليك ان الحمد لك  
والملك لا شريك لك ما خاب عبد سالك  
إلى آخر هذه التلبية ، وقد أفسدها بما رواه عن نفسه في نظمه  
إذ يقول :

وعاشقان التف خداهما  
فأشتيفيا من غير أن يائما  
كأنما كانا على موعد  
لولا دفاع الناس إياهما  
لما استفاقا آخر المسند  
ظلنا كلاما ساتر وجهه  
مما يلي جانبه باليد  
تفعل في المسجد مالم يكن  
يفعله الأبرار في المسجد  
ونكاد نجزم بأنه كذب على نفسه ليستخرج من هذا الموقف ملحمة

تخيلها ولا نراها تحدث في مزدحم الطواف ، وشبيه بذلك ماتحاكي به من شربه في ليلة العيد كأنما خاف على ما كان يسميه « جاهه » عند المجاز ولا جاه له يخاف عليه بين أهل الصلاح .

وما لم يكن من شعر التوبة اطاعة لأمر أو أدلاً بقدرة فنية ، فعلمه خاطرة من خاطرات الندم تعطى بقلبه ساعة ثم تمحوها داعية من دواعي اللهو فينساها ..

ويسري هذا على شعره كله في التوبة والعظة ما خلا تنفّي سيرة من نظمه في أخريات عمره قد تستشف منها خاطرة الأسف الصادق والحزن الخاشع ولم تأت هذه التوبة إلا بعد مطاولة ومراؤة يستبقي بهما بقية الشباب :

كان الشباب مطية الجهل ومحبّين الضحكات والهزل  
كان الجمال اذا ارتديت به  
ومشيّت أخطر صيّت النعل  
كان المشتّفع في مأربه  
عند الفتاة ومدرك النيل (١)  
والباعثي والناس قد رقدوا  
حتى أتيت خليفة البعل  
والآمر يحيى حتى اذا عزمت  
نفسك اغان يدي بالفعل  
وححطت عن ظهر الصبا رحلت  
والراح أهواها وان رزات  
بلغ المعاش وقللت فضلي  
وبعد يأس مقال معتبراً بتأخير التوبة بعد فوات حينها أو أحياناً :  
دب فيّ الفناء سفلأ وعلواً  
وآراني أموت عضواً فعضوا  
ذهبت شري وجلدة نفسي  
وتذكرت طاعة الله نِسروا  
ليس من ساعة مضت بي إلا  
تقشتني بمرها لي جزوا  
لهف نفسى على ليال وآيا  
م سلّكتهن لعباً ولهموا  
قد أَسْأَنا كل الاصاءة - يار  
ثم جعل يودع دنياه بأمثال هذين البيتين :  
يا رب ان عظمت ذنبي كثرة  
فلقد علمت بأن غفرتك أعظم  
ومالي اليك وسيلة الا الرجا

(١) الثار

وأبلغ منها قوله :

أراني مع الاحياء حيّاً وأكثري  
على الدهر ميت قد تخرّمه الدهر  
فما لم يمت مني بما مات ناهض  
فبعضي لبعض دون قبر البلى قبر  
فيارب قد أحسنت عوداً وبأداء  
اليَّ فلم ينهض باحسانك الشكر  
 فمن كان ذا عذر لديك وحجة  
فعذرني اقراري بأن ليس لي عذر

### توبه أبي نواس

وقد تعقبنا الأطوار الجنسية في هذه الطبيعة وأثرها في صباها وكهولتها  
فإذا مضينا إلى نهايتها فقد تكون هذه التوبة المترددة أثراً من آثار الطور  
الجنسى الأخير وهو سن العرج climacteric الذى عاجله قبل أو انه لافراظه  
في مهلكات النفس والجسد ، وهو القائل :  
اذا كنت لا أنفك من طاعة الهوى

فإن الهوى يرمي الفتى بيسوار  
فادركه ولا يبلغ الخمسين :

واذا عدلت سِينِي كم هي لم أجد  
للشيب عذراً في النزول براسي

ومن آثار هذا الطور الجنسي الأخير أزمات قاسية على الشيوخ الذين  
لم يتأنبوا له بشاغل من شواغل الحنان أو العمل النافع خاصّاً كان أو عاماً  
فيدفعهم إلى الصغار ويدي منهم للناس بدوات يستغربونها منهم بعد  
ما ألقوه من رصاصتهم واتزانهم ، ويصاحب هذه الأزمات شيء من رد  
ال فعل وتغير المألوف في روعي السادر في الغواية ويسدر في الغواية من لم  
يكن من أهلها ، وقد رأينا أثر هذه الأزمات في لوثة أبي العتاھية وهو سه

الذي أضحك منه صديقه مخالقاً فسأله بحق : مَنْ من الناس  
والصالحين صنع بنفسه مثل هذا الصنيع ؟ .. فزميله النواسي قد أدركه هذه  
الأزمة وجنحت به إلى ذلك الوجوم أو السهم الذي ترجم عنه بتلك  
الأبيات ولم تدركه قاسية عنيفة على مثال زميله لأنه لم يستقبلها فجأة  
بالانتقال إلى النقيض فيما بين عشية وضحاها.

وان أبا نواس في استعداده للعقيدة الدينية لخلق أن يكون من نماذج  
طبيعته كما كان نموذجاً لها في مياميس شتى ، فتلك طبيعة لا تصمد للأنكمار  
ولا تقدر على ضبط الهوى ولا تخلي من مساورة المواجه التي تحوم  
بها حول الدين وتتغافل بها حرماته ، فإذا ترقبت التعلة من حولها فوجدها  
بعد لهفة عليها كانت لها تلك التعلة كخشبة الغريق تشتبث بها إلى الرمق  
الأخير ولا ترسلها من يديها.

\* \* \*

وليس ختماً لزاماً أن تسترسل النفس المنحرفة أو الزائفة في أهوائها ،  
فإن خصلة التسامي بالأهواء معهودة في النفوس المبتلاة بالنشوز سواء  
كانت من ذوات القوة والباس أو ذوات الوهن والهزال ، ولا استثناء  
للمنحرفين من خصلة التسامي بالعيوب التي تنشأ في الطبع عيوبًا فيجعلها  
التسامي نقية من أبل النقايب وأشرفها ويتيح بها للإنسان فرصة يعلو بها  
على نزواته وصفائه ، وقد كان سocrates الحكيم مصاباً بهلواس السمع  
وبسات اليقظة وكان يحب الفتى السبيادس حد الأستاذية المرشدة ويحار  
السبياضس - لمجونه وخلاعتته - في معاني هذا الحب فيستدرج أستاذه  
ويعرض عليه نفسه ، ويريوي لنا أفالاطون في « مائدة » بلسان السبيادس  
أن هذا الفتى أولم لسocrates وليمة عامة ثم اجتهد أن يبيت معه على افراد .  
قال أفالاطون بلسانه « فلما أطفئت الأنوار وذهب الخدم لم أرد أن أحروم  
مع سocrates حول الغرض وعولت على الأفضاء إليه بما في نفسي ، فناديته :  
ocrates ! أنا مُنْتَ ؟ فأجابني : ما أبعدنى عن النوم ! قلت : أو تعلم بماذا  
أفكِر الساعة ؟ قال : لا ، بماذا تفكِر ؟ قلت أنتي أشعر أنك الوحيد من

عشافي الجدير بي ، ولكنك تخاف أن تفصح عما في قلبك ، فاعلم أذن أنني لأرى من الحماقة ألا أستجيب لرغباتك .. فأصغى إلى ثم أجابني جواباً على نمطه وبسخرية المعهودة فقال : « إنك ولا ريب فتى لبق يا عزيزي السبيادس .. ولابد أنك ترى في جمالاً يفوق جمال جسدك وملامحك ، فإن كنت ترى ذلك فأنت تحاول الساعة أن تبادلني سلعة بسلعة أعلى منها كثيراً ، وتخرج رابحاً من الصفقة .. » ومضى الفيلسوف يعلم الفتى مالا يعلمه من هداية جمال النقوس حين تواجه جمال الأجسام .

وفي الأدب العربي أمثلة كثيرة لهذا الانحراف الذي اعتدل به التسامي غاية الاعتدال ، فالشاعر تقى الدين السروجي قد كان ولا ريب على انحراف في التكوين وقال الشهابي محمود انه كان مع دينه وورعه وزهده مغرماً بالجمال وكان يكره مكاناً فيه امرأة . ولما توفي حلف أبو محبوبه ألا يدفنه إلا في قبر ابنه وقال : كان الشيخ يهواء بالحياة وما أفرق بينهما بالمات ، وهذا لما كان يعلمه من دينه وعفته .

وكان الشيخ مدرك الشيباني صاحب « عسو النصراني » على هذا الخلق وهو صاحب القصيدة التي أولها :

من عاشق ناءٍ هواه دانٌ ناطق دمع صامت اللسان  
موثقٌ قلبٌ مطلقاً الجثمانٌ معدّياً بالصد والمجران

\*\*\*

من غير ذنبٍ كسبت يداه لكن هوى نمت به عيناه  
شوقاً إلى رؤية من أشقاءه لأنما عفاه من أبناءه  
ومنها يستحلف بال المقدسات المسيحية :

يا عمرو بالحق مع اللاهوت والروح روح القدس والناسوت  
ذلك الذي في مهده المنعوت عرض بالنطق عن السكوت

\*\*\*

بحق ما في « حكم الانجيل » من منزل التحرير والتخليل  
وخبرٌ ذي بُأْ جليل يرويه جيل قد مضى عن جيل

إلى آخر القصيدة التي كان أبناء جيله من المسلمين والسيحيين  
يتناشدونها ويتركون بناظلها ولا تطوف بنفوسهم طائفة من الشك فيه  
وفي مشوقة ..

\* \* \*

و قبل هؤلاء داع في البصرة هو الشيخ محمد بن داود الظاهري  
لصاحبه محمد الصيدلاني وكلاهما مثل في العفة والأدب . وكان ابن داود  
هذا يتجرج في الدين حتى يحرم القياس ولا يقبل غير النص ، فلما نظم  
هذين البيتين في محبوبه :

ما لهم أنكروا لسواداً بخته<sup>ي</sup> يه ولا ينكرون ورد الفصون  
ان يكن عيب خده بدد الش<sup>ر</sup> فعيب العيون شعر الجفون  
قيل له أنكرت القياس في الفقه وأثبتته في الشعر فقال : هي غلبة العج !

\* \* \*

ومثل هذا التسامي يخلق من النص فضلاً ومن الزيف اعتدالاً ويعمل  
النفوس من الرياضيات ما ينفعها في تصفية الأخلاق وتزكية الضمير ، وليس  
أحد من ذوي العلل الكمينة أو العارضة بعجز عنه اذا استجتمع له نيته  
وعقد عليه عزيمته ، ولكن هذه المحاولة أعجزت أبا النواس لأنها وقع من  
مولده في بيته تعالج التسامي على أسلوب آخر ، وهو اتخاذ الفضيلة  
من الضرورة وطلب الوجاهة من وراء الشهرة المخالفة أو تحدي الرياء  
بالاجراء عليه ، وهذا بديل من التسامي في الواقع يجذب اليه من طبع عليه  
ولم تسعده البيئة بمن يروض طبعه على أسلوب سواه .

## خاتمة

وبالكلام على عقيدة أبي نواس تنتهي هذه الرسالة ، وهي كما يرى القاريء من عنوانها ومحور بحثها مقصورة على الدراسة النفسية لا ترمي الى ترجمته أو نقد أدبه وشعره ولا تمس وقائع الترجمة أو شواهد الأدب والشعر الا لما فيها من الإبانة عن طبيعته والاعانة على تفسيرها واستطلاع كوامنها ..

ومن الخير أن تقال كلمة الخير في كل ترجمة .  
وهي لا تكون خيراً الا أن تكون صدقاً .

وكلمة الخير التي تقال صدقاً في الشاعر لأن الآفة عنده إنما هي آفة الضعف والشعور المغلوب وليس آفة الشر والأذى . فلم يعرف عنه أنه سعى الى ايقاع الأذى بأحد أو أنه سر بوقوعه فيه ، وعرف عنه على خلاف ذلك أنه كان يسعى الى المساعدة والمؤاساة ما اقتدر عليهم ، فلما أشافق جماعة الشعراء الخاملين من الوفود على الخصيب بمصر وأبو نواس وأفاد عليه ، طيب خواترهم واستعطف الخصيب عليهم ، ولم يطلب جائزته إلا بعد الاطمئنان على جوائزهم ، ولما غضب الرشيد على الشاعر ابن منادر وأمر ببلطميه واقصائه وأقسم ليحرمنه جوائز الصلات في حياته قصد اليه أبو نواس وترك بين يديه بدرة من المال لعله لم يكن يملك غيرها في تلك الآونة ..

ولئن كان جبه مشوباً بشهواته لقد كان لمحاسن الدنيا حب مطبوع في وجده وذوقه ، وكان له في تلك المحسن وصف يكسو الحياة زينة وي يصلق ما اخشوشن من شدائدها وآكدارها على تفوس الأحياء .  
وبعد فهل زادت عيوب أبي نواس مقدار الرذيلة في الدنيا ؟ ان المقدار ليختلف هنا مع المقدرين ، ولكنهم لا يختلفون فيما زاده من ثروة النفس والبيان ..

عَبَاسُ حَمْوَدَةُ

# الْعَقْلُ كَلْمَةُ

- شَاعِرُ الْفَزْلِ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

## الشاعر ونشأته

اتفق لي أن أخرج كتاباً عن عمر بن الخطاب ، وكتاباً عن عمر بن أبي ربيعة في فترة واحدة ، ولم يكن ذلك عن قصد مرسوم ولا عن حضن مصادفة ، ولكنه كان مزيجاً من القصد والمصادفة ، ووسطاً بين الاختيار والاتفاق الذي يأتي على غير انتظار .

فقد دُعيت منذ أكثر من سنة إلى الكتابة عن عمر بن أبي ربيعة بين مشاهير الأدب العربي والتاريخ الإسلامي الذين اتجهت النية حيناً إلى ضم سيرهم وتواريχهم في مجلد واحد . فشرعت في دراسة الشاعر وتحضير سيرته ونقده حتى لم يبق منها غير الكتابة ، ثم أرجأتها إلى موعدها المقدر حين وقف العمل في كتاب أولئك المشاهير .

وحدث أني كتبت « عبقرية محمد » واستلتحق هذا الكتاب « عبقرية عمر » فانتهيت منها وإذا باقتراح من سلسلة « اقرأ » أن أكتب رسالة في الأدب على نحو الرسالة التي كنت أزمعت كتابتها عن عمر بن أبي ربيعة . فهذا الذي جمع كتابي عن عمر بن الخطاب وعن عمر بن أبي ربيعة في فترة واحدة ، وفيه من الاختيار شيء ، ومن التقدير السابق شيء ، ولم يكن شأني فيها بأغرب من شأن التاريخ بين العمرتين المتفاوتين هذا التفاوت في العمل والقول والسيرة .

فقد قيل إن أبي ربيعة ولد يوم مات ابن الخطاب ( رضي الله عنه ) فكان الناس يقولون بعد ذلك : أي حق رفع وأي باطل وضع ! ويعجبون لمجيء هذا إلى الدنيا يوم ذهاب ذاك .

فاما أن حقاً عظياً رفع من الدنيا يوم فارقها عمر بن الخطاب ، فذلك ما لا ريب فيه ولا خلاف .

واما أن باطلاً وضع في الدنيا يوم جاءها عمر بن أبي ربيعة ففيه ريب وفيه خلاف .

ونحن لا يعنيها أن يتفق المختلفون على نصيب ابن أبي ربيعة من الحق والباطل ، فليكن له منها ما يشاء ويشاء المختلفون .

وإنما يعنيها أن يستحق الدراسة الأدبية أو لا يستحقها . وهو موضوع لا يختلف عليه الدارسون ، لأن ابن أبي ربيعة ولا ريب ظاهرة أدبية ، وظاهرة نفسية قليلة النظير في الآداب العربية ، وحقه في الدراسة كحق جميع الشعراء المعروفيين بهبة الفن وصدق التعبير . وأنه لغفي الطليعة الملحوظة من هؤلاء .

وتاريخ شاعرنا وحيز في حساب الحوادث والسنين ، فافرض ما شئت من سنتين بينهما ديوان شعر ، فذلك أهم تاريخ له بين سنة الميلاد وسنة الوفاة !

فمن المتفق عليه أنه ولد سنة ثلاط وعشرين للهجرة ، ومن المختلف عليه سنة وفاته وسبب وفاته . فقيل إنه مات حتف أنهكه كما قيل إنه مات مقتولاً أو مدعواً عليه ، وقيل إنه مات سنة ثلاط وتسعين كما قيل غير ذلك . فمحمد الله على أن ما اختلف فيه التاريخ من أبناء الشاعر - ليس مما يغير أو يبدل في حقيقته الشعرية أو حقيقته الفنية التي تعنيها وتعني القراء . فحسبنا ديوانه وحده ، نعلم منه كل ما يهم علمه ، ونأخذ منه موازيين أدبه وحقائق نفسه . وإن أصدق الشعراء فناً وحياة لم تعرفه بديوانه وتعرفه بديوانه .

وعلى هذا اندع الاسهاب في الخواشى والفضول التي لا تؤدي إلى طائل في هذه الدراسة الفنية وفي كل دراسة فنية على التعميم ، ونكتفي من أخباره وأحاديثه بما يفهمنا ديوانه أو بما يفهمنا سليقةه وأثاره الفنية ، وهو على قلته يعني ويفيد .

كان شاعرنا من سادة بنى مخزوم ، ومن أكبر بيوتات قريش ، وكان جده أبو ربيعة يسمى ذا الرمرين لطوله كأنه يمشي على رمحين ، وقيل إنه قاتل في يوم عكاظ برمحين فسمى بهما لذلك .

وكان أبوه يدعى بحيرا فسماه النبي عليه السلام عبد الله ، واشتهر بين قريش بلقب العدل لأنهم كانوا يكسون الكعبة في الجاهلية من موالهم سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، فلقبوه العدل لأنه يعدل قريشاً كلها في كسوة الكعبة ، وقيل إن العدل هو الوليد بن المغيرة ، وليس عبد الله بن ربيعة والد الشاعر .

وكان بحيرا ، أو عبد الله ، تاجراً موسراً يتاجر بين الحجاز واليمن ، وكانت

أمه من قبله عطارة يأتيها العطر من اليمن ، واسمها مخرمة أو مخربة في رواية أخرى ، وقد تزوجها هشام بن المغيرة فولدت له أباً جهل والحارث ابني هشام .

واستعمل النبي عليه السلام عبد الله على ولاية الجند وسواتها (في اليمن) فلم يزل عاملاً عليها إلى مقتل عمر رضي الله عنه وقيل بل امتدت ولايته إلى عهد عثمان . وكان له عبيد كثيرون من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، فقيل لرسول الله حين خرج إلى حنين : هل لك في حبش بني المغيرة تستعين بهم ؟ فقال : « لا خير في الحبش إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زروا ، وإن فيهم خلتين حستين : إطعام الطعام والبأس يوم البأس » .

أما أم الشاعر فكانت سبية من حضر موت أو من حمير يقال لها « مجد » . ومن هناك أتاه الغزل كما قالوا في زمانه : « غزل يمان ودل حجازي ا » . وهي مع هذا ليست بالصلة الوحيدة بينه وبين الحضارة اليمنية كما رأينا من علاقة أبيه وجدهه بتجارة اليمن وتجارة العطر منها على الخصوص ، وهي التجارة التي بينها وبين معيشة الغزل والغزلين نسب قريب .

ونشأ عمر في النعمة على وسامه وفراغ ، ومن حوله الجواري والأرقاء يهشون له من اللهو ما يتهيأ للسيد الفتى الفارغ من متاعب الحياة ، وقد وصفه بعض من رأاه بين فتيان بني مخزوم فقال إنه « قد فرعهم طولاً ، وجههم جمالاً ، وبهرهم شارة وعارضه وبياناً .. » فهو تمام الأداة للغزل ومصاحبة الحسان ، وهو أقرب الفتياش من أبناء الحجاز إلى تمثيل بيته حيث نشأ من مجتمع الحضارة اليمنية والجازية في القرن الأول للهجرة ، أي في القرن الذي هدأت فيه بالحجاز حركة الدعوة النبوية ، كما هدأت فيه حركة السياسة بانتقال الدولة وعاصمتها إلى الشام ، ثم بقى له بعد هدوء هاتين الحركتين بقايا الترف القديم من عهد الجاهلية ، وطوالع الترف الجديد في دولة الإسلام .

وتواترت الأنبياء بطارحاته الغرامية طوال أيام الشباب ، ومعظم هذه الأنبياء لا يعدو أن يكون منثور القصائد التي نظمها في ديوانه ، فهي لا تمحى إلى تردد كثير ولا إلى تمحيق طويل .

فمن ديوانه نعلم ، قبل أن نعلم من سيرته ، أنه كان منقطعاً لأحاديث

الظرفيات من بنات مكة والمدينة ، وكان يتضرر أيام الحج ليلقى الحسان القادمات من العراق والشام واليمن ، أو يتعرض هن في الطوفاف فيجنبه حيناً ويزجره حيناً خافة التشهير ، وهو القائل في وصف هذه المواقف :

وكم من قتيل لا يُباء به دم      ومن غلق رهناً إذا ضمه ميَّنَ<sup>(١)</sup>  
وكم مالء عينيه من شيء غيره  
إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى<sup>(٢)</sup>

.....  
فلم أر كالتجمير<sup>(٣)</sup> منظر ناظر      ولا كليالي الحج يفتئن ذا الهوى

إلا أن أناساً من أصحابه كانوا يعتقدون أنه على سنة الشعراة الذين يقولون ما لا يفعلون ، وسأله ابن أبي عتيق وهو أقربهم إليه : يا عمر ! ألم تخبرني أنك ما أتيت حراماً فقط ؟ قال بلى ، فاستخبره عن قوله  
ومن نلت منها حرمأ غير أنا      كلاتا من الثوب المورد لابس

فأجابه : والله لا أخبرنك . خرجت أريد المسجد وخرجت زينب تريده ، فالتقينا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشعب أخذتنا الساء فكرهت أن يُرى بشيابها بليل المطر فيقال لها : ألا استترت بستائر المسجد إن كنت فيه ؟ فأمرت غليماني فستروننا بكساء خزّ كان على ، وهو الثوب المورد المشار إليه .

وقال الزبير بن بكار : « لم يذهب على أحد من الرواة أن عمر كان عفيفاً يصف ويقف ، ويحوم ولا يرد ». وأقسم هو مرة أنه ما اطلع على جسد حرام ، وجاء في خبر آخر على لسانه ما

(١) باء القائل أخذ بالقتيل ، وغلق الرهن : ذهب به الدين .

(٢) الدمى جمع دمية وهي الصورة الجميلة .

(٣) التجمير رمي الجمرات في منى من مناسك الحج .

يناقض هذا حيث يقول سمرة الدوماني : « إنني لأطوف بالبيت فإذا أنا بشيخ في الطواف فقيل لي : هذا عمر بن أبي ربيعة . فقضيت على يده وناديه : يا ابن أبي ربيعة ! فقال : ما تشاء ؟ قلت : أكل ما زعمته في شعرك فعلته ؟ فأوْمأَ إلى : إليك عنِي ؛ قلت : أسألك بالله قال : نعم وأستغفر الله » .

وآخرُون يسلّمون غوايته أيام الشباب ويقولون إنه تاب وأفلح بعد المشيّب . ومنهم من يقسمها شطرين متساوين فيقول : إنه عاش ثانين ، فترك منها أربعين ونسك أربعين .

وافتقت أقوال كثيرة على نسكه في مشيّبه وإعراضه عما كان يقبل عليه في شبابه ، فكان يلوم من يحدث امرأة في الطواف ، ويبلغ من إعراضه عن الغزل أنه أقسم لا ينظم بيّنا إلا أعتقد به عبداً أو جارية . واستنشد الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة حجه فاعتذر إليه وقال : يا أمير المؤمنين ! أنا شيخ كبير ، وقد تركت الشعر ، ولي غلامان هما عندي بمنزلة الولد ، وهما يرويان كل ما قلت ، وهما لك . فأنشداه ولم يزالا ينشدانه حتى قام وقد أجزل صلته ورد الغلامين إليه .

وقد يصبح بعض هذا ولا غرابة فيه ، فمن المستبعد جداً أن يكون عمر قد فعل كل ما ادعاه وإن كان قد أشتهر ، ومن الجائز أنه تاب وأخلص في التوبة بعد المشيّب . فالتوبة ليست بالأمر النادر بعد فوات الشباب ، وعمر مهياً لها بشيء في طبيعة أسرته كما يظهر من سيرة أخيه الحارث وولده جوان .

فقد كان أخوه الحارث متدينًا شديد النفور من الغزل ومصاحبة الحسان ، وقيل إنه وهب أخيه عمر ألف دينار على أن يترك الغزل ولا يرجع إليه ، وإنه كان عنده يوماً فأرسله في حاجة لها ونام مكانه ، فإذا بالشريا قد ألقى نفسها عليه تقبّله .

فصالح بها : اغربني عنِي فلست بالفاسق أخزاكم الله ، وعلم عمر بالخبر حين عاد فقال للحارث : أما والله لا تمسك النار أبداً وقد ألقت نفسها عليك ؟ فقال أخوه : عليك وعليها لعنة الله !

وعلى هذه الخليقة كان ابنه جوان الذي قال فيه العرجي :

شهيدي جوان على حبها أليس بعدل عليها جوان ؟

فغضب لزج الشاعر باسمه في هذا المقام ، وقد كان أبوه يصبح ويبيت فيه !  
وكان من تدين أبيهم في الجاهلية أنه كان ينفرد وحده بكسوة الكعبة سنة و المجتمع  
قريش كلها على كسوتها في السنة الأخرى ، وهو أمر إن دل على غناه من جانب  
 فهو من جانب آخر دليل على تقواه .

فاللوبية الدينية غير بعيدة من مزاج ابن أبي ربيعة الذي تجلّى فيه آثار الوراثة  
وهي لا تغيب كل المغيب في حياة إنسان ، وما زال معهوداً بين كثير من الأسر التي  
تضطرب فيها الحساسية العصبية أن يظهر فيها التقاة كما يظهر فيها الغواة ، لأن  
الطرفين يلتقيان في خلقة « التأثير » على تناقض ما يتآثران به بعض الأحيان ،  
وربما شوهد أن الغوي ينقلب إلى التقوى ، وأن التقى ينقلب إلى الغواية إذا  
اعتراهما طارئ مختلف به وجهاً للتأثير .

ولكن المرء يتوب عن عمل يعمله ولا يتوب عن مزاج طبع عليه ، وهذا نصدق  
أن عمر قد تاب وصدق أنه بقي إلى ختام الحياة يعاود الخinin إلى صبوات  
الشباب ، وفي الشيخوخة عبث ذلك العبث الذي صبا به إلى لقاءشيخة كان  
يغازلها أيام الشباب ، فلما جلس إليها وأحس حركة البنات الناشئات ينظرن من  
ثقب الستر ، دعا بناء يوهمها أنه سيسشرب ثم مجده عليهم في وجههن ، ..  
وراقه أن يتصالحن ويصحّحون . وقال لصديقه العجوز وقد لامته على المجنون  
والسفه في سنه : ما ملكت نفسى لما سمعت من حركاتهن أن فعلت ما رأيت .

هذا المزاج لا يتوب منه من طبع عليه .

وهذا المزاج هو الذي ننظر إليه من وحي الشاعر في شعره ، ولا تتغير دلالته من  
هذه الوجهة سواء صدق الشاعر في كل ما قال أو في بعض ما قال ، وسواء تاب  
عن صدق أو خادع نفسه وصحبه في الكتاب .

### عصر ابن أبي ربيعة

لابن أبي ربيعة ديوان كبير يشتمل على بضعة آلاف بيت من الشعر كلها في  
الغزل إلا القليل ، وكل غزها في الحوار والرسائل التي تدور بينه وبين حسان  
عصره وظريفاته .

ويستغرب قارئ الديوان أن ينصرف شاعر في جميع شعره إلى هذا الغرض دون غيره ، وهو استغراب معقول يرد على كل خاطر للوهلة الأولى ، إذا اقتصرنا على النظر إلى الديوان وحده وقابلنا بين موضوعاته وموضوعات الشعراء المشهورين في الدواوين الكبيرة .

ولكنه استغراب لا يلبي أن يزول أو ينقلب إلى نقيسه إذا تجاوزنا الديوان إلى العصر الذي نظم فيه الديوان والبيئة التي عاش فيها الشاعر . فربما أصبح العجب عندئذ أن يتمخض ذلك العصر عن ديوان واحد ولا يتمخض عن دواوين شتى من هذا القبيل ، وأن يكون ابن أبي ربيعة شاعراً فرداً في مجاله بغير نظير يجكبه في إكثاره وانقطاعه ، وقد كان ينبغي أن يقترن به نظراء متعددون .

لأن العصر الذي عاش فيه ابن أبي ربيعة في تلك البيئة التي نشأ بينها كان عصراً غزلياً في جميع أطراقه ، يشغله الغزل ولا يزال شاغله الأول فوق كل شاغل سواه ، وربما عيب على الرجل أن يتغافل عنه ويتوغّل منه ، كأنه مطالب به مدفوع إليه ، وليس قصارى الأمر فيه أن يسيغه ويأنس إليه .

فها من عالم ولا فقيه ولا أمير ولا سري بلغت إلينا أخباره وأحاديثه إلا كان له من روایة الغزل والاستماع إليه نصيب موفور ، وما من شدة كانت لا تلين له حتى شدة المحارم والحرمات .

كان ابن عباس رضي الله عنه في المسجد الحرام وعنه نافع بن الأزرق وجاءه من الخوارج يسألونه ويستفتونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين حتى دخل وجلس ، فأقبل عليه ابن عباس يستنشده من شعره ، فأنشده الرائية التي يقول في مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر      غداة غد أم رائح فمهجر

إلى أن أتمها .

فالتفت إليه نافع بن الأزرق قائلاً : « الله يا ابن عباس ! إننا نضرب إليك أكباد الأبل من أقصاصي البلاد نسائلك عن الحلال والحرام فتشاكل علينا ، ويأتيك غلام مترفٌ فيندشك ؛

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسر

فبادره ابن عباس قائلاً : ليس هكذا قال . إنما قال :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيصحي وأما بالعشى فيخسر<sup>(١)</sup>

وعجب نافع من حفظ ابن عباس للبيت فأعاد عليه القصيدة كما جاء في بعض الروايات من مطلعها إلى ختمها . وقال من لامه في حفظها : إننا نستجيدها . ثم أقبل على ابن أبي ربيعة يستزيده فأنشده :

تشطّ غداً دار جيراننا

وসكت ، فقال ابن عباس :

وللدار بعد غد أبعد

فقال له عمر : كذلك قلت - أصلحك الله - أفسمعته ؟

قال : لا ، ولكن كذلك ينبغي .

وكان بعد ذلك كثيراً ما يسأل : هل أحدث هذا المغري شيئاً بعدهنا ؟

\* \* \*

ورُوي أن نوفل بن مساحق دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بسعيد بن المسيب في مجلسه وحوله أصحابه فسلم عليه فرد السلام ثم سأله : يا أبا سعيد ! من أشعر ؟ أصحابنا أم أصحابكم ؟ يريد عبد الله بن قيس وعمر بن أبي ربيعة ، فقال نوفل : حين يقولان ماذا يا أبا محمد ؟ فأنشده أبيات عمر :

خليلي ما بال المطايَا كأنما  
نراها على الأدبار بالقوم تتكচ  
وقد قطعت أعناقهن صباة  
فأنفسنا ما يلاقين شُخْص

---

(١) يبرد .

وقد أتعب الحادي سراهن وانتهى  
يزدن بنا قرباً فيزداد شوقنا  
إذا زاد طول العهد والبعد ينقص  
ثُم قال : حين يقول صاحبكم ما تشاء !  
فأجابه نوفل : صاحبكم أشعر في الغزل وصاحبنا أكثر أفنين شعر .

قال سعيد : صدقت . ثم انقضى ما بينهما من ذكر الشعر فجعل سعيد يستغفر  
الله ويعقد بيده حتى وفي مائة .

فاتجه سائل إلى نوفل يسأله : أتراه استغفر الله من إنشاد الشعر في مسجد  
رسول الله ؟ قال نوفل : كلا ! هو كثير الانشاد والاستنشاد للشعر فيه ، ولكن  
أحسب ذلك للفخر بصاحبه .

وكان شأن الأمراء والرؤساء في هذا كشأن العلماء والفقهاء . فحدث الشعبي  
أنه دخل المسجد فإذا بمصعب بن الزبير على سرير والناس عنده ، فسلم وهم  
بالانصراف ، فاستدناه مصعب ودعاه أن يتبعه إذا قام .

قال الشعبي : فجلس قليلاً ثم نهض إلى دار موسى بن طلحة وأنا أتبعه ، ثم  
دعاني إلى الدخول فدخلت معه إلى حجرته ووقفت ، فالتفت إليّ وقال : ادخل  
فدخلت معه فإذا حجلة ، وانها لأول حجلة رأيتها لأمير ، وسمعت حركة  
فكرهت الجلوس ولم يأمرني بالانصراف ، وإذا بجارية تناديني : يا شعبي ! إن  
الأمير يأمرك أن تجلس . فجلست على وسادة ورفع سجف الحجلة<sup>(٢)</sup> فإذا أنا  
بمصعب بن الزبير ، ثم رفع سجف آخر فإذا أنا بعائشة بنت طلحة . فلم أر  
زوجاً قط كان أجمل منها . فقال مصعب : يا شعبي ! هل تعرف هذه ؟ قلت :  
سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة ! .. قال : لا . ولكن هذه ليلي التي  
يقول فيها الشاعر :

ومازلت من ليل لدن طرّ شاري  
إلى اليوم أخفى جبهـا وأداجـن<sup>(٣)</sup>  
وأحملـ في ليلـ لقـوم ضـغـينة

(١) جاد في سيره

(٢) الحجلة مكان يفرش ويزان بالستور

(٣) المداعنة المداهنة .

ثم قال : إذا شئت فقم .

قال الشعبي : فلما كان العشي ذهبت إلى المسجد فإذا هو جالس على سريره .  
فاستدناني حين رأني حتى وضعت يدي على مرافقه ، ثم مال إلى فقال : هل  
رأيت مثل ذلك الإنسان قط ؟ قلت : لا والله ! .. فسألني : أفتدرى لم  
أدخلناك ؟ قلت : لا ! قال : لتحدث بما رأيت . ثم التفت إلى عبد الله بن أبي  
فروة أن يعطيني عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً . فما انصرف أحد بمثل ما  
انصرفت به : عشرة آلاف درهم ، ومثل كارة القصار<sup>(١)</sup> ثياباً ، ونظرة من عائشة  
بنت طلحة .

والشعبي صاحب هذه القصة الذي حسب النظرة من غنائم يومه هو أكبر الرواة  
في زمانه والثقة الحجة فيها حفظها من الأحاديث النبوية .

ومصعب بن الزبير هو الأمير الذي نازع ونوزع في الولاية وعاش على خطر من  
القتل حتى قتل ، وهو مع ذلك مشغول بالغزل كما رأيت ومشغول بأن يصبح هو  
وزوجه حديثاً غزلياً للمحدثين .

لا جرم يكون من تمام مرودة السري يومئذ أن يعيش للغزل وأن يسعى بالوساطة  
فيه ، فكان ابن أبي عتيق - وهو من سلالة أبي بكر الصديق - يتشفع لعمر بن أبي  
ربيعة عند صديقته الشريا ولا يرى في الدنيا خيراً إذا تم الصدع بينهما .

حدث مولاه بلال أن سيده أنسد أبيات عمر التي يقول منها :

من رسولي إلى الشريا فإنني ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب  
فصاح : إياي أراد ، وببي نوَّ . والله لا أذوق أكلأ حتى أشخص فأصلح  
بينهما ، ونهض ونهضت معه ، فاكترى راحلتين وسار سيراً شديداً فقلت : أبق  
على نفسك ، فإن ما ترید ليس بفوتك !

فقال : ويجك : أبادر حبل الود أن يتقطعا<sup>(٢)</sup>

---

(١) القصار مبيض الشياطين ومحورها والكاربة ما يجمع فيه الشياطين .

(٢) يتقطع .

وما حلاوة الدنيا إن تم الصدع بين عمر والثريا ؟

« فقدمنا مكة ليلاً غير محدين ، فدق على عمر بابه وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته ، وقال له : اركب أصلح بينك وبين الثريا ، فانا رسولك الذي سألت عنه ! وقدمنا الطائف فقال ابن أبي عتيق للثريا : هذا عمر قد جشمني السفر من المدينة إليك ، فجئتكم به معترفاً لك بذنب لم يجهنه ، معتذراً من إساءته إليك ، فدعوني من التعداد والتعداد ، فإنه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون . فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله ، وكررنا إلى مكة فلم ينزلها ابن أبي عتيق حتى رحل . . . » .

فالعصر الذي يكون هذا شأن الغزل عند علمائه وأمرائهم وأصحاب المروءة فيه لا جرم يكون الغزل حاجة من حاجاته التي لا يشع منها ، ويكون شعر الشاعر الواحد قليلاً في التعبير عن هذه الحاجة التي تعم كل بنية وبناته ، وتشغل كل متحدثيه ومتحدثاته .

وقد كانوا يحسون حاجتهم إلى مثل ذلك الشاعر ويقولون إنهم يحسونها ويفتقدونها ، فلما مات عمر بن أبي ربيعة حزنـت عليه نساء مكة ، وكانت إحداهن بالشام فبكـت وجعلـت تقول : من لأباطـح مـكة ؟ ومن يـدح نـساءـها ويـصف مـحـاسـنـهن ؟ وـعـزـاـها بـعـضـهـمـ فـقـالـ : إـنـ فـتـيـ مـنـ ولـدـ عـثـيـانـ بنـ عـفـانـ قد نـشـأـ عـلـىـ طـرـيقـتـهـ وـأـنـشـدـهـ بـعـضـ كـلـامـهـ فـتـسـلـتـ وـقـالتـ : هـذـاـ أـجـلـ عـوـضـ ، وـأـفـضـلـ خـلـفـ ، فـالـحـمـدـ لـلـهـ الـذـيـ خـلـفـ عـلـىـ حـرـمـهـ وـأـمـتـهـ مـثـلـ هـذـاـ .

وجاء في أخبار كثير بن عبد الرحمن الشاعر أنه مات وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد . فقال الناس : مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس ، وغلب النساء على جنازة كثير ي يكنيه ويدركن صاحبته عزة في ندبهن له . وأقبل محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب يشق طريقه ويضرب النادبات بكـمهـ قائلاً : تنحـينـ ياـ صـوـيـحـاتـ يـوـسـفـ ! فـتـصـدـتـ لـهـ اـمـرـأـ مـنـهـنـ تـقـولـ : يـاـ اـبـنـ رـسـوـلـ اللـهـ لـقـدـ صـدـقـتـ ؛ إـنـاـ لـصـوـيـحـاتـ يـوـسـفـ وـقـدـ كـنـاـ لـهـ خـيـراـ مـنـكـمـ لـهـ . فـأـوـصـيـ بـعـضـ موـالـيـهـ أـنـ يـحـفـظـ بـهـ حـتـىـ يـجـيـهـ بـهـ بـعـدـ اـنـصـارـافـهـ . ثـمـ جـيـءـ بـتـلـكـ الـمـرـأـةـ كـأـنـهـ شـرـارةـ النـارـ كـمـاـ قـالـ رـاوـيـ القـصـةـ ، فـسـأـلـهـ مـحـمـدـ بـنـ عـلـيـ : أـنـتـ الـقـائـلـةـ إـنـكـنـ لـيـوـسـفـ خـيـرـ مـنـاـ ؟ قـالـتـ : نـعـمـ . تـؤـمـنـيـ غـضـبـكـ يـاـ اـبـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ؟ قـالـ : أـنـتـ آـمـنـةـ مـنـ

غضبي فأبيني . قالت : نحن يا ابن رسول الله دعوناه إلى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع والنعم ، وأنتم معاشر الرجال ألقيموه في الجب وبعثموه بأبخس الأثمان وحبستموه في السجن ، فلأينا كان عليه أحنى وبه أرأف ؟ فقال محمد : لله درك ! ولن تغالب امرأة إلا غلبت . ثم سألهما : ألك بعل ؟ فأجابته : لي من الرجال من أنا بعله ! . قال أبو جعفر : صدقت ! مثلك من تملك بعلها ولا يملكونها ... .

\* \* \*

تلك حال العصر وحال ساداته وسيداته من الغزل واحاديثه . فليس العجب ان تستفرق هذه الأحاديث ديوان شاعر واحد ضئل أو صغير ، وإنما العجب أن ينفرد ابن أبي ربيعة بطريقته وديوانه في ذلك العصر ولا يكثر معه الأنداد والنظراء ، ولكل منهم مثل ذلك الديوان .

والواقع أن مثل هذا الانفراد عجيب لولا أن نرجع إلى الحقيقة برمتها ولا نقف عند النظرة الأولى إلى العصر كله على الإجمال .

فابن أبي ربيعة لم يكن شاعر الغزل في العصر كله ، ولكنه كان في الحقيقة شاعر الطبقة الواductة المترفة من أبناء ذلك العصر وبناته دون غيرها ، وهي طبقة يعد افرادها بالعشرات ولا يتجاوزونها إلى المئات ، ومن كان من شعرائها يساویه في الحسب والجاه كالحارث بن خالد أو العربي سليل عثمان بن عفان فقد كان له شاغل آخر عن الغزل ومصاحبة الحسان ، فكان الحارث والياً لملكة وكان العربي يشهد الواقع بأرض الروم ، وكانت مع ذلك دون عمر في الملكة الشعرية والطبيعة الغزلية ، فإذا اجتمع التعبير عن الطبقة كلها في الديوان الكبير الذي نظمه عمر ابن أبي ربيعة فذلك حسب تلك الطبقة من حديث منظوم .

فهو وحده كان الشاعر المكث بين الوادعين المترفين من أهل زمانه ، وكان مكانه في طبقته يبيحه أن ينقل عنها وتنقل عنه ، ويسمع منها وتسمع منه ، وينتلت بها وينتلت بها على سنته المصاحبة والمساواة . فقد كان في النواة من بيوت قريش غنىً وجاهًا وحسبًا ، وكان همه موكلاً من يساوينه في الطبقة من بنات تلك البيوت . إذ لا نعرف من أخباره خبراً واحداً شُبِّب فيه بفتاة من غير ذوات الشارات والأحساب ، وإن عرض بيته هنا وبيت هناك لفتاة من زائرات الحج المجهولات

النسب فمن المحقق أن يكون مغريه بها النعمة الباية والسمة التي تنس على الرفاهة والرخاء ، ثم لا يتعقبها إلى زمن طويل .

أما حسانه اللائي اشتهر بالحديث عنهن وأحب أن يتسم بجبنهن فكلهن من ذات الحسب والثراء ، ومن طبقة محدودة لها ذوقها الخاص الذي لا يشبه عامة الأذواق .

فعائشة بنت طلحة التي تقدمت الاشارة إليها هي بنت طلحة بن عبد الله وحفيدة أبي بكر الصديق من ناحية أمها ، وزوجة مصعب بن الزبير ، وصاحبة الشهرة المستفيدة بالترف والعيش بالمال ، فمن أخبارها أن مصعباً دخل عليها وهي نائمة في الصباح ومعه ثانية لؤلؤات تقوم بعشرين ألف دينار ، فنبهها ونشر اللؤلؤ في حجرها ، فما زادت على أن قالت : نومتي كانت أحب إلى من هذا اللؤلؤ !

والثريا - ولعلها أحظى حسانه عنده - هي بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس ، وها من الدور والرياض والمآل حظ موفور .

والسيدة سكينة بنت الحسين وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان هما في النسب والثراء مكان لا يعلوه في زمانها مكان ، ويلحق بهما من قريب أو بعيد حسان آخريات كلهن من كبار البيوتات كزينب بنت موسى وهند بنت الحارث المرية ، ومن يشير إليهن بوصف النعمة والبذخ فيدل على طبقتهن ، وإن لم يصرح بالكنى والأسماء .

وعلى هذا لا عجب أن يفرد عمر بحديثه المنظوم عن هذه الطبقة فهو شاعرها الذي اجتمع له من أسباب التعبير عنها ما لم يجتمع لغيره .

ولا عجب أن يترك لنا ديواناً كاملاً كله رسائل غرام لأنه كان يعبر عن حاجة من حاجات عصره تتسع للدواين .

وقد يكون من تمام العلم بذلك الغزل الذي تفوق فيه أن نعلم ما هو الترف الذي كان من أهلها وكان موكلاً بوصفه ، فهو على الجملة ترف ساذج لا يخلو من مسحة البداءة ، وقد تبدو سذاجته في الدلال الخشن كما تبدو في إظهار النعمة بالكماثرة والمباهة التي يعززها الصقل والطلاء . فمن الدلال الخشن أن تترفع

عائشة بنت طلحة عن ثaniي لآيء بعشرين ألف دينار وهي لو طارت بها فرحاً لكانـت في ذلك عراره طعمـونـه هي أملـحـ من كل ذلك الدلال ، وسـنـرى في فصـولـ هذه العـجـالـةـ المـقـبـلـةـ أنـ الشـرـياـ كانتـ تـلـبـسـ الخـواتـمـ كـسـائـرـ بـنـاتـ عـصـرـهاـ فيـ جـيـعـ أـصـابـعـهاـ ، وـأـنـهاـ لـطـمـتـ بـيـدـهاـ وجـهـ عمرـ حتـىـ أـوـشـكـتـ أـنـ تـخـلـعـ ثـنـيـتـهـ ! وـنـرـىـ أنـ إـحـدىـ مـعـشـوقـاتـهـ ضـرـبـتـ جـارـيـةـ أـرـسـلـهـاـ إـلـيـهـاـ . فـمـنـ الـواـضـحـ أـنـ نـلـمـسـ أـثـرـ ذـلـكـ كـلـهـ فيـ غـزـلـ اـبـنـ أـبـيـ رـبـيعـةـ وـفـيـ دـلـالـهـ هوـ بـصـبـوتـهـ وـشارـتـهـ وـمـرـكـبـهـ وـمـلـبـسـهـ وـشـهـرـتـهـ الغـرامـيـةـ . فـمـنـ هـنـاـ كـانـ شـاعـرـ غـصـرـهـ وـشـاعـرـ طـبـقـتـهـ وـشـاعـرـ طـرـيقـتـهـ فيـ الغـزلـ لاـ مـرـاءـ .

### طبيعة غزله

كـانـتـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الرـجـلـ وـالـمـرأـةـ فيـ قـبـائلـ الـعـربـ الـبـادـيـةـ عـلـىـ سـنـةـ الـفـطـرـةـ بـيـنـ الجـمـاعـاتـ الـبـشـرـيـةـ الـأـوـلـىـ .  
ولـكـنـ الـفـطـرـةـ لـاـ تـكـوـنـ عـلـىـ حـالـةـ وـاحـدـةـ .

إـذـ تـغـلـبـ عـلـيـهـاـ القـوـةـ كـمـاـ يـغـلـبـ عـلـيـهـاـ الـضـعـفـ ، وـتـوـصـفـ بـالـعـرـامـ وـالـشـدـةـ كـمـاـ تـوـصـفـ بـالـسـهـوـلـةـ وـالـلـيـنـ ، وـتـظـلـ عـلـىـ الـبـاسـاطـةـ كـمـاـ يـعـرـضـ لـهـاـ بـعـضـ الـشـرـكـيـبـ وـيـعـرـيـهـاـ شـيـءـ مـنـ التـعـقـيدـ .

فـفـيـ الـبـداـوـةـ الـأـوـلـىـ كـانـتـ مـنـاعـةـ الـحـوـزـةـ هـيـ الـفـضـيـلـةـ الـعـلـيـاـ الـتـيـ لـاـ تـعـلـوـ عـلـيـهـاـ  
فضـيـلـةـ أـخـرـىـ .

لـأـنـهـ غـاـيـةـ مـاـ يـتـمـنـاهـ الـبـدـوـيـ فـيـ كـفـاحـ الـعـيـشـ لـيـضـمـنـ بـقـاءـهـ بـيـنـ مـنـافـسـيهـ وـالـمـغـيـرـينـ  
عـلـيـهـ .

فـالـقـبـيلـةـ الـشـرـيفـةـ هـيـ الـقـبـيلـةـ الـتـيـ تـمـنـعـ مـاءـهـاـ وـمـرـعـاـهـاـ ، وـتـلـوـدـ عـنـ جـيـرـتـهـاـ  
وـحـماـهـاـ .

والـسـيـدـ الشـرـيفـ هـوـ الرـجـلـ الـذـيـ لـاـ يـسـتـخـفـ بـجـوارـهـ ، وـلـاـ يـعـتـدـ عـلـىـ ذـمـارـهـ .

وـالـمـرأـةـ الـشـرـيفـةـ هـيـ الـتـيـ يـصـعـبـ مـنـاـهـاـ وـلـاـ يـسـلـسـ قـيـادـهـاـ فـالـعـفـةـ هـنـاـ فـضـيـلـةـ  
«ـحـرـبـيـةـ»ـ تـابـعـةـ لـلـفـضـائـلـ الـعـامـةـ الـتـيـ تـغـلـبـ عـلـىـ أـحـوـالـ الـقـبـيلـةـ بـرـمـتـهـاـ :ـ مـعـقـلـ

منيع ، وسيد منيع ، وبئر منيعة ، وامرأة منيعة ، وقس على ذلك كل ما تطلب فيه  
الحصانة والاستعصاء .

\* \* \*

وإذا نظرنا إلى المرأة من حيث هي عرض الرجل الذي يحميه ويغار عليه فلا جرم  
يصبح اللعنة باسم المرأة إهانة لها وإهانة للرجل الذي يحميها في وقت واحد ،  
ويبلغ من ذلك أن يحرم على الفتاة الزواج بالفتى الذي اشتهر بحبها ونظم الشعر  
فيها .

هذا هو عرف الفطرة الذي توحيه البداءة والبداهة .

ثم يجيء سلطان الدين فيضيف إلى حصانة البداءة مناعة إلى مناعة ، ويزيد  
حق أولياء النساء في حماية أسمائهن والمطالبة بعقاب من يغازلهن ويلعنةذكرهن ،  
لأن اللعنة بهن ازدراء بأقدار أوليائهن وحرام في الدين .

\* \* \*

لكن الأدب البدوي يدركه أحياناً عرض من أعراض التغير أو الانحلال بحدب  
شديد يحطم قيوده ويهدم حدوده ، أو لترف تنغميس فيه القبيلة ، فتلين بعد جفاء  
وتراخي بعد صلابة ، أو لقلة الحاجة إلى القتال ونخوة العداء التي تجعل المناعة  
فضيلة الفضائل ومعقد الأخلاق والأداب ، أو لما يحدثه النعيم من حب الدعاية  
والسخر بالخلافة وإن اشتغلت على سطوة وانطوت على إباء .

فترى إذن من سهولة الغزل بين الرجل والمرأة ما تستغرب أن تراه في حاضرة من  
حاضر العصر الحديث ، لأن المتغزل البدوي قد يستخف بحواجز البداءة  
وبحاجز الحضارة على السواء ، أما الحضري من أبناء العصر الحديث فقد يعرف  
له حدوداً ثانية ولا يحسن به أن يتخطاها في بعض الأحاديث والمساجلات ، وإن  
استطاع .

حدث أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة يزيد بن الطثريه فقال ما نقله بتصرف  
يسير :

« .. كان كثيراً ما يتحدث إلى النساء ..

« قالت سعاد بنت يزيد : كان من أحسن من مضى وجهاً وأطبيه حديثاً ، وإن النساء كانت مفتونة به .

« وأخل الناس حتى ذهبت الدقيقة من المال وتهتك الجليلة ، فأقبل صرم<sup>(١)</sup> من جرم ساقته السنة والجدب من بلاد قشير وبينهم وبين قشير حرب عظيمة .

« فلم يجدوا بداً من رميهم بأنفسهم لما قد ساقهم من الجدب والمجاعة وما أشرفوا عليه من الهملة .

« ووقع الربيع في بلادبني قشير فانتجمعها الناس وطلبوها ، فلم يعدُ أن لقيت جرم قشيراً فنصبوا قشير لهم الحرب . فقالت جرم : إنما جئنا مستجيرين غير محاربين . . . فأجارتهم قشير وسلمتهم وأرعنهم طرفاً من بلادها .

« وكان في جرم فتى يقال له مياد ، وكان غزلاً حسن الوجه تام القامة آخذًا بقلوب النساء .

« والغزل في جرم جائز حسن وهو في قشير ناثرة .

« فلما نازلت جرم قشيراً وجاورتها أصبح مياد الجري فغدا إلى القشيريات يطلب منها الغزل والصبا والحديث واستبراز الفتيات عند غيبة الرجال . فدفعتهن عنهن وأسمعنـه ما يكره ، وراحت رجـالهنـ عـلـيهـنـ وهـنـ مـغـضـبـاتـ ، فـقـالـ عـجـائـزـ منهاـنـ : والله ما ندرـي أـرـعـيـتـمـ جـرـمـاـ المـرـعـىـ أمـ أـرـعـيـتـمـوـهـ نـسـاءـكـمـ ؟

« وأشار بعض القوم أن يبيتوا جرماً فيصطلموها ، واستقبعـهـ بعضـهـ لـماـ فيهـ من غدر بالجوار ، وقالـواـ : لاـ تـفعـلـواـ . ولكنـ تـصـبـحـونـ وـتـقـدـمـونـ إـلـىـ هـؤـلـاءـ القـومـ فيـ هـذـاـ الرـجـلـ فـإـنـهـ سـفـهـاـهـمـ ، فـلـيـأـخـذـواـ عـلـىـ يـدـيـهـ . فـإـنـ يـفـعـلـواـ فـأـتـوـاـ لـهـمـ إـحـسـانـكـمـ ، وـإـنـ يـقـرـوـاـ مـاـ كـانـ مـنـهـ يـحـلـ لـكـمـ الـبـسـطـ عـلـيـهـمـ وـتـخـرـجـواـ مـنـ ذـمـتـهـمـ .

« . . . فـلـمـ أـصـبـحـواـ غـدـاـ نـفـرـ مـنـهـ إـلـىـ جـرـمـ فـقـالـواـ : ماـ هـذـهـ الـبـدـعـةـ التـيـ قدـ جـاـورـتـنـاـ بـهـاـ ؟ـ إـنـ كـانـ هـذـهـ الـبـدـعـةـ سـجـيـةـ لـكـمـ فـلـيـسـ لـكـمـ عـنـدـنـاـ إـرـعـاءـ وـلـاـ

---

(١) جماعة من البيوت .

اسقاء ، وإن كانت افتاناً فغيروا على مَنْ فعله .

فقهت جرم من جفاء القشرين وعجرفيتهم ، وقالوا : إنكم لتحسين من نسائكم ببلاء . ألا فابعثوا إلى بيوتنا رجالاً ورجالاً .

« قالوا : والله ما نحس من نسائنا ببلاء ، وما نعرف عنهن إلا العفة والكرم . ولكن فيكم الذي قلت !

« قالوا : فإننا نبعث رجالاً إلى بيوتكم يا بنى قشير . إذا غدت الرجال وأختلف النساء ، وتبعثون رجالاً إلى بيوتنا ونتحالف أنه لا يتقدم رجل منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها بشيء مما دار بين القوم .

« ... حتى إذا كان الغد غدوا إلى الماء وتحالفوا أنه لا يعود إلى البيوت منهم أحد دون الليل . وغدا مياد الجرمي إلى القشريات ، وغدا يزيد بن الطيرية إلى الجرميات ، فظل عندهن بأكمل مظل لا يصير إلى واحدة منها إلا افتتنت به وتابعته إلى المودة والأخاء ، وبقى منها رهناً وسألته ألا يدخل من بيوت جرم إلا بيتها . فيقول : وأي شيء تخافين وقد أخذت مني المواثيق وليس لأحد في قلبي نصيب غيرك ؟

« ثم صليت العصر فانصرف يزيد بفتح<sup>(١)</sup> وبراقع ، مكحولاً مدهوناً شبعان ريان مرجل اللّمة .

« أما مياد الجرمي فظل يدور بين بيوت القشريات مرجوماً مقصى لا يتقرب إلى بيت إلا استقبلته الولائد بالعدم والجندي ، فتهاك لهنّ وظن أنه ارتياح منهن له ، حتى أخذه ضرب كثير بالجندي ورأى اليأس منه وجده العطش ، فانصرف إلى سمرة قريباً إلى نصف النهار نام تحتها نوعية وتوسد يديه فسكن بعض ما به من الالم الضرب وبرد عطشه قليلاً ، ثم قرب على الماء حتى ورد على القوم قبل يزيد ، فوجد أمّة تذود عنها في بعض الظعن فأخذ برقعها وألقى بها وهو يقول ، برقع واحدة من نسائكم أوجاءت الأمة تعلو فتعلقت برقعها فردوه عليها وهو

---

(١) الفتنة حلقة كالخاتم لا فض لها .

خجل .

« ثم أقبل يزيد مسيأً وقد كاد القوم أن يتفرقوا ، فتركمه بين أيديهم ملآن براقع وفتاحاً وقد حلف القوم ألا يعرفونه شيئاً إلا رفعه .

« فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم وأمسكوا بأيديهم إمساكة ... فقالت تشير : أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من المواثيق . فمن شاء أن ينصرف إلى حرام فليمسك يده ... »

\* \* \*

وأعجب من هذا في استباحة الغزل أو استحسانه ما رواه ياقوت في مادة « رباط » من معجم البلدان حيث قال في وصف أهل هذا البلد ... « أهله عرب ، وزبدهم زب العرب القديم وفيهم صلاح مع شراسة في خلقهم وزعارة وتعصب ، وفيهم قلة غيرة كأنهم اكتسبوها بالعادة . وذلك أنه في كل ليلة تخرج نساوهم إلى ظاهر مدinetهم ويسامرون الرجال الذين لا حرمة بينهن وبينهم ويلاعبنهم ويجالسنهما إلى أن يذهب أكثر الليل ، فيجوز الرجل على زوجته وأخته وأمه وعمته وإذا هي تلاعب آخر وتحادثه فيعرض عنها ، ويضي على امرأة غيره فيجالسها كما فعل بزوجه .

« وسألت رجالاً عاقلاً منهم أدبياً فقلت له : بلغني عنكم شيء أنكرته ولا أعرف صحته !

« فبدرنى وقال : لعلك تعني السمرا ؟

« قلت : ما أردت غيره !

« فقال : الذي بلغك من ذلك صحيح ، وبالله أقسم إنه لقبيح ولكن عليه شأننا ولو قد ألفنا ، ولو استطعنا أن نزيله لأزيلناه ، ولو قدرنا لغيرناه . ولكن لا سبيل إلى ذلك مع عمر السنين عليه واستمرار العادة » .

\* \* \*

والملحوظ من كل ما قدمناه أن خفض العيش وقلة الحاجة إلى نخوة القتال لها اتصال بما شوهد من سهولة الغزل بين القبائل العربية ، وهذا كان أكثره إلى

سلالات اليمن التي عُرفت منذ القدم باسم «العربية السعيدة» لخض عيشها ورقة أخلاقيها ، أو كما قيل إنها «تلك الهاينة الضعيفة قلوبها» .

وعندنا أن أهل الباذية أقرب إلى الغزل - متى ارتفع وازع الصولة أو ارتفعت سطوة الدين - من أهل الحاضرة ، خلافاً مما يبدر إلى الظن أول وهلة .

لأن أهل الباذية أقرب إلى غرائز الأحياء الفطرية فيما يعالجونه من أنفسهم ومن سياسة المخلوقات الحية التي يرعونها ويعيشون عليها .

ولأنهم كذلك أوفـنـصـيـباً من الفراغ وأدنـى إلى اللقاء وأقلـ منـأـهـلـ المـدـنـ الكـبـيرـةـ أـنـدـيـةـ وـمـلـاـعـبـ لـلـرـياـضـةـ الـعـامـةـ يـقـضـونـ فـيـهاـ سـوـيـعـاتـ الـبـطـالـةـ وـالـرـاحـةـ .ـ فـإـذـاـ تـيسـرـ الرـزـقـ وـلـانـتـ الشـكـائـمـ وـذـهـبـتـ الغـرـائـزـ فـيـ مـدـاهـاـ كـانـ اللـهـوـ دـيـدـنـاـ لـاـ فـكـاكـ مـنـهـ لـمـ فـرـغـواـ لـهـ وـاسـطـاعـوـهـ وـلـمـ يـجـدـواـ مـصـرـفـاـ عـنـهـ إـلـىـ غـيرـهـ ،ـ وـحـسـبـوـهـ ظـرـفـاـ وـمـلـاحـةـ لـاـ بـلـيقـانـ بـغـيرـ أـهـلـهـ .ـ

وقد نشأ شاعرنا - عمر بن أبي ربيعة - في حواضر الحجاز . تلك الحواضر التي كانت لعهده وسطاً بين الباذية والمدينة العامرة  
فلم تكن خياماً ولا بيوتاً من الشعر منقطعة عن العمار .

ولكنها لم تكن كذلك صرحاً ولا عواصم مستقلة بنفسها على مثال دمشق ومصر والقسطنطينية .

إنما كانت على الحقيقة مثابة الحجاج والقوافل ومنازل يأوي إليها المغتربون إلى حين ، ويسكنها أهلها لضيافة من يقصدها من غير أهلها في موسم الحج أو مواسم التجارة والارتياح .

فهي كال محلّة الصحراوية التي لا تشبه الصحراء ولا تبلغ مبلغ العاصمة من استبحار العمار .

وكانت وسطاً بين غرام الباذية كما نعرفها في الأعراب وبين ذلك الاسترخاء الذي أنبأنا به أبو الفرج في الأغاني وياقوت في معجم البلدان .

فأسس أبناء القبائل الذين سكنوها بعد خشونة وجفاء ، ولكنهم لم ينسوا نخوة العرض ومنعة المحارم . فلما شب عمر بن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة

من تيم بنى مرة كبر الأمر على فتیان تيم فأنذروه لا يعودن إلى مثل ذلك ، وإلا أصابه شر من أيديهم ، فأقسم لا عاد .

ولانت شدة الدين بعد الخلفاء الراشدين ، ولكنها لم تبطل ولم تتحلل في العرف الشائع بين الناس . بل كان عمر يلهموا يلهموا ويتعزز ما يتغزل ثم لا ينسى أن يعلن مع هذا جاهدا أنه لا يستبيح محراً ولا يأتي ببرية ، ولا يزال على سنة الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون .

ولعل عائشة بنت طلحة كانت مثل المرأة الشريفة في تلك الآونة : تعطى حق الحياة والدين وتعطى معه حق النعمة والجمال ، فكانت تترفع عن الريب ولكنها لا تستر وجهها عن أحد . وإذا عاتبها زوجها في ذلك قالت وفي كلامها قبس من حجة الدين وحجة الدنيا : « إن الله وسمني بميسِّمِ جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لأستره . والله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد . . . »

قال صاحب الأغاني : « وطالت مراودة مصعب إياها في ذلك ، وكانت شرسة الخلق ، وكذلك نساء بنى تيم هن أشرس خلق الله وأحظى عند أزواجهن . وكانت عند الحسين بن علي رضوان الله عليها أم إسحاق بنت طلحة ، فكان يقول : « والله لربما حللت ووضعت وهي مصارمة لي لا تكلمني ! »

وهذا مثل المرأة التي لا تنسى جمالها ولا تنسى بذاتها ولا تنسى دينها ، ثم تأتي النساء دون ذلك درجات ممن وصفهن ابن أبي ربيعة فقال :

فلي تفاوضنا الحديث وأسفرت  
تباهن بالعرفان لما عرفني  
وقربن أسباب الهوى لم يتم  
وجوه زهاداً الحسن أن تتقنعا  
وقلن امرؤ باعِ أكلٍ وأوضعاً<sup>(١)</sup>  
يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا

فهن جيئاً مزهوات بجماهن ، حريريات على أن يشهدن أثره ويسمعن حدثه ، مشغولات بجلده وهو ، في عزة تتفاوت بين الصالف وبين تقريب

---

(١) أكل بغيره وأوضعه جعله يسرع ، والمعنى أنه مضى في الغواية حتى تعب .

أسباب الموى لم يحسن الاقتراب ويتجنب الارتباط .

فمن الطبيعي أن ينشأ الغزل في هذه البيئة التي تغري فيها المرأة بالغزل وتصفعي إليه .

ومن الطبيعي أن ينشأ الشعراء الغزلون الذين يواافقون هذه البيئة من طرفها ، بين جد وشغف ، وبين هو وترجمة فراغ .

وقد التفت إلى حديث المرأة كثير من الشعراء في ذلك العصر وفي تلك البيئة غير عمر بن أبي ربيعة ، وعلى غير طريقته ومنحاه . فكانوا على الجملة مدرستين مختلفتين في النزعة والسلبية وجواهر العاطفة ، وإن تشابهنا في ظاهر المعنى وظاهر الحنين والشكوى .

إحدى هاتين المدرستين هي مدرسة الشعراء الذين اشتهروا بحب امرأة واحدة كما اشتهر قيس بليلي وعروة بعفراء وجميل بثينة وكثير بعزة وتوبية بليلي .

والمدرسة الأخرى هي مدرسة الشعراء الذين تغزلوا بأكثر من امرأة واحدة أو اشتهروا بحب النساء عامة ، كعمر والأحوص والعرجي وقيس الرقيات .

والفرق كما أسلفنا بعيد بين العاطفة التي توحّي شعر المدرسة الأولى والعاطفة التي توحّي شعر المدرسة الأخرى .

لأن علاقة رجل بأمرأة واحدة يبقى على جهازها طويلاً أو يبقى على جهاها مدى الحياة هي حادث لا يتكرر كل يوم ولا بد فيه من عامل الشخصية التي تفرز المرأة من سائر النساء ، ويصبح أن يقال إن هذه العلاقة « إصابة حب » كسائر الاصابات التي يتعرض لها الإنسان فتطول أو لا تطول وتصنيبه وهو مستعد لها أو تصنيبه على غير استعداد . فإنما المهم في تمييزها أنها إصابة عارضة وحدث من عوارض الأحداث .

أما حب الغزل بالنساء عامة فهو مزاج يلازم صاحبه ملزمة الأمزجة للطبع ، ولو لم يتصل بنساء معرفات ، فهو مخلوق على هذا المزاج كما يخلق الإنسان بلون من الألوان أو صفة من الصفات .

فالرجل المغرم بحديث النساء ومجالستهن ومناوشتهن يقصد الجنس ولا يقصد

الشخصية ، ويستطيع أن يرضي شعوره هذا دون أن يتقييد بأخلاق الوفاء وآداب العشق وحصل التضحية والصبر والتعذيب النفسي الذي لا معنى له عند من يتحدث اليوم إلى امرأة أو نساء كثيرات متجمعنات ، ويتحدث غداً إلى امرأة أخرى أو نساء كثيرات آخريات .

أما الرجل الذي «يفرز» بحبه امرأة دون غيرها ففي نفسه عوامل أدبية وعهود أخلاقية وبواطن روحية لا موضع لها في الحالة السابقة ولا حاجة إلى التعبير عنها في شعر الغزلين المولعين بجميع النساء ، إلا على سبيل التجمل بالمحاكاة .

فالمدرستان مختلفتان فيما اختلف في مقاييس الشعور ومقاييس الجنس ومقاييس الأخلاق ، ولا يجمع بينهما إلا تشابه الكلام في ظاهره دون التشابه في الباعث والاتجاه .

ولا يندرج فيها تقدم من التفريق أن بعض العشاق يخونون وأن بعض اللاهين بالغزل يعشقون ، فقد علمنا أن يزيد بن الطثريه أحب امرأة حتى أشرف على الملائكة ، وأن عمر تزوج ببعض من كان ينسب اليه . كما علمنا أن كثيراً امتحن في حبه فظهر غدره وقلة وفائه ، وهذا وذاك جائزان في الطبائع الأدبية ولكنها لا ينقضان الحقيقة التي لا جدال فيها : وهي أن طبيعة العشق غير طبيعة اللهو والغزل ، وأن نفس الرجل الذي يعيش امرأة واحدة غير نفس زير النساء المشغوف بالسمر الأنثوي والمناوشة الجنسية . كالفندق يتتفق في أيام أن ينفرد بالإقامة فيه نازل واحد ، وكالبيت يتتفق في أيام أن ينزل فيه ضيوف كثيرون ، ولكن هذا لا يمنع أن الفندق غير البيت وأنهما مختلفان في البناء والتأثيث والإدارة والغرض والمعاملة وأن التشابه بينهما من المصادفات وليس من النظام المطرد في جميع الأحوال .

إن العاشق الذي يخون حبيبته لا يشبه زير النساء الذي يتصل بنساء كثيرات ، لأن خيانة العاشق المفرد معناها أنه مطالب بالوفاء والعكوف على حب امرأة واحدة ، فإذا خان هذه المرأة الواحدة لم يصبح زير نساء بل أصبح عاشقاً مخلاً بالوفاء .

أما الآخر الذي يتصل بنساء كثيرات فلا يقال فيه إنه مخل بالوفاء ولا يواجه المرأة بالعاطفة التي تقبل الوفاء . فهما في صميم الاستعداد مختلفان ، وإن كانوا في ظاهر

الفعل متشابهين .

\* \* \*

وقد كان عمر بن أبي ربيعة إمام مدرسة اللاهين بالغزل غير مدافع ، أو كان أصلح زملائه لاتقان هذه الصناعة .

لأنه كان على يسار يعينه على اللهو والفراغ ، وكان على وسامة مقبولة وشأن يرفع من شأن غزله في قلوب النساء ، وكان للوراثة دخل في غزله إذا صاح ما قبل في ترجمة حياته أن أمه « كانت أم ولد يقال لها مجد سبيت من حضرموت أو من حمير ، ومن هناك أتاه الغزل إذ يقال غزل يمان ودل حجازي » ... وقد تقدم من وصف غزل اليهانية في بدوهم وحضرهم ما يذكر هذه الملاحظة ويعززها . فإذا نحن أضعفنا قول القائلين بانتقال الأخلاق من الأمهات إلى الأبناء من طريق الوراثة وهو غير ضعيف في حكم العلم ولا في حكم التجربة - فليس في وسعنا أن نضعف القول بتأثير العادة وانتقال الأخلاق من طريق الملزمة والمشاهدة .

وربما رشحه للسبق في هذه الصناعة جانب اثنوي في طبعه يظهر للقاريء من أبياته الكثيرة التي تنم على ولع بكلمات النساء واستمتاع بروايتها والابداء والاعادة فيها ، مما لا يستمرئه الرجل الصارم الرجولة . وأدل من ولعه بكلمات النساء على الجانب الانثوي في طبعه انه كان يشبههن في تدليل نفسه وإظهار التمنع لطالباته كما يبدو من قوله :

قالت ثريا لأتراب لها قطف<sup>(١)</sup>  
فمن نحيي أبا الخطاب عن كثب  
مثل التهائيل قد مؤهنه بالذهب  
فطرين حدأً لما قالت وشاعها

أو كما يبدو من قوله الذي عيره به كثير في بعض الروايات وهو :  
ثم اغمزيه يا أخت في خفر  
قومي تصلي له ليصرنا  
قالت لها قد غمزته فأبى  
لا تفسدنَ الطواف في عمر  
قالت لها أختها تعانها

(١) جمع قطف وهي التي تمشي بخطوات ضيقة .

وصدق كثير حيث قال : « أترأك لو وصفت بهذا الشعر هرة أهلك ألم تكن قد  
قبحت وأسأت لها وقلت المجر ». .

ولعل جانب الأنوثة فيه لا يظهر من شيء كما يظهر من تدليل اسمه بين تلقيب  
وكناية وتسمية كما يعهد في أحاديث النساء ، فهو تارة أبو الخطاب وتارة المغيري  
وتارة عمر الذي لا يخفى كما لا يخفى القمر ، وأشباه هذه الانثويات التي يقارب  
بها المرأة في المزاج ويسايرها في الحديث .

ومن قبيل هذه الانثويات انه كان يقول : « لقد كنت وأنا شاب أعشق ولا  
أُعشق ، فالليوم صرت الى مداراة الحسان إلى المها . ولقد لقيتني فتاتان مرة  
فقالت لي إحداهما : ادن مني يا ابن أبي ربيعة أسر إليك شيئاً ، فدنوت منها  
ودنت الأخرى فجعلت تعصبني ، فما شعرت ببعض هذه من لذة سرار هذه » .

وهذا حديث من هو عاشق لنفسه قبل أن يكون معشوقاً لغيره . فيه خلية  
المرأة أن تشعر بجنسها مطلوبة ولا تشعر بجنسها طالبة ، وما من شاب يبلغ من  
العمر أن تعشقه المرأة إلا قد بلغ من العمر أن يعشقها مالم يمنعه مانع من عرف أو  
زهادة ، فإن لم يكن هذا المانع ففي انتظاره أن يطلب معشوقاً قبل أن يطلب  
عاشقاً أنثوية لا ترضها طبائع الفحول .

\* \* \*

على أن ابن أبي ربيعة كان من « الطبقة الاجتماعية » التي يتعمى إليها ظريفات  
المجالس اللاثي يدور الحديث عليهم ومنهن في تلك الأونة ، فكان أقرب إلى  
معرفتهن وحكاية أحاديثهن والحظوة عندهن والتسلل إلى مرضاتهن من سائر  
الشعراء الغزلين من غير هذه الطبقة الاجتماعية ، وينبغي أن نذكر هنا أن المسألة  
لم تكن عند ابن أبي ربيعة مسألة النساء أو مسألة الأنثى على تعميمها ، وإنما  
كانت مسألة المرأة من طبقة واحدة هي طبقة بنات الأسر المنعيمات اللاحيميات  
ب مجالس السمر ومساجلات الغزل عن كل شاغل . فلم يتطرق مرة أن شب بأمرأة  
فقيرة كما يتطرق من يشغل بالمرأة لأنها امرأة أو لأنها من جنس الإناث ، ولكنه كان  
محرص على ذكر الخدم والخشم وأثار النعمة والترف كأنه مطالب بإثبات الغنى  
واليسر لمن يتغزل بهن . ومن ذلك قوله :

ومدّ عليها السجف يوم لقيتها  
على عجل تباعها والخوادم  
فلم أستطعها غير أن قد بدا لنا  
عشية راحت كفها والمعاصم  
معاصم لم تضرب على البهم في الضحى  
عصامها ووجه لم تلحوه السمايم .

يعني أنها ليست براعية ولا رائدة تتعرض للسمايم وهي تسوق الصأن في  
البادية .

ومنه قوله :

يرفلن في مطرفات السوس آونة  
وفي العتيق من الديساج والقصب  
ترى عليهم حل الدر متascaً  
مع الزبرجد والياقوت كالشهب

ومنه قوله :

قامات إليها حرتان عليهما  
كساءان من خز دمشق وأخضر

ومنه قوله :

نواعم قبْ بَدَنْ صُمَّتُ البرى<sup>(١)</sup>  
وي لأن عين الناظر المتسم

ومنه قوله :

وتسرى النسوان إن قا مت وإن قمن خشوعا

وهو معنى شائع في جميع وصفه يكاد لا ينساه في صفة امرأة واحدة من  
صحاباته .

---

(١) أي مطرفات سهان صممت خلانيلهن من السمن .

وعلى هذا لم يكن ابن أبي ربيعة معنِّياً بأمرأة واحدة شأن العاشق ، ولا بالنساء حيث كن شأن المغموم بالنساء عامة ، وإنما كان معنِّياً بالمرأة من بنات طبقة خاصة هي الطبقة التي ينتهي إليها . فلا جرم يبرع غيره في مدرسة الشعر التي تدور قبل كل شيء على أحاديث الظريفات ، ويحظى عندهن في مجال لم يكن إلا مجال المناوشة بالأحاديث .

فليس في شعره كله بيت يدل على سطوة رجل يروع الأنثى بما تميل إليه فطرتها من مظاهر البأس والغلبة ، أو يدل على سحر جمال يأخذ المرأة ولو لم يسبقها حديث ، وإنما يدل شعره كله على لباقة المتحدث وظرافة المسامر وأناقه الظريف المعروف بوسامته وشارته ورداده :

قالت أبو الخطاب أعرف زيه

وركوبه لا شك غير مراء !

وكل ما في شعره من معرفة بطبع المرأة فإنما هو مقصور على الجانب الذي يتناوله المناوش اللبق ليثير اهتمامها تارة بحب الثناء ، وتارة بالأعراض أو تحريك الغيرة أو لغو الفضول .

فقوله في الدالية المشهورة :

ولقد قالت لجارات لها  
أكما ينعتني تبصرني  
عمركن الله أم لا يقتصد  
فتضاحكن وقد قلن لها  
حسن في كل عين من تود  
حسدا حلته من أجلها  
وقد يمأ كان في الناس الحسد

هو رواية صادقة أو تخيل صحيح مثل هذه الواقعة ، وبياثله قوله وقد أبلغت صاحبته أنه تزوج :

خبروها بأنني قد تزوج  
ثم قالت لأختها ولآخرى  
تطلبت تكاثم الغيط سراً  
وأشارت إلى نساء لديها  
جزعاً، ليته تزوج عشرًا  
لا ترى دونهن للسر ستراً  
وعظامي إخال فيهن فترا  
ما لقلبي كأنه ليس مني

من حديث غنى إلى فظيع خلت في القلب من تلظيه جمرا  
 فهو كذلك رواية صادقة لما تقوله المرأة التي يبلغها زواج صاحبها بحاراتها  
 ولذوات السر عندها .

و هكذا قوله :

وهكذا سائر أقواله في هذه الأغراض .

غير أنها جميعاً لا تنبئ بشيء ينخفي على ظرفاء المجالس وحذاق المناوشين بالكلام ، ولا تنطوي على شيء من نقائض طبع المرأة وألغاز سريرتها ودخولها أشجانها وأفراحها ، فعلم ذلك لم يكن قط من علم مجالس السمر ومناوشات الحديث .

إنما تأتي خبرة ظرفاء المجالس من تقارب الاحساس بين المرأة وبين هذه الطائفة من اللاهين والمتغزلين ، فهم يحسون كما تحس أو على نحو قريب مما تحس ، وهم يشتهرونها بعض الشبه فيصدقون في الحكاية عنها والتحدث بخواج نفسها .

وفرقٌ بعيدٌ بين هذا وبين الرجل الذي يعلم طبع المرأة وهو يخالفها في طبعها ، ويستجيش ضمائرها لأن هذه الضمائر تجاوبه بجاوبة الأنثى للذكر ، فيعرف من مجاوبتها كيف تضطرب نفسها وتتقلب هواجسها وخواطرها . هذا يرى أثر الرجل في طبع المرأة فيعرفه ، وذاك يعرف ما في طبعها لأن الطبعين غير مختلفين في جملة الشعور .

والمرأة تألف أحاديث هؤلاء اللاهين الغزلين وتفضليها على أحاديثها مع بنات جنسها لأنها تستحضر بها شعور المايلة وشعور المناقضة في وقت واحد ، وهو شعور لا تستحضره في مثيلاتها ولا في مجلس الرجل الذي تجاهله مجاوبة الاناث النك ، وتذكر نسمة واحدة مأخذها : أعاقة طبعتها مشغولة عن مهارات الحديث .

ومن الواضح أننا أردنا بصدق ابن أبي ربيعة في الرواية عن المرأة صدق الرواية

الفنية ولم نتجاوزه إلى البحث في صدق الرواية الخبرية وبيان ما حدث وما لم يحدث من أخباره في جميع شعره ، فهو لا يقدم ولا يؤخر فيما نحن بصدده .

وحسبنا أنه تخيل فأصاب التخيل ، وأنه عاش زمناً على النحو الذي وصفه بعض قصائده ، وما من شك بعد ذلك في أنه قد اعتمد على الخيال كثيراً ونزع متزع القصاصين كثيراً ، وأضاف من عنده ما لم يرد على لسان صاحبة له ولا صاحب من أسد إليهم الكلام والحوار .

وقد سره هو أحياناً أن يفهم الناس أنه يقول ما لا يفعل وأنه داخل في حكم القرآن الكريم على الشعراء عامة : أنهم يقولون ما لا يفعلون . فذلك أسلم له وأليق بالسمت الذي كان يتخدنه بين ذوي الوقار حين يقول إنه يتتجنب المحظورات .

قيل في سيرته إن سعدي بنت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كانت جالسة في المسجد الحرام فرأت عمر يطوف بالبيت فأرسلت إليه فقالت حين جاءها : مالي أراك يا ابن أبي ربعة سادراً في حرم الله؟ ويمك أما تخاف الله؟ ويمك إلى متى هذا السفه؟ .. فقال : أي هذه أدعى عنك هذا من القول : أما سمعت ما قلت فيك؟ قالت : لا . فأنشدتها البائية التي يقول فيها :

وصبا إليك ولات حين تصاب  
سقم الفؤاد فقد أطلت عذابي  
بني وبينهم عرى الأسباب  
يوماً ولا أسعفتني بثواب  
في حرّ هاجرة للمنع سراب  
طلب السراب ولات حين طلاب  
منها على الخدين والجلباب  
فيما أطال تصدي وطلابي  
إذ لا نلام على هوئي وتصاب  
رمي الحشا بنوافذ الشّباب  
منا على ظمآن وحب شراب  
ترعى النساء أمانة الغياب

رُدْع الفؤاد بذكره الأطرب  
إن تبلي لي نائلًا يُشفى به  
وعصيت فيك أقاربِي فتقطعت  
وتركتني لا بالوصال ممتعًا  
فقطعت كالمهريق فضلة مائه  
يشفى به منه الصدى فأماته  
قالت سعيدة والدموع ذوارف  
ليت المغيري الذي لم نجزه  
كانت ترد لنا المنى أيامنا  
خُبرت ما قالت فبت كائنا  
أسعيد ما ماء الفرات وطبيه  
بأذ منك وإن نايت وقلما

فليما فرغ من إنشاده قالت له : أخراك الله يا فاسق ! ما علم الله أنني قلتُ ما  
قلتَ حرفًا ، ولكنك إنسان بهوت .

فهذه قصة طويلة عريضة تفاصي بها مثيلاتها ، ولعل ادعاه في غير هذه القصة  
أقرب إلى البهت وأدنى إلى التخيل ، لأنه يضع الغزل والشكوى على لسان سيدة  
حصان تخاطبه بالوعظ والنصيحة . فما أحراه أن يخلق الغزل على من يُظن بهن  
الخوض فيه والحنين إليه !

ويختل علينا أن كثيراً من الحسان اللاثي كن يتصدرين له ويشجعنه على التغزل  
بهن ونظم القصائد في وصفهن إنما كن يفعلن ذلك إرضاء لغورهن وتقوها  
بجماهن وجباً للتحدث بأخبارهن ، ولا سيما المقابلات في الحج من بلاد غير بلاد  
الحجاز . فقد كان يرضيهن ولا ريب أن يرجعن إلى بلادهن بأبيات تصوير بها  
الركنان ويفهم منها الأتراب المنافسات أهنهن ذهبن إلى الحجاز فخلبن أللباب رجاله  
وأطلقن ألسنة شعرائهم وصرفهم عن الغزل بحسانه ، وقل في الحسان من ليست  
تعتر بمثل هذا الغرور في زمان عمر ، وفي كل زمان .

ومن أمثلة ذلك قصة العراقية التي رواها صاحب « الأغاني » حيث يقول :

« بينما عمر بن أبي ربعة يطوف باليبيت إذ رأى امرأة من أهل العراق فأعجبه  
جمالها ، فمشى معها حتى عرف موضعها ، ثم أتتها فحادتها وناشدها وناشدته  
وخطبها ، فقالت : إن هذا لا يصلح لها هنا . ولكن إن جئتني إلى بلدي  
وخطبني إلى أهلي تزوجتك . فلما ارتحلوا جاء إلى صديق له من بنى سهم وقال  
له : إن لي إليك حاجة أريد أن تساعدني عليها . فقال له : نعم . فأخذ بيده  
ولم يذكر له ما هي ، ثم أتى منزله فركب نجيباً له وأركبه نجياً آخر ، وأخذ معه  
ما يصلحه وسارا لا يشك السهيمي في أنه يريد سفر يوم أو يومين ، فما زال يجفف  
حتى لحق بالرفقة ، ثم سار بسيرهم يجادل المرأة طول طريقه ويسايرها وينزل  
عندها إذا نزلت حتى ورد العراق . فاقام أياماً ثم راسلها يتنجزها وعدها ،  
فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها وولدت منه أولاداً ثم مات وأوصى بهم  
وبماله إليها مالم تتزوج ، وأنها تخاف فرقه أولادها وزوال النعمة ، وبعثت إليه  
بخمسة آلاف درهم واعتذررت ، فردها عليها ورحل إلى مكة وقال في ذلك  
قصيدته التي أوطها :

## نَامَ صَحْبِيْ وَلَمْ أَنْمِ مِنْ خَيَالٍ بَنَا الْمُ

إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْفُصِيْدَةِ .

فَهَذِهِ الْحَسَنَاءِ الْعَرَاقِيَّةِ لَمْ تَرْدِ حَبًّا وَلَا زَوْجًا وَلَا مَتْعَةً حَدِيثًا وَلَكِنَّهَا أَرَادَتْ أَنْ يَشْتَهِرَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْهَا أَزْعَجَتْ شَاعِرَ الْغَزْلِ فِي الْحِجَازِ عَنْ وَطْنِهِ حَتَّى لَقِيَ بِهَا وَقْنَى زَوْجَهَا فَلَمْ تَجِهْ إِلَى مَنَاهُ ، وَهَذَا الَّذِي صَنَعَتِهِ الْحَسَنَاءِ الْعَرَاقِيَّةِ تَصْنَعُهُ الْحَسَانُ الْحِجَازِيَّاتُ الْلَّاتِي يَأْبَىنَ السُّكُوتَ عَنْهُنَّ إِنْ كَانَ مَعْنِيَ هَذَا السُّكُوتِ أَنْهُنَّ أَقْلَى جَاهًا وَفَتْنَةً مِنْ نُظُمِ فِيهِنَّ الْغَزْلُ وَجَرَى بِوَصْفِهِنَّ الْحَدِيثُ . فَيَتَصَدِّيْنَ لِلْغَزْلِ وَلَا يَتَجَاهُوْنَ بِهِ هَذِهِ الْمَلَهِيَّاتُ أَوْ هَذِهِ الْمَنَاوَشَةُ ، وَإِنْ طَابَ لِلشَّاعِرِ أَنْ يَصْرُفَ هَذَا التَّصْدِيْقَ إِلَى غَيْرِ مَعْنَاهُ ، وَأَنْ يَرْضِيَ بِهِ غَرْوَرَهُ هُوَ كَمَا أَرْضَيْنَ غَرْوَرَهُنَّ بِهِ مِنْ نَاحِيَّتِهِنَّ .

\* \* \*

وَشَبِيهُ بِالْبَحْثِ فِي صَدْقِ أَخْبَارِهِ بِحَثَنَا هَنَا فِي صَدْقِ تُوبَتِهِ وَسَبِيلِ تُوكِيَّةِ ، فَهَلْ تَابَ ؟ وَلَمْ تَابَ ؟ أَتَابَ إِيْشَارًا لِلْهَدِيَّ ؟ أَخْوَفَاً مِنِ السُّلْطَانِ ؟ أَيَاسًاً مِنِ الْغَوَايَا بَعْدِ إِذْبَارِ الشَّبَابِ ؟ أَحَبَّا لِلْهَمَّا لِلَّذِي وَعَدَهُ أَخْوَهُ أَنْ يَجْرِيَهُ عَلَيْهِ إِذَا هُوَ أَقْلَعَ عَنِ الْغَزْلِ وَالْتَّشَبِيبِ ؟

بَحْثُ ذَلِكَ نَافِعٌ فِي اسْتَقْصَاءِ سِيرَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَلْزَمُنَا هَنَا فِي تَحْلِيلِ مَعَانِيهِ وَالنَّفَاذِ إِلَى حَقِيقَةِ غَزْلِهِ وَأَسْلُوبِهِ وَدُخْلِيَّةِ مَزاجِهِ وَطَبْعِهِ ، وَمَا يُسْتَطِيعُ إِنْسَانٌ أَنْ يَتُوبَ عَنِ الْمَزاجِ وَالْطَّبْعِ وَإِنْ تَابَ عَنْ بَعْضِ الْأَفْعَالِ أَوْ بَعْضِ الْأَقْوَالِ ، فَسَيِّقَى كَمَا خَلُقَ لَا يَدْلِلُ شَيْئًا مِنْ خَلَاقِهِ إِلَّا مَا يُسْتَطِعُ فِيهِ التَّبَدِيلِ .

قَالَ مُولَى لِعَمْرٍ : كَنْتُ مَعَ عَمْرٍ وَقَدْ أَنْسَنَ وَضَعَفَ ، فَخَرَجَ يَوْمًا يَمْشِي مَتَوْكِنًا عَلَى يَدِيهِ حَتَّى مَرَ بِعَجُوزِ جَالِسَةٍ فَقَالَ : هَذِهِ فَلَانَةٌ ! وَكَانَتْ إِلَفَالَةٌ . فَعَدَلَ إِلَيْهَا فَسَلَمَ عَلَيْهَا ، وَجَلَسَ عَنْدَهَا وَجَلَسَ يَحَادِثُهَا . ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ الَّتِي أَقُولُ فِيهَا : مَا زَالَ طَرْفِيْ بِحَارٍ إِذْ بَرَزَتْ حَتَّى التَّقِينَا لِيَلًا عَلَى قَدْرِ

فَأَطْلَعَتْ رَأْسَهَا إِلَى الْبَيْتِ وَقَالَتْ : يَا بَنَاتِي هَذِهِ أَبُو الْحَطَابِ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةِ

عندِي ، فإنَّ كُنْتَ تَشْتَهِينَ أَنْ تَرِينَهُ فَتَعْالَى ! فَجَئْنَ إِلَى مَضْرُبِ قَدْحِ جَزْنَ بِهِ  
دُونَ بَابِهَا ، فَجَعَلُنَّ يَثْقِبُهُ وَيَضْعُنَّ أَعْيُنَهُنَّ عَلَيْهِ يَبْصُرُنَّ ، فَاسْتَقَاهَا عُمْرٌ .  
فَقَالَتْ لَهُ : أَيُّ الشَّرَابِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ . الْمَاءُ ! فَأَتَى بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ ، فَشَرَبَ ثُمَّ  
مَلَأَ فَمَهُ فَمَجَّهُ عَلَيْهِنَّ وَفِي وُجُوهِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ الْحَاجِزِ ، فَصَاحَ الْجَوَارِيُّ وَتَهَارُبُنَّ  
وَجَعَلُنَّ يَضْحَكُنَّ . فَقَالَتِ الْعَجُوزُ : وَيْلَكَ ! لَا تَدْعُ بِجُونَكَ وَسَفَهُكَ مَعَ هَذِهِ  
السِّنِّ ! فَقَالَ : تَلَوْمِينِي ؟ ! فَإِنَّمَا مَلَكْتُ نَفْسِي لَمَا سَمِعْتُ مِنْ حَرْكَتِهِنَّ أَنْ فَعَلْتُ مَا  
فَعَلْتُ . . .

وَالْمَزَاجُ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَنْفَاكِمَا تَدْلِيلُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَصْةُ هُوَ مَوْقِعُ الْاَسْتَشْهَادِ ، فَهُوَ  
مَزَاجٌ رَجُلًا يَسْلُو مَعَابِثَ النِّسَاءِ وَلَا يَلِكُ أَنْ يَسْتَعْصِمَ مِنَ التَّصَابِيِّ حِيثُ تَسْتَغْوِيَهُ  
دَوَاعِيهِ . فَالْقَصْةُ عَلَى هَذَا النَّسْقِ تَرْجِمَانُ ذَلِكَ الْمَزَاجِ الْمُعْرُوفِ فِي الشِّيوُخِ  
الْمُتَصَابِينَ ، إِنْ صَحَّتْ فَهِي خَبْرٌ صَادِقٌ ، وَإِنْ لَمْ تَصَحْ فَالْتَّصَابِيُّ فِي الشِّيوُخِ مِنْ  
أَشْبَاهِ عَمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ صَحِيحٌ ، لَأَنَّهُ لَا يَبْطَلُ بِبَطْلَانِهَا وَلَا يَعْتَدِمُ فِي وُجُودِهِ  
عَلَيْهَا .

### صَنَاعَتُهُ

ابن أبي ربيعة من أحسن النادج الأدبية التي يتجلّ فيها الفرق بين الامامة في  
الطريقة الشعرية والامامة في الصناعة الشعرية .

فقد يكون الشاعر أصلح الناس لتمثيل طريقة أو مدرسة من مدارس الشعراء  
المختلفة ، ولكنه لا يكون مع ذلك إماماً في صناعة النظم وصياغة القصيدة .

وقد كان شاعرنا بمولده ومزاجه ومعيشته وبيته وشارته أصلح من يمثل شعراء  
عصره المشهورين بالغزل في أكثر من امرأة واحدة والولع بمجالسة النساء ، ولكنه  
في اعتقادنا لم يكن أفضلهم نظماً ولا أبعدهم قصيدةً ، ولا أقدرهم صناعة ، على  
إجادته الموقفة في أبيات ومقطوعات .

وقد كثرت الشهادات له في عصره من تروي عنهم الشهادة للشعراء ويسمع  
لهم رأي في المفاصلة بين ضرب الكلام . فكانت مشيخةً من قريش لا تعدل  
بشعره شرعاً قط وقد تستحسن منه ما يقترح من غيره ، وكان بعضهم يزعم أنَّ  
« العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر ، فإنها كانت لا

تقر لها به حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها الشعرا بالشعر أيضاً ولم تنازعها شيئاً .

وروي عن نصيبي أنه تكلم عن عمر بن أبي ربيعة فقال : « هو أوصفنا لربات المجال » .

وروي عن الفرزدق أنه سمع طرفاً من نسيبه فقال : « هذا الذي كانت الشعرا تعطبه فاختلطاته وبكت الديار ، وقع هذا عليه » وإنه اجتمع به فيما زال عمر ينشده وهو يطرب ويستزيد حتى أنشده القصيدة التي يقول فيها :

مدامع عينيها وظللت تدفق لدى غزل جم الصباية يحرق وخلّك منا - فاعلمي - بك أرفق	فقم من لكي بخليتا فترقرقت وقالت : أما ترحمتني ! لا تدعوني فقلن اسكتني عنا فلست مطاعة
--	--

فصاح الفرزدق : أنت والله يا أبو الخطاب أغزل الناس .

وكان جرير على ما زعم الرواة يسمع شعر ابن أبي ربيعة فيقول : « هذا شعر تهامي إذا أنجد وجد البرد » فأنشدوه يوماً من كلامه :

فيضحي ، وأما بالعني فيخصر سوئي ما نفني عنه الرداء المحبر وريان مختلف الحدائق أخضر فليست لشيء آخر الليل تسهر	رأى رجلاً أما إذا الشمس عارضت قليلًا على ظهر المطية ظله وأعجبها من عيشها ظل غرفة ووال كفاهَا كل شيء يهمها
--	--

فقال : ما زال هذا القرشي يهدى حتى قال الشعر وأنشدوه مرة من كلامه :  
سائلاً الربيع بالليل<sup>(١)</sup> وقولاً هجت شوقاً لي الغداة طويلاً

---

(١) اسم تل صغير .

أين هي حلّوك إذ أنت محفوظ  
قال ساروا فامعنوا واستقلوا  
وبرغمي لو استطعت سبيلا  
سئمنا وما سئمنا مقاماً وأحبوا دماثة وسهولا

فقال جرير : « إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي » .  
ومما يُنسب إلى جرير أيضاً أن رجلاً من أبناء المدينة استثنى فلم يجده وقال :  
« إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب ، وإن أنساب الناس المخزومي » .  
وسئل حماد الرواية عن شعره فقال : « ذلك الفستق المقشر ! » .

فهذه الشهادات وأمثالها تدل على شيء واحد لا تعدوه ، وهو الشهرة بالنشيد بين أبناء عصره ، ولكنها لا تؤخذ مأخذ الجد ولا تصمد على المناقشة في معرض النقد الصحيح ، وأووها ما روي عن فحول الشعراء من معاصريه كجرير والفرزدق ونصيب ، لأن الشعر الذي زعموا أنه أرغمه على الشهادة لعمر وفضيله عليهم ليس مما يرغم المكابر ولا المنافق ولا المنصف الخلي من الغرض ، إن شاء أن ينكره ولا يعترض بتفصيل . فإن كان الاعتراف بالتفصيل مجاملة ومسايرة للمحادث فليس هو إذن بالنقد الذي يؤخذ به في تحيسن الأقدار وموازنة الأشعار .

ويساوي هذه المجاملة في قيمة الشعر قوله إن العرب أنكروا على قريش الشعر حتى ظهر ابن أبي ربيعة فاعتبرت لهم به وكفت عن المنازعة .

فمتى حصل ذلك ؟ وكيف كان حصوله ؟ في أي مؤتمر وفي أي محضر ؟ وعلى أي صورة تبين الانكار والمنازعة ثم تبين الاعتراف والتسليم ؟ لا مؤتمر ولا محضر ولا إشهاد بإإنكار ولا بتسليم . وهذا فضلاً عن تكرر هذه الشهادات من هؤلاء الشاهدين أنفسهم لشعراء آخرين غير عمر بن أبي ربيعة وبعضهم من معاصريه . فمشيخة قريش التي تقدم ذكرها هي بعينها التي روى صاحب الأغاني عنها في ترجمة « الغريض » أنها اتفقت على اختيار ابن قيس الرقيات شاعراً لقريش في الإسلام ، ونصيب هو الذي قال كما روى صاحب الأغاني أيضاً : « لقد نحت ( جمبل ) للناس مثلاً يحتذون عليه . أما أصدقنا في شعره ^

فجميل وأما أوصننا لربات الجمال فكثير ، وأما أكذبنا فعمر بن أبي ربيعة ، وأما أنا فأقول ما أعرف . . .

فأمثال هذه الشهادات كلام يقال ولا محصول له إلا أن الشاعر مشهور مشهود له بالتفوق في بايه بين جمهرة عارفيه ، ولا غنى عن الرجوع إلى الشواهد عند تقدير هذه الشهادة وتقويمها بما يثبت لها من قيمة صحيحة .

ومحصل هذه القيمة كما تدل عليه الشواهد من أقوال الرجل وملكتاته أنه كان بمولده ومزاجه ومعيشته وببيئته وشارته أصلح الشعراء في عصره لاما مامة هذه الطريقة التي فرغ لها وتقديم فيها ، وأنه يأتي بالروائع بين الشعراء ، لما يبدو عليه في أكثر كلامه من الفتور والاعباء .

فمن روائعه التي جرت مجرى الأمثال ، قوله في بيان أقصى مدى الحب :

حُبْكُمْ يَا آلَ لَلِيْ قَاتِلِيْ      ظَهَرَ الْحُبُّ بِجَسْمِيْ وَبِطْنِيْ  
لَيْسَ حُبًّا فَوْقَ مَا أَحِبَّتِكُمْ      غَيْرُ أَنْ أَقْتَلَ نَفْسِيْ أَوْ أَجْنِ

وقوله :

لَيْتْ هَنْدَا اَنْجَزْتَنَا مَا تَعْدُ      وَشَفَتْ أَنْفَسْنَا مَا تَجَدُ  
وَاسْتَبَدَتْ مَرَةً وَاحِدَةً      إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِدُ

وقوله :

وَذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَأَنْ تَعْزِيْ      مَشْوَقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَا

وَلَهُ وَصْفٌ حَسْبُنَ كَمَا قَالَ :  
أَبْتَ السَّرَّادِفَ وَالشَّدِيْ لِقَمْصَهَا      مَسَ الْبَطْوَنَ وَأَنْ تَمْسِ ظَهُورًا

وَوَصْفٌ جَوَادًا مَجْهَدًا فَابْدَعَ حِيثُ قَالَ :  
تَشَكَّى الْكَمِيتُ الْجَرِيُّ لِمَا جَهَدَتْهُ      وَبَيْنَ لَوْ يَسْطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَا

إلا أن الأكثر من شعره يبدو عليه الجهد والاعياء في تقويم البيت والوصول به إلى القافية ، وأمثلة ذلك كثيرة منها :

فقلت لها قومي فقالت ولم لم  
كشارب مكنون الشراب المختمن

فقمت ولم تفعل ونامت فلم تطق  
ثُبنٌ غير أن قد أومأتْ فعهدها

فكرو « لم » لغير موجب غير حرج القافية ، وفرق بينها وبين الفعل الذي تنفيه في بيتين وهو لا يساغ .

ومنها :

مرحباً ثم مرحباً بالتي قال  
للتشريا قولي له أنت همي

أي وأقسم بالخليل ، واضطرار الشاعر هنا ظاهر لاتمام البيت فضلا عن وصل  
البيتين .

ومنها :

ألم تعلمي أني ؟ فهل ذاك نافع  
أرى مستقيم الطرف ما أمّ تحوكم

أراد أن يقول « ألم تعلمي أني أرى مستقيم الطرف إلخ » فغلبه النظم وجاء  
بذلك الكلام المعرض الذي كان يحسن أن يتاخر أو يقدم .

وقلما تعرف له قصيدة لا يضطر فيها إلى تحويل الضمير من المؤنث إلى الجمع  
ومن المخاطب إلى الغائب في البيت الواحد لضرورة الوزن ليس إلا كما قال :

يا سُكُنْ حُبُكِ إِذْ كَلْفْتُ بِحُبِّكِ  
عرضًا أَرَاهُ وَرَبُّ مَكَةَ مُرْضِي

أو كما قال :

ياربة البغلة الشهباء هل لكم  
أن ترمي عمراً لا ترهقني حجاجا

وذلك في شعره بعثير جداً لا فائدة من إحصائه .

وهو يختفي قواعد اللغة لضرورة الوزن والقافية كما قال :  
من ذا «يلمني» إن بكيت صباة      أو نحت صبأ بالفؤاد المنضج

ومن هنا لا تخزم يلوم .

أوكما قال :

فالرواية هيلتم      فقلت لهم كيف الشريا هيلتم  
فقالوا ستدري ما مكرنا وتعلما

أوكما قال :

فهلاً «تسألي» أفناء سعد      وقد تبدو التجارب للبيب

والصواب تسألين لأن هلاً لا تخزم الفعل المضارع .

إلى نظائر هذه الأخطاء والعثرات لا تراها على كثرة في كلام أمراء الصناعة .

فربيا كثراً الرديء في أشعارهم وأرببي على الجيد في معظم الأحيان ، ولكن الاتيان بالرديء غير الاعباء الذي يكشف مدى الطاقة وينم على الفاقة . فقد يلبس الرجل الثياب الغالية والثياب الرخيصة دوالياً . فلا يدل ذلك على فقره كما يدل عليه لباس فاخر فيه رقة ، وإن لم يكن في ملبوسه ثوب رخيص .

ويبدو لنا أن ضعف صناعته من ضعف اطلاعه على شعر المجيدين إلا ما كان يسمعه ويسمعه غيره من شعراء زمانه ، ولعله كان ينحو من بعض هذا الضعف في الصناعة لو وفر حظه من الاطلاع والرواية . لأنه كان على ذوق حسن في الاعجاب بالجيد من الكلام ، كما يظهر من أخباره القليلة في النقد والتعليق على الشعر الذي يسمعه من رواته .

قال عثمان بن إبراهيم الخاطي : «أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسخ بسنين وهو في مجلس قومه بني مخزوم ، فانتظرت حتى تفرق القوم ثم دنوت منه ومعي

صاحب لي ، ظريف وكان قد قال لي : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل فننتظر  
هل بقي في نفسه منه شيء ؟ فقال له صاحبى : يا أبا الخطاب يكرمك الله . لقد  
أحسن العذري وأجاد فيها قال . فنظر عمر إليه ثم سأله وماذا قال ؟ فأنسدھ .

لو جُدَّ بالسيف رأسي في مودتها      لرَّيْهُوِي سرِيعاً نحوها راسى

فارتاح عمر إلى البيت وقال : هاه ! لقد أجاد وأحسن . . . فقلت : ولله در  
جنادة العذري . فقال عمر حيث يقول ماذا ويحك ؟ فأنسدته :

فبت مستبهاً من بعد مغافها  
إن كنت تمثلاها أو كنت إياها  
من نحو بلدتها ناع فينعاها  
وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها  
يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها  
سرت لعينك سلمى بعد مغافها  
وقلت أهلاً وسهلاً من هداك لنا  
من حبها أتنى أن يلاقيني  
كيما أقول فراق لا لقاء له  
ولو تموت لراعتنى وقلت ألا

فضحك عمر ثم قال : وأبيك لقد أحسن وأجاد وما أبقى . . .

فهو قمين أن يكثر من الاجادة لو أكثر من الاستجادة وأن يقوم من صناعته لو  
نظر في صناعات المقدرين من صاغة القرىض ، ولكنه كما ييلو من أخباره ومن  
كلامه كان معكوفاً على نفسه راضياً بما يصل إلى سمعه في غير ما مجهد ولا متابعة .

ومن ثم كان إمام مدرسة ولم يكن إماماً في صناعة القصيد ، وكانت مدرسته  
فذة في الأدب العربي بأسره ، لأنها مدرسة لا يسهل على العقل أن يتخلل نظيرها  
كثرة وشيوعاً في غير الحجاز وفي غير تلك الأونة . إذ هي تحتاج إلى بيئة وسط بين  
البادية والحضر ، ووسط بين الجاهلية المولبة وأداب الإسلام المقبلة ، ووسط بين  
شواغل العاصمة التي فيها الملك والدولة ، وشواغل المدينة الصحراوية القاصية  
التي لا يبلغها شيء من ذلك ، ووسط بين حالة مكة في عهد النبي والخلفاء  
الراشدين ، وحالتها في عهد الأميين والعباسيين ، وما بعد ذلك من أيام اقتصر  
 شأنها فيها على منسك الحج من العام إلى العام .

وهل كانت مدرسة كمدرسة ابن أبي ربيعة وزملائه تنشأ في بغداد أو في القاهرة

أو في عواصم الأندلس ، وفيها الاباحية المكشوفة أو فيها الشواغل للرجال والنساء ، غير عقد المجالس في الخلوات وتبادل الأحاديث ؟

أو هل كانت مدرسة كمدرسة ابن أبي ربيعة تنشأ في مكة نفسها بعد مائة عام ، وليس فيها حياة مدنية تحتمل إقامته وإقامة أمثاله وأمثال صاحباته ، ولا حياة أدبية يترجم عنها الشعراء ؟

فابن أبي ربيعة هو ابن الحجاز ، وابن العصر ، وابن البيئة التي ترجمها ، فأحسن الترجمة ، ثم عاش بهذه المزية بين شعراء العربية .

\* \* \*

وللحكم على صناعة ابن أبي ربيعة وجه آخر التفت إليه العصريون مذ شاعت القصة بينهم نظماً ونثراً وكثير التفاتهم إليها ، فرأى بعض النقاد أن الشاعر قد أبدع في القصة المنظومة أو أكثر منها إكثاراً لم يؤثر عن شاعر قبله ، وهذا صحيح إذا أردنا الكثار دون الابداع والاختراع ، وأردنا « الحوار القصصي » ولم نرد القصة بمعناها الشامل الوافي ولو كانت أقصوصة وجيبة . فالقصة شيء والحوار الذي يرد خلال القصة شيء آخر . ومن قال لنا إنني ذهبت إلى فلانة فقلت لها وقالت لي ، وبكت وبكيت ، فقد روى لنا منظراً قصصياً يدخل في حكاية مستوفاة العرض والتوصيف والملاحظة والحوار ، ولكنَّ ابن أبي ربيعة لم يكن يتلوخى هذا الاستيفاء ، أو يتتجاوز الحوار القصصي إلى ما وراءه من التخيل والتمثيل ، وتهيئة القالب النفسي الذي يتربك فيه الحوار بالكلام . وإن فعل ذلك فإنما يفعله مسوقاً إليه بحواره وسرده ، ولا يزال بين هذا وبين فن القصة بون بعيد . فإنما هذا من فن « الحديث المنظوم » وليس من فن القصة كما يتخيلها المطبعون عليها . ولا نزاع في قدرة ابن أبي ربيعة على الحديث المنظوم ، فهو في هذا الجانب من صناعته قليل النظير .

### مقارنة

قال أبو غسان دماذ :

« سألت أبي عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدى بشارةً عن ذكر النساء قال : كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال سوار بن عبد

الله الأكبير ومالك بن دينار : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ؛ وما زلا يعظانه .

« وكان واصل بن عطاء يقول : إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها ل كلمات هذا الأعمى الملحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدى ، وأنشد المهدى ما مدحه به منه عن ذكر النساء وقول التشبيب ، وكان المهدى من أشد الناس غيرة » .

قال أبو غسان : « فقلت لأبي عبيدة : ما أحسب شعر هذا أبلغ في هذه المعاني من شعر كثير وجميل وعروة بن حزام وقيس بن ذريع وتلك الطبقة ، فقال : ليس كل من يسمع تلك الأشعار يعرف المراد منها ، وبشار يقارب النساء حتى لا يخفى عليهن ما يقول وما يريده ، وأي حُرّة حَصَان تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها ؟ فكيف بالمرأة الغزلة والفتاة التي لا هم لها إلا الرجال ؟ ثم أنشد قصيده :

قد لامني في خليلتي عمر واللوم في غير كنهه ضجر  
إلى قوله :

مني ومنه الحديث والنظر حسيبي وحسب الذي كلفت به

ثم قوله على لسان صاحبته :

أنست وربسي مغازل أشر	انهض فما أنست كالذى زعموا
والله لي منك فىك يتصر	قد غابت اليوم عنك حاضتني
.....	.....
فاذهب فأنت المساور الظفر	أقسم بالله لا نجوت بها
أم كيف إن شاع منك ذا الخبر	كيف بأمى إذا رأت شفتى

إلى آخر القصيدة

ثم قال أبو عبيدة : بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب ..

\* \* \*

وفي هذه المساجلة بين أبي غسان وأبي عبيدة<sup>(١)</sup> مجال واسع للبحث في طرفيتي الغزل والعشاق من أمثال كثير وجميل وعروة وقيس وإنخوان تلك الطبقة .

فهذه المساجلة تبين لنا قبل كل شيء مبلغ الحاجة إلى التفرقة بين هاتين المدرستين ، لالتباس الأمر بينهما حتى على الفحول من الرواة وعلماء الأدب في العصر العباسي كأبي عبيدة وتلاميذه .

فأبو غسان قد حسب أن الشعر الذي يذكر فيه النساء كله غزل لا فرق فيه بين كثير وقيس وبين بشار ومن حذا حذوه .

وأبو عبيدة يكاد يائمه في هذا الاعتقاد لأن حسب أن الخطر من شعر بشار إنما يأتي من فهم النساء شعره وقلة فهمهن أشعار العشاق من أمثال كثير وعروة وقيس وجميل .

والواقع غير ذلك كما يتبيّن من المقابلة بين الطرفتين .

الواقع أن الخليفة «المهدي» كان أقطن إلى الفرق بين الطرفتين لأنّه اعتمد على حسه وعلى المشاهدة ولم يعتمد على العناوين الأدبية التي يعرفها الرواة وعلماء اللغة ، فيجعلون الغزل كلاماً يتساوى فيه كل شعر يرد فيه التشبيب ووصف الحسان .

فالمهدي نهى بشاراً عن غزله ولم ينه أحداً عن رواية قصائد العشاق من الشعراة الذين أشرنا إليهم . لأنّه أحس الفرق بين الشعريين وأدرك على البديهة التي لا تحاول التفسير والتعليق أن هذا غير ذاك .

وليس هذا الفرق على التحقيق أن شعر بشار أسهل لغة أو أسلوباً من شعر كثير وجميل ، ولا أن بشاراً يقارب المرأة وأولئك العشاق لا يقاربونها ، فقد تكون قصائد كثير وجميل وأمثالها أسهل لغة وأسلوباً من قصائد بشار على الأجمال ، وقد يكون هؤلاء أقرب منه إلى طبيعة المرأة وهوها وأعرف بغضبها ورضتها .

---

(١) هو معمّر بن المثنى من علماء اللغة والأدب في القرن الثالث للهجرة . أول من ألف في البيان وله في كتاب بجاز القرآن ، وقيل إن مؤلفاته تبلغ المائتين .

وإنما الفرق بينها أن شعر بشار هو شعر المتحدثين والمحادثات في مجالس اللهو والفراغ ، فهو مادة الحديث في تلك المجالس ومادة الحديث عنها ، وهو وسيلة الاغراء بها ورسول الدعوة إليها ، ومن هنا إغراؤه بالفساد ومحاكاة ما يتخيله ويرويه بين الظرفاء والظريفات .

أما شعر كثير وأمثاله فهو كالرسالة الخاصة من رجل واحد إلى امرأة واحدة ، وهو إن أغري بشيء فلا يغري المرأة بان تذهب إلى ملقاء الرجال الكثرين والنساء الكثيرات ، ولكنها يغريها بعلاقة قلبية كالعلاقة بين كثير وعزّة ، وجيل وبشينة ، وعروة وعفرا ، وقيس وليل ، وليس هذا ما يدفع العاشق أو العاشقة إلى مجالس الظرفاء والظريفات ، بل لعله مما يدفع إلى العنكبوت والاعتزال .

فالفرق هنا فرق بين طبيعتين متباينتين : طبيعة المحب وهو مخصص لا يعم ، وطبيعة اللاهي بمحالسة النساء ومحادثتهن وهو لا يتقييد بواحدة دون غيرها ، ولا يبلغ من التعلق بها إلا أن يؤثرها على الآخريات بالمحالسة والمسامرة وتشيل مساجلات الغرام .

وقد كان بشار قريباً في منحاه من عمر بن أبي ربيعة ، لأن المجالس التي كان يعشها كانت شبيهة على نحو ما بالمجالس التي كان ياللفها ابن أبي ربيعة ، غير أن مجالس بشار كانت أشبه بالأندية اللاهية في عصرنا ، ومحالس ابن أبي ربيعة كانت أقرب إلى سهرات الحرير المغلق في العصر الماضي الذي كان يتحلل من الحجاب بعض التحلل في الخلوات وبين الجدران .

فصاحبات بشار هنَّ الجواري والقيان والمستهترات باللهو من نساء الحواضر اللاتي لا عاصم لهن ، وصاحبات عمر هنَّ الحرائر اللاثي يفرجن عن أنفسهن في غفلة الرقباء والأولياء ، وهؤلاء في الأدب والنشأة غير هؤلاء ، ولكنَّ الشبه بين الطائفتين أن الحديث معهما حديث شاعر مشغول بالنساء جميعاً وغير مقصور على واحدة بعينها يخصها بالمناجاة والوفاء .

وهنا الملتقى بين ابن أبي ربيعة وبشار .

وهنا المفارق بين كل منها وكل من كثير وعروة وقيس وجيل . فشعر هؤلاء معدن من الكلام غير المعدن الذي منه كلام الآخرين .

ولا يعيّر من هذه التفرقة أن يقال عن كثيـر مثلاً إنه كان يخون عزة ويغـازل غيرها . فإنه قد يفعل ذلك ولا يشبه شعره مع هذا شـعر عمر وبـشار في المـعدن والأثر والطبيـعة ، كما أن المـاس المـزيف لا يـصبح زـمرداً ولا مـرجانـاً ولا يـاقوتـاً لأنـهم زـيفـوهـ ، بل يـظلـ أـشـبـهـ بـالـمـاسـ منـ أجلـ هـذـاـ التـزـيفـ ، وـنـرـاهـ فـنـذـكـرـ المـاسـ وـلـاـ نـذـكـرـ الزـمـردـ وـالـمـرـجـانـ وـالـيـاقـوتـ ، إـلـاـ لـنـعـدـ أـصـنـافـ الـمـاعـدـنـ الـمـخـلـفـاتـ .

وقد تـسـبـبـتـ إلىـ كـثـيرـ أـبـيـاتـ تـشـبـهـ فيـ ظـاهـرـهاـ أـنـ تـكـوـنـ منـ كـلـامـ الـغـزلـينـ الـكـثـرـينـ وهيـ هـذـهـ أـبـيـاتـ :

تـمـتعـ بـهـاـ مـاـ سـاعـفـتـكـ وـلـاـ تـكـنـ  
أـنـ هيـ أـعـطـتـكـ الـلـيـانـ فـإـنـهاـ  
وـلـاـ حـلـفـتـ لـاـ يـنـقـضـ النـأـيـ عـهـدـهـاـ  
عـلـيـكـ شـجـىـ فـيـ الـخـلـقـ حـيـنـ تـبـينـ  
لـغـيرـكـ مـنـ خـلـاثـهـاـ سـتـلـينـ  
فـلـيـسـ لـمـخـضـوبـ الـبـنـانـ يـبـينـ

ومـهـماـ يـكـنـ مـنـ صـدـقـ النـسـبـةـ فـيـ هـذـهـ أـبـيـاتـ أوـ كـذـبـهاـ فـالـذـيـ يـلـوحـ مـنـهـاـ أـنـ قـائـلـهـاـ  
أـحـسـ شـجـىـ الـخـلـقـ مـنـ تـقـلـبـ الـمـعـشـوـقـةـ الـواـحـدـةـ وـوـدـ لـوـ ظـفـرـ بـالـمـعـشـوـقـةـ الـتـيـ لـاـ  
تـقـلـبـ وـلـاـ تـلـيـنـ لـغـيـرـهـ كـمـاـ لـاـنـتـ لـهـ وـلـاـ تـغـدـرـ بـهـ كـمـاـ تـغـدـرـ بـسـوـاهـ ، فـعـدـلـ إـلـىـ التـأـسـيـ  
وـهـوـ كـارـهـ هـذـهـ مـنـتـعـةـ رـاضـيـ بـهـاـ عـلـىـ غـيرـ اـخـتـيـارـ لـوـ مـلـكـ الـاـخـتـيـارـ . وـلـيـسـ هـذـاـ مـاـ  
يـقـولـهـ الشـعـرـاءـ الـغـزـلـونـ الـمـطـبـوـعـونـ عـلـىـ التـرـدـ بـيـنـ مـجـالـسـ النـسـاءـ الـكـثـرـاتـ ، بـلـ  
لـعـلـهـ مـاـ يـضـجـرـهـمـ ، وـيـقـلـ عـلـىـ طـبـائـعـهـمـ أـنـ يـطـالـبـواـ بـالـوـفـاءـ وـيـحـالـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ  
الـتـقـلـبـ فـيـ مـجـالـسـ الـحـدـيـثـ وـالـلـقـاءـ .

وكـذـلـكـ جـاءـ مـنـ أـخـبـارـ اـبـنـ أـبـيـ رـبـيـعـةـ أـنـ عـلـقـ بـأـمـرـأـ وـاحـدـةـ هـيـ الشـرـيـاـ بـنـتـ  
عـلـيـ ، وـأـطـالـ الـغـزـلـ فـيـهـاـ وـالـتـوـدـدـ إـلـيـهـاـ وـأـجـفـلـ مـاـ بـلـغـهـ عـرـضاـ مـنـ خـبـرـ نـعـيـهـاـ ،  
وـلـكـنـهـ ظـلـ وـهـوـ يـغـازـلـهـاـ وـيـبـادـلـهـاـ الـمـوـدـةـ عـرـضـةـ كـلـ يـوـمـ لـعـتـابـ مـنـهـاـ عـلـىـ مـغـازـلـهـ غـيـرـهـاـ  
وـمـبـادـلـهـنـ مـثـلـ هـذـهـ الـمـوـدـةـ .

\* \* \*

وـمـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـسـتـحـضـرـهـ فـيـ هـذـهـ الـمـقـارـنـاتـ أـنـهـ لـيـسـ لـلـمـواـزـنـةـ بـيـنـ شـاعـرـيـةـ  
وـشـاعـرـيـةـ ، أـوـ بـيـنـ قـدـرـةـ فـنـيـةـ وـقـدـرـةـ فـنـيـةـ . فـمـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ أـنـ كـثـيـرـاـ وـإـخـوـانـهـ  
يـمـسـنـوـنـ أـبـوـابـاـ مـنـ القـوـلـ لـاـ يـسـتـطـيـعـهـاـ اـبـنـ أـبـيـ رـبـيـعـةـ . إـلـاـ أـنـهـمـ لـاـ يـحـسـنـوـنـهـاـ لـأـنـهـمـ

أشعر منه وأرجح في الملكة الفنية ، فإنه هو أيضاً يحسن أبواباً من القول لا يستطيعونها ولا يلمون بها ، وإنما يحسن كل منهم ما يحسنه لأنه يحسه ويصدق في التعبير عنه والدلالة عليه . فليس للشعراء العشاق قصيدة واحدة تعدل مساجلات ابن أبي ربيعة وحكاياته الغزلية ، لأنهم لا يألون هذا الضرب من الشعور ، ولا يجنحون إلى وصفه والغبطة بتمثيله ، وكذلك تبحث في ديوان ابن أبي ربيعة عن صرخة واحدة من أعماق القلب المصدوع ، والنفس الواهنة فلا تظفر بها ولا تخوم حوطها . لأنه لم يرزق هذه الطبيعة التي تتعلق بعشوقة واحدة ، وتعلق عليها سعادتها وشقاءها وإقبالها على الحياة وصادوفها عنها .

وما يقال في الفرق بين شعراء الطريقتين يقال في الفرق بين قراء الطريقتين على نحو واحد ، فالقراء الذين يأنفون للغزل العمري يفضلونه على غزل كثير وقيس وجليل ، ولا يعدلون به شرعاً من غير طريقته وغرضه . ويشبههم قراء العشاق «الموحدين» الذين يحسون إحساسهم وينطبعون على مثل مزاجهم فلا يرضون بديلاً بغير أولئك العشاق . إلا أن ينظروا إلى الطريقتين بعين الفن الحالص ، فهما إذن متعادلتان حائلتان بمتعة الجمال وبراعة التعبير ، كما يتعادل مص ancor الحدائق ومصror البحار عند من ينظر إلى قدرة التصوير عند هذا وذاك ، وإن كان هو في طوية نفسه مؤثراً لمناظر الحدائق في الطبيعة أو مؤثراً فيها لمناظر البحار .

### الصدق الفني في شعره

عرضنا فيها تقدم للصدق في شعر ابن أبي ربيعة من الوجهتين التاريخية والخلقية .

والصدق من الوجهة التاريخية هو الصفة التي تتحرّاها حين نبحث عن وقوع الأخبار التي رواها الشاعر في أشعاره القصصية .

أما الصدق من الوجهة الخلائقية فهو الذي تتحرّاها حين نبحث عن دلالة تلك الأخبار على خلقه وأدبه . فهو صادق أم كاذب ، وخلص في عقائده الدينية وأدابه الاجتماعية أم موارب فيها ، وقدر على نفسه أم مستسلم لشهواته وغواياته .

وكلتا الوجهتين من صدق التاريخ أو صدق الأخلاق لا تتعرض له مرة أخرى في هذه الكلمة التي ننظر فيها إلى صدقه من الوجهة الفنية .

فقد يكون الرجل صادقاً فيها روى من أحاديثه .

وقد يكون صدقة فيها دالاً على خلق حسن أو معيب .

فهذا وذاك غير الصدق الذي يحاسب عليه الشاعر من الوجهة الفنية ، وهو صدق الشعور الذي يعبر عنه ، وتصدور ذلك الشعور منه عن مزاج أصيل لا تكلف فيه ولا اختلاق .

حدث المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال :

« حججت مع أبي وأنا غلام وعلى جمة ، فلما قدمت مكة جئت عمر بن أبي ربيعة فسلمت عليه وجلست معه ، فجعل يمد الخصلة<sup>(١)</sup> من شعرى ثم يرسلها فترجع على ما كانت عليه ويقول : واشباهه حتى فعل ذلك مراراً ثم قال لي : يا ابن أخي أ قد سمعتني أقول في شعري قالت لي وقلت لها ، وكل ملوك لي حر إن كنت كشفت عن فرج حرام قط . فقمت وأنا مشتك في يمينه ، فسألت عن رقيقه فقيل لي : أما في الحول (؟) فله سبعون عبداً سوياً غيرهم . »

هذا التشكيك جائز - بل واجب - إذا كان الغرض منه بحثاً عن تاريخ الواقع أو بحثاً عن خلق الشاعر وأدبه .

ولكنه فضول لا وجوب له إذا كنا نبحث عن صدقة الفني في تعبيره ، فهذا الصدق ثابت له من ثبوت مزاجه وثبوت فطرته التي جبل عليها ، وهي الفطرة التي أغرتته بالنساء والتحدث إليهن والتحدث عنهن وتمثيل ذلك في فن من الفنون ، هو هنا فن الشعر أو الأقصوصة المنظومة .

فهذا المزاج ثابت له لا شك فيه .

وهذا المزاج متى ثبت للشاعر فهو كاف للتحقق من صدق تعبيره ولو لم يقع خبر واحد من الأخبار التي نظمها على الوجه الذي رواه .

إذ قصارى الكذب في الخبر أن يكون اختياراً ملفقاً يعترف صاحبه بتلفيقه

---

(١) ما يجتمع من شعر الرأس .

وتاليه كما يعترف بذلك وضاع الأقصيص .

ومع هذا يؤلف واضح القصة أخباره ولا يمنعه ذلك أن يوصف بالصدق الفني إذا أحسن الشعور والتخيل وأحسن إلى جانب هذا تمثيل شعوره وخياله .

وهذا هو الصدق الفني الذي عيناه ، وهو ملازم لشعر ابن أبي ربيعة في معظم ما وصف ولو اخترعه اختراعاً ، أو أدخل عليه بعض التبديل والزيادة .

ومن أمثلة ذلك أنه وصف منظراً رأه في بيت فقال :

ولقد قلت ليلة الجزل لما أخذلت ريطتي على الساء<sup>(١)</sup> فلما أنشد الأبيات خرجت له جارية حضرت المنظر فقالت : ما رأيت أكذب منك يا عمر أتزعم أنك بالجزل وأنت في جنبد<sup>(٢)</sup> ! محمد بن مصعب ، وتزعم أن الساء أخذلت ريطتك وليس في الساء قزعة<sup>(٣)</sup> ! .. فقال : هكذا يستقيم هذا الشأن .

ونرجع إلى الأبيات التي « استقام له شأنها » بهذا التبديل فإذا هي بعد البيت المتقدم :

لبي شعري وهل يرددن ليق هل لهذا عند الرباب جزاء ؟  
كل وصل أمسى لدلي لأنشي غيرها ، وصلها إليها أداء  
كل خلق وإن دنا لوصال أو ناي فهو للرباب الفداء  
فيدي نائلاً وإن لم ثني إثنا ينفع المحب الرجاء  
فبدا لنا أن القافية هي التي جاعت « بالساء » وأنه قد خلق المطر وابتلال  
الريطة بعد أن عرضت له هذه الكلمة في القافية ، فلم يستقم له النظم إلا بذلك  
التبديل ، وهو ضعف لك أن تحسبه عليه في نقد الصناعة النظمية ، ولكنه لا يمنع  
أن يكون ذلك المنظر جائز الواقع وأن يأتي وصفه والشعور به على ذلك المثال ،  
وهذا هو الصدق الفني الذي يحاسب به الشاعر في هذا الباب ، ولعله يؤدي  
بتبدلاته المنظر معنى آخر له دلالة في بيان إعزازه لفتاة التي تجسم الخروج في المطر

(١) أخذلت بللت والريطة كل ثوب يشبه الملحفة .  
(٢) قبته .  
(٣) القطعة من الغمام .

لانتظارها ، فذلك معنى يستحق أن يوصف وأن يخترع اختراعاً في رواية من الروايات ، فلا يعب من الوجهة الفنية أقل عيب ، ولا يلام عليه الشاعر إلا إذا أحال في اختراعه فوصف المستحيل الذي لا يكون ولا يعقل ، كأن يذكر المطر حيث يمتنع نزوله كل الامتناع في أوان معهود ، وهو نقص في التخييل وملاحظة الواقع ببس القدرة الفنية التي لا غنى عنها لأصحاب الفنون .

وبهذا نصل إلى تفرقة أخرى غير التفرقة بين الصدق من وجهة الفن والصدق من وجهة التاريخ أو الأخلاق .

نصل إلى التفرقة بين الطبيعة الفنية والصناعة النظمية ، وإن لاح أن كلمة الفنان وكلمة الصانع مترادافتان أو كالمترادفين .

فعمرو بن أبي ربيعة وافر الحظ من الطبيعة الفنية التي تفوق على شعرائها وأصبح إمام طريقتها .

ولكنه ليس بوافر الحظ من الصناعة النظمية التي يلجهه الضعف فيها إلى التحول عن معناه ، وإن لم يجعله عن فطرته التي لا حول عنها .

وخلالصة هذا جيئه أننا نستطيع أن نؤمّن بصدق الشاعر في فنه دون أن نكلّفه صحة الواقع وصحة الصناعة ، بل لعلنا نرفعه إلى مقام الامة بين شركائه في الطريقة والمزاج ، وهو في تمحيص الخبر أو تمحيص الصناعة وراء هذا المقام .

### ذوقه في مجال المرأة

قضى عمر بن أبي ربيعة أكثر أيامه في معاشرة النساء ، ونظم أكثر شعره في وصف حা�سّن النساء ، فمن الطبيعي أن يقع في الخاطر أنه كان صاحب ذوق متأثر في مجال المرأة يسأل عنه من يكتب تاريخه ويتقدّم شعره ويرده إلى مزاجه وشعوره .

والمشهور أن الرجل الذي يجالط النساء يعرف جنهم ويصبح حجة فيه ويتدوّق من شمائله ما ليس يتذوقه الآخرون .

ولكن هذه الشهرة وهم كسائل الأوهام الشائعة التي تتلقّفها الأسماء ارتجالاً ثم لا ثبت على المراجعة والتمحيص .

فلا الرجل « زير النساء » ولا الرجل « العاشق » بالحججة في ذوق الجمال ، لأن زير النساء موكل بحب الأنوثة في المرأة ينظر إليها قبل أن ينظر إلى جمالها ، وأن العاشق موكل بحب « شخصية » معينة تستهويه كائناً ما كان حظها من الجمال ، وهذا يحب المرأة ويؤثرها على سائر بنات جنسها ، وأمام عينيه منها من هو أجمل منها وأوفر حظاً من المحاسن والمعزيات .

مثل الرجل « زير النساء » في هذا مثل الرجل الأكول يلتهم كل ما صادفه من المأكول فليس هو بالحججة في التمييز بين الأطعمة والطعوم .

ومثل الرجل العاشق في هذا مثل الرجل المولع بصنف واحد من المأكولات فهو مصدوف عن كل ما عداه ولو كان فيه ما هو أفضل في التغذية وأمتع في اللذة .

فلا هذا ولا ذاك يسأل في صناعة الطهو ومتعة الطعام وإنما يسأل عنها الرجل الصحيح الذي يملك ذوقه فلا يصرفه صارف عن تمييز الحسن السائع حيث كان .

وكذلك يسأل عن جمال المرأة من يرى ويقابل ويستكثر من الرؤية والمقابلة وهو ناظر في كل ما يراه بعين المساواة والاختبار .

وحيث أن يكون زير النساء حجة في ذوق الجمال ، ولكنه لا يكون كذلك لأنه زير نساء .

وحيث أن يكون العاشق حجة في ذوق الجمال ، ولكنه لا يكون كذلك لأنه عاشق .

إنما يكونان كذلك ملكة فيها توجد فيمن يخالط النساء جميعاً وفيمن يعشق المرأة الواحدة كما توجد في غير هذين من عامة الرجال .

فماذا كان ذوق الجمال عند ابن أبي ربيعة شاعر الغزل وأكثر شعراء عصره مخالطة لبناته الغزلات المشهورات بالجمال ؟

كان ذوقه قبل كل شيء هو الذوق الطبيعي الذي يتلقى لكل من كان مثله في الأصل والنشأة والبيئة .

فهو عربي حضري متعرف مولع بعشرة النساء ، وكل من كان عربياً حضرياً متربعاً فلن يكون ذوقه في جمال المرأة إلا كذوق عمر بن أبي ربيعة كما رأينا في

شعره وأخباره .

فكان ذوق العرب عامة في الجمال ذوق الفطرة السليمة التي لم يفسدها الترف ولم تغيرها بدع الحضارة . وكانوا يستحسنون من جمال المرأة الوضاحة والهيف والرشاقة والخفق ويشيدون بهذه الشسائل في كل ما روي عنهم من غزل البداوة ، وكانوا يحبون مع الهيف والرشاقة أن تكون المرأة بارزة النهد والروادف ، وهو ذوق لا يخرج بهم عن سواع الفطرة كما يبتهن لنا حب الجمال وعلم وظائف الأعضاء . فهم في ذلك أصح ذوقاً من أساتذة التجميل المعاصررين الذين أشكونا أن يسروا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل في استواء الأعضاء ، فما يعيي المرأة عضوياً أو « فزيولوجياً » أن تكون رسحاء ضئيلة الردفين ، لأنها خلقت بحضور عريض ملحوظ فيه تكوين الجنين ، فإذا كانت صحيحة البنية سوية الخلق وجب أن تكتسي عظام فخذلها وعجيزتها وأن يمتلء فيها هذا الجانب من جسمها وإلا أشار هزاله إلى آفة في تكوين الجسم لا توافق حاسة الجمال . وكذلك يستحسن الخصر الدقيق في المرأة لأن ضخامة المعدة قد تؤدي إلى الجنين وتضغط عليه في الرحم وتشير إلى التزيد في الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة في جسم الإنسان .

فالذوق العربي في دقة الخصوص وبروز الأرداف ذوق محمود يزكيه حب التنسيق كما يزكيه تكوين وظائف الأعضاء ، وحمدادي الحسن في المرأة أن تكون كما وصفها كعب بن زهير :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة      لا يشتكي قصر منها ولا طول  
وهو الذوق الذي يجري عليه ابن أبي ربيعة كما يجري عليه « الغرف القومي »  
حين يقول :

إني رأيتك غادة خصانة      رياً الروادف عذبة مبشرًا<sup>(١)</sup>  
ممثل السبيكة بضمة معطارا      محظوظة المتنين أكمل خلقها

( ١ ) الخصانة الدقيقة الخصر ، والريا الممتلة ، والمبشر حسنة البشرة .

كالشمس تعجب من رأى ويزينها  
حسب أغرٌ إذا تريد فخارا  
أو حين يقول :

أبٍت الروادف والثديٌ لقمصها  
مس البطن وأن تمس ظهورا  
أو حين يقول :

فيهن طاوية الحشا جياء واضحة الجبين  
بيضاء ناصعة البيا ض كدرة الصدف الكنين

وكان على فرط معاشرته النساء المتبرجات يحمد الحياة والخفر في المرأة كما  
يحمدتها العربي البدوي الذي ينظر إلى المرأة في فطرتها الأولى خفرة بعيدة عن  
خلق التعرض والاقتحام ، فيذكر الخفر كثيراً في شعره كما قال وهو نموذج لجميع ما  
قال :

غراء في غرة الشباب من الحو ر اللواتي يزينها خفر  
تفتر عن بارد مقابلة مفلج واضح له أثر<sup>(١)</sup>

فالعرف العربي أو العرف الفطري على الأصح الأعم واضح في وصف ابن أبي  
ربيعة لا تخطئه في عامة شعره على التقليد أو على الابتداع ، يستبيان .

ولكن هذا العرف يطرأ عليه عارضان يغيرانه وينحرفان به عن قصده ، وهما  
معيشة الحضارة والبيئة الاجتماعية التي كان عمر ينتمي إليها من تلك المعيشة  
الحضارية ، وهي بيئه الترف والنعمه والرخاء .

فالحضارة والنعمه تظهران في الترفع عن عيشه البداوة والاشتغال برعي الشاء  
والابل كما يقول :

معاصم لم تضرب على البهم في الضحى  
عصاها ووجه لم تلحم السهام<sup>(٢)</sup>  
وتظهران في المباهاة بكسل المرأة ونومها إلى الضحى وفرط غضارتها لأن ذلك

---

(١) الأسنان المفلجة التي بينها فواصل ، والأثر في الأسنان حدة الأطراف

(٢) أي لم تغيره رياح السموم .

جميعه عنوان الغنى والاستغناء والدلال على الرجال ، فإذا ذكر الهيف في جمال المرأة خُيُل إليك أنه يذكره متابعة للعرف وعادة من عادات اللسان وهو ساه عن معناه ، وأنه يناقض وصفه حين يذكر الهيف ويقرنه بما ليس يجتمع معه من صفات البدانة والضخامة التي قلما ينساها في وصف حسنان ، كما في قوله :

مَهْفَهْةُ غَرَاءٍ صَفَرٌ وَشَاحِهَا      وَفِي الْمَرْطِ مِنْهَا أَهْيَلٌ مَتَراَكِمٌ  
أو قوله :

أَسِيلَاتُ أَبْدَانٍ . دَقَاقُ خَصُورُهَا      وَثَيَّرَاتٍ مَا التَّفَتَ عَلَيْهِ الْمَلَاحِفُ  
أو قوله :

هِيفٌ رَعَابِيبٌ بُدَنٌ شَمْسٌ      فِيهِنْ حَسْنُ الدَّلَالِ وَالْخَفْرِ<sup>(١)</sup>  
وَكُلُّ نَسَائِهِ يَحْلِيهِنَّ عَنْهُ وَصَفُ الْبَدَانَةِ الَّتِي تُوشِكُ أَنْ تَقْعُدْهُنَّ عَنِ الْحَرْكَةِ  
فَتَعَابُ وَتَدْخُلُ فِي عَدَادِ الْعَجَزِ وَتَعْبُ الْأَعْضَاءِ ، كَمَا يَقُولُ :

قَطْوَفٌ مِنَ الْحُورِ الْأَوَانِسِ بِالْمَضْحِى  
مَتَى تَمَشِّ قَيْسُ الْبَاعِ مِنْ بَهْرَهَا تَرْبُو<sup>(٢)</sup>  
أو يقول :

مِنَ الْبَيْضِ مَكْسَالُ الْمَضْحِى بِحَتْرِيَةٍ      ثَقَالٌ مَتَى تَنْهَضُ إِلَى الشَّيْءِ تَعْثِرُ<sup>(٣)</sup>  
وَلَيْسُ أَكْثَرُ مِنْ ذَكْرِ الْبَدَانَةِ فِي وَصَفَنَائِهِ ، فَهُنَّ :  
نَوَاعِمٌ قُبٌ بُدَنٌ صَمْتُ الْبُرَى      وَبِلَانٌ عَيْنُ النَّاظِرِ الْمَوْسِمِ<sup>(٤)</sup>  
أَو ...

هِيجَنِي الْبُدَنِ الْمَلَاحِ فَهَا      أَنْفُكَ بَيْنَ الْحَسَانِ أَفْتَصِر

(١) الرَّعَوبُ النَّاعِمَةُ وَالشَّاسِ هو الْإِباءُ وَالْعَنَادُ

(٢) رِبَا الْفَرَسُ أَيِّ اتَّفَخَ وَأَدْرَكَهُ الرَّبُوُّ

(٣) الْبَحْتَرِيَةُ الْمَكْتَنِزَةُ الَّتِي فِيهَا قَعْدَرُ .

(٤) الْقَبَاءُ الْضَّامِرَةُ الْخَصْرُ وَالْبُرَى الْخَلَانِيَلُ .

وكان اختياره أدل على ذوقه من كلامه ، فقيل إن الثريا التي لمح بمحاسنها كانت من ضخامة العجيبة بحيث تريق الماء على جسدها فلا يبتل ظاهر فخذلها ، وهو عيب لم يحمله على استحسانه إلا ما فيه من دلالة النعمة والوثارة وقلة الحاجة إلى الحركة في خدمة البيت وطلب المعيشة ، وقيل مثل ذلك عن عائشة بنت طلحة إذ دخلت عليها زائرة فرأت عجائزها من خلفها كأنها جسد آخر . قالت : فوضعت إصبعي عليها لأعلم ما هي ! فلما أحسست مس إصبعي سالت : ما هذا ؟ قلت : جعلت فداءك . لم أدر ما هو فجئت لأنظر . . . فضحكـت عائشة وقالت : ما أكثر من يعجب بما عجبت منه !

ووصفتها عزة الميلاد وهي وصفة لمحاسن النساء فقالـت : ما رأيت مثلها مقبلة ومدبـرة ، ثم قالت إنـها ذات عـكنـ أي طـياتـ في البـطـنـ ، ضـخـمةـ السـرـةـ ، ولـمـ تـذـكـرـ ذـلـكـ منـ عـيـوبـهاـ بلـ ذـكـرـتـهـ منـ مـحـاسـنـهاـ . أما عـيـوبـهاـ التي ذـكـرـتـهاـ فـمـنـهاـ ما يـوارـيهـ الـخـمـارـ وـهـوـ عـظـمـ الـأـذـنـ وـمـنـهاـ ما يـوارـيهـ الـخـفـ وـهـوـ عـظـمـ الـقـدـمـ ، وـمـنـهاـ رـدـةـ في الـوـجـهـ تـغـضـبـ منـ الـجـمـالـ .

وهاتان كانتا أجمل الشـريـفاتـ منـ طـبـقـةـ ابنـ أبيـ رـبيـعةـ التيـ كانـ يـدـلـ علىـهاـ بـصـفـاتـ نـسـائـهاـ ، أوـ يـسـمـيـهاـ تـسـمـيـةـ كـمـاـ قالـ :

بعيدة مهوى القرط<sup>(١)</sup> إما لنوبل      أبوها وإما عبد شمس وهاشم  
 فهو رجل مطبوع في ذوقه بجمال النساء لأنـه يستحسن منه ما توجه إليه النساء  
 والبيئة والعرف الشائع بلا تكلف ولا ادعاء .

ومن الملاحظات التي لا تفوت القارئ المستقصي لشعر الشاعر أنه كان شديد الكلف بجمال الفم خاصة من ملامح الوجه ، فندرت قصيدة في شعره خلت من التنويـهـ بهـ والتـغـنيـ بمـتـعـةـ تقـبـيلـهـ ، كـقولـهـ :

فابتسمـتـ عنـ نـيرـ وـاضـحـ مـنـ لـجـ عـذـبـ إـذـاـ قـبـلاـ

---

( ١ ) القرط ما يعلق في الأذن ، وبعيدة مهواه كنـيةـ عنـ طـولـ الجـيدـ

أو قوله :

ويذيقني منه على وجل عذباً كطعم سلافة الخمر

أو قوله :

فقالت لها حرة عندها للذيد مقبلها معصر<sup>(١)</sup>

أو قوله :

لو سقي الأموات ريقتها بعد كأس الموت لا نشروا

أو قوله :

وبوجه حسن صورته واضح السنة ذي ثغر نقي

أو قوله :

تعبرى السواك على أغبر مفلج عذب اللثات للذيد طعم المشرب

أو قوله :

وشتت<sup>(٢)</sup> أحوى المراكز عذب ما له في جميع ما ذيق طعم

وأمثال ذلك في قصائده الوصفية كثير يلاحظ لكثرته ولا بد أن يدل على ذوق خاص في استحسان مواضع الحسن من النساء ، ولنا أن نحسبه دليلاً على التعبير المطبع دون أن نبعد في الدلالة ، لأنه كان زير نساء وليس لزير النساء الذي يلقى الكثيرات منهن أن يطعم في متعة أسهل ولا أشيع من الحديث والتقبيل ، وكلامها مما يغري بمحاسن الأفواه ، كما أفصح عن ذلك في بعض شعره فقال وكرر المعنى كثيراً في أبيات أخرى :

فما ازدلت منها غير مصن لثاتها وتقبيل فيها والحديث المردد

فلا جرم يكلف الشاعر بمحاسن الثغور التي تشتهي منها الأحاديث والقبل ولا

---

(١) الفتاة التي بلغت مبلغ النساء .

(٢) الشتت وصف للأسنان المقلجة أو المتفرقة .

يغفل عن وصفها والتغنى بمعتها . ومتى قيل إن عمر بن أبي ربيعة كان يحمد من محسن المرأة ما يحمد الرجل الذي نشأ بين العرب في بيئة الحضارة والعلم ، وكان بوحي من مزاجه وفراغه مشغوفاً بمعاشرة النساء فقد قيل إنه شاعر صادق الحس مطبوع التعبير .

### من نوادره وأخباره

بعض النوادر والأخبار يراد لذاته ويحسن السكوت عليه إذا رويت كل نادرة منه على حدة .

فمن ذلك نوادر الفكاهة والنوادر التي تشتمل على خبر من أخبار المعرفة العامة أو جواب مسكت أو نكتة من نكات البلاغة .

وليس بالضروري أن تكون النوادر والأخبار التي تساق في معرض التراجم والسير من هذا القبيل .

بل يكفي أن تكون النادرة مشتملة على عادة من عادات المترجم له أو سمة من سماته ل تستحق الإثبات والمراجعة ، وهذا الذي توخيه في سرد ما يلي من النوادر والأخبار ، وكله من الأمثلة التي تتكرر في حياة ابن أبي ربيعة وتبيينا بحالة من حالاته أو سمة من سماته ، وقد يمر بها القارئ في كتاب فلا يطيل الالتفات إليها بين النوادر التي تروى ثم يحسن السكوت عليها .

فكان عمر يقدم<sup>(١)</sup> فيعتمر في ذي القعدة ويخرج من إحرامه فيليس الحلل وال Yoshi ويركب النجائب المخصوصية بالحناء عليها الطنافس والديباج ويسبل لته ويتصدى للعراقيات والمدنيات والشاميّات كل منها في الطريق التي يسلكها ، فخرج يوماً للعراقيات فإذا قبة مكشوفة فيها جارية كانها القمر تركب معها جارية سوداء كالسبحة<sup>(٢)</sup> . فقال للسوداء من أنت ؟ ومن أين أنت يا خالة ؟ فقالت : لقد أطال الله تعفك إن كنت تسائل هذا العالم : من هم ؟ ومن أين هم ؟ . قال فأخبريني عسى أن يكون لذلك شأن . قالت : نحن من أهل العراق . فاما الأصل والمنشأ فمكة ، وقد رجعنا إلى الأصل ورجعنا إلى بلدنا ، فضحك . فلما

(١) كسام أسود .

نظرت إلى سواد ثنيتيه قالت : قد عرفناك ! عمر بن أبي ربيعة .. قال : و بم عرفتني ؟ قالت : بسواد ثنيتك وبهيئةك التي ليست إلا لقريش .. فلم يزل عمر بها حتى تزوجها ولدت له .

ولسواد ثنيتيه قصة مع الشريا إحدى صديقاته وأجلهن فيها قيل ، وخلالصتها أنه زارها يوماً ومعه صديق له كان يصاحبها ويتوصل بذكرة في الشعر ، فلما كشفت الشريا الستر وأرادت الخروج إليه رأت صاحبها فرجعت ، فقال لها : إنه ليس من أحشمن منه ولا أخفى عنه شيئاً ، واستلقي فضحك . وكان النساء إذ ذاك يتختمن في أصابعهن العشر ، فخرجت إليه فضربته بظاهر كفها فأصابت الخواتيم ثنيتيه العلرين وكادت أن تسقطها ، فعالجها في البصرة فسكتتا واسودتا، وجعل خصومه يعبرونه بها كما قال الحزين الكناني :

ما بال سنئيك أم بال كسرها      أهكذا كسرها في غير ما باس  
أم نفحة من فتاة كنت تألفها      أم نفحة من وسط شرب<sup>(١)</sup> صدمة الكاس

\* \* \*

وكان جالساً يمني وغلماً أنه حوله فأقبلت امرأة بربزة<sup>(٢)</sup> عليها أثر النعمة ثم سلمت وسألت : أنت عمر بن أبي ربيعة ؟ قال : أنا هو . فما حاجتك ؟ قالت : حياك الله وقربك . هل لك في حادثة أحسن الناس وجهها وأتقهم خلقاً وأكملاً أدباً وأشرفهم حسباً ؟ قال : ما أحب إلى من ذلك . فعادت تقول . على شرط . تكمني من عينيك فأشددهما وأقودك حتى تتوسط الموضع الذي أريد ثم أفعل ذلك عند إخراجك حتى أنتهي بك إلى مضربيك هذا . فوافقها ومضى معها حتى كشفت عن وجهه فإذا بامرأة على كرسى لم ير مثلها قط جمالاً وكمالاً . فسلم وجلس ، وسألته : أنت عمر بن أبي ربيعة ؟ قال : أنا عمر .. قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟ قال : وما ذاك جعلني الله فداءك ؟ قالت : ألسن صاحب هذه الأبيات ؟

---

(١) الشرب هم المجتمعون على الشراب .

(٢) البرزة المرأة التي تبرز للرجال .

لأنهن الحسي إن لم تخرج  
تعلمت أن يمينها لم تخرج  
بمخضب الأطراف غير مشنجٌ  
شرب النزيف يبرد دمه الحشري<sup>(١)</sup>

قالت وعيش أخي ونعمه والدي  
فخرجت خوف يمينها فقبست  
فتناولت رأسي لتعرف مسنه  
فلثمت فاهما آخذًا بقرونها

قم فاختر عنني ، وقامت من مجلسها فجاءت المرأة فشدت عينيه ومضت به  
حتى انتهى إلى مضربه ، فحزن واكتأب وبات ليله يفكر فيها رأى وسمع . فلما  
أصبح إذا المرأة إليه وتسأله : هل لك في العود ؟ فيذهب معها كما ذهب في المرة  
الأولى ، ويلقى فتاة الأمس فتبادره قائلة : إيه يا فضاح الحرائر ؟ فيسأل : بماذا ؟  
جعلني الله فداءك ؛ فتقول بأبياتك هذه :

على الرمل من جبانة<sup>(٢)</sup> لم توسد  
إن كنت قد كلفت مالم أعود  
فقم غير مطروح وإن شئت فازداد

وناهدة الشدين قلت لها اتكى  
فقالت على اسم الله أمرك طاعة  
فلما دنا الاصباح قالت فضحتني

قم فاختر عنني !

فقام فخرج ثم رده وقلت له : لولا وشك الرحيل وخوف الفوت ومحبتي  
لمناجاتك والاستكثار من محاديثك لأقصيتك هات الآن كلمني وحدثني  
 وأنشدني » .

قال عمر وهو يقص هذه القصة : « فكلمت آدب الناس وأعلمهم بكل  
شيء ، ثم نهضت وأبطأت العجوز وخلالي البيت وأخذت أنظر فإذا بآنية فيها  
طيب ، فأدخلت يدي فيه وخبأتها في كمي ، وجاءت تلك العجوز فشدت عيني  
ونهضت بي تقودني حتى إذا صرت على باب المضرب أخرجت يدي فضررت بها  
عليه ، ثم صرت إلى مضربي فدعوت غلامي ووعدهم أهيم يدل على باب  
مضرب عليه طيب كأنه أثر كف فهو حر وله خمسين درهم . فلم ألبث أن جاء

---

(١) النزيف من سال دمه أو يبست عروقه من العطش ، والخشيج نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفر أو كوز صغير ، والقرون الضفائر .  
(٢) الجبانة الصحراء .

بعضهم فقال : قم ! فنهضت معه فإذا أنا بالكف طرية وإذا المضرب مضرب  
فاطمة بنت عبد الملك بن مروان قد أخذت في أهبة الرحيل ، فلما نفرت نفرت  
معها بصرت في طريقها بباب ومضرب وهيئه جميلة فسألت عن ذلك فقيل لها :  
هذا عمر بن أبي ربيعة . فتخوفت وقالت للعجوز التي كانت ترسلها إلى قوله  
له : نشدتك الله والرحم ما شأنك ؟ وما الذي تريد ؟ انصرف ! ولا تفضحني  
وتشيط بدمك » .

قال : فأبلغتني العجوز رسالتها فقلت : لست بمنصرف أو متوجه إلى بقميصها  
الذي يلي جسدها . ففعلت ووجهت إلي بقميص من ثيابها ، فزادني ذلك شغفاً  
ولم أزل أتبعهم ولا أخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرفت ،  
وفي ذلك أقول :

ضاق الغداة ب حاجتي صبري      ويشتت بعد تقارب الأمر  
إلى آخر الأبيات :

\* \* \*

وكان النساء يتعرضن له ويعشن باستدعائه لتزجية الوقت في الحديث  
والمناجاة ، وحکى بعض ما اتفق له من ذلك فقال :

« بينما أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالد الخريث فقال لي : يا أبا الخطاب !  
مررت بي أربع نسوة قبيل العشاء يرددن موضع كذا وكذا لم أمر مثلهن في بدو ولا  
حضر ، وفيهن هند بنت الحارث المريّة . فهل لك أن تأتهن متن克拉ً فتسمع من  
حديثهن وتتمتع بالنظر إليهن ولا يعلمون من أنت ؟ فقلت له : ويحك ! وكيف لي  
أن أحفي نفسي ؟ قال : تلبس لبس أعرابي ثم تجلس على قعود فلا يشعرون إلا  
بك قد هجمت عليهم . ففعلت ما قال ثم أتتهن فسلمت عليهن ووقفت  
بقربهن . فسألتني أن أنشدهن وأحدثهن فأنشدتهن لكثير وجيل والأحوص  
ونصيб وغيرهم . فقلن لي : ويحك يا أعرابي ما أملحك وأظرفك ! لو نزلت  
فتتحدثت معنا يومنا هذا فإذا أمسيت انصرفت في حفظ الله ؟ فأنتحت بعيدي ثم  
تمحذثت معهن وأنشدتهن فسررن بي وجدلن بقربي وأعجبهن حديثي . . . ثم  
إنهن تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : كأننا نعرف هذا الأعرابي ! ما أشبهه  
بعمر بن أبي ربيعة ؛ فقالت إحداهن : هو والله عمر . فمدت هند يدها

فانتزعت عمامتي فألقتها عن رأسني ثم قالت لي : هي يا عمر ! أراك خدعتنا منذ اليوم ! بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه إليك لتأتينا في أسوأ هيئة ونحن كما ترى . »

\* \* \*

وكان يتبع كل جمالة يسمع بها ليجادلها ويغزل بها ولو لم تقع عينه عليها .

حدث قدامة بن موسى قال : « خرجت بأختي زينب إلى العمرة ، فلما كانت بسرف - على عشرة أميال من مكة - لقيني عمر بن أبي ربيعة على فرس فسلم عليّ ، فقلت له : إلى أين أراك متوجهاً يا أبا الخطاب ؟ فقال : ذكرت لي امرأة من قومي بزرة الجمال فأردت الحديث معها ! فقلت : هل علمت أنها أختي ؟ فقال : لا . واستحجا وثنى عنق فرسه راجعاً إلى مكة . »

\* \* \*

وحدث الهيثم بن عدي قال :

قدمت امرأة مكة وكانت من أجمل النساء ، فيينا عمر بن أبي ربيعة يطوف إذ نظر إليها فوقعت في قلبه ، فدنا منها يكلمها فلم تلتفت إليه ، فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها فزجرته فائلة : إليك عني يا هذا إنك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة ، فألاع عليها يكلمها حتى خافت أن يشهرها وخرجت بعدها ليلة فقالت لأخيها : أخرج معي يا أخي فارني المناسب فإني لست أعرفها ، فأقبلت وهو معها ، فلما رأها عمر أراد أن يعرض لها فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها ، فتمثلت المرأة بقول النابغة :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له      وتتقى صولة المستأسد الضاري  
فلم يكن صاحبنا بالفاتك في سبيل هواه ، وإنما كان لهوا سهلاً يستعين عليه بالله والسهل ، وكثيراً ما كان ينتح له حظه منه بغير عناء كما حدث الهيثم بن عدي مرة أخرى حين قال :

بينما عمر بن أبي ربيعة منصرف من المزدلفة يريد مني إذ بصر بامرأة في رحالة<sup>(١)</sup>

(١) مركب النساء: يوضع على البعير.

فظن بها ، وسمع عجوزاً معها تناديها: يا نوارستري لا يفضحك ابن أبي ربيعة ، فاتبعها عمر وقد شغلت قلبه حتى نزلت بمني في مضرب قد ضرب لها ، فنزل إلى جنب المضرب ولم يزل يتلطف حتى جلس معها وحادثها ، وإذا أحسن الناس وجهاً وأحلاه منطقاً ، فزاد ذلك في إعجاب عمر بها ، ثم أراد معاودتها فتعذر ذلك عليه وكان آخر عهده ، فقال فيها :

علق النوار فواده جهلا  
وصبا فلم ترك له عقلاء  
إلى آخر الأبيات .

\* \* \*

وانتهى بعض هذا اللهو بجد الزواج حين بنى بكلشم بنت سعد المخزومية التي ولدت له ابنه جوان .

وكان يبواها وتعرض عنده . فأرسل إليها رسولاً فضربت الرسول وحلقتها - أي أوجعتها في حلقها - وأخلفتها يميناً ألا تعاود الرسالة بينه وبينها . ثم أعاد ثانية فصنعت بها ما صنعته في الأولى ، فتحامماها رسله حتى ابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقة فأحسن إليها وكساها وأنسها وعرفها خبره وقال لها : إن أوصلت لي رقة إلى كلشم فقرأتها فأمنت حرمة ولدك معيشك ما بقيت . فسألته أن يكتب لها مكتابة بما وعد وأن يلحق بالمكتبة حاجته التي يريد لها ، فأجاها إلى ما سأله وأعطاه الورقة فأخذتها إلى باب كلشم واستعانت بإحدى بنات جنسها على إغراء سيدتها بقراءتها فإذا فيها هذه الأبيات :

<p>قد شفه الوجد إلى كلشم إليك للحين ولم أعلم في غير ما جرم ولا مائم مبيناً في آيه المحكم ولم يقدها نفسه يظلم</p>	<p>من عاشق صب يُسر الهوى رأتك عيني فدعاني الهوى قتلتنا يا حبذا أنت والله قد أنزل في وحيه من يقتل النفس كذا ظلاماً</p>
<p>ثُم أجعليه نعمة تنعمي وحكمي عدلاً يكن بيننا وجالسيني مجلساً واحداً من غير ما عار ولا مائم</p>	<p>وأنتِ ثاري فتلافي دمي أو أنتِ فيها بیننا وجالسيني مجلساً واحداً</p>

وخبريني ما الذي عندكم بالله في قتل امرئ مسلم  
فلمّا قرأت الشعر قالت لها : إنه خداع ملقي وليس لما شكاه أصل . قالت : يا مولاتي ؟ فما عليك من امتحانه ؟ فأذنت له وهي تقول : ما زال حتى ظفر بغيته ، فليجلس إذا كان المساء في موضع كذا وكذا حتى يأتيه رسولي ، وجاءها في الموعد وقد تهيأت أجمل هيئة وزينت نفسها وجلسها وجلست له من وراء ستار . وتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عنك يا فاسق ! ألسنت الفائل :

لا تجعلن أحداً عليك إذا أحبيته وهو يه ربّا  
وصل الحبيب إذا شُغفت به واطرو الزيارة دونه غبّا  
فلذاك أحسن من مواطبة ليست تزييدك عنده قربا  
لا بل يُلُك عند دعوه ف يقول أَفْ وطالما لَبِي  
فاعذر لها ثم مكت عندها شهراً لا يدرى أهلها أين هو ، ثم استأذنها في الخروج فقالت له : بعد أن فضحتي ؟ لا والله لا تخرج إلا بعد أن تتزوجني ، فتزوجها ولدت منه ابنين أحدهما جوان ، وماتت عنده .

\* \* \*

وتتكرر النواادر والأخبار في حياة ابن أبي ربيعة على أنماط شتى من نسق واحد هو هذا النسق الذي مثلنا له بما تقدم ، ولكنها تلخص في ختامها بخبرين مختلفين في تشابه أو متشابهين في اختلاف ، هما إجمال ذلك الأسهاب في نهاية المطاف .

قال مصعب بن عروة بن الزبير : خرجت أنا وأخي عثمان إلى مكة معتمرين أو حاجين ، فلما طفنا بالبيت مضينا إلى الحجر نصلي فيه ، فإذا شيخ قد خرج بيني وبين أخي فأوسعنا له ، فلما قضى صلاته أقبل علينا فسألنا : من أنها ؟ فأخبرناه ، فرحب بنا وقال : يا ابني أخي ، إنني موكل بالجمال أتبعه ، وإنني رأيتكم فراقني حسنكم وجمالكم ، فاستمتعوا بشبابكم قبل أن تندما عليه . ثم قال فسألنا عنه فإذا هو عمر بن أبي ربيعة .

ويلحق بهذا الخبر ما ذكره ابن الكلبي حيث قال إن عمر بن أبي ربيعة كان يساير عروة بن الزبير ويحادثه فقال له : وأين زين المواكب ؟ يعني ابنه حمداً وكان يسمى بذلك بـ لـ حـ مـ الـ ، فأجابه عروة : هو أمامك ، فرفض يطلبه وعروة

يقول له : يا أبا الخطاب أو لستا أكفاء لمحادثتك ومسايرتك ؟ قال : بلى بأبي أنت وأمي ، ولكنني مغرٌّ بهذا الجمال أتبعه حيث كان : إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظ لي منه إلا لذة النظر ثم مضى حتى لحقه .

هذا أحد الخبرين المتشابهين المختلفين .

والخبر الآخر أنه نظر وهوشيخ إلى رجل في الطواف يكلم امرأة ، فعاب ذلك عليه وأنكره ، فقال له : إنها ابنة عمِّي ! .. قال : ذلك أشنع لأمرك . فأباه أنه خطبها إلى عمه فأباهَا عليه إلا بصدق أربعاء دينار وهو غير مطيق لهذا الصداق ، وشكَّا إليه من حبها وكلفه بها أمراً عظياً ، واستشفع به عند عمه فسار معه إليه وكلمه فقال العُمُّ : هو ملِّيك وليس عندي ما أصلح به أمره . فسأله عمر : وكم الذي تريده منه ؟ فلما سمع منه أنه أربعاء دينار تكفل بها وترك الرجل بعد أن قبل زواج الفتَّيَنِ .

وكان عمر حين أُسْنَ قد حلف ألا يقول بيت شعر إلا اعتنق رقبة ، فانصرف يومها إلى منزله يحدث نفسه ، وجعلت جارية له تكلمة فلا يرد عليها جواباً ، فقالت له : إن لك لأمراً وأراك تريدين أن تقول شعراً ، فجرى لسانه بهذه الأبيات :

<p>طربت وكنت قد أقصرت حيناً وهاج لك الهوى داء دفيننا إذا ما شئت فارقت القرينا فشقاكَ أم لقيت لها خدينا بعض زماننا إذ تعلمنا فذَّگر بعض ما كنا نسينا مشوق حين يلقى العاشقينا لغير قليًّا وكنت بها ضئينا ولو جن الفؤاد بها جنونا</p>	<p>تقول وليدتي لما رأتني أراك اليوم قد أحذت شوفاً وكنت زعمت أنك ذو عزاء بربك هل أتاك لها رسول فقللت شكا إلى أخِّ حب فقص على ما يلقى بهند ودزو الشوق القديم وإن تعزى وكم من خلة أعرضت عنها أردت بعادها فصددت عنها</p>
--	--

ثم دعا تسعه من رقيقه فأعتقهم واحداً لكل بيت .

هذان الخبران يختلفان ويتباينان في تصوير ختام هذا العمر المديد الذي قيل إنه بلغ الثمانين ، فلم يزد عمر في شيخوخته كما كان في صباه ، ولم يعرض عن حظ الشباب والجهاز إلا على كره منه وحنين يعاوده كلما تناه أو حاول أن يتناه .

### بعض شعره

تتلخص أغراض المتناسبات الشعرية في ثلاثة : أحدها أن اختار للشاعر ما يبنيه عن حاله وبه فائدة في التعريف بحقيقة النفسية ، أو بحقيقة عصره وسيرة حياته .

وثانيةها أن اختار له الحسن من شعره ، وإن لم يبنيه عن شيء من سيرته وخلقه .

وثالثها أن اختار له ما هو حسن مستجاد من الوجهة الفنية سواء نظرنا إليه ، أو نظرنا إلى الحسن المستجاد من أقوال جميع الشعراء . فهو فن حسن في الشعر عامة ، وليس حسه بمقصور على ما قاله الشاعر المختار له على التخصيص .

فقد حاولنا أن نوفق فيها اخترتناه هنا بين جميع هذه الأغراض جهد ما يستطيع التوفيق بينها في كلام شاعر واحد ، وهو مع هذا لا يستقصى كل جيد مختار من كلام ابن أبي ربيعة ، ولكنه الشيء الذي لا غنى عنه في عجلةتناول سيرته وأدبه ومكانته . بين أئمة الكلام ، بعد ما أسلفنا اقتباسه خلال الفصول المتقدمة من هذه العجلة :

### «ليلة خطرة»

وبيت أناجي النفس أين خياطها<sup>(١)</sup>  
فدل عليها القلب ريا<sup>(٢)</sup> عرفتها  
فلما فقدت الصوت منهم واطفت  
وغاب قمیر كنت أرجو غيوبه<sup>(٣)</sup>

(١) الخباء الخيمة أو المسكن من الصوف أو الشعر

(٢) الريا الرائحة

(٣) السمر جمع سامر وهو من يجتمع بالليل للحديث

حباب وشخصي خيفة القوم أزور<sup>(١)</sup>  
وકادت يکنون التحية تبهر  
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر  
رقیقاً ، وحولي من عدلي حضر  
سرت بك أم قد نام من كنت تحذر  
إليك ، وما عین من الناس تنظر  
كلاك<sup>(٢)</sup> بحفظ ربك المتكبر  
عليّ امير كيف شئت مؤمر  
أقبل فاما في الخلاء فأكثر  
وما كان ليل قبل ذلك يقصر  
لنا لم يکدره علينا مکدر  
رفیق الحواشی ذو غروب مؤشر<sup>(٣)</sup>  
حصى برد أو أفحوان منور  
إلى ربب وسط الحمیلة جؤذر<sup>(٤)</sup>  
وکادت توالي نجمة تتغور  
هبوب ، ولكن موعد لك عزور<sup>(٥)</sup>  
وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر  
وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمر  
إما ينال السيف ثاراً فيثار  
 علينا ، وتصديقاً لما كان يؤثر  
من الأمر أدنى للخفاء وأستر

وخفف عنی الصوت أقبلت مشينة الى  
فحییت إذ فاجأتها فتوهت  
وقالت وعضت بالبنان فضحتني  
أریتك إذ هنا عليك الـ تخف  
فوالله ما أدری أتعجیل حاجة  
فقلت لها بل قادني الشوق والهوی  
قالت وقد لانت وأفرخ روعها<sup>(٦)</sup>  
فأنت - أبا الخطاب - غير منازع  
فيت قریر العین أعطیت حاجتي  
فيالك من لیل تقاصر طوله  
ويالك من ملھی هناك ومجلس  
يمج زکی المسك منها مفلج  
يرف إذا يفتر عنه کأنه  
وترنو بعينيها إلى کما رنا  
فلما تقضی اللیل إلا أفله  
أشارت بأن الحی قد حان منهم  
فما راعني إلا مناد برحلة  
فلما رأت من قد تشور منهم  
فقلت أبادیهم فيما أفوتهم  
فقالت أتحقیقاً لما قال کاشح  
إإن كان ما لا بد منه فغيره

(١) ازور أي يمشي منحرفاً والحباب الحبة .

(٢) أي ذهب خوفها

(٣) كلاك أي كلاك بمعنى رعاك .

(٤) المفلج هو الفم الذي في أسنانه تفرق ، والغروب جمع غرب وهو الحد المؤشر أي المحرز

(٥) الجؤذر ولد البقرة الوحشية والربب قطيع البقر الوحشي

(٦) اسم موضع .

أقصى على اختي بدءاً حديثنا  
لعلها أن تبغا لك خرجاً  
فقامت كثيئاً ليس في وجهها دم  
فيالك من ليل تقاصر طوله  
وcameت إليها حرثان عليهما  
فقالت لأنتيها أعينا على فتي  
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا  
فقالت لها الصغرى سأعطيه مطري  
يقوم فيمشي بينما متakra  
فكان مجته دون ما كنت أتقى  
فلما أجزنا ساحة الحسي قلن لي  
وقلن : أهذا دأبك العمر سادراً ؟  
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا  
فاخر عهدي لي بها حين أعرضت

وما لي من أن تعلمـا متأخر  
وأن ترحبـا سرياً بما كنت أحضر  
من الحزن تدري عبرة تحدـر  
ومـا كان لـيـ قبل ذلك يـقـدر  
كساءـان من خـزـ دمشق وأـخـضرـ(١)  
أـتـى زـائـراـ والأـمـرـ للأـمـرـ يـقـدرـ  
أـقـليـ عليكـ اللـومـ فالـخطـبـ أـيـسـ  
ودـرـعـيـ وهذاـ الـبرـدـ إنـ كانـ يـحـذرـ(٢)  
فـلاـ سـرـنـاـ يـفـشـوـ وـلاـ هوـ يـظـهـرـ  
ثـلـاثـ شـخـوصـ كـأـعـبـانـ وـمـعـصـرـ(٣)  
أـمـاـ تـقـضـيـ الأـعـدـاءـ وـالـلـيلـ مـقـمـرـ  
أـمـاـ تـسـتـحـيـ أوـ تـرـعـوـيـ أوـ تـفـكـرـ(٤)  
لـكـيـ يـجـسـبـواـ أـنـ الـهـوـيـ حـيـثـ تـنـظـرـ  
وـلـاحـ لـهـاـ خـدـ نـقـيـ وـمـجـرـ

### « وليلة غير خطرة ؟ »

إـذـ رـأـتـنيـ مـهـاـ أـرـيدـ اعتـذـارـاـ  
وـأـرـتـنيـ كـفـاـ تـزـينـ السـوـارـاـ  
حـرـكـتـهـ رـيـحـ عـلـيـهـ فـحـارـاـ  
كـجـنـىـ النـحـلـ شـابـ صـرـفـاـ عـقـارـ(٥)

قد عـرـفـتـ القـبـولـ مـنـهـاـ العـذـريـ  
ثـمـ قـالـتـ وـسـاحـتـ بـعـدـ مـنـعـ  
فـتـنـاـولـهـاـ فـالـتـ كـفـصـنـ  
وـأـذـاقـتـ بـعـدـ الـعـلاـجـ لـذـيـداـ

(١) السرب النفس والمعنى لعل اختي تتسعان صدرأً لما خافت حيلتي فيه .

(٢) الخز الحرير والممنيس الأبيض منه

(٣) درع المرأة قميصها تلبسه في بيتها والمطرف رداء معلمكم الطرف

(٤) المتصـرـ الفتـاةـ أـدـرـكـتـ سنـ الـأـنـوـثـةـ وـالـكـاعـبـ التيـ بـرـزـ نـهـدـهاـ وـالـجـنـ التـرسـ .

(٥) سادراً أي لا هياً غافلاً

(٦) العفار الخمر وجنى النحل العسل

واشتكى شدة الازار من الbeer  
وألقت عنها لدلي الخمار<sup>(١)</sup>  
جداً رجعها إلها يديها في يدي درعها تحمل الازارا  
«حد السر»

السر يكتمه الاثنان بينهما وكل سر عدا الاثنين متشر  
والمرء إن هو لم يرقب بصبوته لمح العيون بسوء الظن يشتهر

«اتفاق نادر»

ذات حسن إن تغب شمس الضحى فلنا من وجهها عنها خلف  
أجمع الناس على تفضيلها وهوامهم في سوى هذا اختلف  
«عمر فوق كل شيء»

وأنها حلفت بالله جاهدة  
وأهلاً له الخجاج واعتبروا  
ما وافق النفس من شيء تسرّ به  
فذاك أنزلها عندي منزلة  
وما أهلاً له الخجاج واعتبروا  
وأعجب العين إلا فوقه عمر  
ما كان يحتلها من قبلها بشر

«الشهادة المقبولة!»

يا قضاة العباد إن عليكم  
أن تحيزوا وتشهدوا لنساء  
فانظروا كل ذات بوص ردام  
ليت للرسح<sup>(٤)</sup> قرية هن فيها  
ليس فيها خلاطهن سوا  
عجل الله قطهن وأبقى  
في تقى ربكم وعدل القضاء  
وتردوا شهادة لنساء  
فأجيزوا شهادة العجزاء<sup>(٣)</sup>  
ما دعا الله مسلم بدعاه  
هن بارض بعيدة وخلاء  
كل خود خريدة قباء<sup>(٥)</sup>

(١) الخمار ما يستر الرأس وكل ما يستر على العموم . والbeer انقطاع النفس من التعب .

(٢) اعتبر قصد الحج وأهل ذكر الله عند ذبح الضحية .

(٣) العجزاء عظيمة العجيبة وكذلك ذات البوص والردام المتلة .

(٤) الرسح جمع رسحاء وهي صغيرة الردفين .

(٥) القباء دققة الخصر والخريدة الحبيبة من النساء والخدود المرأة الشابة

تعقد المرط فوق دعص من الرمل عريض قد حُفَّ بالأنقاء<sup>(١)</sup>

### « زعموا وزعم »

زعموا أنسى بغيرك صب  
جعل الله من أحب فداكا  
فلَوْ انَّ الذي عتبت عليه  
خير الناس واحداً ما عداكا  
ولسو اسطاع أن يقيك المنايا  
غير غبن بنفسه لوقاها

### « حب أشmet »

استقلوا	ودموعي	أربت	قد	غادة	مثل	الهلال	من	هو	نحو	لوب	لهم	أله	باشهال <sup>(٢)</sup>
أشبه	جيمعاً	الخلق	حين	تبدو	بالمثال	إنما	ألوت	بعد	حلم	بعقلي	لاح	الشيب	مني
إنما	وقذالي <sup>(٣)</sup>	شواتي	في	شواتي	واكتفال	حين	فتنت	آخرى	هائم	قبلية	الناصح	أهلا	الرجال <sup>(٤)</sup>
ففؤادي	من	هواها	هائمه	آخرى	الليلي	فؤادي	هائمه	هائمه	هائمه	هائمه	هائمه	هائمه	هائمه

### « المنبرأخيراً : . »

فأعرضن عنى بالحدود النواضر  
سعين فرقعن الكوى<sup>(٥)</sup> بالمحاجر  
رمين باحداق المها والجادر  
لأقدامهم صيفت رؤوس المنابر

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي  
وكن إذا أبصرني أو سمععني  
فإن جحيت عنى نواظر أغين  
فإنسي لئن قوم كريم نجارهم

(١) الدعص والنفى مجتمع الرمل .

(٢) استقلوا حلوا متابعهم للسفر وأربت السحابة دام مطرها

(٣) الشواة جلدة الرأس، والفذال مؤخرته .

(٤) الأشmet الذي اختعل البياض والسوداد في رأسه .

(٥) جمع كوة وهي الخرق في الحائط .

### « بصر مغطى »

قد كنت عندي تحب الستر فاستر  
غطى هواك وما ألقى على بصري

قالت وأبنتها حبي وبحثت به  
الست تبصر من حولي ؟ فقلت لها

### « مقايضة »

ومن جبه باطن ظاهر  
ولا هو عن ذكرنا صابر  
ودمعي لذكرى له مائز  
ويعرف ودي له الناظر

بنفسي من شفني جبه  
ومن لست أصبر عن ذكره  
ومن إن ذكرنا جرى دمعه  
ومن أعرف السود في وجهه

### « الأقربون أولى »

بعد ما صرّع السكري السمارا  
ل ضئيناً بأن يزور نهارا  
قبل ذاك الأسماع والأ بصار  
شغل الخلي أهله أن يعارا

حي طيفاً من الأحبه زارا  
طارقاً في المنام تحت دجى اللي  
قلت ما بالنا جُفينا وكنا  
قال إنا كما عهدت ولكن

### « نصع ضائع »

تباعد أو تدني الرباب المقادير  
أحاديث من يبدو ومن هو حاضر  
وعشرتها أمثال من لا تعاشر  
من الدار أو من غيّبته المقابر  
ولا قابل نصحاً لمن هو زاجر  
وطاوعت هذا القلب إذ أنت سادر  
وحتى تراءتني العيون النواظر

زع<sup>(١)</sup> القلب واستبق الحياة فإنما  
فإن كنت عُلقت الرباب فلا تكون  
أمت جهها واجعل قدّيم وصالها  
وهيها كشيء لم يكن أو كان أحراً  
فإن أنت لم تفعل ولست بفاعل  
فلا تفصح عيناً . أتيت الذي ترى  
ومازلت حتى استنكر الناس مدخلين

### « شراب شاف »

كيف اصطباري عن فتاة طفلة  
بيضاء في لون لها ذي زبرج<sup>(٢)</sup>

(١) الوازع الناهي .

(٢) الزبرج الزخرف والذهب .

وعلى الملال المستبين الأبلع  
وكلفت شوقاً بالغزال الأدعج<sup>(١)</sup>  
ممنتجداً بنجاد سيف أعرج<sup>(٢)</sup>  
حتى وجلت به خفي الملوج  
لتحط نوماً مثل نوم المنهج<sup>(٣)</sup>  
فتنفست نسأً فلم تلهج  
مني وقالت : من ؟ فلم أتلجلج  
لأنههنّ الحي إن لم تخرج  
تعلمت أن يينها لم تخرج  
بمخضّب الأطراف غير مشنج  
شرب النزيف ببرد ماء الحشاج<sup>(٤)</sup>

نافت على العدق<sup>(٥)</sup> الرطيب بريقها  
لما تعاظم أمر وجدي في الهوى  
فسريت في ديجور ليل حندس  
فقطعدت مرتقباً أنمَّ بيتها  
حتى دخلت على الفتاة وإنها  
فوضعت كفي عند مقطع خصرها  
فلزمتها فلثمتها فتفزعت  
قالت : وعيش أبي وحرمة إخوتي  
فخرجت خوف يينها فتبسمت  
فتناولت رأسي لتعلم مسه  
فلثمت فاما آخذَا بقرونها

### « حبذا »

ألا	حبذا	حبذا	حبذا
ويما	حبذا	برد	أنيابه

### « أكبر الكبائر »

قتل حسناء غادة عطبول  
إن لله درها من قتيل  
وعلى الغانيات جر الذيول<sup>(٦)</sup>

إن من أعظمِ الكبائر عندي  
قتلت باطلًا على غير ذنب  
كتب القتل والقتال علينا

(١) العدق الغصن ذو الشعب .

(٢) العين الدع جاء شديدة البياض وشديدة السواد .

(٣) النجاد حائل السيف والخندس الظلام الحالك .

(٤) تحط نوماً أي تسع في النوم والمنهج التعب المنهوك وفي رواية « المبهج » أي المسور الطيب الخاطر .

(٥) الحشاج القرفة في الجبل والنزييف المجروح الذي أهلكه الظمآن

(٦) امتد .

(٧) العطبول الفتاة الجميلة طويلة العنق ، وهذه الآيات قيلت في مقتل عمرة بنت النعمان لاتهامها بالدعوة إلى نبوة المختار بن أبي عبد الله الثقفي .

### « مفتون فاتن »

أحور المقلة كالريم الأغن  
وغضيض الطرف مكسال الضحي  
مثل ما حف عباد بوشن  
مر بي في نفر يخففنه  
راغني منظره لما بدا  
قلت : من هذا ؟ فقالت : بعض من  
ربما أرتاع بالشيء الحسن  
فنـن اللـه بـكم فيـمن فـتن  
قلـت : حقاً ذـا ؟ فـقالـت قوله  
يشـهد اللـه على جـني لـكم  
ودـمـوعـي شـاهـد لي وـالـحزـن  
قالـت يا سـيدـتـي عـلـبـتـني  
قلـت يا سـيدـتـي عـلـبـتـني إذـن ا

### « معالم الطريق »

إن لي عند كل نفحة ريجا  
ن من الورد أو من الياسمينا  
نظرة والتفاتة أترجي  
أن تكوني حللت فيـمن يـلينـا

### « اختصاراً »

جعلت طريقي على بابكم  
وـما كان بـبابـكـم لي طـريقـا  
صرمت الأتارب من لم يكن لي صـديـقا  
وصـافـيتـ منـ لمـ يـكنـ ليـ صـديـقا

### « على سنة الناس »

علينا وقول الناس بالمرء يلحق  
أراني وهنـا أكثر الناس قالـة  
فتحـنـ إذـنـ ماـ يـقولـونـ أخـرقـ  
فـفيـمـ مـقـالـ الناسـ فـينـاـ :ـ تـفـرقـواـ  
وـإـنـ كـانـ أـمـرـأـ سـنـهـ النـاسـ قـبـلـناـ  
أـحـقـ بـأـنـ لـمـ تـهـوـ غـانـيـةـ فـتـىـ

### « ولو في الطريق »

أـحـبـ لـحـبـ عـلـبـةـ كـلـ صـهـرـ  
عـلـمـتـ بـهـ لـعـبـلـةـ أـوـ صـدـيقـ  
وـقـولـ النـاصـحـ الـأـدـنـىـ الشـفـيقـ  
لـقـلـتـ إـذـاـ التـقـيـنـاـ قـبـلـيـ  
وـلـوـ كـنـاـ عـلـىـ ظـهـرـ الـطـرـيقـ  
فـمـاـ قـلـبـ اـبـنـ عـبـدـ اللـهـ فـيـهاـ  
بـصـاحـ فيـ الـحـيـاةـ وـلـاـ مـفـيقـ

### « زينبه وعمرها »

بعثت وليدي سحراً  
وقولي في ملاطفة  
فإن دوايت ذا سقم  
فهزت رأسها عجباً  
أهذا سحرك النسوا  
و قلن إذا فضي وطراً  
وقلت لها خذى حدرك  
لزينب نولي عمرك  
فأخزى اللّه من كفرك  
وقالت هكذا أمرك !؟  
ن قد خبرتني خبرك  
وادرك حاجة هحرك

### « وهل يخفى ؟ »

قلن يسترضينها مُيننا  
بيانا يذكرنني أبصرنني  
قلن : تعرفن الفتى .. قلن : نعم  
ذا حبيب لم يعرج دوننا  
فأتانا حين ألقى برّكه  
ورضاب المسك من ثوابه فنضر  
لو أثانا اليوم في سر عمر  
دون قيد الميل يعود بي الأغر  
قد عرفناه ، وهل يخفى القمر  
ساقه الحسين إلينا والقدر  
جمل الليل عليه واسبطر<sup>(١)</sup>  
مرمر الماء عليه فنضر

### « في المسجد »

لقيته صاحبته في المسجد ينظر إلى نساء وفي يدها خلائق ، أي طيب ، من  
خلائق المسجد ، فمسحت به ثوبه ومضت تضحك فقال :

جنة الخلد من ملائكة خلوقا	دخل اللّه رب موسى وعيسي
حين طافت بالبيت مسحأرقيقا	مسحته من كفها بقميصي
ليس يعرفنني مررن الطريقا	غضبت أن نظرت نحو نساء
كنت أهذى بهن بوناً سحيقا	وأرى بينها وبين نساء

( ١ ) اسبطر انتشر وجعل الليل جلا برّك على الدنيا فغطاها .

## « في الحلم »

أيا من كان لي بصرأً وسمعاً  
ويقول العاذلون نأت فدعها  
أهجرها وأقعد لا أراها  
وأقسم لو حلمت بهجر هند

وكيف الصبر عن بصري وسمعي  
وذلك حين تهيا مي وولعي  
وأقطعها وما همت بقطعي  
لضاق بهجرها في النوم ذرعني

عَبَاسُ حَمْدُو

# الْعِقَادُ

- جَمِيلُ بُشِّيَّة

دار الكتاب اللبناني - بيروت

## تهيد

كتبت هذه الرسالة عن جيل بن معمر الذي شهر بشينة بمحبه حتى اشتهر بها فسمي جيل بشينة ، وكان في زمانه إمام العشاق العذريين غير مدافع ، وأستاذ المدرسة الغزلية التي تجري على طريقته في النسيب والتشبيب ، وهي مدرسة الشعراء المحبين المولكين بمحبوبة واحدة ، ينظمون الشعر فيها ولا ينظمونه في غيرها ، وقلما يطرون باباً من النظم غير باب النسيب .

وقد اعتمدنا في أخباره على مصادر كثيرة ، لم نر بينها ما هو أولى بالرجوع إليه والاعتداد عليه من كتاب « الأغاني » لأنبي الفرج الأصفهاني ، لأنه أقرب إلى التمحيص والتثبت فيما يرويه ، فضلاً عما تعودنا منه في أمثال هذه السير من الجمع والاستيفاء .

والذي يبدوا لنا من محمل أخباره التي راجعناها أنه « شخص طبيعي » تصله منه الأقوال والأعمال التي يعقل أن تصدر عن كل موصوف بمثل صفاتة ، وإن وقع فيها الخلط والاضطراب كما يقع في أخبار جميع الأحياء الذين نراهم رأي العين .

فهو سند صالح لمعظم أقواله وأعماله ، كما أن أقواله وأعماله مادة صالحة « لتكوين » شخص على مثاله ، والترجمة لحياة كحياته .

فإذاقرأنا شعره وحوادث غرامه فهمناه ، وإذا فهمناه سهل علينا ان نعود الى ما قاله وما قيل فيه فنعرف منه الزيف وال الصحيح ، ولو على سبيل الترجيح .

وفحوى ذلك كله ان ما قاله وما قيل فيه لا ينجلي بعد الغربلة والمضاهاة عن شخص مستحيل ، ولا عن أجزاء مفرقة بجملة شخصوص كأنها الاشلاء التي لا تكمل لها صورة ، وقد تتعدد فيها الجوارح والاعضاء فوق ما يراد للبنية الواحدة .

ونعتقد أن شعراء العشق جيئاً في عصر جيل يصدق عليهم من هذه السمات ، ما يصدق عليه ، مع اختلاف يسير في الوضوح والتحقيق .

فهم جميعاً ثمرة عهد لا بد أن يشمرهم . وإنما وجه الغرابة ان تتهيأ أسباب ظهورهم ولا يظهروا وليس وجه الغرابة أنهم ظهروا في تلك البيئة وفي ذلك الزمان .

وقد تهيأت تلك الأسباب كل التهيؤ كما لخصناها في بعض فصول هذا الكتاب ، فهم اذن شخصوص طبيعيون تحبط بهم احوالهم الطبيعية ، ومن هذه الاحوال الطبيعية ان يتعرضوا للخلط والتناقض او للروايات المتشابهات عن هذا وذاك .

فمن الطبيعي ان تختلط اخبار بعضهم بعض ؛ لأنهم جميعاً عشاق ، وجميعاً من اهل الحجاز وما حوله ، وجميعاً من أبناء عصر واحد ، ينظمون بلغة عصر واحد وينسجون على طريقة واحدة . فإذا تشابهت احوالهم واخبارهم حتى جاز الاختلاط بينها فلا غرابة في ذلك ، بل لعل الغريب الا يقع الاختلاط مع هذا التشابه الكبير .

ومن الطبيعي ان تتحمل اخبارهم المبالغة الى اقصاها . لأن المبالغة مقرونة بشهرة كل « بطل » في باب من الأبواب ، فلا يشتهر احد بالشجاعة او بالكرم او بالمجون الا اضاف اليه الناس كل ما يتصل بهذه الشهرة وتنافسوا في التزييد عليها والتهويل فيها ، وما من بطل خرافي اضيف اليه من المبالغات فوق ما اضيف لعلى ابن ابي طالب حتى حارب الجن ، وحاتم الطائي حتى جاوز السفه ، ولا بي نواس حتى استفاد مويقات الناس وافرغ جعبة الظرفاء اصحاب الملح والتواتر ، وكلهم مع هذا شخصوص طبيعيون لا تمنعنا المبالغة ان نردهم الى قرار .

ومن الطبيعي ان تتناقض اخبار اولئك الشعرا وعشاق ، لأنهم شخصوص حقيقيون يتعدد الرواة عنهم والمتحدثون بأخبارهم ، وليسوا من اختراع مخترع واحد يصوغهم كلهم في قالب واحد ، ويعرضهم كلهم في مخيلة واحدة .

فهم شخصوص طبيعيون .

ولن يكونوا طبيعيين حتى يتعرضوا مثل ما تعرضوا له من التناقض والتشابه والمبالغة والا حالة .

وأقربهم الى الطبيعة فيما نرى جميل صاحبنا في هذا الكتاب . فهو لا يتفق له

وجود - حيث وجد - الا على الصورة التي تجملها لنا قصائده وابناء رواته ،  
وعلاقته بعشوافته بثينة مستقيمة على النهج الذي ينبغي ان تستقيم عليه ،  
واخلاصه لها او اخلاصها له هو الاخلاص الذي ينطوي عليه كل عاشقين  
مثلهما ، لا هو في السماء ولا هو في الخيال ولا هو فوق طاقة الناس . ولكنه  
الانسان حيث كان واحد في كل مكان وزمان .

وقد عنانا في هذا الكتاب ان نوفق بين البواعث النفسية والعوامل الطبيعية في  
سيرة هذين العاشقين ، وان نفهم الادب على مصباح من علم النفس ومن حفائق  
الطبيعة ، فلا نرجع به الى لفظ تلوكه الافواه ، بل نرجع به الى وسائل طبع منتزع  
بالابدان والاذهان .

## عصر جمیل

عاش جمیل في القرن الأول للهجرة .

وهو قرن حافل باحداث السياسة : تحولت فيه الدولة الاسلامية من نظام الى نظام ، ومن قطر الى قطر ، ومن سيرة الى سيرة . فخرجت من الخلافة الى الملك الموروث ، ومن الحجاز الى الشام ، ومن بساطة الحياة الدينية الى بذخ المعيشة الحضرية التي جمعت بين بقايا حضارة الفرس وبقايا حضارة الروم .

وليس بنا في هذه العجلة ان نسجل حوادث العصر كلها او نتعقبها من بدايتها الى نهايتها تعقب تفصيل او تعقب اجمال ، فكل اولئك لا يعنينا فيها نحن فيه الا من طرف واحد : وهو الطرف الذي يتصل بحياة شاعرنا جمیل ، ومن شابهه من الشعراء في بيته و زمانه .

ياوجز ما يقال في تلك البيئة انها البيئة التي تخرج امثال جمیل من شعراء البادية المحيطين بالحضارة الحجازية ، والمتصلين بحواضر الاسلام في مصر والشام .

فالعصر الذي عاش فيه جمیل بالحجاز كان عصر استئناف للحياة الحجازية قبل ظهور الدعوة الاسلامية ، ولكن على نحو جديد .

وكان المعلول الاكبر في الحجاز على حياة المدن التي يقصدها الناس للتجارة وقضاء المناسب السنوية . وقد طال عهد تلك المدن بالتجارة واستقبال القصاص ، فاجتمع فيها الزراء بابدي السراة واصحاح القوافل والاموال الغاذية الرائحة بين رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، واجتمع مع الزراء ما يتبعه أبداً من الترف واللهو والاباحة وايثار الدعة والرخاء .

ثم ظهرت الدعوة الاسلامية فشغلت الناس عن ذلك كله بالجهاد بين المسلمين والمرشحين ، ثم علت كلمة الدين في عهد النبي عليه السلام وفي عهد خلفائه الراشدين ، فعز على اصحاب اللهو والترف ان ينتموا فيها كانوا فيه ، فاهتدى منهم من اهتدى واستتر منهم من بقي على ضلاله ، ووجد اكثراهم منصرفأله عن معيشته الأولى في هذه المعيشة الدينية الجديدة ، وفي شواغل السياسة وال الحرب التي كانت تردد بها عواصم الدولة الاسلامية ، وهي يومئذ عواصم الحجاز .

ثم ارتفعت رقابة الخلفاء الراشدين عن تلك العواصم ، وتيسر للمترفين ما كان متعرساً قبل ذلك من ضروب اللهو والمتنة ، مع اختلاف محسوس تقضي به رعاية الدين .

وانقلت الدولة من عواصم الحجاز الى عواصم الشام فتفرغ اولئك المترفون لحياة الفراغ التي لا رقابة عليها وربما تجاوز الامر قلة الرقابة الى التشجيع على حياة المجنون والبطالة ، لأن اصحاب الدولة الجديدة كانوا يخشون من ابناء الرؤساء في الحجاز ان ينصرفوا عن حياة الفراغ الى حياة الجد والطموح ، فليس في جدهم وطموحهم امان للدولة الجديدة ، واثما الامان لها كل الامان ان يلعبوا ويرتعوا ويجتمعوا على اللغو والفضول وايثار الدعة والرخاء .

فاستأنفت الحواضر الحجازية تاريناً قدماً طويلاً في اللهو والمجنون ، وعادة «الظرف» المأثور في عرف اولي النعمة ان يصبحوا ويمسوا بين المنادمة والمساءمة ، واحبها واشيعها حديث الغزل ووشایات الغرام .

هذه الحياة عدوى لا يسلم منها من عاش فيها ولو كان مطبوعاً على الجد والطموح ، لأنها كالجلو الذي يتنفس فيه كل مت نفس يشاء او لا يشاء ، وغاية ما فيها من فروق ان البنية السليمة تقوى على انفاس ذلك الجو من حيث تضعف عنه البنية السقيمة . اما الهواء الذي يتنفسونه جميعاً فلا اختلاف فيه .

فمن أشجع الرجال الذين نشأوا في تلك البيئة ولا ريب كان مصعب بن الزبير سليل الشجعان ووريثهم في شياطين البخل والشمم والمضاء .

وكان له من الجد ما يشغله عن معيشة اهل البيئة التي نشأ فيها ، وينجيه من

أوهاق<sup>(١)</sup> المتعة التي يتمرد عليها من طبع على غراره ، لو كانت هناك منجاة .

كان معه خيه عبد الله صاحبى ملك ينافس ملك بنى امية ، وتولى البصرة والكوفة وال العراق فصبط امورها واستبقها زمانا على الولاء له و لاهل بيته . ونهض عبد الملك بن ميران لقتاله بنفسه ، فأنفذ اليه الجيوش وراء الجيوش ، فكان يبرز لها ويضر بها ويفرق شملها . ثم اوفد اليه اخاه حمداً بن مروان يعرض عليه الامان وولاية العراقيين ما دام حياً وصلة من المال تبلغ الفى درهم فأبى مصعب الا ان يقاتل حتى يغلب او يموت دون التسليم . وخذله أصحابه طمعاً في هدايا بنى امية ، فما زال في البقية الباقيه من أنصاره يقاتل ويغامر حتى مات .

قيل ان عبد الملك بن مروان جلس بعدها بين أصحابه يسامحه : من أشجع الناس ؟ وهم يروغون في الجواب ، فقال لهم : بل أشجع الناس مصعب بن الزبير ، عرضت عليه الأمان والمال وولاية العراقيين وعنده عائشة بنت طلحة أجمل النساء فأباها وأثر الموت على التسليم .

وذلك شهادة عدو لا ينفعه ان يكتمنها ، لأنها أشهر من ان يمحجها الكثبان .

فالحق الذي يعرفه أعداء ذلك الرجل وأصدقاؤه انه شجاع وانه نبيل وانه لا يقرن بالجحود والطموح لله من لذات الدنيا .

ومع هذا حسبنا ان نذكر له حكايتين لنتذكر كيف شاع الغزل وحاديث الغزل وموافق الغزل في البيئة التي نشأ فيها واحتاطت به آدابها ودعاعيها . فكل حديث عن الغزل والتهالك عليه مصدق اذا قوبيل بهاتين الحكايتين من هذا الرجل الذي قل نظراؤه في الجحود والطموح .

احداها تتصل بشاعرنا جميل وتدور على بيتين قالهما في صاحبته بشينة ، وهما :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت

بالحجر يوم جلتها أم منظور

---

( ١ ) الوهق : حبل يوضع في عنق الدابة له انشوطه

ولا اسلابتها خرساً جبائرها  
إلى من ساقط الأرواق مستور<sup>(١)</sup>

قبل إن مصعباً سمع البيتين فود لو يعرف كيف جلتها . فأنبأوه أن ام منظور التي اشار اليها الشاعر لا تزال بقيـد الحياة .. فكتب في حـلها اليـه مـكرمة . وحملـت اليـه ، ووصـفت له تلك الجـلـوة فـقالـت : « أـبـستـها قـلـادـة بـلـحـ وـخـنـقـة بـلـحـ وـاسـطـتها تـفـاحـة ، وـضـفـرت شـعـرـها وـجـعـلـتـ في فـرـقـها شـيـئـاً منـ الـخـلـوقـ - أـيـ الطـيـبـ - وـمـرـ بـنـا جـيـيلـ رـاكـباً نـاقـته فـجـعـلـ يـنـظـرـ اليـها بـؤـخرـ عـيـنهـ وـيـلـتـفـتـ اليـها حـتـىـ غـابـ عنـهاـ .

فـقاـلـ لها مـصـعبـ : فـانـيـ اـقـسـمـ عـلـيـكـ الاـجـلوـتـ عـائـشـةـ بـنـ طـلـحةـ مـثـلـ ماـ جـلوـتـ بـشـيـئـةـ . فـفـعـلـتـ . ثـمـ رـكـبـ مـصـعبـ نـاقـتهـ وـاقـبـلـ عـلـيـهـماـ وـجـعـلـ يـنـظـرـ اليـهاـ عـائـشـةـ بـؤـخرـ عـيـنهـ وـيـسـيرـ حـتـىـ غـابـ عنـهاـ ، ثـمـ رـجـعـ !

اما الحـكاـيـةـ الـأـخـرـىـ فـتـدـورـ عـلـىـ بـيـتـيـنـ تـلـمـيـذـ جـيـيلـ - وـعـنـيـ بهـ كـثـيرـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ - وـهـمـاـ :

وـماـ زـلـتـ مـنـ لـيـلـ لـدـنـ طـّـ شـارـبـيـ  
إـلـيـ الـيـومـ أـخـفـيـ جـبـهاـ وـأـدـاجـنـ  
وـأـحـلـ فـيـ لـيـلـ لـقـومـ ضـغـيـةـ  
وـتـحـمـلـ فـيـ لـيـلـ عـلـيـ الصـفـائـنـ  
وـخـلاـصـتـهاـ أـنـ مـصـعبـ أـبـصـرـ الشـعـبـيـ - الـراـوـيـةـ الـمـحـدـثـ الشـهـورـ - وـهـوـ فـيـ الـمـسـجـدـ  
فـأـمـرـهـ أـنـ يـتـبعـهـ ، وـقـدـمـهـ وـهـوـ لـاحـقـ بـهـ ، حـتـىـ دـخـلـ مـنـزـلاـ ثـمـ دـخـلـ إـلـىـ حـجـلـةـ فـيـ  
الـمـنـزـلـ وـوـقـفـ الشـعـبـيـ يـتـنـظـرـ ، فـاـذـاـ جـارـيـةـ قـدـ خـرـجـتـ تـقـولـ لـهـ : أـنـ الـأـمـيـرـ يـأـمـرـكـ  
أـنـ تـمـلـسـ . فـجـلـسـ عـلـىـ وـسـادـةـ وـارـتـفـعـ سـجـفـ الـحـجـلـةـ عـنـ مـصـعبـ بـنـ الزـبـيرـ ،  
ثـمـ اـرـتـفـعـ السـجـفـ الـآـخـرـ عـنـ عـائـشـةـ بـنـ طـلـحةـ .

قـالـ الشـعـبـيـ : فـلـمـ أـرـ زـوـجاـ كـانـ قـطـ أـجـلـ مـنـهـماـ ، ثـمـ سـأـلـنـيـ مـصـعبـ : هـلـ

---

( ١ ) الروق الفسطاط ، والجبائر الدمالج والأسوره ، والحجر اسم موضع .

تعرف هذه ؟

قلت : نعم !

قال : ومن هي ؟

قلت : سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة .

قال : لا . ولكن هذه ليلي التي يقول فيها الشاعر :

ومازلت من ليلي لدن طر شاربي . . . وأنشد البيتين ثم قال : اذا شئت فقم !  
فليما كان العشي دخل الشعبي المسجد فإذا الأمير جالس على سريره فيه ،  
فاستدناه وسأله : هل رأيت مثل ذلك الانسان قط ؟

فقال الشعبي : لا والله .

قال الأمير : أفتدرني لم أدخلناك ؟ .. لتحدث بما رأيت .

ثم التفت الى عبد الله بن أبي فروة فأمره ان يعطيه عشرة آلاف درهم وثلاثين  
ثواباً .

قال الشعبي : فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ،  
وبيمثل كارة القصار<sup>(١)</sup> ثياباً ، وبنظره من عائشة بنت طلحة !

وكلام العالم المحدث هنا يتمم كلام الأمير المكافع المقدام : كلامها شاهد على  
شأن الغزل في ذلك الجيل ، حتى ليحسب العالم النظرة من الحسناء جائزة تقرن  
بعشرة آلاف درهم ، وحتى ليحكى الأمير مواقف الشعراء العشاق ويود ان  
يتتحدث الناس بغير امه كما يتتحدثون بغير اولئك الشعراء .

ومتى اشتغل مصعب بالغزل هذا الاشتغال فقل ما شئت فيمن هو افرغ  
للمنادمة والسمر واحاديث الحسان والعشاق : إنهم خلقاء لا يفرغوا لحظة من  
هذه الاحاديث ، والا يزالوا بحاجة الى الشعراء المنشدين يرددونها نظمًا وغناء ،  
وهي عندهم احب ما يستحب في الترديد .

---

(١) القصار : الذي يحور الثياب ، والكاربة : ما يجمع فيه ثيابه .

ذلك شأن الحواضر الحجازية .

وليس البادية من حوالها بأقل غزلًا أو نظماً في الغزل من الحواضر على اختلافها ، وإن تباينت الأساليب والأداب .

فلا يفوتنا أن البادية افرغ للغزل وارحب به مجالاً من الحاضرة ، على غير ما يتبدّل إلى الذهن من الخطرة الأولى .

لأن البدوي والبدوية يستعيضان بالغزل عن عشرات من الملاهي الحضرية التي تدور عليه وتحوم حوله في المدينة الكبيرة .

وان شئنا ان نعرف حاجة البدو إليه فلنذكر انواع الفنون التي يستغرقها الحضريون في صدد العلاقات بين الرجل والمرأة ولا ينفع نظيرها لابناء البادية .

فالمسارح ، والأندية ، ودور الصور المتحركة ، والقصص المطبوعة ، والمراقص ، والمنازه التي يشتراك فيها الرجال والنساء ، والأغاني ، والقصائد ، وفروع كثيرة من التصوير والنحت والت نقش والزينة - كلها معارض لممثل الغزل بأنواعه في الحاضرة ، ولا يقابلها في البادية الا غزل الشاعر بالحسناء ، وما ينسج حوله من الأحاديث والدسائس والوشایات .

فالغزل وحده عند البدوي عوض عن هذه الأنواع المتنوعة من أحاديث الرجل والمرأة في المدينة العamera ، وهذا مع كثرة الشواغل في المدن وقلة الشواغل في البوادي ، الا ما كان من رعي او سقي يقربان بين الرجل والمرأة ويلجئانها إلى الغزل ولا يشغلانها عنه ، فضلاً عن معيشة الفطرة بين الأحياء التي لا تنقطع فيها صلات الذكور والإناث ، وليس الإنسان بداعياً بينها في هذه الغريبة الفطرية .

فالبادية مهد الغزل قبل الحاضرة .

وأيس للمرء ان يتصور مدينة بغير شعر غزلي من ان يتصور بادية لا تنظم هذا الشعر في كل حين .

الا أن البادية تتقدّم بعض القيود التي تستدعيها معيشة البدو ولا تستدعيها معيشة الحضريين .

لأن « المتعة » ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية ، ولا مناص لهم من

الاشتهر بمناعة الحوزة بين الأعداء والنظراء ، والا طمع فيهم كل طامع واستباحهم كل مستبيح .

وأول حوزة يحميها الرجل هي المرأة .

فمن شرف « البدوي » أن تكون فتاته منيعة الحمى يتقارر عنها لسان المغزل كما يتقارر عنها سيف المغير .

وهذا هو القيد الذي يختلف به أهل البادية من أهل المدينة .  
ولكنه قيد « سيء الحظ » كجميع القيود التي تحبط بالغرائز وتحبس من ناحية ما يطلقه الطبع من ناحية أخرى .

فمنذ القدم والقيود التي تفرضها العادات تتواли على الرجال والنساء بما يطاق وما لا يطاق ، ومنذ القدم والعرف مضطر إلى كثير من الأغضاء والتعامي عن تلك القيود . فهي موجودة ومفتاحها موجود ، ولا يزال القيد منها مفروناً بفتح .

فإذا حجرت العادات من ناحية جاءت الفنون فتسمح من ناحية أخرى .  
وقد يغض الرجل المتدين بصره اذا مرت به حسناً يخشى فتنتها ، ولكنه يسمع بيته في الغزل وهو غاضب عينيه فلا يغلق دونه أذنيه .

وقوانين البادية كجميع القوانين عرضة للتشديد والتخفيف وللرعاية والاهتمام ، وللمحاباة والاحتياط .

فقد يطول عهد الرخاء بالقبيلة فتهداً فيها سورة القتال وتضعف المغالاة بالمناعة وما يتبعها من الغيرة والسيطرة ، وقد يطول بها عهد الفاقة فيترخص أبناؤها وبناتها في الأمور التي كانوا يشتدون فيها ويستكينون للسبة التي كانوا يتذمرون منها ، وقد تجاور قبيلة قبيلة أقوى منها فتنزل على حكمها وتصبر على نزوات أهلها ، وقد تجاور الحاضرة فتجري على سنة الحضريين في الرفق والدماة ، وتنزل شيئاً فشيئاً عن الجفوة والخشونة

وكل أولئك كان يحدث في القبائل الحجازية على عهد جميل .

كان منها من استغنى عن القتال بعد ان تكفلت الدولة القائمة بصيانة الحقوق

ومنع العداون وجزاء المعتدين .

وكان منها من طال فيهم الغنى كآل جميل ، ومنها من قل غناهم وجاوروا من هم أقوى منهم كآل بثينة ، وكانوا جميعاً مختلفون إلى الحواضر ويتشبهون بظرفائها وينكرون الخشونة على الbadia وأهلها .

فاتسع ميدان الغزل حاضراً وبادياً ، وظهر شعراء النسيب بنوعيه ، تغنياً بأمرأة واحدة كما يغلب على شعراء الbadia ، أو تغنياً بالحسان جميعاً كما يغلب على شعراء الحاضرة ، وتهيأ العصر لطائفة من شعراء المدرستين على رأسهم عمر بن أبي ربعة يتغنى بحسان مكة وكل حسناء تقبل عليها ، وجميل بن معمر يتغنى بصاحبة بثينة ويعيش ويقضى نحبه على هواها .

\* \* \*

وما فشت الbadia العربية منذ القدم ميداناً فسيحاً للقواليين والرواة ، لأنهم سلاح من أسلحتها ومصلحة من مصالحها وثقافة ادبية تعدل عندها ثقافة الفنون والأداب والتاريخ في أمم الحضارة .

ولها معهم عرف ذو وجهين يجري على الرياء والمداراة ، ولا سيما في الغزل والفخر الحماسي . وهما قوام الشعر البدوي أو قوام كل شعر على الفطرة عنيت بحفظه الجماعات الأولى .

فهي تحرم الغزل بيناتها ولكنها تحفظ للاعاقب منظومات شعرائها ، ولو كان عرفها في هذا الباب ذا وجه واحد لما بقيت لنا قصيدة من قصائد العشاق ولا خبر من أخبارهم ، ولا قصة من قصص الشعراء الواصفين والحسان الموصفات .

ولكنهم كما رأيناهم قد عنوا بكل كلمة قالها شاعر في حسناء وبكل مساجلة بين عاشقين كأنها من وثائق التاريخ التي لا تنسى ، وما ذاك لأنهم يحبون الرياء أو يقترون في كراهة المحظورات ، فإنهم في الواقع يبلغون من كراهتها أقصى ما في وسعهم أن يبلغوه ، ولكنهم يفعلون ذلك لأن بواعث الحب في الفطرة الإنسانية أقوى من أن يكبحها العرف أو يقضي فيها بقضاء واحد ، فلا بد من التجوز والاغتساء ، او لا بد هنا من عرف ذي وجهين .

اما الفخر الحماسي فموقع الرياء فيه مع شعرائهم أنهم يزدرون الشاعر

ويغخرون بكلامه ، فربما ارتفعت فيلية بكلام شاعر وهو بينهم في مكان غير رفيع ، وربما كان تحريرهم زواج الفتاة عن ينظم فيها الغزل ضرباً من ازدراء الشعراء كما كان ضرباً من حمایة العرض ومنع الذمار . الا أنهم في الفخر كانوا أصرح منهم في الغزل والنسيب . فربما اجتمعت القبائل علانية لسماع شاعرين يتراজان ويتناجزان ، ويدركان الأعراق والأوطان ، ولم تأذن باعلان الغزل على هذا النحو ولا بتناقله بينهم الا من وراء اذن السامع وعين المشيخ .

وقد كان بجميل حظه الواقي من الحالين في الغزل والفخر على السواء ، فسارت الركبان بأحاديث هواه و « تجمعت الأعاريب أرسالاً » لسماع أراجيزه في الفخر بذويه ، وخرج من حلبة الفن بنصيبين متناقضين : فأما شخصه فقد جنى عليه شعره وحال غزله بيته وبين صاحبته على ما كان له بين قومه من مكانة وثراء ، وأما شعره فقد ظفر بكل عنایة في وسع قبيلة بادية ، ولا سيا الغزل الذي منعوه وأوشكوا من أجله ان يقتلوه .

ومهما يكن من عرف العصر والقبيلة فقد كان عرفاً يسمع بغازله ويستدعيه ويستبقيه ، أو كان عرفاً صالحاً لتشجيع العاشقين ، وان لم يكن صالحاً بينهما لوثام الزوجين .

وتاريخ الآداب لا يجمع عقود الزواج ولا دعوات الزفاف ، ولكنه يجمع الشعر الذي قاله العاشق ولو جنى عليه ؛ وهكذا صنع بشعر جميل .

من هم؟

جميل بن عبد الله بن معمر منبني عذرة من قضاعة التي تسكن بالحجاز على طريق مصر والشام ، وأمه من « جذام » وهي تسكن في الجانب الشمالي من هذه الطريق .

ويلتقي نسبه ونسب صاحبته بشينة عند جدهما حن بن ربعة ، ثم يختلفان على ما بينها من تقارب النسب في قوة العشيرة وصلاح الحال .

فكان قومه أعز من قومها ، وكان أبوه « ذا مال وفضل وقدر في أهله » يُلقب بصبح ويحسب له في بطون قضاعة كلها حساب كبير .

ومن هيبته بين هذه البطون أن السلطان أهدر دم جميل ان وجده أهل بشينة في

دورهم ، فوجدوه عندهم مرات ولم يجترئوا على قتله . بل جعلوا يعذرون اليه والى أبيه مرة بعد مرة مخافة حرب لا قبل لهم بها بين العشيرتين . إلى أن أغاظله أبوه القول من تتابع الشكوى اليه ، فكف عنها ما استطاع ثم رجع الى سيرته معها بعد حين .

ولعله استغنى بجاه أبيه وماله عن قصد الولاية والأمراء بالمدح طلباً للجوائز والهبات ، حتى كان بعضهم يستدعيه الى مدحه فيعدل عن ذاك الى الفخر بقومه في حضرته ، كما حدث بينه وبين الوليد بن عبد الملك حين سافر معه ثم رجز مكين العذر بالوليد قائلاً :

يا بكر هل تعلم من علاكا خليفة الله على ذراكا  
فطمع الوليد ان يمدحه جميل ، ودعاه ان ينزل فيرجز ، فنزل فقال مفتخرأ :  
أنا جمبل في السنام من معد  
في الذروة العلياء والركن الأشد  
والبيت من سعد بن زيد والعدد  
ما يتغى الاعداء مني ولقد  
أضري بالشتم لساني ومرد  
أقود من شئت وصعب لم أقد  
بغضب الوليد وقال له : اركب لا حملك الله !

ومن جملة سيرته يظهر انه كان كما قال صعباً لا يقاد ، أو كان على شيء من العناد والخيلاء . فكان يستعظم أن يجترئ عليه أحد بناداته باسمه في الطريق ، وحدث بعضهم أنه كان في رهط من علية القوم عند شعب « سلع » بالمدينة ... « اذ طلع علينا رجل طويل بين المنكبين ، طوال ، يقود راحلة عليها بزة حسنة ... فصاح به عبد الرحمن بن أزهر : هيا جمبل ! هيا جمبل ! ... فالتفت مستكيراً يسأل : من هذا ؟ فلما عرف عبد الرحمن قال : قد علمت أنه لا يجترئ على الا ملك ! .. ثم جلس فأنشدتهم حتى بدا له أن يقسم « فاقتاد راحلته مولياً » .

والبزة الحسنة - على ما يظهر من جملة سيرته أيضاً - كانت من لوازمه التي اشتهر بها ولاسيما في المحافل ، حتى لقد كان يحسب متتكراً إذا مشي في البدادية بزى الرعاة ، وقال بعض أصحابه : « قدمت من عند عبد الملك بن مروان وقد أجازني وكسانى برداً كان أفضل جائزتي . فنزلت وادي القرى فوافقت الجماعة بها ، فاستخرجت بردي الذي من عند عبد الملك وقلت أصلى مع الناس . فلقيني

جحيل - وكان صديقاً لي - فسلم بعضاً على بعض وتساءلنا ثم افترقنا . فلما أمسيت إذا هو قد أتاني في رحلي فقال : البرد الذي رأيته عليك تعيرنيه حتى أتجمل به ، فان بيني وبين جوّاس الشاعر مراجزة . . . قلت : لا . بل هو لك كسوة ، وكسوته إياه . . . فلما أصبحنا جعل الأعاريب يأتون أرسالاً حتى اجتمع منهم بشر كثير ، وحضرت وأصحابي ، فإذا بجميل قد جاء عليه حلتان ما رأيت مثلهما على أحد قط . وإذا بربدي الذي كسوته إياه قد جعله جلاً بحمله . . . » .

فالرجل الذي يتخذ خلعة من الخليفة يزهي بها أصحابها جلاً بحمله ويلبس خيراً منها ، رجل ولا شك مفترط الخلياء معنى بحسن البزة وأناقة الكساء ، وقد ترجم هذه الخلياء إلى النشأة العزيزة في بيوت الرئاسة بالبادية ، فليس أقرب إلى الخلياء من ابناء هؤلاء الرؤساء . ولاسيما الذين رزقوا منهم جمال السمت وروعة المظهر كما رزق جميل .

الآن على هذا خلية مطبوعة فيه لها مرجع غير التدليل والنشأة في بيوت الرئاسة كما يؤخذ من بعض أوصافه . فقد ذكر صاحب له من اهل تيه انه كان معه يحدهه ويستمع له « إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون » حتى أنكره .

فهذه الخلية الجامحة التي لا يملكها أصحابها هي على التحقيق مرجع من مراجع تلك الخلياء التي اشتهر بها جميل ، وقد توافق الطبع والنشأة والمظهر على املاء لصاحبنا في خيالاته ، غير عجيب مع هذا كله ان يتحامق ويحمن فلا يستر حمه حيث يريد وحيث لا يريد .

وكيف يخفى حمق جميل وهو القائل :

لا لا أبُوح بحب بشنة إنها أخذت على موائفًا وعهودًا  
أيقول هذا البيت رجل رشيد كائناً ما كان قصده وذاهباً ما ذهب في معناه ؟  
انه كان مضرب المثل بحق على حافة « كاتم السر » الذي يقسم ألا يبوح به ،  
وهو في قسمه على الكتان قد باح !

\* \* \*

فجملة المفهوم من أوصافه واخباره انه كان فتى من الفتىان الذين تكتب لهم - أو تكتب عليهم - حياة الغرام .

فكان وسيماً قسيماً طويلاً القامة عريضاً المنكبين مدللاً في نشاته منظوراً اليه في بزته وعزه قومه ، على ضعف في الخلق والعقل يقعد به عن عظام الأمور ، ولا يكبح جماحه أن بدأته به غواية الهوى فتقادت به إلى متهاها ، وكذلك رشحته النشأة والخلقة والخليقة ليكون جميلاً بشينة ، وجاء العصر والجحوار فزكيها هذا الترشيح وأوسعها له من مداه ، فهو في دوره الذي تمثل لنا به في عالم الشعر غير غريب .

\* \* \*

أما صاحبته بشينة فقد وصفها جميلاً بعين المحب ووصفها غيره كما يراها كل من رآها ، فخلص لنا من جملة هذه الصفات أنها كانت « أدماء طواله » كما قال عمر ابن أبي ربيعة ، وأنها تفرع النساء طولاً كما قال الرجل الذي حمل إليها نعي جمبل .

ومن كلام عمر وجميل معاً يبدو لنا أنها كانت على سنة البدويات في التأبى والدلال الذي يشوبه الجفاء . فلما تصدى لها عمر بن أبي ربيعة خرجت له في مبادها لا تحفله وقالت له : « والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتي يزعنن ان قد قتلهن الوجد بك ! » .

وقال جمبل :

ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سبتي بالدلال وبالبخل  
 فهي معشقة بدوية صالحة « لدورها » الشهور مع جمبل ، وقد زادنا جمبل  
 معرفة بتفصيات ملامحها فقال : « أنها لطيفة طي الكشح ذات شوى  
 خدل<sup>(١)</sup> . . . وكرر هذا الوصف مرات فقال :

إلى رجّح الأكفال هي في خصورها

عذاب الثنایا ريقهن طهور

---

(١) الكشح الخصر الى وسط الظهر ، والشوى الاطراف والخدل المعتل .

ووصف ثغرها مرة أخرى فقال :

مفلجة الأنابيب لو أن ريقها يُداوى به الموتى لقاموا من القبر  
وعم الوصف فذكر جيدها وعينها في بيت يقول فيه :  
وأحسن خلق الله جيداً ومقلة  
ثُبَّهُ في النسوان بالشادن الطفل

وفي بيت آخر يقول فيه :

لها مقلتا ريم وجيد جدایة

وكشح كطى السابرية أهيف<sup>(١)</sup>

فإذا أعطينا « الوصف التقليدي » حقه من هذه الأبيات بقي لنا منها أن بشينة  
كانت حسناً بدوية لم يقل لها ترف الحاضرة ولم يعرقها شظف العيش ، فهي  
رشيقة معتدلة الخلق سامة القوم مستحبة الملامح لن يراها ، مفتوناً بها أو غير  
مفتون .

ومن بعض أحاديث كثير عن إشارات جميل لبشينة وفطتها إلى معناها وردها  
عليها ل ساعتها ، يبدوا لنا أنها كانت من الذكاء على نصيب يسعف الفتاة في مواقف  
الغرام ، وهو نصيب غير نادر بين جميع الفتيات .

الآنها « شت وافق طبقه » في علاقاتها بجميل ، فكانت لا تخلي من حماقة وخفة  
يلاحظها من يجادلها ، وقيل أنها دخلت على عبد الملك بن مروان « فرأى امرأة  
خلفاء - أي حقاء - مولية ، فقال لها : ما الذي رأى فيك جميل ؟ قالت : الذي  
رأى فيك الناس حين استخلفوك ».

ومثل هذه الحماقة لا تظهر في الكهولة إلا كان لها أساس أصيل من بداية  
العمر ، وبخاصة في عهد الغواية والشباب .

\* \* \*

---

( ١ ) السابرية حرير ينسن إلى سابر والجداية ولد الظبي بلغ ستة أشهر .

وقد كان جميل يحاول أن يقتدي في وصفها بابن أبي ربيعة في وصفه لنسائه المترفات المنعات فيقول عنها وعن أتراها :

اذا حيت شمس النهار اتقينها

باكسية الديباج والخز ذي الخمل

ولكنها محاكاة لا تثبت أن تنكشف وينكشف باطلها كما ينكشف كل زيف وتلفيق . فشيئه هذه من بنات «بني الأحب» الذين قال فيهم جميل حين غضب :

إن «أحب» سفلة أشارار حثالة عودهم خوار  
أذل قوم حين يُدعى الجار

والذين قال فيهم حين توعدوه مثيراً إلى عجزهم عن قتلهم لأنهم لا يقدرون على الحرب ولا على الديبة :

إذا ما رأوني طالعاً من ثنيّة  
يقولون من هذا وقد عرفوني  
يقولون لي أهلا وسهلا ومرحباً  
ولو ظفروا بي خالياً قتلوني  
وكيف ولا ثوفي دماؤهم دمي  
ولا ماهم ذو ندمة فيدوني

وليس هي غضبة هجاء يقال فيها بالحق وبالباطل ، لأنهم بالواقع لم يمحطوا على حماية عرضهم من جميل حتى بعد أن أهدر السلطان دمه هم ان رأوه في بيتهم ، وكان قصارى ما يصنعه زوجها ان يشكوه ويشكوها إلى أبيها وأخيها ، وقصارى ما يصنعه هذان أن يتعرضا لها فيشد عليهم جميل بالسيف فهربا أو يشكواه إلى أبيه ويعذرها إليه ، وقد أرباها على حد الاعذار .

وكأنما كانت وسامة جميل مزية من مزايا كثيرة حبست إليها هواه ولم تكن هي المزية الأولى والأخيرة . كان ماله على ما يبذلوه من كلامه بعض هذه المزايا ، اذ لا محل لقوله ان لم يكن هذا كذلك :

ولو أرسلت يوماً بشينة تتغنى ميني وقد عزت على ميني

لأعطيتها ما جاء يبغى رسوها  
سليني مالي يا بشين فاما بيين عند المال كل ضنين  
ولقد كان يرحل ويعود فيتهمها بصلة جديدة ثم لا تبالي هي أن تلمع إلى هذه  
الصلة في بعض مناجاتها أيام .

وقد تزوجت برجل اعور ضعيف المنة لا يررقها ولا تهابه ولا تشعر بحماه .  
فلولا أن «بني الأحب» كانوا في ذلك الحين كما وصفهم لما كان زواجها بذلك  
الرجل خير زواج ترتضيه ، بعد أن حيل بينها وبين الزواج بجميل .

ونحن نعلم أنها تزوجت ولا نعلم أن جيلاً قد تزوج إلى أن مات ، وقد تكون  
أوف النساء له ثم تتزوج لأن أمرها إلى غيرها ، وهو لا يتزوج لأن أمره بين يديه ،  
ولكنها لم تكن من الوفاء بحيث يقدح الزواج وحده في ذلك الوفاء ، ولعلها  
أحدى الكثيرات اللاتي يصدق فيهن وصف كثير تلميذ جميل :

الا ااما ليل عصا خيزرانة  
اذا غمزوها بالاكم تلين

### عشق جميل وبشينة

كل ما قرأناه عن جميل ، أو قرأناه من كلام جميل ، يدل على طبيعة العلاقة التي  
كانت بينهما ، وهي العلاقة التي تكون بين الرجل والمرأة وتعطل فيها الإرادة  
بعض التعطيل أو كل التعطيل ، أو هي العلاقة التي نسميها العشق والغرام .

ومن الواجب أن نذكر هنا أن العلاقات الإنسانية كلها تستتبع شيئاً من تقييد  
الإرادة قل أو كثر . فالصديق لا يفارق صديقه بمحض اختياره ، والشريك لا  
يفارق شريكه ولو مندوحة عن فراقه ، وكذلك الزميل أو الزوج أو صاحب  
الطريق . ولكن التفرقة هنا ضرورية بين تعطيل وتعطيل وبين تقييد وتقييد ،  
فالذى يتعاطى دواء ينفعه أو يتضرر منه النفع يصعب عليه أن يتركه ويكتفى عن  
تعاطيه ، والذى تعود التدخين يصعب عليه كذلك أن يتركه ويكتفى عن تعاطيه ،  
ولكن الفرق بين تقييد الإرادة في الحالتين واضح كل الوضوح .

ففي الحالة الأولى يفكر الإنسان في العواقب وفي المنافع فلا يقدم على الامتناع .  
وفي الحالة الثانية يفكر الإنسان أو لا يفكر فالنتيجة سواء . بل هو قد يفكر

ويؤ من بالضرر ويئليء يقيناً بفائدة الامتناع ثم لا يمتنع ولا يفلح أحياناً لو حاول الامتناع .

وهذا هو الفرق بين القيود التي يفرضها « الهوى » والقيود التي يفرضها الرأي او المصلحة .

فالتدخين « هوى » من البداية الى النهاية ، وعندما يبدأ الانسان في تعود التدخين يكون قد بدأ في الهوى او أراد الهوى ان صبح هذا التعبير ، وليس كذلك من يتناول الدواء أو يتناول الطعام ، او يتناول حتى اللون المحبوب لديه من الوان الطعام .

وتعطيل الارادة اصيل في الهوى كله ولا سيما الهوى الذي نسميه بالعشق او نسميه بالغرام .

لأن المرء يرتبط فيه بارادة شخص آخر فهو مقيد بهذا الارتباط الذي لا تتفق فيه الارادات في جميع الاحيان .

ثم يتقييد الشخصان معاً بارادة النوع كله أو بالارادة القاهرة التي تتمثل في الغريزة النوعية وتتغلب كثيراً على ارادة العاشقين ، وان اتفقا على حالة من الحالات .

ثم يتقيidan بالعرف الذي يفرضه المجتمع وتفرضه الآداب والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية .

ثم يتقيidan بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التي تناح على وفاق الهوى او لا تناح .

فإذا تميز العشق بين سائر العلاقات الإنسانية بخاصة من الخواص الظاهرة فأنكier ما يتميز به هذا التقييد الشديد لارادة العاشق من جملة نواحيه .

وقد يبلغ به هذا التقييد لارادته ان يحول بينه وبين فهم ارادته فلا يعلم ماذا يريد فضلاً عن ان يعلمه ويعجز عنه ، فإذا به قد انقسم على نفسه كما ينقسم المعسكر الواحد الى ضدتين متحاربين ، ولا غنيمة ل احد منها في الانتصار ، اذ هو انتصار لا يخلو في الحالتين من خسار .

وينتهي به الامر الى البقاء على حاله عجزاً عن تغييره لا سروراً به ولا رغبة فيه .

فهو لا يتعلق بعشوقه لأنه راض عن هذه العلاقة يتذمّرها ويتشاهد ويتدوّق النعمة والهناة فيها ، ولكنّه يتعلّق بها لأنّه عاجز عن فراقه ، مقيّد بضروب من العادات والوسائل لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها .

ومثله في ذلك مثل المدمن الذي يتعاطى السموم ولا يجهل بلواءها ، ولكنّه يقلّع عنها فلا يقرّ له قرار ، فيمضي فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة .

وقد قيل لجميل كل سبب يوجب عليه ، لملك اختياره ، أن يسلو بشينة ويقلّع عن هواها ، فكان جوابه لكل سبب من هذه الأسباب أنه لا يستطيع ! ولم يكن جوابه أنه يجهل تلك الأسباب أو أنه يعرفها ولا يراها موجّهة عنده للتفكير في السلو والفارق .

قال له أبوه : « يا بني ! حتى متى أنت عَمَّ في ضلالك ، لا تألف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها وأنت عنها بمُعزِّل ، ثم تقوم من تحته إليك فتغرّك بخداعها وتريّك الصفاء والمودة وهي مضمّنة لبعضها ما تضمّنها الحرّة لمن ملكها ، فيكون قوله لك تعليلاً ، وغروراً ، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبدولة . . . إن هذا للذلّ وضيّم ! ما أعرف أخيب سهلاً ولا أضيع عمراً منك . فأناشدك الله إلا ما كففت وتأملت أمرك . فإنك تعلم أن ما قلته حق ، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، ولكن هذا أمر قد فات واستبدل به من قدر له ، وفي النساء عوض » .

وهذا كلام مقنع لا ينكره منكر ، ويعلم جميل أنه حق كما قال أبوه .

فإذا علم المرء هذا ولم يعمل به فليس بذلك الا علة واحدة وهي شلل الإرادة ، وانه في حال كحال المريض الذي لا يملك الشفاء ، بل ربما كان شرّاً من هذا المريض في استسلامه لدائه ، لأن المريض قد يريد الشفاء ويتولّ إليه بوسائله التي في يديه ، ولكن العاشق الذي يربح به العشق كما يربح بجميل مسلول الإرادة حتى عن التوصل بما يستطيع أن يحاوله من وسائل الشفاء .

وهكذا كان جواب جميل لنصيحة أبيه . فقال له : « ان الرأي ما رأيت والقول

كما قلت » ثم قال : « ولكن هل رأيت قبلي أحداً قدر ان يدفع قلبه هواه ؟ أو ملك أن يسلن نفسه ؟ أو استطاع أن يدفع ما قضي عليه ؟ والله لو قدرت ان احمر ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل الى ذلك . وإنما هو بلاء بليت به لحين قد اتيح لي ، وأنا امتنع من طرائق هذا الحي واللام بهم ولو مت كمداً ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ! » .

وقال له ابن عمه روى مقالة النند للند الذي يفهمه ويستثير نخوته بالمناظرة في الفتنة والمقاربة في السن :

« انك لعاجز ضعيف في استكانتك هذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء وجود من هو أجمل منها ، وإنك منها بين فجور أرفعك عنه ، أو ذل لا أحبه لك ، او كمد يؤدي الى التلف ، او مخاطرة بنفسك لقومها لأن تعرضت لها بعد اعذارهم اليشك ، وان صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجبرعت مرارة الحزم حتى تألفها ، وتصبر نفسك عليها طائعة او كارهة أفت ذلك وسلوت ! » .

وهذا كلام كله حزم وسداد ، ولكن متى كان الهوى في اشتداده الا خلافة للحزم والسداد ؟

فما نصح أب فتاه باحكم ولا أصوب من النصيحة التي سمعها جيل من أبيه .

وما استشار ند نداً بأبلغ ولا أهيج للنخوة من هذا الكلام الذي قاله له ابن عمه .

ولكنه أجاب هذا وذاك بجواب واحد هو العجز والبكاء ، وقال لابن عمه كما قال لأبيه : « يا اخي ! لو ملكت اختياري لكان ما قلت صواباً ، ولكنني لا املك الاختيار وما أنا الا كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ! » .

او كما قال في شعره :

هي السحر الا أن للسحر رقية

وإنني لا ألفي لها الدهر راتياً

وأكذ ذلك أوثق التأكيد حين حاول ان ينفيه فقال :

يقولون مسحور يجن بذكراها  
وأقسم ما بي من جنون ولا سحر

ولم يلبث أن كشف عن السحر كله والجنون كله حين أردف هذا البيت ببيت  
تال يقول فيه :

وأقسم لا أنساك ما ذر شارق      وما هب آل في معلمة قفر<sup>(١)</sup>  
وإنما يقسم هذا القسم من هو جنون ومسحور ، أو من ساهم الناس بالمجانين  
لأنهم لا يملكون ما يريدون ، ويوشك أن يكرهوا ارادة الخلاص لوملكوه . فهم  
في حبهم للعشيق التي هم مفتونون بها على حد قول المتنبي في افتتان الأحياء  
عامة بالحياة :

وإذا الشيخ قال أفيْ فما مل  
حياة وإنما الضعف ملأ  
لا يشكون العشق لأنهم يطلبون الفكاك منه ، وإنما يشكونه لأنهم يطلبون  
الفكاك من ألمه ان استطاعوه ، والا فالبقاء فيه مع ألمه حين لا يستطيعون .

\* \* \*

وظاهر اننا - في قصة جميل وبثينة - أمام عارض نادر من عوارض العلاقة  
الغرامية ، لأن المشاهد المتواتر ان هذه العلاقة تجري في مجراتها بين كثير من  
الرجال والنساء ، دون ان تصل الى هذه اللجاجة الموبقة التي وصل اليها جميل .

ولا شك ان الغرائز النوعية اقوى من ارادة الفرد اذا تحكم النزاع بينهما وبلغ  
مبلغ الصدام الذي لا يحيص فيه من الغلبة لاحدامها . ولكن المسألة هي ان  
الغريزة النوعية والارادة الفردية لا تبلغان هذا المبلغ من النزاع والصدام الا  
لعارض طارئ ليس بالمتكرر في جميع الاحوال ، وهذه هي الندرة التي يدل  
وقوعها على شذوذ في الفرد أو شذوذ في الاحوال التي تعرضت لها علاقته  
الغرامية .

---

(١) ذر شارق : اي طلع نجم ، والال هو السراب الذي يبدو في المعلمة القفر اي  
الصحراء .

فالعشق أصيل في طبائع الإنسان اذا نحن رددناه الى الغريزة النوعية ؛ بل هو أصيل في طبائع بعض الاحياء من الطير والوحش كما ظهر من تلازم بعض الازواج واقتصار بعض الذكور على بعض الاناث ، بغير تبديل الى امد طويل .

ولكن الغريزة النوعية لم تخلق لشقاء الأفراد ضربة لازب ، ولا يلزم من خدمتها النوع انها تحقق الفرد وتتقاضاه حقه من المفانة والحرية في جميع الاحوال . ولاسيما اذا تحققت مصلحة النوع بغير هذه التضحية التي لا توجها خدمة فرد ولا خدمة نوع .

فاما اصطدمت الغريزة والارادة الانسانية على اطراد دائم مدى الحياة فهناك شذوذ لا محالة في هذه الارادة او في الاحوال التي احاطت بها ولاستها ، وذلك هو الشذوذ النادر الذي نشاهد مثلا من أمثلته الواضحة في قصة جميل .

والأغلب - فيما يبدو لنا - ان علة هذا الشذوذ راجعة الى جميل نفسه قبل مرجهها الى الاحوال التي احاطت به وبعشوقته بشينة .

فقد اصطدحت عليه اسباب كثيرة توهى من ارادته وتعرضه للعجز عن مقاومة هذه المحنـة التي غلبتـه على رأيـه .

فكان مدللا قليلا التمرس بالمصاعب كما يغلب على عامة المدللين ، وكان وسيما تمثيلـه وسامـته الى التـصدي لـهذه الـاهـواء والتـفرـغ لـها والـوقـوف عـلى طـرـيقـها ، وكان المـزـاج الفـني - او مـزـاج الشـاعـرـية - مـعـوانـاً له عـلـى التـهـادي في هـذـه الغـواـية واسـتيـحـاء المـقـاصـد الشـعـرـية مـنـها ، وبـخـاصـة حين اـغـنـاهـ الـيسـارـ عنـ معـالـجـةـ الشـعـرـ فيـ اـبـوابـ المـدـيـحـ والـرـحـلـةـ الىـ الـامـرـاءـ وـالـرـؤـسـاءـ ، وكانـ فـارـغـ الـوقـتـ لـاـ تـلـأـهـ الشـوـاغـلـ بـاـ يـنسـيهـ اوـ يـسلـيـهـ اوـ يـقـسـمـ وـقـتـهـ بـيـنـ عـمـلـهـ وـهـوـاهـ ، وكانـ معـ هـذـا ضـعـيفـ الرـأـيـ قـلـيلـ الحـزمـ كما ذـكـرـناـ فـصـلـ آخرـ مـنـ فـصـولـ هـذـهـ الرـسـالـةـ ، وـهـيـ أـسـبـابـ فيـ جـمـلـتـهاـ كـافـيـةـ لـتـعـلـيـلـ تـلـكـ النـدرـةـ التي جـعـلـتـهـ مـنـ أـبـطـالـ العـشـقـ المـعـدـودـينـ فيـ آـدـابـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ ، وـيـضـافـ اليـهاـ الـعـصـرـ وـأـثـرـهـ وـالـبـيـةـ وـحـكـمـهـاـ ، وـكـلـاـهـماـ كانـ مـاـ يـدـ فيـ دـوـاعـيـ هـذـهـ الـفـتـنـةـ وـيـنـحـيـ بـيـنـ وـسـائـلـ الـخـلـاـصـ مـنـهاـ .

وـقـصـةـ هـوـاهـ لـبـشـيـنةـ قـصـةـ مـنـ أـرـادـ الـوـقـوعـ فـيـ الـهـوـىـ ، ثـمـ وـقـعـ فـيـهـ ، وـلـيـسـتـ بـقـصـةـ مـنـ أـوـقـعـتـهـ الـمـصادـفـةـ وـحاـولـ الـخـلـاـصـ مـنـ الـبـداـيـةـ فـامـنـعـ عـلـيـهـ .

فكان في أول عهده بالعشق يهوى «أم الجسیر» أخت بشينة الكبيرة ، ثم لقى بشينة فشمتها واستملح شتمها فانصرف من تلك اللحظة عن اختها إليها ، وذلك إذ يقول :

وأول ما قاد المودة بیننا

بوادي بغیض يا بشین سباب

وربما دل ذلك على خلية من الحالات التي نفهم بها حاجته في علاقته الغرامية على نحو يندر جداً بين الأقواء ذوي الغلبة من الرجال .

فمن خلائق بعض الضعفاء ان تغريهم الاساءة والحرمان ، وتزيدهم كلفاً على كل من أحبوا من النساء ، ولا سيما المرأة التي تحسن أن تمزج المنع بالاغراء والاطماع بالقصاء ، وفي هذا يقول من قصيدة أخرى :

ولست على بذل الصفاء هويتها

ولكن سبتي بالدلال وبالبخل

فالسباب استهواه والبخل سباء ولع به في هواه ، وتلك أبداً آية من آيات العجز وضعف الثقة بالنفس وتعليق تلك الثقة بميشة غيره ، ان اقبلت عليه معشوقته رضي عن نفسه واستراح الى هذا الرضي ، وان اعرضت عنه ظل في حيرة وابتلاس لا يزولان الا ان يزيلاها اقبال جديد ، واما هو فليس بقادر على أن يستغفني برأيه او يستمد الثقة من قراره نفسه ولو قدر على ذلك لكان اعراض المعشوفة عنه داعياً من أكبر دواعي القطيعة والخلفاء ، ولكن في وسعه ان يعرض عنها ويكتف عن التعليق بها ، ولا يضره ذلك او يشعره بنقص في طمأنينة النفسية ، لأنها طمأنينة لا تتعلق بميشة سواه .

وفي بعض الضعفاء خلية قريبة من هذه الخلية او هي في مظهر من مظاهرها المختلفة ، وتعني بها «حب التعذيب» والحنين اليه ، ومن هؤلاء من يتمسون الضرب والايذاع في بعض الأحيان ويسعون اليه ، وقد يستأجرون من يضرهم ويوجعهم كما يصنع أناس من اصحاب هذه الخلية في بعض العواصم الاوربية ، ويقتربن ذلك دائماً بالنزاعات الجنسية على نحو من الانحاء .  
فإذا كان جيل من اصحاب هذه الخلية فهواد على تلك الصورة مفهوم ، واسباب اللجاجة في الهوى عنده اكثر من ان تحتاج الى مزيد .

اقبلى بشينة على وادى «بغيس» وفيه ابل جميل لترد الماء مع جارة لها ، فنفرت الايل عن المورد ، فسبها جميل وسبته ، فكان هذا اول التعارف بينهما واول الغرام ، ونسب بها منذ ذلك اليوم بعد ان كان ينسب بأختها ام الجسir .

وقيل ان جيلا خرج في يوم عيد النساء اذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال ، فوقف على بشينة وأختها ام الجسir في نساء من بنى الأحب ؛ ورأى منها منظراً عجيباً فقد معهن وعشق بشينة ، ثم راح ومعه فتيان من بنى الأحب عرفوا في نظره حبها ووجدوا عليه ، وقال ينسب بها من أبيات :

عجل الفراق ولیته لم يجعل  
وجرت بوادر دمعك المنهل  
لن تستطع الى بشينة رجعة  
بعد الفرق دون عام مقبل  
ثم علمت بشينة انه نسب بها فحلفت بالله لا يأتيها على خلاء الا خرجت اليه ولا  
تتوارى منه .

وهنا موضع آخر للعجب او للملاحظة :  
لَمْ نُسِّبْ بِهَا وَهُوَ لَا يُجَهِّلْ أَنَّ النَّسِيبَ يَحْوِلْ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الزَّوْجِ كَمَا جَرَتْ سَنَةُ  
الْبَادِيَةِ الَّتِي لَا تَخْفِي عَلَيْهِ ؟

اغلبية التزعة الفنية حتى حجبت عنه الغاية من غرامه ؟ أم هي نزوة أخرى من نزوات ضعف الرأي ومطاعة الغواية العاجلة ؟ أم كان حديث العشق والغزل غرضاً مقصوداً لذاه لا يفكر معه في زواج ولا اتصال ؟

أيس ما يقال في هذا المسلك أنه مسلك لا حزم فيه ؛ وأنه خليق ان يلقى بصاحبه في تلك المحنة التي ابتلي بها وساق نفسه اليها .

وقد حيل فعلا بين جميل وبشينة فلم يتزوجا ، طلبها للزواج وتزوج بها رجل آخر قيل في وصفه انه دميم اعور وظهر من اخباره في قصة جميل أنه كانت له زوجة قبلها ، وأن بشينة لم تعيش معه طول حياتها ، وذلك هو ثيبة بن الاسود العذري الذي قال فيه جميل :

## لقد انكحوا جهلاً ثيئاً ظعينة

لطيفة طي الكشح ذات شوئي خدل

فهي زيجية لا تغبط بها الفتاة وليس من شأنها ان تقطع الصلة ما بين بشينة وجيل ، بل لعلها احرى ان توثقها وتقن من عراها ، ولا سيما اذا كان الزوج مشنوعاً لفتوره وخوره وقلة حبيته وعجزه عن ارهاب غريميه ، كما كان مشنوعاً لدمامته وتفاوت السن بينه وبين عرسه ، وكذلك كان نبيه بن الأسود فيها وصفته لنا الروايات المختلفة كلها ألم جميل بالحي وطرق بيوت بشينة وأهلها فلم يجاوز غضب نبيه ان يشكوها الى أبيها وأخيها .

وكأنما اتفقت الدواعي جميعاً على اطالة العلاقة بين العاشقين فطالت ولم يقطعها معاً حتى قطعها الموت ، وتخللها ما لا بد ان يتخللها من قرب وبعد ، ولقاء وجفاء ، ووشایة وغيره ، وفرض موالية واخطار معادية ، مما نقله اليها الرواية او لم ينقلوه ، وما صدقوا ولم يصدقوا فيه ، وما تناقضوا في نقله ولا حاجة بنا الى اتفاقهم عليه .

بعض هذا التناقض يثبت القصة في جملتها ولا ينفيها ، لأنه يرينا ان القصة واقعة ينقلها أناس كثيرون ويسمونها من شتى المصادر ، وليست بالاختراع الموضوع الذي يلفقه قاصٍ فيقدر على التوفيق بين أجزائه والمقابلة بين أطرافه .

وبعض هذا التناقض يرجع الى تقديرات النقاد او القراء فيما يحكمون به على الحب وما يجوز فيه ولا يجوز فيستبعدون الخير الذي هو بعيد عن الحب في تقديرهم ، وينيلون الى اتهام الرواية فيه بالوضع او قلة التحقيق .

من ذلك مثلاً ان صديقنا الدكتور طه حسين يرى من دواعي التشكيك في قصة جيل انه غدر بصاحبه مرة وان « الغدر لا يمكن ان يصدر عن حبيب عذري كما نفهمه » .

فاحصى الدكتور الوان الشكوك ومنها اللون الثاني وهو كما قال :

« شيء من الغدر لا يمكن ان يصدر عن حبيب عذري كما نفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا ان اهل بشينة اذاعوا في الناس ان جيلاً لا ينسب بابتهم وانما ينسب بأمة لهم ، فغضب جيل هذه المقالة واراد ان يكتبهما ، فواعد بشينة

والتقى ذات ليلة فتحدثا ، ثم عرض عليهما جمیل ان تضطجع فمانعت ثم قبلت وأخذها النوم ، فلما استوثق جمیل من ذلك نهض الى راحلته فمضى واصبح الناس فراؤا بشينة ناثمة في غير بيتها فلم يشكوا في أنها كانت مع جمیل . وقال جمیل في ذلك شرعاً . أتظن أن مثل هذا الخبر يمكن ان يكون حقاً وأن رجلاً كجمیل كان يجب بشينة حباً كالذي نجده في شعره يستطيع أن يعرضها لمثل هذه الفضيحة ؟ » .

فتقدیر الدكتور هنا حب جمیل وما ينبغي أو لا ينبغي لمثل حبه هو الذي أظهر التناقض في هذه القصة وجنح به الى تكذيبها .

اما اذا اخذنا بتقدیر غير هذا التقدیر فلا تناقض ولا موجب اذن للتکذیب .

وعندنا نحن ان حب جمیل لا يمنع ان يعرضها لتلك الفضيحة لأنها لا تتجاوز معنى قصيدة من القصائد الكثيرة التي تغنى فيها بحبها ولقائهما ومناجاتها ، ثم أرسلها في أفواه الرواة تطوف البدایة والحاضرة حيث قدر لها المطاف .

وبحيل على ما يظهر من شعره يهتم بالنسیب والقابلة حتى ليجاذف في سبلها بحظه كله من معشوقته وهو عالم بهذه المجازفة ، فينسب بها وقد علم ان هذا النسب يحرمه أن يتزوج بها ويقسمها لغيره من طلابها . ونحن مع هذا نصدق حبه ونصدق نسيبه ولا نقول : لو كان محباً حقاً لترك النسب بالمحبوبة ليظفر بها ولا يفقدها .

فالتناقض في القصة التي استشهد بها الدكتور طـ تقدیری يزول - او يزول مؤداه - متى اختطف التقدیر .

وربما اختلف التقدیر فكان من أسباب توکید الخبر او ترجیحه ولم يكن من أسباب استبعاده ونفيه ، لأن الرجل الذي يشغل النسب هذا الشغل الشاغل يكرره حقاً أن يقال انه يتغزل بأمة شائهة وأنه مسلوب العقل مضيع الحياة في هواها ، ويرون عليه ان يعلن حقيقة هواه ولا يرون عليه أن يتحمل هذه الوصمة المهينة ، وعلالله في ذلك أنه لا يخشي ضرراً من الفضيحة على من يهوى لأنها قد اشتهرت قبل ذلك بخلافته لها ولم يصبها مصاب من ذويها ، غير الشکایة والزجر الذي لا يضرها .

والزهو بعد عنصر من عناصر العشق لا سبيل الى نكرانه والاستخفاف باغرائه وتحريضه .

فالعاشق قد يتحمل النكبة الفادحة ولا يتحمل الغض من مكانته في نفس معشوقه ، والشك في هذه المكانة هو أكبر لوعج الغرة ، والحرص عليها هو أقوى اواصر المحبة ، وقد يجازف بمنفعته وراحته ولا يجازف بلقاء تهمة تغض من تلك المكانة وتذيلها وتسقطها عنده وعند غيره .

١١ فجميل صاحب النسب الذي ضيع في سبيله بشينة كلها ليس بعجب منه أن يعرضها لفضيحة لا تضرها ، في سبيل كرامة هواه وكرامة نسيبه وكراهة نسبه وأهله .

وقد ينبغي ذلك في الهوى العذري او لا ينبغي فيه ولا في هوى من الأهواء ، ولكن من هو العاشر الذي يعمل ما ينبغي ولا يعمل ما دونه ؟

انه قد يريد ان يتحامى الضرر الذي يتحقق به هو ولا يملك ان يتحامى ، وقد يريد ان يدرك الفضيحة عن نفسه ولا يملك ان يدركها ، فلا نحاسبه بما يريد ولا بما ينبغي في عرفه وعرف الناس ، واما نحاسبه بما يساق اليه وبما هو مغلوب عليه ، وليس بمستبعد على مغلوب ان يعمل عملا لا يرضاه ساعة عمله ، وقد يأتيه وهو نافر منه ساعة يأتيه .

\* \* \*

ومن النقائض التي تنجم عن تقدير القراء والنقاد أنهم ربما رأوا للهوى العذري صفة الكمال ثم يرون هذا الهوى في كلام جليل وأنباره على صفة اخرى .

فالهوى العذري كما شاع على ألسنة واصفيه هوى بعيد من الجسد وزناعاته ، باق ما بقيت الحياة ، ثم هو لا يزال قانعاً على مدى الحياة ؛ بالنظر والحديث والمناجاة ، وقد يتورع عن الملامسة والتقبيل كأنه صلة قائمة بين روحين لا يتمثل لها جثثا .

وقد وصف جليل هواه على هذه الصفة في بعض ما نسب اليه فقال :

لا والذي تسجد الجباء له مالي بما دون ثوبها خبر  
ولا بفيها ولا همت به ما كان الا الحديث والنظر

وقال يصف ليلة له مع بشينة :

خليلان لم يقربا ريبة ولم يستخفا الى منكر

وقال عباس بن سهل الساعدي : « دخلنا على جميل وهو يختضر ، فنظر اليه وقال : يا ابن سهل ! ما تقول في رجل لم يشرب الخمر ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق ، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ قلت : اظنه قد نجا . فمن هذا الرجل ؟ قال : أنا . . . قلت : ما أحسبك سلمت وأنت تشتبب بشينة منذ عشرين سنة . فعاد يقسم : لا نالتني شفاعة محمد ان كنت وضعت يدي عليها الريبة ، وأكثر ما كان مني ان استند يدها الى فؤادي استريح ساعة ! »

ووصفوا القاءه ايها فقالوا انه كان اذا أقبل حتى كان غير بعيد دعته الى الجلوس فكانه لصق بالارض . . . « ثم يسلم عليها ويسألاها عن حاتها وتسأله هي مثل مسألته . ثم تقرب اليه جاريتها الطعام فياكل ، وتستنشده ما قال فيها فينشدها ، ولا يزالان يتحدىان لا يقولان فحشاً ولا هجراً حتى اذا قارب الصبح ودع كل منها صاحبه احسن وداع ، وانصرفا وكل منها يمشي خطوة ويلتفت الى صاحبه حتى يغيبا . . . » .

وعلى ذلك انقضت السنون بعد السنين يفترقان ما يفترقان ثم يلتقيان هذا اللقاء ، حتى افترقا الى غير لقاء .

الا ان اخباراً اخرى في سيرة جمبل تصرح بمبنته عندها واضطجاعه معها ، وقد صرحت قصائده غير مرة بالتقبيل والعناق كما قال :

تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثغر  
وكما قال :

كأن فتبت المسك خالط نشرها تقل به ارادتها والمرافق  
تقوم اذا قامت به من فراشها

ويغدو به من حضنها من تعانق  
وأشباء ذلك في شعره غير قليل

وربما حلف لها في بعض شعره انه لم « يمس جلداً غير جلدتها » حيث يقول :

حلفت يبناً يا بشينة صادقاً  
فان كنت فيها كاذباً فعميتُ  
اذا كان جلد غير جلدك مسني  
وبasherني دون الشعار شريت<sup>(١)</sup>  
 فهي كانت تتصل به وتهمه بالاتصال بغيرها ، وهو أيضاً لم يكن يكتم الشك  
فيها والقاء الريبة عليها ، وله في ذلك كلام صريح يقول منه :

تظل وراء الستر ترنسو بلحظها  
اذا مر من أتراها من يروقها  
ويقول :

بشنية قالت يا جليل اربتي  
فقلت كلانا يا بشين مرتب ا  
واريينا من لا يؤدي أمانة  
ولا يحفظ الأسرار حين يغيب  
بعيد على من ليس يطلب حاجة  
واما على ذي حاجة فقرب  
او يقول مبكناً لها :

لها الله من لا ينفع الوعد عنده  
ومن حبله ان مدد غير متين  
ومن هو ذو وجهين ليس بداعم  
على العهد حلاف بكل يمين  
ولست وإن عزت عليّ بقاتل  
لها بعد صرم يا بشين صليني

---

(١) الشعار : ثوب يباشر الجسد ، وشريت : اي اصبت بالشر ، وهو طفح مؤلم يظهر على الجلد .

أو يقول مبكراً نفسه :

وإني لاستحيى من الناس أن أرى  
رديفاً لوصل أو عليّ رديفُ  
وأشرب رنقاً<sup>(١)</sup> منك بعد مودة  
وأرضي بوصل منك وهو ضعيف  
وانسي للماء المخلط للقذى  
اذا كثرت وراده لعيوف  
وبلغه يوماً ان بشينة استبدلت به حجبة الهمالي فقال :

فيابشن ان واصلت حجبة فاصرمي  
حبابي وان صارته فصليني  
ولا تجعليني اسوة العبد واجعلني  
مع العبد عبداً مثله وذرني  
وحدث كما جاء في سيرته أنه سافر إلى الشام مرة فاتصلت بشينة بعده بحجبة هذا  
ثم طلب منها حجبة حين عاد جميل أن تصارحة بتركها أيام وتغيرها عليه فقالت او  
قيل على لسانها :  
ألم تر أن الماء غير بعدكم وأن شعاب القلب بعدك حللت  
فأجابها وقد علم ما تريد :

فإن تك حللت فالشعاب كثيرة وقد نهلت منها قلوصي وعلت<sup>(٢)</sup>  
وكان لشينة فتى من بني عمها يتحدث إليها فاستراب به جميل وذهب يتحدث  
إلى غيرها ، « وجعل كل واحد منها يكره أن يبدي لصاحبه شأنه » حتى غلبه  
الأمر فأقبل على البيت الذي كان يجتمع فيه معها وأقبلت هي إليه ولم تبرز له ،

(١) الرنقا : الكلر .

(٢) القلوص : الطويلة القوائم من الأبل ، والنهل أول الشرب والعلل الشرب للمرة الثانية .

وجعل كل منها يطالع صاحبه ، فأنشا يقول :  
لقد خفت أن يغتالني الموت عنوة  
وفي النفس حاجات اليك كما هي  
وانسي لشينسي الحفظة كلها  
لقيتك يوماً ان ابشك ما بيا  
السم تعلمي يا عذبة السرير أنتي  
أظل اذا لم أستق ريقك صاديا  
فرقت له بشينة وقالت مولاها ما كانت معها : ما أحسن الصدق بأهله ، ثم  
اصطلحا ، فسألته بشينة ان ينشد لها قوله :  
لا تظل وراء الستر ترنو بلحظها  
اذا مر من اتراها من يروقها  
فأنشد لها أياها ، فبكت وقالت : كلا يا جيل ! ومن ترى أن يروقني غيرك ؟  
فتلك جملة من الأخبار المترفة تفضي بما الى نتيجة ظاهرة وهي ان الهوى بين  
جيل وبشينة لم يكن خلواً من نزعات الجسد ولم يكن خلواً كذلك من الشك  
والريبة وتهمة الخيانة من الجانبين . فماذا نقول في ذلك ؟ أنسقون انه  
انتافق ؟ . . . نعم هو تناقض لا شك فيه ، ولكن تناقض في طبيعة العاطفة  
نفسها او في حالاتها وتعبيراتها ، وليس هو مع ذلك بمانع حصولها ، لأنها تحصل  
متناقضية الحالات والتعبيرات ، وكذلك العواطف جميعاً لا تلتزم الدقة المنطقية في  
جميع الأوقات .

فجائز جداً ان يكون جيل قد أعلن براءته في بعض شعره ، وجائز أن يكون  
جيل قد كشف الحقيقة في بعضه الآخر ، وجائز جداً أن يكون عذرياً فيها اعتقد  
ونوى ، وأن تغالطه النزعات الجسدية فيها طغى به الهوى .

ذلك كله جائز جداً وهو الذي يحصل كل يوم ولا نزال نراه حيثما التفتنا اليه .

يمحصل كل يوم أن ينوي الإنسان البراءة ويقع في الريبة على غير وده ، ويحصل  
كل يوم أن يعبر عن هذا وعن ذاك في حينه ولا يكون ذلك نافياً لما حصل بل مؤيداً  
لما تعودنا حصوله كل يوم ، ولا سيما اذا علمنا ان صاحب القصة انسان لا يملك

مشيئته ولا يزال محاولاً يضطرب في محاولاته ، فيعود حيناً ما يأبه في آخر ، ويستذكر في يومه ما كان ارتضاه في أمسه ، ولعله يعود فينكره في غده .

واما نحن نفترط في التصديق اذا فهمنا ان قبيلة من القبائل تصف هواها بالبراءة التي لا يطرقها الزغل فيكون هذا الوصف عاصماً لكل فرد من أفراد القبيلة ، مبطلاً لكل خبر يخالف تلك الصفة .

ونفترط كذلك في التصديق اذا فهمنا أن الرجل ينوي الامانة فيكون معنى ذلك انه لم يخالف الامانة مختاراً أو مضطراً إلى المخالفة ، ونحن متناقضون في هذا الفهم لأننا نلمس كل يوم ما ينافقه ولا يستقيم في طريقه .

فجميل وبشينة انسانان كسائر الناس ، لا نحكم على عمل من أعمالهما بالمناقشة وننفيه الا اذا نافق الطبيعة البشرية وكذب ما تواتر من اخبار الناس .

وكل ما يبدو لنا من اخبارها أنها كانا عاشقين يلتج احدهما في عشقه ويقبل الآخر منه هذه اللجاجة .

فكان جيل يتبع بشينة وكانت بشينة تقبل منه هذه المتابعة ، لأنها تألفه وتوثره على زوجها وتستعز بهماه ونسبيه بين أترابها .

ويجوز أنها عرفت غيره كما يجوز أنه عرف غيرها ، بل يجوز أنها كانت تعتمد عليه في بعض حاجاتها كما تعتمد المرأة على الرجل الذي يهواها ، فكان الهوى بينها على طلاق الأرض ولم يكن بالهوى السابع في اجواز الفضاء ، وكانت انسانين في كل حالة من حالاتها كما يكون كل انسانين بدوين في ذلك الزمن وفي تلك البيئة ، وعند ذلك لا نرى في اخبارها ما ينافق الواقع او يستبعد العقل او يخالف ما يجري في علاقات الغرام .

أما الهوى العذري فقصاراه انه كان أمنية لها وأمنية لكل قبيلة تعترى بالمنعنة والصيانة في بناتها . ان جرى الواقع بما يخالف فهو الواقع الذي يخالف أبداً كل عرف نصبو إلى تحقيقه ، فيما زال من دأب المثل الأعلى - أو من دأب الأمانى الاجتماعية - أنها تراد وتخالف ولا يزال الناس يريدونها ويمالفونها ، فلا ينفيها ذلك بل يدل على وجودها .

وقد اتفقت أسباب شتى على ثوكيده هذا العرف في قبيلة بني عدرة وجبرانها .

فهي قبيلة بادية توكل اليها أحياناً حراسة الطرق بين الحجاز وما جاوره من شواله ، ففيها طبيعة البداوة أن تعتز بالمنعة والصيانة ولا تعرف بالشبهة في بناتها ومحارمها ، وفيها رغبة الحفاظ على هذه السمعة التي تحتاج اليها وتأبى ان تمس فيها ، والا ديس حاها وبطلت حراستها وتحطاماً من يعتمد عليها .

وهي مع هذا قبيلة تجاور الحجاز وتعرف الاسلام وتنكر ما ينكر من اثم وتفرض ما يفرض من حدود . فليس بمحاج عندها ان تصل المرأة بغير زوجها ، وليس اباحة ذلك فعلاً بمانعتها ان تنكرها وتبرأ منها في حياتها الاجتماعية .

ونحسب أن المنعة في العشق أو الاستعصام في العلاقات بين الرجال والنساء مصلحة طبيعية نوعية ، بل مصلحة « فزيولوجية » كما نستطيع أن نسميهما في العصر الحديث ، وليس بمصلحة اجتماعية في القبيلة أو مصلحة دينية يوجبهما الدين وحده ولا يوجبهما شيء غيره على اتباعه .

فإذا كانت آداب العشق هي الآداب التي تكشف الفضائل النوعية في العاشقين معاً فالاستعصام لازم فيها والتجميل بالعفة ضرورة من ضروراتها ، لأن الاستسلام للشهوات ضعف لا يرشح صاحبه للبقاء ولا يدل على استحقاقه للحب والايثار .

واذا قال اليوم بعض الثائرة المتعجلين ان العقائد القديمة هي التي كانت وحدها توجب الاستعصام على الفتى والفتيات ، وانهم خلقاء ان يحمدوا الاباحة متى تحرروا من ربقة العقائد القديمة ، فهو لاء الثائرة المتعجلون لا يفقهون ما يقولون .

ان الفتى والفتاة يجب ان يستعصيا ولو لم يؤمنا بهم من الأديان الكتابية او غير الكتابية ، لأنهما في دور العشق يعرضان فضائل النوع فيما ، وليس من فضائل النوع ان ينساق الفتى او الفتاة لأول غواية ، وان تكون الشهوة هي كل ما يصيبي الواحد منها من زميله .

فالطبيعة والدين معاً يدعوان الى العصمة بين العاشقين وينكران التدفع الى الشهوات في غير مساك ولا مانعة ، وخلائق ان يتأكد ذلك في القبيلة البدوية التي تهمها المنعة وتجاوز كعبة الدين وتجري على سنة الطبيعة ، فلا يضعف فيها ذلك

التوكيد الا لعارض يوهي الحوزة وبيع المحظور ، أو على انحراف يتغاضى عنه العرف ويزعم أنه لا يقره ولا يراه .

فها اشتد من عصمة العرف بين العذريين فمعقول لا ينقض ما توجبه السنن الطبيعية .

وما جاء في سيرة جيل وبشينة خلافاً لذلك العرف او وفاقاً له فمعقول كذلك في خلافه ووفاقه ، لأن مخالفة العرف شيء يقع ولا يمتنع ، وشيء له اسباب في الحياة الفردية كالأسباب التي أوجبت العرف في الحياة الاجتماعية .

وقد اجلنا الاشارة الى هذه الأسباب وتلك الأسباب ، فخلص لنا منها أن جيلاً وبشينة عاشقان طبيعيان ، وأن ما جرى بينهما وروي عنهم لا ينافق ما يكون ولا ما كان ، ولن يوجد على غير ما وصفنا ، حيث وجدنا في تلك البيئة وفي ذلك الزمان .

### احسن الغزل

كان العرف الشائع بين نقاد الغزل في الشعر العربي الى عهد قريب ان أحسن الغزل هو ما حسن فيه وصف المحبوب وأربى على الغاية في اسباغ المحسن عليه . فمن جعل محبوبه عصمة في الجمال لا يمسه نقص ولا يلحق به عيب فهو أغزل من وصفه ظهر من وصفه ايه انه معيب في بعض نواحي خلقه وخلقته ، ومن قال ان محبوبه كالشمس أغزل من قال فيه انه كالبدر او كوكب من كواكب الليل التي تبلغ مبلغ البدر والشمس في الاشراق والجمال .

وهذا كما يرى من النظر اليه خلط ذريع بين أمور كثيرة : خلط بين الاستحسان والعشق وهما مختلفان .

لأن الاستحسان قد يأتي من العاشق وغير العاشق ، ولا يلزم من عشق الرجل امرأة من النساء أنها في نظره اجمل من كل امرأة رآها . فربما عرف عيوبها وعرف محسن غيرها فأححبها بعيوبها ولم يحب صاحبة المحسن المفضلة في عينيه .

وخلط بين هوى الشخصية وهوى الصفات . فمن شروط العشق الأولى أنه يميز للعاشق شخصية واحدة بين جميع الشخصيات التي يراها . فهو يحمل « الشخصيات » لفرد من افراد الجنس في محل اعلى وارفع من الصفات التي تعم بحسنها كل من اتصف بها ، ويرجع هذا التمييز الى اسباب كثيرة لا تقتصر على

استحسان الجمال : منها تقارب العواطف ، ومنها المصادفة التي تجمع بين العاشقين في احوال مهيبة للتعلق والالتفات ثم للألفة والهيام ، ومنها احساس النقص في العاشق وما يتممه من مزايا المعشوق ، ومنها قدرة المعشوق على اعزاز مكانته في قلب العاشق وان لم تكن له فتنة جمال .

- ثم هو خلط بين خصائص المعشوق وخصائص العاشق . . .  
فالجمال شيء ينحص المعشوق ويبدل عليه . ولا يلزم من تفوق المعشوق في الصفات المحبوبة ان يتفوق العاشق في الصفات المحببة ، وان يكون كلامه مثلاً لكلام المحبين .

فمن المحقق اذن ان احسن الغزل ليس هو احسن الثناء على المحبوب ، وقد يكون غزلاً جيداً - او شعراً غرامياً جيداً - وفيه هجو واقذاع .  
ثم ينبغي ان نذكر هنا ان العشق اضطرار وليس باختيار ، فالعاشق لا يلزム معشوقه لانه يختار ملازمته بل لانه لا يستطيع فرائه ولو اساء اليه . فإذا رأى منه السبيّات وبقي على عشقه فذلك ادل على قوّة العشق من البقاء مع الاستحسان والاختيار . اذ لا فضل ولا قوّة عشق لم يبقى على الشيء لانه مستحسن لديه ، وقد يكون فضل العاشق وقوّة عشقه في عرفانه السبيّات والسخطة عليها ثم حبها مع هذا وذاك . فيكون هجاؤه أحياناً ادل على عشقه من ثنائه ، لأنّ العشق الذي يغلبه على ما يريد .

فالمدرسة التي تجعل الثناء والاستحسان مقاييس الاجادة في الغزل تجهل الغزل الجيد وتخلط بين جميع تلك الأمور .

\* \* \*

وهناك مدرسة اخرى تجعل « الرقة » والبالغة فيها مقاييساً للغزل والمتغزلين .  
فالذي يجعل قلبه موطنًا لقدم حبوبه أغزل من يجعل خده - ليس الا - موطنًا لقدمه .

والذي يبكي الليل والنهار أغزل من يبكي الليل ويكفف دمعه بالنهار .  
والذي يتذلل ويتصبر اغزل من الذي يتور ويتبسم ، والذى يشبه المرأة في كلامه معها هو على مذهبهم اصلاح الرجال لعشق النساء !  
وهذا الرأى من سخف الضعف والاضمحلال الذي ابتلي به الشرقيون في زمان من الازمان .

فالعشق اقوى غريرة تختلي بها البنية الانسانية ، وهو لم يخلق للذة العاشقين ونعيهمها حتى يكون كل ما فيه ليناً ونعة ورقة ، ولكنه خلق لبقاء النوع واستدامة الحياة ، فربما ذهب العاشقان معاً ضحية له في بعض الأحيان ، وبما غالب فيه الجماح والسوارة فطغى جانب الغضب على جانب الرضى ، وجارت القسوة على الرقة ، وظهر المحبان في مظاهر أشبه بصراع الاعداء منه بخلافة الأوداء ، لأن كليهما مسوق مغلول ضعيف الحيلة في النجاء .

واما نعرف احسن الغزل حين نعرف مبعث الغزل من طبيعة الاحياء .  
فالغزل قبل كل شيء خاصة من خواص الذكور في الانسان وفي جميع الاحياء .

لان الذكور هي التي تبتديء الغزل وتعارك في طلب الاناث ، وكل ما تصنعه الانثى من دور طبيعي في الغزل ان تتعرض له وتلبيه وتستجيب اليه .  
ومتى بلغ الذكر سن التغزل فآية ذلك ان يغليظ صوته وينشوش وتشتد فيه دوافع السلطة والطراز .

فالصفات التي تجعل الغزل صالحأً للاصناف اليه والوقوع في موقعه هي الصفات التي تجعل الرجلة صالحة لما تستبق اليه ، وهي صفات ليس فيها ثأث ولا ضراعة ولا خفوت .

وقد عرضنا لهذا البحث في مقال من مقالات كتابنا « الفصول » وعقبنا على رأي دارون فقلنا انه تلمس « علة الطرب من ناحية الرقة والرخامة فسر عليه الوصول الى مصدرها وقال في كتابه اصل الانسان : « لو سأله سائل ما بال بعض الاخوان والازنان يرتاح اليه الانسان وانواع من الحيوان ؟ لما كان في وسعنا ان نجيب عن ذلك الا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها الى بعض المذوقات والمشمومات » .

ثم قلنا اننا « اذا تلمسنا علة الطرب اولاً من جهة التأثير بقوه الصوت وجدنا الجواب عن ذلك السؤال سهلاً قريباً وامكنتنا ان يجيب من سألنا : لماذا يؤثر اعمق الاصوات ارتياحاً وتقييداً وأكثرها تنوعاً وتجويداً ؟ فنقول له : لأنه ترجان العاطفة الشديدة والعاطفة من شأنها ان تبعث العاطفة ، ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت الفاظاً فيتدفق الغزل من النفس المحتمدة تدفقاً عارماً ويكون اجهز الرجال رغبة اهيجهم لرغبة المرأة وابلغهم الى

نفسها كلاماً واغلبهم على طبعها سلطاناً . . . .

واستطردنا من ذلك الى ان « العشق في طبيعته الأولى بعيد عن الرفق والسلامة ، وانما هو شواطئ لاذع يلتف دخانه بناره ، ويتهب شوقاً الى وقوده ، فان اصابه خد وعاد الشاعر يترنم بهناء نفسه ويغتبط بالراحة من سورة طبعه ، وان لم يصب وقداً كان نفقة لا تطاق . وأي رقة في قول الجنون :  
كان فؤادي في مخالب طائر

اذا ذكرت ليلى يشد به قضا

كان فجاج الأرض حلقة خاتم

عليّ فيها تزداد طولاً ولا عرضًا

« ان قلب السامع لينقبض ، وان صدره ليخرج لهذا الوصف ، ومع هذا اي  
شعر ابرع من هذا الشعر واي شاعر اطبع واعشق من الجنون ؟

« وليس العشق الصادق حين يشب أواره وتشائم حلقاته بالعاطفة التي يود  
صاحبها دوامها ويستريح الى مناجاتها . كلا . وانما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها  
لو تنتضي ساعتها ، ويقوم في نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ولا يهنا بالغلبة فيه ، لأنه  
هو الغالب وهو المغلوب ، وكأنما ينزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعاً ويفجع من  
كرب هذا النزاع : نزاع الحيرة التي يقول فيها الجنون :

فوالله ما في القرب لي منك راحة

ولـا بعد يسليني ولا انا صابر

ووالله ما ادرى بآية حيلة

وـاي مرام او خطأ اخاطر

« وكان كاتيلوس (١) الشاعر الروماني يدعى الآلة قاثلا : أيتها الآلة ! ان كانت  
لك رحمة بالقلوب الصديعة المشفية ، فبحق براءتي عليك الا ما نظرت الى  
عذابي ، ورثيت لما بي ، ومسحت عني هذا الوباء الماحق ، والبلاء اللاحق ،  
وهذه اللوعة التي تسربت رعدتها في عروقي فنفت الهناء عن قلبي ». .  
وهي رعدة عروة التي يقول فيها :

(١) Catullus شاعر لاتيني ولد في نيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات سنة ٥ وهو من اكبر

شعراء العشق في اللاتينية ومن أمثال قيس وعروة وجبل وكثير عندنا .

وانني لتعروني لذكرك رعدة  
لما بين جلدي والعظمام دبيب

ووهلة المجنون التي يصفها بقوله :

دعا باسم ليلي غيرها فكأنما

اطار بليلي طائراً كان في صدرى

فان طاوته نفسه في نزاعه ذاك والا حنق عليها ، وذهب به الحب الى كره ذلك  
المخلوق المسلط عليه ، الذي حرمه نعمة الطمأنينة ، وجلب عليه هذا الشر ،  
وفرق بينه وبين نفسه ، فيحب ويكره في آن . وربما أتمنى لحبيبه الموت لعل اليأس  
منه ان يشفيه كما قال جنادة العذري :

من جها أتمنى ان يلاقيني

من نحو بلدتها ناع فينعاها

كما اقول فراق لا لقاء له

وتضمر النفس يأساً ثم تسلالها

ولو تموت لراعشي وقلت الا

يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

« وكان كاتيولس يقول : « اني لأكره وأحب . تسألني كيف ذلك ؟ من  
يدري ! ولكنني أحس بحقيقة هذا الأمر وشدة برحائه » .

وكذلك كان يقول المجنون :

فيما رب اذ صيرت ليلي هي المني

فرزني بعينيها كما زنتها ليا

والا فيغضها الي واهلها

فاني بليلي قد لقيت الدواهيا

« وليس في نعمت الحب بالداهية شيء من الرقة والدمانة ، ولكنها حقيقة اتفق  
عليها شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغة ، او مشرب قوم ، او وحدة زمن .  
ولكنهما اجتمعوا على عاطفة انسانية صادقة - بل اتفق عليهما كل شاعر عالج من  
العشق ما عالجه هذان الشاعران » .

« واحياناً يثوب العاشق الى نفسه فيبدو له كأنه مختار في شغفه وسلوته ، وكأن  
الأمر لا يعني غيره ، فان شاء سدر في الحب وان شاء صدف ، وان شاء مضى مع

قلبه وان شاء وقف . فلا يشتب ان يستيقن عجزه وقلة حيلته ، وان الأمر فوق  
يده ووراء مشيئته ، وهذا الذي يصفه جمبل اذ يقول :  
الا قاتل الله الهوى كيف قادرني

كما قيد مغلول اليدين اسير  
« وهنا يخيلي اليه أو الى الناس ان قوة فوق قوة الانسان تقهقه على مشيئته ، وان  
رقية من رقى السحر او طائفًا من طوائف الجن يحول بينه وبين حريته . كما خيل  
الي ذلك الشاعر الروماني حين قال : أيتها الساحرة . . . لشن جملتك طلاسمك  
في عيني لتعلم ان الوجد اطول اجلًا من الاجلال ، واني لأهواك ولست بعد الا  
محترفًا لك ، وان عذر هذا ضرباً من الخبال » .

وكما يقول الجنون :

هي السحر الا ان للسحر رقية      واني لا القى لها الدهر راقيا .  
او كما يقول جمبل :

يقولون مسحور يجن بذكرها

فأقسم ما بي من جنون ولا سحر  
وما الجنون والسحر الا ما به ، والا فهل للعشق وصف اصدق من انه مزيف  
من جنون وسحر ؟ هل هو الا جنون يعقل العقل ويهرأ بالخذل ويطير مع  
الأهواء ، فان ثقلت عليه النهى ازاحها عن عاته ومضى لطبيه ؟ الا يعرف  
العاشق ما يوبقه ولكنه لا يحيي عنه ؟ ويتصحر ما يشفيه وهو يأبى ان يذوقه ؟  
« . . . ومن محسن جمبل واخوانه من الشعراء الغزليين اماتهم في الاعراب  
عن النفس والبث بالعاطفة . انظر الى قوله :

أرى كل معشوقين غيري وغيرها

يلذان في الدنيا ويغبطان  
وأمشي وتشي في البلاد كأننا

اسيران للأعداء مرتهنان

« فهكذا ظن جمبل ، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة العشق ولا يرى اين  
هي ، فيحسب انه هو الشقي وحده وان العشاق كلهم سعداء ، والحقيقة ان  
العشق لا يخلو من الشقاء أبداً ، ولو خلا منه لكان أشبه باللهو الذي يتضليل به  
البطالون والمجان . . . » .

\* \* \*

وأول ما يُستخلص من هذه المشاهدات وهذه الحقائق أن الغزل الحسن شيء لا يشترط فيه استحسان شمائل المحبوب والمبالغة في اطرائها ، وانه كذلك شيء لا يشترط فيه الترقق والشكوى وضراعة الخطاب ، وإنما هو التعبير الصادق عن الحب كما خلقه الله في نفوس الأحياء ، وهو بهذه المثابة شيء أعظم من حياة الإنسان نفسه لأنه يتناول الغرائز النوعية كلها والطبائع الكونية كلها ، ولا يقتصر على فرد من الأفراد في حالة من الحالات . فهو كالبحر ال辽阔 الذي تفيه فيه العقول ويتشبع للنفائض ويتعجب بضرورب من المفاجآت ليس لها انتهاء .

هو ظفر حيوي لأنه استيلاء شخصية على شخصية أخرى تتضمنها اليها وتفتح لها أبواب الشعور بالدنيا على مصاريعها ، فهو أذن غبطة وفرح وانتشاء .

وهو تضاحية لأنه مطلب نوعي تهمل فيه منافع الفرد ولذاته وأمانيه ، فهو أذن يأس وشدة وبلاء .

وهو لذة لأن الطبيعة تحتمل على الفرد أحياناً لتوقعه في حبائلها فتريه لذته فيما تقوده إليه من أغراضها ، فهو أذن نعيم وطرب وترنيم .

وهو حسرة لأنه يربط مسارات الدنيا كلها بمخلوق واحد لا ينوب عنه مخلوق آخر ، فهو أذن نعمة مهددة بالضياع والقلق في كل حين .

وهو عراك ووثام وظفر وتسليم ، و اختيار واكراء ، وعزّة وذل ، وقسوة ورحمة ، وخشنونة ولين .

وهو كما خلق في الغرائز جارف عنيف ، وكما تعهدته الحضارة مهذب مصقول ، ولا يزال بين الغريزة والصدق قابلاً للوثبة المفاجئة من النقيض إلى النقيض ، لا ينقاد للعنان مرة إلا جذبه مرة أو مرات ، فكأنه منطلق بغیر عنان . مثل هذا الفيلم الراهن من الحياة النوعية والحياة الفردية حقاً أسف الخلق أن يحصره المبطلون من مصطنعي النقد في قالب واحد او هيئة واحدة او لون لا يتبدل ، فمن حصره هذا الحصر وسامه هذا السوم فأقل ما يقال فيه أنه يلغو بما لا يدريه .

ونحن لا يفوتنا ان نستحضر هذه الحقيقة الا فاتنا ان نحكم الحكم الصحيح على كل غزل وكل عاطفة غزلية ، وكل علاقة انسانية تستند إلى طبائع الأحياء . فجميل - مثلاً - أبطال المبطلين في عشقه وغزله عند مدرسة « الاستحسان » او مدرسة الرقة حين قال :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى  
وفي الغر من أنيابها بالقوادح  
لأنه سأله تشويه ما هو حسن في عيني حبيبته وثغرها وهما أجمل ما يُتمنى له  
الجهاز في وجه محبوب ، وأنه تجاف الرقة كلها حين دعا عليها ذلك الدعاء الغليظ  
الذي يدعوه العدو على الدادئه .

ولكن هذا البيت مع هذا أدلى على عشق جليل من عشر قصائد غزلية تفيض  
بالرقابة والثناء ، لأنه دليل على حب برج به وحار في الخلاص منه وغلب على  
مشيشته فيه ، وظن أن البلاء كله من جمال تلك العيون وجمال تلك الثناء ، فلم  
يبق له من حيلة إلا أن يسأل الله اتلاف هذا الجهاز عسى أن يطيق بعد ذلك سلوه  
والراحة من بلواه . أما قبل ذلك فلا حيلة له ولا طاقة بالسلو والنسيان .  
هذا أعمق الحب وأصدق الغزل ، ولك أن تقول أنه غزل صادق من رجل  
سيء ، أو انه غزل صادق من رجل طيب في سورة اليأس والخيرة ، فهذا حق لا  
غبار عليه .. أما ان يكون مبطلاً في عشقه وغزله لأنه تمنى تلك الأمانة ، فذلك  
من اللغو الذي لا صدق فيه .

ولك أن تقول أنها أمنية رجل تغلب عليه « الأنانية » ويلتمس الراحة بما  
استطاع من وسيلة ولو كان فيها بلاء لمن يهواه ، الا إنك لا تنسى أنه تمنى تلك  
الأمنية لأنه أحب وضاق ذرعاً بحبه ، وبلغ أقصى ما يبلغه العاشق من التعلق  
بالمعشوق والعجز عن الفكاك من ارهاقه ، فهي أن شئت « أناانية » ففيه لا  
ترضى عنها الأخلاق الكريمة ، ولكنه حب قوى وتعبر صادق عنه . وهذا هو  
المرجع في قياس الشعر وتحقيق العاطفة ، ولا مرجع سواه .  
وفي شعر جليل ما ينم على الانانية لا مراء ، كقوله في الرائية المشهورة :

فلا نعمت بعدي ولا عشت بعدها  
ودامت لنا الدنيا الى ملتقي الحشر  
 فهو يتمنى البقاء معها الى ملتقي الحشر ، ولكنه يأبى عليها الحياة بعده ويسأل  
الله ان يموتا معاً اذا قضى الله ان يعجل بموته .  
ولكنها « أنانية » لا تختص جيلاً بين العشاق فيما زراه ، فما من عاشق يسره ان  
يتخيل معشوقته وقد نعمت بعده بحب غيره ، وما في هذه الأمانة من دليل على قلة  
الحب وكراهة المحبوب ، بل فيها دلائل على فرط الحب والاستغراب فيه ،

ونحسب ان بثينة ارضهاها هذا من دعائه فوق ما كان يرضيها دعاء السلامه لها والنعمه في هوى العشاق بعده ، لأنها تخس بيداهه الأنوثه انه يسر ببقائها ونعمتها بعد موته لأنه قليل الغيرة عليها في الحياة وبعد الممات .

وللشعراء العشاق من مدرسة جيل فلتات مستغربة من هذا القبيل ، او لعلها اغرب جداً في هذا الباب من فلتات جيل ، ولا سيما الفلتات التي احصوها على تلميذه الاكبر كثير بن عبد الرحمن .

فقد اصبح كثير اضحوكة الاوضاحيك بين الشعراء والنقاد ، لأنه قال :  
الا ليتنا يا عز من غير رية

بعيران نرعى في الخلاء ونذب<sup>(١)</sup>

كلانا به عَرْ فمن يرنا يقل  
على حسنها جربى تعَدُّ وأجرب  
اذا ما وردنا منهلاً صاح أهل  
عليها فما نتفك ثرمى ونضرب  
وددت وبيت الله أنك بكرة  
هجان وأنى مُصعب ثم هرب<sup>(٢)</sup>  
نكون بعيري ذي غنى فيضينا  
وعيرة نظراوه حين شاعت هذه الأبيات فقالوا له :  
« ويلك ا تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمي والطرد والمسخ ، فأي  
مكروه لم تتمكن لها ولنفسك ؟ لقد أصابها منك قول الأول : « معاداة عاقلة خير  
من مودة أحق » .

وصدقوا والله ما من أمنية هي أدعى الى الضحك والسخرية من هذه الأمنية  
التي سألهما كثير . ولكن من قال ان كثيراً لم يكن مضحكاً وسخرة حتى يستغرب  
منه أن يتمنى هذه الأمنية ، وأن ينظمها في تلك الأبيات وهو صادق التعبير ؟

فقد وصفه بعضهم فقال : « رأيته في الطواف فمن قال لك انه يزيد على ثلاثة  
أشبار فكذبه ! » ووصف بعض عشراته حماقته فقال ان كثيراً لقيه فسأله : ماذا

(١) العذوب من الدواب : القائم الذي يرفع رأسه ولا يأكل او يشرب .

(٢) البكرة من الأبل : الصغيرة والمصعب : الفحل الذي يراح من الركوب .

يقول الناس عنِي ؟ فأجابه انهم يزعمونك المسيح الدجال . . . قال كثير : عجبأ . والله اني لاحس في عيني بعض الضعف منذ اليوم ا  
فمثل هذا الرجل يستغرب منه اذا غلبته العاطفة ان يعبر عن نفسه فلا تفلت منه  
امثال تلك الابيات ، فهذا موضع الغرابة وليس موضعه انه يصدق في التعبير عن  
ذات نفسه كما صدق في التعبير عما تمناه .

عاشق زري المنظر مستحمر العقل ضعيف الحيلة يراوحه الناس على محبوته  
ويخشى ان يغله كل مزاحم عليها لأنه اجمل منه منظراً وأقدر على الاغواء  
والاغراء ، ثم تنقصه الوساوس وينظر في وسيلة يأمن بها على صاحبها فيتركها  
الناس له ، ويتركونه لها فلا يجد من وسيلة قط غير ابتلاء عزة بالباء الذي يزهد  
الناس فيها ويقصرها على حبه وولاته دون غيره ، فيبتعد الناس عن عزة وتبتعد  
هي عنهم ضرورة لا محيد لها ولا لهم عنها . أما ان يبعدهم هو او يبعدها فقد علم  
انه لا يستطيع ولا يملك من فتنته ولا حيلة تعينه على ما يريد . فهذا هو صانع ؟  
أيتركها ؟ انه لا يقوى على تركها . . . ايحبها ؟ انه لا يقوى على حمايتها . فلا  
عجب اذن ان يخطر له ذلك الخاطر ، وان يتمنى الشيء الوحيد الذي يصون له  
محبوبته بامان من الغواة والمزاحيم ، وهو ما تمناه وصدق في تمنيه .

ويتخيل اليانا ان كثيراً قد رأى البعيرين الموصوفين رؤية العيان لأنه منظر لا يندر  
ان يصادفه الناظر مرات حيث عاش كثير ، فوقع له ان هذين البعيرين سعيدان  
حيث يسرحان ولا يطلبهما مالك ولا راع ، ولا هما سائلان عن علف وشراب .  
فتمنى السعادة على هذا المنوال ، وشهادتها بالعين قبل ان يتمناها في الخيال .

اتقول انه سخيف ؟ نعم هو سخيف لا مراء ، ولكنه محب يصدق في التعبير عن  
حبه ويدل عليه دلالة لا اصطناع فيها . فلا محل للخلط اذن بين سخيف القائل  
وصدق ما قال ، ولا محل كذلك لاتهام عاطفته بما كان من رداءة تمنيه ، لأنه أحب  
فنغضنه الحب وحيل بينه وبين النهاس الراحة من غير هذه الطريق .

وها نحن اولاً قد رأينا عشاقاً يتمنون الموت لمن يحبون ، وعشاقاً يتمنون  
التشويه لمن يحبون ، وعشاقاً يتمنون الخلاص من يحبون ، ورأينا انهم أحبوها  
وصدقوا التعبير عن الحب وان عييت عليهم الاثرة او الغفلة او الجفاء . فلا غرابة  
اذن في شعر غرامي تعوزه الضراوة والشकایة او يعوزه الثناء والاستحسان ، ولا  
شرط للغزل الصادق الا التعبير عن الشعور الذي ينحلج في قلب صاحبه كائناً ما  
كان الرأي فيه وفي خلقه وعقله وامانيه .

## مكانته في الصناعة الشعرية

نشأ جيل نشأة أدبية صالحة لموطنه وعصره ، وتخرج في مدرسة الشعر كأحسن ما ينخرج الشاعر بالجهاز في القرن الأول للهجرة ، فكان كما جاء في كتاب الأغاني « راوية هدبة بن خشم ، وكان هدبة شاعراً ورواية للخطيئة ، وكان الخطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه » فاجتمعت له الرواية والشعر مسلسلة من أساتذة فحول مشهود لهم بين الرواية والشعراء .

وكان بعض المشهورين بعلم الشعر في زمانه يفضلونه على الشعراء كافة ويقولون انه اشعر اهل الاسلام والجاهلية .

فروي عن ثُصِيب الشاعر أنه قال : قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالشعر فقيل لي : الوليد بن سعيد بن أبي سفيان الإسلامي ، فوجده بشعب سلع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر . فإذا جلوس أذ طلع علينا رجل طويل بين التكفين ، طوال . يقود راحلة عليها بزة حسنة . فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا جبير : هذا جيل ؟ فادعه لعله أن ينشدنا . فصاح به عبد الرحمن : هيا جيل هيا جيل ! فالتفت فقال : من هذا ؟ فقال : أنا عبد الرحمن بن أزهر . فقال : قد علمت أنه لا يجترىء على إلا مثلك . فأتاه فقال له : أنشدنا . فأنشدهم :

« نحن منعنا يوم أول<sup>(١)</sup> نساعنا إلى آخر الأبيات . . . ثم قال له : أنشدنا هزواً . فسأل : وما الهزوا ؟ لعله هذا القصير ؟ قال : نعم : فأنشده :

رسم دار وقفت في طلله . . كدت أقضي الحياة من جلله  
حتى فرغ من القصيدة ، ثم اقتاد راحلته مولياً .

---

( ١ ) واد على طريق اليمامة الى مكة .

« فقال ابن الأزهري هذا أشعر أهل الإسلام . فقال ابن حسان : نعم والله ، وأشعر أهل الجاهلية . والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه . فقال عبد الرحمن بن الأزهري : صدقت ! »

ثم قال ثُصِيب : وأنشدت الوليد فقال لي : أنت أشعر أهل جلدتك ، والله ما زاد عليها ». .

ذلك رأي المتأدبين المشهود لهم بعلم الشعر في عصره ، ولعلهم غلبوا فيه النظر إلى العشق والنسين على النظر إلى فنون الشعر كلها ، ففي هذا ولا ريب مجال لمن يشاء أن يقدم جيلاً على شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام إلى زمانه . اذ ليس في الجاهلية من اشتهر بالعشق والنسين خاصة كما اشتهر بعض الشعراء في القرن الأول للهجرة ، وليس في شعراء القرن الأول للهجرة من يرتفع على المقابلة بينه وبين جيل في أغراضه ومعاناته . فإذا قال القائل على هذا الاعتبار ان جيلاً أشعر أهل الإسلام والجاهلية فليس في قوله غلو كبير ، وإن جاز فيه الخلاف .

ومع تعدد الآراء في هذا يمكن الاتفاق على أن جيلاً كان ملحوظاً مكانة بين شعراء زمانه وكان معترفاً له بالإجاده والأستاذية إلى ما بعد زمانه ، كما يظهر ذلك من نظر الشعراء المبرزين إلى معانيه واقتباسهم من أقواله .

لقي الفرزدق كثيراً بقارعة البلاط - بالمدينة - فقال له الفرزدق : يا أبا صخر !  
أنت أنسٌ العرب حين تقول :  
أريد لأنسٍ ذكرها فكأنما تُثْلِّ لي ليلي بكل سبيل  
يعرض له بسرقه من جيل حيث يقول :

أريد لأنسٍ ذكرها فكأنما تُثْلِّ لي ليلي على كل مربج  
فأجابه كثير : وأنت يا أبا فراس أفحشر الناس حين تقول :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا  
وإن نحن أومانا إلى الناس وقفوا  
وهذا البيت أيضاً مسروق من قول جيل :

## نمير أمام الناس والناس خلفنا

فان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

وهذان شاعران بارزان من أبناء عصر جميل يعترفان فيما بينهما بالاقتباس من معاني جميل ، وهو اقتباس لا يخلو من شهادة وإكبار وللة على مكانة ملحوظة بين الشعراء .

وقد بقى له هذه المكانة الى ما بعد عصره عند أناس من شعراء العصر العباسي في طبقة الفرزدق وكثير . فروي ان ابن الحسين المهلي لقي أبا العتاهية فاستندله من شعره فأنسدله :

يا صاحب الروح ذي الأنفاس في البدن  
بين النهار وبين الليل مرتهن

حتى يفرق بين الروح والبدن  
الى المايا وان نازعتها رسي<sup>(١)</sup>  
قد أرتعوا في رياض الغيّ والفتن  
وحتفها لو درت في ذلك السمن  
لقلما يتخطاك اختلافها  
لتتجذبني يد الدنيا بقوتها  
لله دنيا أناس دائبين لها  
كسائفات<sup>(٢)</sup> رواع تبتغى سمناً

قال ابن الحسين المهلي : فكتبتها ثم استندلته من شعره في الغزل فقال : يا ابن أخي ! ان الغزل يسرع الى مثلك ، فقلت له : أرجو عصمة الله جل وعز ، فأنسددي :

كأنما من حسنها درة  
آخرها اليم<sup>\*</sup> الى الساحل  
كأن في فيها وفي طرفها  
سواحراً أقبلن من بابل  
حشاشة في بدن ناحل  
لم ييق مني حبها ما خلا  
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى  
من شدة الوجد على القاتل  
فقلت له . يا ابا اسحاق ! هذا قول صاحبنا جميل .

(١) الرسن : حبل في رأس الدابة

(٢) السائمة : الماشية والابل الراعية

خليلي فيها عشتا هل رأيتها قتيلا بكى من حب قاتله قبل  
فقال : هوذاك يا ابن أخي ، وتبسم !

وأقل ما يدل عليه هذا وأشباهه أن شعر جليل كان يقرأ ويستحسن ويقتدى به في معناه ، وأنه ينال هذا الاستحسان عند فحول الشعراء فضلاً عن الشدة المبتدئين ، وهذه مكانة « الأستاذية » لا مراء .

وقد يزكي هذه المكانة أن الذين شهدوا بها كان بينهم أناس عرّفوا بالخيالاء وشدة الاعتداد بالقدرة الشعرية بين النظارء ، ومنهم من كان يستحق لفط خيالاته كالشاعر العاشق كثير ، وهو آخرى الناس بمناسبه جميل .

فمن خيالاته أن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ونصيباً اجتمعوا في مكان فأرسلوا إليه راويته يدعونه اليهم ، فأكابر الأمر وسأل صاحبه متبرماً : أما كان عندك من المعرفة بي ما كان يردعك عن إتتاني بمثل هذا ؟ .. قل لابن أبي ربيعة ان كنت قرشياً فاني قرضي ، وإن كنت شاعراً فأنا أشعر منك .. . قال راويته : هذا اذا كان الحكم اليك . فقال : والى من هو ؟ ومن أولى به مني ؟ .. ثم رجع الرسول إليهم فأخبرهم بما سمع منه ، فضحكوا ثم نهضوا معه فدخلوا عليه في خيمة فوجدوه جالساً على جلد كبش ، فما أوسع لهم من مجلسه !

فهذا الشاعر على خيالاته كان لا يني قائمًا قاعداً بالشهادة لجميل وفضيله عن نفسه حيث يسأل وحيث لا يسأل وهو مزهو بالسماع منه والرواية عنه والتلمذ عليه .

سأله نصيبي : أجمل أنساب أم أنت ؟ فقال : وهل وطا لنا النسيب إلا جيل ؟

وسئل مرة أخرى فقال : وهل علم الله عز وجل ما تسمعون إلا منه ؟ وربما نقلوا عن كثير في صدد اعجابه بجميل ما نسبعد صدقه سواء قاله أو لم يقله . كزعمهم أنه ذكر يوماً أنه يروي لجميل ثلاثين قصيدة لا يعرفها الناس وأنه أمات له ألف قافية ليتحلها ويدعيها لنفسه . فإن ميدان جميل لا يتسع لألف قافية تسرق . ولا لثلاثين قصيدة تسقط من جملة شعره وهو محدود الأغراض مشابه الأنماط . وإنما يفهم من هذا الكلام أن صدر من كثير ان فخره بالرواية عن جيل أكبر من فخره بشعره الذي ينسب اليه ، ولو لا مكانة جميل عنده وعند الناس لما وقع في خاطره وجزى على لسانه هذا الفخار .

ولا نحسب أن أحداً ناظر جيلاً على قصد منه - أو على غير قصد - كما ناظره  
عمر بن أبي ربيعة الذي كان كثير يستطيل عليه .

فقد كانت المناظرة بينهما طرائق متعدّدات لا طريقة واحدة ، فكان كلامها  
شاعراً وكلامها مشهوراً بالنسيب وكلامها إماماً لأمثاله من المترzin . فكان جميل  
في عصره أمّا العشاق المقصورين على مشوشة واحدة ، وكان عمر بن أبي ربيعة  
في عصره أمّا المشغوفين بمحاجلة النساء ، وكان فرق هذا التقابل في شتى الطرائق  
متقابلين في تمثيل البداوة والحضارة ، وفي عزة النسب وعراقة الأصول . فهيا  
منتظران يقتربان في الميزان كلما عرض الناقد لشعراء ذلك الزمان ، وقد تلقيا  
وتناشدوا وقيل إن جميلاً سمع منه اللامية التي فيها :

جري ناصح بالسود بيني وبينها  
فقربني يوم الحساب الى قتلي  
فقال : هيّات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيس<sup>(١)</sup> الليالي ، وما  
خاطب النساء مخاطبتك أحد ، وقام مشمراً .  
ونغيل نحن الى قبول هذه الرواية لأن الشاعرين قد تشابهما في معانٍ هي أقرب  
إلى نغط ابن أبي ربيعة منها إلى نغط جميل .  
فقال جميل :

اذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها  
دعاء حبيب كنت أنت دعائياً

وقال عمر :

اذا خدرت رجلي أبسوح بذكرها  
ليذهب عن رجلي الخدور فيذهب

وقال ايضاً :

---

(١) طوال الليالي

اهيم. بها في كل مسى ومصيح  
وأكثر دعواها اذا خدرت رجلي

وهو من القصيدة التي سمعها جبيل وشهد من أجلها لعمر بالسبق في خطابة النساء ، والبيت أقرب الى كلام الذين تعودوا محادثة النساء منه الى كلام العاشق المقصور على معشوقه واحدة كذلك قال جبيل :

وهما قالتا لو ان جيلاً  
عرض اليوم نظرة فرانا  
بینا ذاك منها رأياني  
أعمل النص سيره الزفiana<sup>(١)</sup>

وهو اشبه بقول عمر وبفعله أيضاً وخلاقته حيث يقول :

بینا يذكرني أبصرني دون قيد الميل يعلو بي الأغر  
قلن تعرفن الفتى قلن نعم  
قد عرفناه وهل يخفى القمر

وقد قيل ان عمر بن أبي ربيعة أنسد بشينة تلك الأبيات الثلاثة من كلام جبيل فقالت : « انه استمل منك فما أفلح ، وقد قيل : اربط الحمار مع الفرس فإن لم يتعلم من جريه تعلم من خلقه » .

ومن قصائد جميل المشهورة رائية مطلعها :

أغاد أخي من آل سلمى فمبكر  
أين لي أغاد أنت ام متهرج

وهو كمطلع عمر في قصيده الرائية التي هي أفضل شعره حيث قال :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر  
غداة غد أم رائح فمهجر

---

( ١ ) الزفن : الدفع الشديد والضرب بالندم كما يفعل الراقص .

والقصيدة كلها مما قيل ان جميلاً سمعه من شعر عمر فأقر له وأثنى عليه .  
وفي الديوانين قطعة جيمية رويت لعمر ورويت بجميل منها هذه الأبيات :

قالت وعيش أخي وحرمة والدي  
لأنهنَّ الحي ان لم تخرج  
فخرجت خيفة قولها فتبسمت  
تعلمت أن يمينها لم تخرج  
فلثمت فاما آخذنا بقرونها

شرب النزيف بيرد ماء الخشيج  
وهو كلام فيه من عبث المجنون والمماحة بين عمر وصوبيحاته ، وليس فيه من  
جد العشق الذي كان بين جميل وبثينة ، ولا هو مما يوافق فخر جميل باقتحام  
المنازل والمناجزة لمن يترصدون له بالسيوف حول بيت بثينة ، ومنهم أبوها وأخوها  
كما جاء في بعض الأخبار ، وتكرر في سيرته على روایات مختلفات .

فالذى نرجحه ان جميلاً كان يحب ان يحيى عمر في بعض ما قال ، ولكننا لا  
نرجح هذا الترجيح لنخلص منه الى تقديم عمر على جميل في الصناعة الشعرية ،  
فهما فيها متكافئان يختلفان حينما اختلفا في المزاج والخلقة ولا يدعوا ذلك الى  
تفضيل احدهما على الآخر في صناعة النظم والتعبير ، واما نحمل اقتباس جميل  
من عمر على اقتداء البدوي بأهل الحضارة حيثما كان و كانوا ، ولاسيما اذا كان  
الحضري شاعراً مقبولاً الشعر بين العلية والمترفين من أبناء المدينة وبناتها ، وهم  
أهل الطبقة التي تروع من البدو خاصة من كان قريباً الى معيشة المدن غير منقطع  
لخشونة البدائية ، على مثال جميل .

\* \* \*

فهما اذن في الشعر ندان متكافئان ، جميل وعمر بن أبي ربيعة . وقد خرجا معاً  
بالغزل كله من ناحيته في القرن الأول للهجرة بأرض الحجاز بين حاضرة  
وبادية ، فلو زال شعر الغزل في تلك البيئة وفي ذلك العصر جميعاً فلم يبق منه الا  
ما نظم هذان الشاعران لأنغنانا عن كل ما عداه في الدلالة على حالة المرأة وحالة  
النساء كما ينعتها العاشق وزير النساء .

وقد يبدو على شعر جميل اذا قوبل بشعر عمر أنه أفحى وأجزل وأبلغ في الصناعة الشعرية وأجمل ، وذلك فيما يبدو لنا التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التمييز . فمن المأثور ان يظهر الجد في شعر العاشق الذي ينسب بأمرأة واحدة ويعيرها كل قلبه وهواء ولا يظهر مثل هذا الجد في شعر الرجل الذي يقضي زمانه كله في التحدث الى النساء والتنقل بينهن ، وقل أن يسلم رجل كهذا من اصطناع التأثر . ولو لم يكن مطابعاً عليه ، فيسري التأثر الى كلامه وتوارى منه قوة الفحولة التي تقرن بالجد حيث كان .

ومع هذا لم يسلم جميل من يأخذ عليه التأثر في نصف بيت هو قوله :

الا ايها النّوام ويحكموا هبوا  
أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

فالشطر الأول كما قال صالح بن حسان « أعرابي في شملة » والشطر الثاني « لخنت يتفكك من مخنثي العقيق ! »

ولكن نصف بيت ولا مئات من الآيات ليس فيها أعرابي واحد في شملة ، ومعظم أبياتها هوادج تسفر عن حسان مدللات وأخذان حسان مدللات ! وذلك ديوان بن أبي ربعة في جملته على التحقيق .

ويشبه الالتباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر التباس آخر يعرض لكثير من المعجبين بنسبي جمبل ، فهو عندهم امام الشعراء لأنه امام المحبين ، وقد سئل عنه نصيب فقال : ذاك امام المحبين ، وهل هدى الله عز وجل لما ترى الا بجميل ؟

وجائز ان يكون صدق الحب سبباً من أسباب جودة الشعر الذي يعبر عنه ، ولكن صدق الحب وجودة التعبير يظلان بعد هذا شيئاً مختلفين ، فيصدق المحب ولا يجيد الشعر ، ويجيد الشاعر ولا يبلغ مبلغ ذلك المحب الصادق في وجده وشوقه ووفائه . . . ان أحدهما لسبب للأخر وعني الحب والتعبير ، ولكنها قد يفترقان كما يتفقان .

ولا يزال الحكم على عشق جميل وغزل جميل وشعر جميل يتطلب الحكم على ثلاثة أشياء لا على شيء واحد ، وان لم يكن من الضروري ان تتناقض هذه

الأشياء .

فالذين قالوا انه أشعر أهل الاسلام والجاهلية لأنه أصدق المحبين يخاطبون ، اذ ربما ثبت له أنه أصدق من أحب في زمانه ولم يثبت له أنه أصدق من تغزل فضلاً عن هجا ومدح كما أراد بعض النقاد في زمانه ان يقول .

وحقيقة الرأي الذي يدل عليه شعره فيما نعتقد أنه كان شاعراً يجمع بين البلاغة والسهولة ، ويرتقي في الصناعة الشعرية مرتقى لا يعلو عليه شاعر من أبناء عصره ، وهم على الأجمال فطريون في هذه الصناعة لهم مزايا الفصارة وعيوبها في آن ، ولاسيما العيوب التي لها اتصال بكل صناعة من الصناعات .

ومن مزايا الفطرة الصدق والبساطة وقرب الاداء ، ومن عيوبها النقص والسدادة وقلة الاتقان . ومن رأينا أن شعراً الجاهلية وشعراء القرن الأول للإسلام كانوا جيئاً أوفر الشعراء حظاً من مزايا الفطرة وعيوبها على السواء . فهم أصحاب معنى مستقيم ولغة قوية وشعور لا برج فيه ولا التواء ، وهم الى جانب هذا مبتدئون متبعرون في صوغ الشعر لم يصلوا بالقصيدة ولا بالأغنية الى مبلغ الاتقان ووحدة المدلول ، ولعلهم لم يبلغوا في ضرب من الشعر مبلغه من الاتقان غير الرجز ، لأنه مفكك بطبيعته لا يحتاج الى تنسيق وانسجام .

وما زال الاتقان الصناعي يزداد والشعور الفطري ينقص حتى تناهياً زيادة ونقصاً في أواخر عهد العباسين ، فأصبح الافراط في الصناعة بهرجاً والافراط في ضعف الشعور الفطري تكلاً واصطناعاً ، وتلقي هذا وذاك في الغثاثة المزيفة التي لا هي صناعة جيدة ولا فطرة جيدة ، ولكنها مسخ للصناعة والفطرة لا خير فيها .

فالشعراء العباسيون مثلاً اجدد صناعة من الشعراء الأمويين والمخضرمين ، وأنئاً منهم عن استقامة الفطرة وبساطة التعبير ، ولا استثناء لأحد من الأمويين والمخضرمين والجاهليين في ضعف الصنعة الذي يأخذ كل منهم بنصيب منه ، حتى شعراً المعلقات .

وشأن جميل في هذا شأن غيره من أبناء عصره وسابقيه : يأتي بالكلام السهل البسيط لأن معناه سهل بسيط ، وأنه يملك القدرة الفنية التي يعمد بها الى المعاني المركبة فتسلس له فإذا هي مجلوبة في ثوب من البساطة يخدع السامع حتى

ليحسبه خلواً من كل تركيب .  
وقلما تجاوز الأبيات في القصيدة الواحدة واعتمد الأطالة إلا عشر والتلت بمن  
يتحدث عنه بين الخطاب والغياب وضمير المفرد وضمير الجمجم في نفس واحد .  
كما قال :

فإنْ تَبَيَّنَ بِلَا جُرمٍ وَلَا تَرْءَةً<sup>(١)</sup>

وتولعسي بي ظلماً أي إيلاع  
فقد يرى الله أنني قد أحكم  
جباً أقام جواه بين أضلاعي  
لولا الذي أرجحني منه وأمهله  
لقد أشعّ بموتي عندها ناع  
أو كما قال :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها  
ولا بد من شكوى حبيب يروع  
ألا تتقين الله فيمن قتله  
فأمسي اليكم خاشعاً يتضرع  
وقد يخطيء في قواعد اللغة أو يتتجاوز في أبيات غير قليلة ، منها قوله في قصيدة  
من أشهر قصائده :

فان لم تكن « نقطع » قوى الود بیننا  
ولم تنس ما أسلفت في سالف الدهر  
فسوف يرى منها اشتياق ولو عة  
يین وغرب من مدامعها يجري  
ومنها قوله :

ولو أن « داع » منك يدعو جنازتي  
وكنت على أيدي الرجال حيث  
وهو في هذا وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما من شعراء عصرهما سواء أو  
متقاربون .

(١) ثار .

وفي حيز هذه القدرة الفنية يبدع غاية الابداع الذي يباح لشاعر قديم او حديث ، فلا يقول شاعر في البيت والبيتين او الآيات القلائل أبلغ من قوله في

تعذر نسيان الحبيب :

ولسو تركتْ عقلي معِي ما طلبتها

ولكن طلابيها لما فات من عقلي

أو قوله من يقدحن في صاحبته ليحللن عنده في محلها :

ولربّ عارضة علينا وصلها

بالجد تخلطه بقول الم Hazel

فأجيتها بالرفق بعد تستر

حبي بشينة عن وصالك شاغلي

لو أن في قلبي كقدر قلامة

فضلاً وصلتك او اتشك رسائلي

ويقلن انك قد رضيت بباطل

منها فهل لك في اعتزال الباطل

ولباطل من أحب حدثه

أشهى إلى من البغيض الباذل

أو قوله في حيرته بين حبه لغيرها وحب غيره من المحبين :

سلا كل ذي ود علمت مكانه

وأنت بها حتى الممات موكل

فها هكذا أحبت من كان قبلها

ولا هكذا فيها مضى كنت تفعل

أو قوله في الفراق :

كأنني سُقِيت السُّم يوم تحملوا

ووجد بهم حادٍ وحان مسير

على أنسي بالبرق من نحو أرضها

إذا قصرت عنه العيون بصير

وإنني إذا ما الريح يوماً تنسمت

شاميةً عاد العظام فتور

ألا يا غراب البين لونك شاحب  
 وأنت بروعات الفراق جدير  
 فإن كان حقاً ما تقول فأصبحت  
 همومك شتى والجناح كسير  
 ودرت بأعداء حبيبك فيهم  
 كما قد تراني بالحبيب أدور  
 أو قوله في تمني الصلة الدائمة بصاحبته حياً وميتاً ثم سخطه على حاجة الحب  
 بعد هذا :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى  
 بشنة في أدنى حياتي ولا حشرى  
 وجاور إذا ما مت يبني وبينها  
 فياحبذا موتي إذا جاورت قبري  
 عدمتك من حب ! أما منك راحة  
 وما بك عنني من توان ولا فتر ؟  
 وهذه الأبيات الأخيرة لا تستغرب مبالغته التي تندر في شعره وشعر أبناء عصره  
 حيث يقول :

اذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت  
 جزعت لنأي السدار منها وللبعد  
 أبي القلب الا حب بشنة لم يرد  
 متواها وحب القلب بشنة لا يجدى  
 تعلق روحي روحها قبل خلقنا  
 ومن بعد ما كنا نطاها وفي المهد  
 فزاد كما زدنا فاصبح ناماً  
 وليس اذا متا بمنتقض العهد  
 ولكنه باق على كل حالة  
 وزائرنا في ظلمة الفبر واللحد  
 ففي هذه المبالغة مسحة من شطحات ابن الفارض وأضرابه ، ولكن المبالغة هنا

تسلسل وتدرج وتنمو على جذورها حتى تبلغ ذروتها ولا غرابة فيها ولا تنافر بين أعلاها وأدنائها . فمن قال البيت الأول قال الأبيات التي تليه كما يقصد النفس مطيلاً فيه حتى يستوفيه .

الا ان الذي يأبه الذوق والعقل أن تنسن الى جميل أبيات كهذه الأبيات التي ضمت الى ديوانه :

خليلي إن قالت بشينة ماله

أتانا بلا وعد؟ فقولا لها : لها

أتى وهو مشغول لعظم الذي به

ومن بات طول الليل يرعى السها ، سها

بشنية تزري بالغزاله في الضحي

اذا برزت لم تبق يوماً بها

لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة

كأن أباها الظبي او أمها مها

دهشي بود قاتل وهو متلفي

وكم قتلت بالسود من ودها دها

فهذا كالانتقال من الشملة العربية الى ثياب المرافع قبل ان تخلق المرافع بقرون ، ولو جاز أن يقول جميل مثل هذه الأبيات مرة لوجب ان تتكرر نظائرها في قصائده هنا وهناك ، لأن المحسنات من هذا الطراز عادة تجبر لا محالة الى الأدمان .

وقياساً على هذا كله ما جاوز الصدق الفطري والبلاغة السهلة والجد في وصف الشعور ، فهو منحول له وليس بالنسج الذي يندس بين لحمته وسداه .

اما الرجل ابن زمانه في معناه وصناعته ، وله من الامامة بين شعراء العشق في ذلك الزمان مكان لم ينافس فيه ، لأن عيوبه أقل من عيوبهم ومزاياه أظهر من مزاياهم ، وشعره في جملته يجمع خير ما قالوه .

وهنا يحسن بنا أن نقيد « خير ما قالوه » بما قالوه في النسيب دون غيره ، فالحق أنه لم يأت بطائل في الهجاء ولو بالقياس الى معاصريه ، أو لعل الذي نظم في هذا الباب ورجح به على الشعراء في رأي نقاد عصره قد ذهب به الزمن ولم يصل اليانا مع سائر شعره ، وهو ظن ضعيف .

## مزاجان

قدمنا في الفصل السابق أن شعر جميل إذا قوبل بشعر عمر يبدو أنه أفحى وأجزل ، وأنه أبلغ في الصناعة وأجمل . ثم قلنا ان هذا فيما يبدو لنا « التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التمييز » .

ومن الحسن أن نعرض بعض الوصف والتمييز لمزاج الشاعر الذي تتعلق به هذه الفحولة الفنية . فجملة ما يقال فيه - بسياق هذه المقابلة - أنه كان يحتاج إلى البأس والسيف في معيشته وعشقه ، فهو بدوي يعيش مع الله في طريق تحميها الدولة وتتكل حمايتها أحياناً إلى سكانها من أهل الباية ، لأنها تتوسط بين الحجاز ومصر والشام . فمن واجبه - إن لم يكن من طبعه - أن يحمل السيف ويعتزل بالمنعة وصيانته الحوزة .

وهو إلى هذا عاشق مشغوف بأمرأة واحدة لا تغنيه عنها امرأة غيرها ، فلا بد له منها وإن حيل بينه وبينها ولا غنى له عن المجازفة والتضحية في سبيلها .

ولم نسمع من أخبار عمر بن أبي وبيعة أنه احتاج إلى القوة مرة واحدة . بل علمنا من أخباره أكثر من مرة أنه تعرض لبعض الحسان والحف على هؤن بالتوسل والمطاردة ، فرددنه حتى اعيتها الحيلة معه ، ثم ظهرن مع رجل من أوليائهم يقلد السيف فتجاهلهم عمر ، ومضى في طريقه ، وقع من الغيبة بالذهب . ثم تمثل الممثلون :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له  
وتتقى مربض المستأسد الضاري

ولا جرم يكون هذا شأن عمر وشأن حبه ، فقد كان من أهل حاضرة يعيش فيها الرجل حياته كلها ولا تلجمه ضرورة يوماً إلى تقلد سلاح ، وهو في معظم ما يرتاده من صويمجات طالب جلسة ومحادثة إن تيسر فهي فكاهة ساعة ثم تنقضي إلى نسيان أو تسجيلها قصيدة أو قصيدةتان ، وإن تعسرت فلا موضع للسيف في

هذا الميدان ، وغير هذه الحسناء كثيرات بين الحسان .

اما جميل فكان السيف فخره وفخر آل من قبيلة أبيه أو قبيلة أمه ، ولم يفخر فقط الا تغنى بالمنعة وحماية الحرم ، والنساء . فمن قوله في هذا المعنى :

نَحْنُ مَنْعِنَا يَوْمَ أُولَئِنَاءُنَا  
وَيَوْمَ أَقِيَّ، وَالْأَسْنَةُ تَرْعَفُ<sup>(١)</sup>  
فِي يَوْمِ رَكَابِيَّ<sup>(٢)</sup> ذِي الْجَذَّادَةِ وَوَقْعَةِ  
بَيْتَيَانِ كَانَتْ بَعْضُ مَا قَدْ تَسْلَفُوا<sup>(٣)</sup>  
يُحِبُّ الْغَوَانِي الْبَيْضَ ظَلَ لَوَائِنَا  
إِذَا مَا أَتَانَا الصَّارِخَ الْمُتَلَهَّفَ

وَمِنْ قَوْلِهِ فِي أَخْوَاهُ جَذَّادَ :

جَذَّادَ سَيْفُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ  
إِذَا أَزْمَتْ يَوْمَ الْلَّقَاءِ أَزَامَ<sup>(٤)</sup>  
هُمُوْمَنْعُوا مَا بَيْنَ مَصْرٍ فَذِي الْقَرَى  
إِلَى الشَّامِ مِنْ حَلٍّ بِهِ وَحْرَامٍ

وتواترت الانباء في قصة عشقه باقتحامه وقلة مبالاته بأهل عشيقته المترصددين لقتله . وقيل فيها قيل من ذلك انه استدعاهما يوماً وعلم أهلها فتجمعوا لمفاجأته ، ثم جاءه من ينذره وينبهه بنبأ القوم فاستكبر المرب ، وقال لمنذرية : « والله ما أرهبهم ، وإن في كنانتي ثلاثة سهاماً والله لا أخطأ كل سهم منها رجلاً منهم . وهذا سيفي والله ما أنا به رعش اليد ولا جبان الجنان » .

وذكر الهيثم بن علي فيما رواه صاحب الأختاني : « أن جميلاً طال مقامه بالشام

(١) تقطر دما

(٢) جمع ركبة وهي البشر

(٣) ذو الجذادة وبنيان : موضعان

(٤) ازام : اي شدة

ثم قدم وبلغ بشينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحي تذكر شوقها اليه وووجدها به وطلبتها للحيلة في لقائه وواعدته لموضع يلتقيان فيه ، فسار اليها وحدثها طويلاً وأخبرها خبره بعدها . وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجا عليها ، فوثب جميل فانتفض سيفه وشد عليهما فاتقياه بالمركب ، وناشده بشينة الله الا انصرف ، وقالت له : ان أقمت فضحتني ، ولعل الحي أن يلحقوك . فأبى وقال : أنا مقيم وامضي أنت وليسنعوا ما أحبو . فلم تزل تناشده حتى انصرف » .

وغير هاتين القصتين كثير يردد ما فيها من المغامرة والتحدي وقلة المبالاة . وقد تصبح هذه القصص جميعاً أو يصح بعضها دون سائرها او لا تكون فيها قصة واحدة صحيحة . ولكن الحقيقة التي قصدنا الى بيانها تبقى بعد ذلك قائمة في مكانها ، وهي ان حبَّ جميل يتطلب مزاجاً فيه الجد والفحولة ولو كان « دور تمثيل » على مسرح من مسارح الفنون . فلو أننا تركنا الواقع جانباً وتخيلنا أن جيلاً وعمر ممثلان في رواية مسرحية يمثلان ما رُوي لنا من أخبارهما لما استطعنا ان نخرج جيلاً الى المسرح بغير سيفه ولا وجدنا من حاجة الى السيف في دور عمر وصوبيحانه .

فالمزاج هنا حقيقة فنية وان لم يكن بالحقيقة الطبيعية ، ولا يبعد أن يكون جميل شجاعاً متقدحاً كما جاء في بعض أنبائه . الا أنه على ما نعتقد كان مستطيعاً ان « يمثل دوره » في مسرح الحياة بغير حاجة الى شجاعة أكثر من الشجاعة الظاهرة التي يتلبس بها الممثل او تتلبس هي به الى حين .

فقد كان يقتحم ويعلم أنه آمن ، وكان يبقى حيث لا حاجة به الى البقاء بعد افتتاح الأمر وانطلاق صاحبته ، لأنه لا يخشى العاقبة اذا ادركه المتعقبون . اذ كان أهله أعز من أهل بشينة ، وكان طالبوه يضعفون عن حرب قبيلته ولا يقدرون على الدية ان رضي بها المطالبون بشاره ، وهو نفسه قد ذكر ذلك في بعض قصائده :

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي  
وهموا بقتلني يا بشين لقوني

اذا ما رأوني طالعاً من ثنيّة  
 يقولون من هذا وقد عرفوني  
 يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً  
 ولو ظفروا بي خالياً قتلوني  
 وكيف ولا توفي دماؤهم دمي  
 ولا ماهم ذو ندمة فيدوني

فهو قد كان في حاجة الى الاقتحام ، ولكنه كان اقتحاماً سهلاً عليه موافقاً لحاله  
 وحال بثينة وأهلها . فاقتتحم ما أمن وسلم ، وما كان الخطر من بثينة وأهل بثينة ،  
 فلما تجاوز ذلك الى الخطر من مطاردة السلطان واهدار بأمر الوالي الذي يقدر عليه  
 وعلى قبيلته رجع الى الاناء وهرب الى اليمن كما قيل .

وليس يطلب من جميل ولا من عاشق في موضعه أن يكافح السلطان بشجاعته  
 وينهض للدولة ببأسه ، فمن الجائز مع هذا ان يكون شجاعاً وان يترك دياره الى  
 اليمن اذا لم يكن له بد من زيارة بثينة فيقتل ، أو من معالجة السلو وهو قريب  
 منها فلا يطيق .

الا انه لم تكن به حاجة الى أكثر من الشجاعة التمثيلية في دوره الحقيقي وفي  
 روایته الواقعه ، وهذه الشجاعة التمثيلية كافة لاصطدام شعره بصبغة الفحولة  
 التي تظهر فيه ولا تظهر في شعر ابن أبي ربيعة .

أما اذا أعرضنا عن البحث في شجاعته لبيان هذا الفارق بينه وبين المغزلين  
 بالنساء عامة ، واعتمدنا ان نعرفها على حقيقته ونخلص الى ناحية من  
 نفسه قد تعين على فهمه وفهم عشقه وشعره ، فالذى يلوح لنا أنه كان شجاعاً بين  
 قومه ككل بدوى يشجع في حمى الجماعة وفي ذمار القبيلة . فإذا حاربوا حارب ،  
 وإذا اجروا فاما يجترىء بقلوب المثاث والألواف من ورائه ، ولكنك لا يخلو من رقة  
 تقدّم به عن النضال العنيف والمعارك الدامية ، وفي بعض قوله ما يدل على ذلك  
 حيث يقول :

يقولون جاهد يا جميل بغزة  
 وأي جهاد غيرهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة  
وكل قتيل عندهن شهيد

أو حيث يقول :

يقولون صب بالغوانسي موكل  
وهل ذاك من فعل الرجال بديع  
وقالوا رعيت الله ومال ضائع  
فكان الناس فيهم صالح ومضيع.

فلا هو للجهاد في غزوة ولا هو للجهاد في طلب ثروة، وليس كذلك الرجال الأقوى الذين يحبون فلا يشغلهم حبهم عن الجهاد حيث تفتح أمامهم أبواب الجهاد ، بل يكون حبهم مثيراً للعزيمة فيها طبعوا على اعزامه من طلب المجد أو طلب العلو على القرآن بالمال والجاه ، ويبعد جداً أن يملأ الهيام على أحد من هؤلاء عقله ووقته وهموم عيشه حتى يفرغ له ويعين بأمره ، ويرضى بالضياع كما رضي جيل .

وفي بعض أوصافه ما ينم على هذه الرقة الضعيفة فيه كما تنم عليها أخباره ودلائل شعره . فكان له مظاهر بروع الناظر ، ولكنه كان عرضة للتوبات التي تعتريه فجأة ، وقد تدل على مرض في القلب والأعصاب ، فذكر بعض أصحابه أنه كان جالساً معه يحدثه « إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافراً مقصعاً الشعر متغير اللون » حتى أنكره صاحبه .

فهذه حالة غير سليمة ، ولعله مات بعلة من عللها قبل أن يمعن في الشيخوخة ، فقد علمنا من شعره أنه عاش حتى شاب ولا تزال بشينة في سن العشق والجمال ، ثم مات وهي كذلك لا تزال فتية . فكانت وفاته ولا ريب في كهولة دون الشيخوخة الفانية ، وكانت لعلة من علل الضعف التي لا تدل على بنيان وثيق ، وإن كان هذا لم يمنعه أن يجد في حب بشينة أقوى الجد في هذا المقام .

## بعض أخباره

قابلنا بين جليل وعمر بن أبي ربيعة في أكثر من خصلة واحدة من خصال الفن والحياة ، إذ الحقيقة أنها متقابلان يوشك أن يتناظران في جميع الخصال : بداوة وحضارة ، وعكوف على محبوبة واحدة وتشبيب بجميع الحسان ، وعاطفة تغلب فيها الحاسة الإنسانية حيث كانت ، وعاطفة تغلب فيها حاسة الطبقة الاجتماعية التي منها الشاعر ، وكلا الشاعرين صادق فيما يمثله أو فيما يحكى .  
وانها ليتقابلان في أخبارها كما يتقابلان في تلك الخصال التي أشرنا إليها .

فأخبار عمر مفهومة من ديوانه لأنه ينظم فحواها ولا يدع منها إلا بعض التفاصيل ، وأخبار جليل تحتاج إلى الرواة والناقلين ، لأن الذي نظمها منها في ديوانه قليل الغناء في باب الأخبار ، وإنما يدل على سيرته من طريق التفسير والتعليق .

واختلاف العاطفيتين يتأدي بنا إلى علة الفارق بينهما في هذه الخصلة كما يتأدي بنا إلى علل الفوارق بينهما في جميع الخصال .

فابن أبي ربيعة كان له في كل يوم خبر وعلاقة ، وكان همه الأكبر أن يتحدث إلى الحسان ويتحدث عن الحسان . فلا عجب في اتساع ديوانه للأخبار المنظومة التي هي متعته وهجراه .

أما جليل فعاطفته خبر واحد ، إن لم ينظم في الحنين والشكوى فلا نظم عنده ، ولا تأتيه الأخبار التي ينظم فيها إلا حين يطرأ طارئٍ غير مجرى تلك الحياة الرتيبة ، كما قال حين خرج عليه أهل بيته :

ولست بناس أهلها حين أقبلوا  
وجالوا علينا بالسيوف وطوقوا

وقالوا جميل بات في الحسي عندها  
وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا  
او كما قال حين وقف متذكراً على الأطلال :

بينا هن بالأراك معاً اذ بدا راكب على جمله  
فتناظرن ثم قلن لها اكرميء حيث في نزله  
ولا غنى مع شعره عن نتف من اخباره التي تناقلها الرواة ، وهي مما يزكيه شعره  
ويثبته في الجملة وان عرضت له الزيادة والاختلاف في التفصيل ، وعلى هذا النحو  
هذه النخبة التالية من اخباره الكثيرة التي توخيانا فيها الدلالة عليه ، وتجنبنا  
التكرار فيما يشبه ما اختربناه .

\* \* \*

#### « بين نظيرين »

لقي عمر بن أبي ربيعة جيلاً في طريقه الى الشام فاستشده من شعره فأسمعه  
من قوله :

خليلي فيها عشتا هل رأيتا قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي  
ثم قال له : أنشدني أنت يا أبو الخطاب ، فأسمعه قصيده العينية التي أوها :  
الم تسأل الأطلال والمترئعاً بيطن حُلَيّات دوارس بلقعاً  
فلما بلغ الى قوله :

فليا توافقنا وسلمت أشرقت وجهه زهاها الحسن ان تتقنعاً  
تباهن بالعرفان لما عرفتني وقلن امرؤ باع أكلٌ وأوضعاً<sup>(١)</sup>  
وقربن أسباب الهوى لمريم يقيس ذراعاً كلما قسن اصبعاً  
فصالح جميل واستخدم وقال : ألا ان النسيب اخذ من هذا ، وما أنسد بعد ذلك حرفاً

(١) تعب واسرع .

فقال له عمر : اذهب بنا الى بشينة حتى نسلم عليها . فامتنع جميل واعتذر باهذار السلطان دمه ان وجده عندها ، وأشار له الى أبياتها . فتقديم عمر حتى وقف على الأبيات وتأنس حتى كلام ، فقال : يا جارية ! أنا عمر بن أبي ربيعة فأعلمك بشينة مكاني ، فخرجت اليه بشينة في مبادها وهي تقول : والله يا عمر لا أكون من نسائلك اللاتي يزعنن أن قتلهم الوجد بك ، فانكسر عمر ، ونظر فإذا امرأة أدماء طواله .

### « بين الأستاذ وتلميذه »

والتقى جمبل وكثير فتذاكر النسب ، فقال كثير : يا جمبل ! أترى بشينة لم تسمع بقولك :

يفيك جمبل كل سوء أما له  
لديك حديث أو اليك رسول ؟  
وقد قلت في حبي لكم وصبابتي  
محاسن شعر ذكرهن يطول  
فإن لم يكن قوله رضاك فعلمي  
نسيم الصبا يا بشن كيف أقول  
فها غاب عن عيني خيالك لحظة  
ولا زال عنها والخيال يزول

فقال جمبل : أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك :  
يقول العدا يا عز قد حال دونكم  
شجاع على ظهر الطريق مصم  
فقلت لها والله لو كان دونكم  
جهنم ما راعت فؤادي جهنم  
وكيف يروع القلب يا عز رائع  
ووجهك في الظلام للسفر معلم<sup>(١)</sup>

(١) السفر : المسافرون ، والمعلم ما يهتدون به من علامات الطريق .

وَمَا ظلمتُكَ النَّفْسَ يَا عَزِيزَ الْهُوَى  
فَلَا تَنْقِمِي حَبْسِي فِيهِ مَنْقَمٌ  
ثُمَّ بَكَيَا قطْعَةً مِنَ اللَّيلِ وَانْصَرَفَ . .

« جَلَتْهَا أَوْ لَمْ تَجْلَهَا؟ »

كان أهل بشينة يأتمنون عليها عجوزاً منهم يقال لها أم منظور ، فجاءها جليل يسألها أن تريه بشينة . فقالت : لا والله لا أفعل وقد أتمنوني عليها . فتوعدها ليضرناها . . . . قالت : المضرة والله في أن أريكها . فخرج من عندها وهو يقول :

مَا انسَ لَا أَنْسَ مِنْهَا نَظْرَةً سَلْفَتْ  
بِالْحَجَرِ يَوْمَ جَلَتْهَا أَمْ مَنْظُورٌ  
وَلَا اِنْسَلَابَتْهَا خُرْسًا جَبَائِرَهَا<sup>(١)</sup>

إِلَيْهِ مِنْ سَاقِطِ الْأَرْوَاقِ مَسْتُورٌ  
فَمَا كَانَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى انتَهَى إِلَيْهِمْ هَذَا الْبَيْتَانَ فَاتَّهَمُوا أَمْ مَنْظُورٍ وَهِيَ تَقْسِمُ  
لَهُمْ فَلَا يَصْدِقُونَهَا !

وقيل في رواية أخرى أن مصعب بن الزبير أنشد هذين البيتين فقال : لو ددت  
اني عرفت كيف جلتها؟ فأخبروه أن أمه منظور هذه حية ، فكتب في حملها اليه  
مكرمة ، وسألاها عن الجلوة فقالت : ألبستها فلادة بلح وخفقة بلح واسطتها  
تفاحة ، وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئاً من الخلق - أي الطيب - ومر بنا  
جليل راكباً ناقه فجعل ينظر اليها بمؤخر عينيه ويلتفت إليها حتى غاب عننا .  
فأقسم عليها مصعب لتجلون إنما أنه عائشة بنت طلحة مثل ما جلت بشينة ،  
فعدل . وركب مصعب ناقته واقبل عليها وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينيه  
ويشير حتى غاب عنها . . . ثم رجع .

« يَتَهَمُّهَا وَلَا يُتَهَمُّ بِأُمَّةً »

أشاع أهل بشينة أن جليلاً أبا يتبع أمة لهم ، ليدفعوا عنهم الوصمة ويصمونه ،

---

(١) الجبار : الأسوار ، والأرواق جمع ورقة هو الفسطاط .

فواعد جميل بشينة حتى لقيها ببرقاء ذي ضال وتحادثاً ليلًا طويلاً حتى أسرها ، فاقترح عليها ان ترقد فقالت : ما شئت ! على اني خائفة ان نكون قد أصبحنا ، فوسلها جانبها ثم اضطجعا ونامت ، وانسل مستوياً على راحلته ، واصبحت في مضجعها فرأها الحبي راقدة عند مناخ راحلة جميل ، وفي ذلك يقول :

فمن يك في حبى بشينة يمترى      فبرقاء ذي ضال علي شهيد

« لغة واحدة »

قال كثير : لقيني جميل مرة فسألني : من أين أقبلت ؟ قلت : من عند أبي الحبيبة - اعني بشينة .

فسألني : والى أين تمضي ؟

قلت : الى الحبيبة - اعني عزة .

فقال : لا بد ان ترجع عودك على بيتك فستتجد لي موعداً من بشينة .

فاستحيت ان ارجع وعهدي بها الساعة . واللح قائلة : لا بد من ذلك .

فسألته : متى عهدك بشينة ؟ فقال : في أول الصيف وقد وقعت سحابة بأسفل وادي الدوم ، فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها . فلما أبصرتني انكرتني فصررت ببديها الى ثوب في الماء فالتحفت به ، وعرفتني الجارية فاعادت الثوب في الماء ، وتحدثنا حتى غابت الشمس ، ثم سالتها الموعد فأنكرتني ان اهلها سائرون ، ولم اجد أحداً آمنه فأرسله اليها .

قال كثير : فاقترحت عليه ان آتي الحبي فأتمثل بآيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة ان لم اقدر على الخلوة بها . فوافقني ، وخرجت حتى انخت بالقوم ، فسألني أبوها : ماردك ؟ قلت : ثلاثة آيات عرضت لي فاحببت ان اعرضها عليك ، وانشده و بشينة تسمع :

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي  
إليك رسولاً والموكِّل مرسلاً  
بان تجعلني يبني ويبنيك موعداً  
وان تأمرني ما الذي فيه أفعل

وآخر عهدي منك يوم لقيتني  
بأسفل وادي الدوم والشوب يُغسل

فضربت بشينة جانب خدرها وقالت أخسأ . أخسأ . فقال أبوها : مهيم<sup>(١)</sup> يا  
بشينة ! .. قالت : كلب يأتينا اذا نوم الناس من وراء الراية . ثم صاحت  
بالجارية ابغينا من الدومات حطبا لندفع لكثير شاة ونشويها له !

فقلت : أنا اعجل من ذلك ، ورحت الى جمبل فأخبرته ، فعلم ان الموعد  
الدومات ، وخرجنا حتى أتيناها ، ثم جاءت بشينة مع بنات خالتها الثلاث ، فما  
برحنا حتى برق الصبح ، فما رأيت مجلساً قط احسن من ذلك ، ولا رأيت مثل  
علم احدهما بضمير الآخر .

### « خداع سهل »

سعت أمة لبنيتها بها الى ابيها واخيها ، وقالت لها : ان جيلاً عندها الليلة !  
فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالساً حجراً<sup>(٢)</sup> منها يحدثها ويشكرها  
بشه . ثم قال لها : يا بشينة ! أرأيت ودي ايامك وشغفي بك الا تجزينيه ؟  
قالت : لماذا ؟

قال : بما يكون بين المحبين .

فأجابته مغضبة : يا جمبل . اهذا تبعي ؟ والله لقد كنت عندي بعيداً منه ،  
ولشن عاودت تعريضاً بربية لا رأيت وجهي أبداً .

فضحشك وقال : والله ما قلت لك هذا الا لأعلم ما عندك فيه ؛ ولو علمت أنك  
تحببني اليه لعلمت أنك تحببين غيري ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضررتك  
بسيفي هذا ما استمسك في يدي ، ولو اطاعتني نفسى هجرتك هجرة الأبد ، او  
ما سمعت قولي :

وانسي لأرضى من بشينة بالذى  
لَوْ ابْصَرَهُ السَاوِي لقرت بلا به

(١) مهيم كلمة يمانية معناها : ما حطبك ؟ وماذا بك ؟

(٢) اي ناحية منها

بلا ، وبأن لا استطيع ، وبالمنى  
 وبالأمل المرجو قد خاب أمله  
 وبالنظرة العجل وبالحول تنقضي  
 أواخره لا نلتقي وأوائله  
 فقال أبوها لأخيها : قم بنا . فما ينبغي بعد اليوم أن منع هذا الرجل من  
 لقائها .

### » سكرة وصحوة «

رصد جميل بشينة في نجعة لأهلها ، حتى اذا صادف منها خلوة في ليلة ظلماء  
 ذات غيم ورياح ورعد ، سكر ودنا منها وخذفها بحصاة فأصابت بعض أثراها .  
 ففزعـت وقالـت : « والله ما حذـفـني في هـذـا الـوقـت بـحـصـاة الا الجـنـ ! » وفـطـنـتـ  
 بشـيـنةـ فـصـرـفـتـهاـ نـاحـيـةـ مـنـ مـنـزـلـهاـ ،ـ وـبـقـيـتـ مـعـ بـشـيـنةـ أـمـ الجـسـيرـ أـخـتهاـ وـأـمـ مـنـظـورـ .ـ  
 فـقاـمـتـ إـلـىـ جـمـيلـ فـأـدـخـلـتـهـ الـخـيـاءـ مـعـهـ وـتـحـدـثـاـ طـوـيـلاـ ،ـ ثـمـ اـضـطـجـعـ وـاضـطـجـعـتـ إـلـىـ  
 جـنـبـهـ فـذـهـبـ النـومـ بـهـاـ حـتـىـ اـصـبـحاـ .

وجـاءـهاـ غـلامـ زـوجـهاـ بـصـبـوحـ مـنـ الـلـبـنـ بـعـثـ بـهـ إـلـيـهاـ ،ـ فـرـآـهـ نـائـمـ مـعـ جـمـيلـ .ـ  
 فـمـضـىـ لـوـجـهـ حـتـىـ خـبـرـ سـيـدـهـ .

ورـأـهـ لـلـيـلـ اـخـتـ بـشـيـنةـ وـكـانـتـ قـدـ عـرـفـتـ خـبـرـهـاـ وـخـبـرـ جـمـيلـ تـلـكـ اللـيـلـةـ ،ـ  
 فـاسـتوـقـفـتـهـ كـأـنـهـ تـسـأـلـهـ عـنـ حـالـهـ ،ـ وـبـعـثـتـ بـجـارـيـةـ هـاـ تـحـذـرـ صـاحـبـهـ ،ـ فـجـاءـتـ  
 الـجـارـيـةـ فـنـبـهـتـهـاـ ،ـ وـصـاحـتـ بـشـيـنةـ بـجـمـيلـ وـقـدـ تـبـيـنـتـ الصـبـحـ :ـ نـفـسـكـ !ـ نـفـسـكـ ،ـ  
 وـهـوـ غـيـرـ مـكـثـرـ لـتـخـوـيفـهـاـ يـتـمـلـ هـاـ بـقـولـهـ :

لـعـمـرـكـ مـاـ خـوـقـتـيـ مـنـ مـخـافـةـ  
 بـشـيـنـ وـلـاـ حـذـرـتـيـ مـوـضـعـ الـحـذـرـ  
 فـأـقـسـمـ لـاـ يـلـفـيـ لـيـ الـيـوـمـ غـرـةـ  
 وـفـيـ الـكـفـ مـنـيـ صـارـمـ قـاطـعـ ذـكـرـ

فـأـقـسـمـتـ عـلـيـهـ أـنـ يـلـقـيـ نـفـسـهـ تـحـتـ مـتـاعـ الـبـيـتـ ،ـ وـأـفـهـمـتـهـ أـنـاـ تـسـأـلـهـ ذـلـكـ  
 خـوـفـاـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ مـنـ الـفـضـيـحةـ لـاـ خـوـفـاـ عـلـيـهـ .

ففعل كارهاً ، ونامت هي كما كانت والي جانبها ام الجسیر . ثم أقبل زوجها ومعه ابوها واخوها يأخذ بأيديهم ولا يشك في انه سيطعنهم على ريبة كما أبناء غلامه . فلما كشفوا الثوب فإذا ام الجسیر حيث كانوا ينظرون جيلاً ! فخجل الزوج ، وصاحت أختها ليلي : قبحکا الله ! أفي كل يوم تفضحان فتاتکما ويلقاکما هذا الأعور - تعني زوج بشينة - بكل قبيح ؟

قال راوي القصة : واقام جمیل عند بشينة حتى أجهنه اللیل ثم ودعها ، وانقطعنا عن اللقاء الى ان نسيت القضية !

### « بين سلطانين »

كان عامر بن ربعي بن دجاجة والياً على بلاد عذرة . فشكوا اليه أهل بشينة جيلاً وقالوا : انه يهجوهم ويغشى بيوتهم وينسب بنسائهم ، فأباوهم دمه ان وجدهم عندهم ، ونجا جمیل بنفسه الى اليمن فلم يزل بها حتى عزل ذلك الوالي وانتفع بنو عذرة ناحية الشام فارتاح لهم .

### « بشينة تنقد »

لقي جمیل بشينة بعد تهاجر طال بينهما ، فتعاتبها ملياً ثم قالت بشينة : ويهك يا جمیل ! أتزعم انك تهوانی وأنت الذي تقول :

رمى الله في عيني بشينة بالقذى

وفي الغر من أنیابها بالقوادح

فاطرق طويلاً يبكي . ثم قال : بل أنا القائل :

الا ليتنسي اعمى اصم تقدوني بشينة لا يخفي على كلامها  
فقالت له : ويهك !! ما حملك على هذه المنى ! او ليس في سعة العافية ما كفانا  
جيعاً !

### « خاتمة هوى »

روى ایوب بن عبایة قال :

« خرجت من تياء في أغباش السحر ، فرأيت عجوزاً على أتان ، فتكلمت فإذا  
اعرابية فصيحة . فقلت : من أنت ؟ قالت : عذرية .

فأجريت ذكر جميل وبشينة فقالت : والله انالعلى ماء لنا بالخباب وقد تنكينا  
الجادة<sup>(١)</sup> بجيوش كانت تأتينا من قبل الشام ت يريد الحجاز ، وقد خرج رجالنا لسفر  
وخلعوا علينا أحذاناً ، فانحدروا ذات عشية الى صرم قريب منها يتحدثون الى جوار  
منهم ، فلم يبق غيري وغير بشينة ، اذ انحدر علينا منحدر من هضبة تلقاءنا .  
 وسلم ونحن مستوحشون وجلون ، فتأملته ورددت السلام فإذا جميل !

قلت : أجميل ؟

قال : اي والله !

واذا به لا يتاسك جوعاً . فقمت الى قعوب لنا فيه أقط<sup>(٢)</sup> مطحون ، والى عكة<sup>(٣)</sup>  
فيها سمن ورب<sup>(٤)</sup> فعصرتها على الأقطثم ادنتها منه وقلت : أصب من هذا .  
 فأصاب منه ، وقمت الى سقاء فيه لبن فصبيت عليه ماء بارداً فشرب منه  
وتراجعت نفسه .

فقلت له : لقد بلغت ولقيت شراً فما أمرك ؟

قال : أنا والله في هذه الهضبة التي ترين منذ ثلاثة ما أريها انتظر ان ارى  
فرصة . فلما رأيت منحدر فنيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا عائد الى مصر . فتحديثنا  
ساعة ثم ودعنا وشخص ، فلم تطل غيته ان جاءنا نعيه ، فزعموا أنه قال حين  
حضرته الوفاة :

صرح النعي وما كنی بجميل  
وثوى بصر ثوء غير ثقول  
ولقد يجر الذيل في وادي القرى  
نشوان بين مزارع ونخيل

(١) الجادة : مستوى الطريق ، والصرم الجماعة القليلة من الناس .

(٢) الأقط للبن الجاف

(٣) العكة الزف الصغير

(٤) الرب ما يطبخ من التمر .

قومي بشينة فاندبي بوعيل

وابكى خليلك دون كل خليل

وتحدث من شهد موت جمبل بمصر ان جمبل دعاه فقال : هل لك في ان اعطيك كل ما اخلفه على ان تفعل شيئاً اعهده اليك ! ... اذا انا مت فخذ حلتي هذه التي في عي بيتي فاعز لها جانباً ثم كل شيء سواها لك ، وارحل الى رهطبني الأحب من عذرة ، فاذا صرت اليهم فارتحل ناقتي هذه واركبها ، ثم البس حلتي هذه واسققها ، ثم اعمل على شرف وصح بهذه الأبيات :

صرح النعي وما كنني بجميل

وثوى ببصري ثواء غير قفول

الى آخر الأبيات الثلاثة المتقدمة .

قال الرجل : فلما واريته أتت رهط بشينة ففعلت ما أمرني به جمبل ، فما استتمت الأبيات حتى برزت الى امرأة يتبعها نسوة قد فرغت هن طولاً وبرزت امامهن كأنها بدر قد برز في دجنه وهي تعثر في مرطها حتى أتنى فقلت : يا هذا ! والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتني ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتي !

قلت : والله ما أنا الا صادق ، وانخرجت حلته . فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها ، واجتمع نساء الحي يبكيكن معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة ، ثم قامت وهي تقول :

وانْ سلوُي عن جمبل لساعة

من الدهر لا حانت ولا حان حينها

سواء علينا يا جمبل بن عمر

اذا متَّ بأساء الحياة ولبنها

مختارات من شعره

« دعاء »

فيارب حببني اليها واعطني الـ

مودة منها ، أنت تعطي وتنع

والا فصبرني وان كنت كارها  
فاني بها ياذ المعارض مولع

تمتعت منها يوم بانوا بنظرة  
وهل عاشق من نظرة يتمتع؟  
كفى حزناً للمرء ما عاش أنه  
بین حبيب لا يزال يروع  
« لذة الظلم ! »

رد الماء ما جاءت بصفو ذنائبه<sup>(١)</sup>  
ودعه اذا خيضت بطرق مشاربه  
اعاتب من يحلو لدى عتابه  
وأترك من لا أشهي وأجانبه  
ومن لذة الدنيا وان كنت ظالماً  
عناقك مظلوماً وأنت تعاته  
« الميت المبعوث »

وما بك النساء على قتيل  
بأشرف من قتيل الغانيات  
فلما مات من طرب وسكر  
رددن حياته بالسمعات  
فقام يجر عطفيه خارأ  
وكان قريب عهد بالملمات  
« الزمن المحابي »

أما كنت أبصرنسي مرة  
ليالي نحن بدبي جوهر

(١) جمع ذنوب وهي الدلو لها ذنب .

واذ أنا أغيد غض الشبا  
 ب اجر الرداء مع المثر  
 واذ لمتى كجناح الغرا  
 ب ترجل بالسلك والعنبر  
 فغير ذلك ما تعلمين  
 تغير ذا الزمن المنكر  
 وأنت كلهؤة المرزبان  
 بماء شبابك لم تعصري  
 قربان مربعنا واحد  
 فكيف كبرت ولم تكبري<sup>(١)</sup>

### « داء وطب »

ارحميني فقد بليت فحسبي  
 بعض ذا الداء يا بشينة ، حسي  
 لامني فيك يا بشينة صحبي  
 لا تلوموا ، فالحب فرح قلبي  
 زعم الناس ان دائني طبي  
 أنت والله يا بشينة طبي !

### « كدر ومطروق ! »

واني لاستحيي من الناس أن أرى  
 رديفاً لوصل او عليّ رديف  
 واشرب رفقاً منك بعد مودة  
 وأرضي بوصل منك وهو ضعيف  
 واني للهاء المخالط للقدى  
 اذا كترت ورآده لعيوف

(١) المرزبان الرئيس عند الفرس ، وترجمة اللمة ترجمتها .

« من هي ؟ »

فناة من المران ما فوق حقوقها  
وما تحته منها نقاً يتقصّف  
لها مقلتا ريم وجيد جدابية  
وكشح كطي السابرية اهيف<sup>(١)</sup>

« وفاء الله ! »

.....  
فها وجد العذرى عروة اذ قضى  
كوجدي ولا من كان قبلى ولا بعدي  
على ان من قد مات صادف راحه  
وما لفؤادي من رواح ولا رشد  
يكاد فضيض الماء يخداش جلدتها  
اذا اغسلت بالماء من رقة الجلد  
وانسي لشناق الى ريح جييها  
كها اشتاق ادريس الى جنة الخلد  
لقد لامني فيها اخ ذو قرابة  
حبيب اليه في ملامته رشدي  
وقال أفق ، حتى متى أنت هائم  
ببشرة فيها قد تعید وقد تبدي  
فقلت له فيها قضى الله ما ترى  
على ، وهل فيها قضى الله من رد  
فان كان رشداً حبها او غواية  
فقد كان ما قد كان مني على عمد

---

(١) المران شجر تتخلد منه الرماح ، والحقو الخضر ، والنقا مجتمع الرمل ، والجلدابية :  
الغزال ، والسابرى الحرير .

لقد لج ميشاق من الله بيننا  
 وليس من لم يوف الله من عهد  
 فلا وأبيها الخير ما خنت عهدها  
 ولا لي علم بالذى فعلت بعدي  
 وما زادها الواشون الا كرامة  
 على ، وما زالت مودتها عندي  
 أفي الناس امثالى أحبوا فحالم  
 كحالى أم احبيت من بينهم وحدى  
 وهل هكذا بلقى المحبون مثل ما  
 لقيت بها ام لم يجد أحداً وحدى

### « محب أكول »

ويعجبني من جعفر ان جعفراً  
 ملحٌ على قرص ويذكر على جمل  
 فلو كنت عذري العلاقة لم تكن  
 بطيناً وانساك الهوى كثرة الأكل

### « صرخة »

فان يمحبوا او يحمل دون وصلها  
 مقالة واش او وعد امير  
 فلم يمحبوا عيني عن دائم البكا  
 ولن يملكون ما قد ي恨ن ضميري  
 الى الله اشكون ما الاقي من الهوى  
 ومن حرق تعاذني وزفير  
 ومن كرب للحب في باطن الحشا  
 وليل طويل الحزن غير قصير  
 سأبكي على نفسي بعين غزيرة  
 بكاء حزين في الوثاق اسير

وكنا جيئاً قبل ان يظهر النوى  
 بأنعم حالٍ غبطة وسرور  
 فما برح الواشون حتى بدت لنا  
 بطون الهوى مقلوبة لظهور  
 لقد كنت صعب النفس لودام وصلنا  
 ولكنها الدنيا متاع غرور  
 لو ان امراً اخفى الهوى عن ضميره  
 لمت ولم علم بذلك ضميري

« عند ذلك »

هي البدر حسناً والنساء كواكب  
 وشتان ما بين الكواكب والبدر  
 لقد فضلت حسنا على الناس مثلما  
 على الف شهر فضلت ليلة القدر  
 عليها سلام الله من ذي صبابة  
 وصبب معنى بالوساوس والفكر  
 ايبيكي حمام الايك من فقد الفه  
 واصبر؟ مالي عن بشينة من صبر  
 ومالي لا ابكي وفي الايك نائح  
 وقد فارقته شخة الكشح والخصر<sup>(١)</sup>  
 يقولون مسحور يجن بذكرها  
 واقسم ما بي من جنون ولا سحر  
 ذكرت مقامي ليلة البان قابضاً  
 على كف حوراء المدامع كالبدر  
 فكدت ولم املك اليها صبابة  
 اهيم وفاض الدمع مني على نحري

(١) شخة : دقة ، والكشح ما بين السرة ووسط الظهر .

تجود علينا بالحديث وتارة  
تجود علينا بالرُّضاب من الثغر  
فيا ليت ربي قد قضى ذاك مرة  
فيعلم ربي عند ذلك ما أمري  
« وعد مطول »

يهواك ما عشت الفؤاد فان امت  
يتبع صدای صداك بين الأفبر  
اني اليك بما وعدت لنظر  
نظر الفقر الى الغنى المكثر  
تفضي الديون وليس ينجز موعداً  
هذا الغريم لنا ، وليس بعسر  
ما انت والوعد الذي تعديتني  
الا كبر سحابة لم تطر

« ليت »

لقد ذرفت عيني وطال سفوحها  
واصبح من نفسي سقيناً صحيحها  
الا ليتنا نحيا جميعاً وان نمت  
يجاور في الموتى ضريحى ضريحها  
فما انا في طول الحياة براصب  
اذا قيل قد سوي عليها صفائحها  
اظل نهاري مستهاماً ويلتفي  
مع الليل روحي في النمام وروحها  
فهل لي في كهان حبي راحة وهل تنفعني بوحة لو أبوحها  
« جهاد »

اذا قلت ما بي يا بشينة قاتلي  
من الحب قالت ثابت ويزيد

وان قلت ردي بعض عقلي اعش به  
 تولت وقالت ذاك منك بعيد  
 فلا انا مردود بما جئت طالباً  
 ولا حبها فيها يبيه يبيه  
 ..... .

ومن يُعطى في الدنيا قريباً كمثلها  
 فذلك في عيش الحياة رشيد  
 يموت الهوى مني اذا مالقيتها  
 يقولون جاهد يا جميل بغزوة  
 ويحيا اذا فارقتها فيعود  
 واي جهاد غيرهن اريد؟  
 لكل حديث بينهن بشاشة  
 وكل قتيل عندهن شهيد

### «في الصلاة»

يلذان في الدنيا ويغتبطان  
 اسيران للأعداء مرتنهان  
 لي الويل ما يكتب المكان  
 وقد وثبتت مني بغير ضمان  
 خصومة معشوقين يختصمان  
 عتاباً وهجراً ثم يصطلحان  
 اقاما ، وفي الأعوام يلتقيان  
 على الماء يغشين العصي حوان  
 ولا هنَّ من برد الحياض دوان  
 فهن لأصوات السقاة روان  
 اليك ، ولكن العدو عداني  
 أرى كل معشوقين غيري وغيرها  
 وامشي وتنشي في البلاد كأننا  
 أصلٍ فأبكي في الصلاة لذكرها  
 ضمنت لها الا اهيم بغيرها  
 الا يا عباد الله قوموا لتسمعوا  
 وفي كل عام يستجدان مرة  
 يعيشان في الدنيا غريبين أيها  
 وما صadiات صمن يوماً وليلة  
 لواغب لا يصدرون عنه لوجهه  
 يرین حباب الماء والموت دونه  
 بأكثر مني غلة وصباة

## « اليمين وما ملكت »

يَمِنِي وَلَوْ عَزْتُ عَلَى يَمِنِي  
وَقُلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمِينِ سَلِينِي  
يُعِينُ عِنْدَ الْمَالِ كُلَّ ضَنِينِي  
غَدَرْتُ بِظَهَرِ الْغَيْبِ لَمْ تَسْلِينِي  
مِنَ النَّاسِ عَدْلَ أَهْمَمِ الظَّلْمُونِي  
وَمَنْ حَبَلَهُ أَنْ مُدَّ غَيْرَ مُتَيْنِ  
عَلَى الْعَهْدِ حَلَّافٌ بِكُلِّ يَمِنِي  
لَوْلَتْ وَانْ عَزْتُ عَلَى بَشِينِ صَلِينِي

وَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا بَثِينَةً تَبَغِي  
لِأَعْطِيهَا مَا جَاءَ يَبْغِي رَسُولُهَا  
سَلِينِي مَالِي يَا بَشِينَ فَانِما  
فَهَالِكَ لِمَا خَبَرَ النَّاسُ أَنِّي  
لِأَبْلِي عَذْرًاً أَوْ اجْئِي بِشَاهِدٍ  
لِي اللَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُ الْوَعْدُ عَنْهُ  
وَمَنْ هُوَ ذُو وَجْهَيْنِ لَيْسَ بِدَائِمٍ  
وَلَسْتُ وَانْ عَزْتُ عَلَى بَقَائِلَ

## « نعي نفسه »

صَرَحَ النَّعِيُّ وَمَا كَنِي بِجَمِيلٍ  
وَثَوَى بَصَرُ ثَوَاءَ غَيْرَ قَفُولٍ  
وَلَقَدْ يَجْسَرُ الْذَّيْلُ فِي وَادِي الْفَرَى  
نَشَوانَ بَيْنَ مَزَارِعِ وَنَخْيَلٍ  
بَكَرَ النَّعِيُّ بِفَارَسِ ذِي هَمَةٍ  
بَطْلًا إِذَا حَمَ الْلَّقَاءَ مَذَيْلَ<sup>(١)</sup>  
قَوْمِي بَثِينَةً وَانْدَبِي بِعَوِيلٍ  
وَابْكِي خَلِيلَكَ دُونَ كُلِّ خَلِيلٍ

أَبِيَاتٌ مَفْرَدَةٌ  
فِي مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ

« لَوْ... لَا »

وَدَدَتْ وَلَا تَغْنِي السُّودَادَةُ أَهَا  
نَصِيبِي مِنَ الدُّنْيَا وَانِي نَصِيبِهَا

(١) المذيل من أهان ماله ، او اطال ذيله او درعه .

### « بدل مطلوب »

أفي كل يوم انت محدث صبوة  
موت لها؟ بذلت غيرك من قلب

### « الصدق انفع »

حلفت لكيا تعلميني صادقاً  
وللصدق خير في الأمور وانفع

### « شتان المرادان »

أريد صلاحها وتريد قتلي  
وشتى بين قتلي والصلاح

### « داء مزمن »

علقت المهوی منها وليدياً فلم يزل  
إلى اليوم ينمی جهها ويزيده

### « لا قرار »

اذا ما دنت زدت اشتباكاً وان نأت  
جزعت لنأي الدار منها وللبعد

### « زهد ! »

رفعت عن الدنيا المنى غير ودها  
فما أسأل الدنيا ولا أستزيدها

### « تفويض »

فمريني اطعك في كل امر  
انت والله اوجه الناس عندي

« دعوة ام دعاء »

واعذلين أخوا في محبتها  
يا ليتهم وجدوا مثل الذي اجد

« عذر او ظلم »

لو تعلمين بما اجن من الهوى  
لعذررت او لظلمت ان لم تعذرني

« خبر مكتوم ! »

اموت والقى الله يا بشن لم ابح  
بسرك والمستخرون كثير

« موعد في السماء »

اقلب طرف في السماء لعله  
يافق طرف طرفكم حين ينظر

« ليس كمثلها ! »

لا حسنها حسن ولا كدلاها  
دل ولا كوارها توقير

« جفون قصيرة »

كان المحب قصير الجفو  
ن لطول الليالي ، ولم تقصر

« الموطن الغرامي »

فان يك جثاني بأرض بعيدة  
فان فؤادي عندك الدهر اجمع

### « قليل نافع »

ان القليل كثير منك ينفعني  
وما سواه كثير غير نفاع

### « حجته لها »

وبين الصفا والمروتين ذكرتكم  
ب مختلف ، والناس ساع ومو gev

### « جلد جاموس »

وما يتغى مني عداه تعادوا  
ومن جلد جاموس سمب مطرق

### « ماذا يقولون ؟ »

وماذا عسى الواشون ان يتحدثوا  
سوى ان يقولوا انتي لك عاشق

### « غير خوار »

فلو كنت خواراً لقد باح مضمرني  
ولكنني صعب القناة عريق

### « عالمة »

فان وجدت نعل بارض مصلحة  
من الأرض يوماً فاعلمي انه انعي

### « ثقل محبوب »

وثلاثلت لما رأت كلفي بها  
احبب اليه بذلك من مثاقل !

« التحول حزم ! »

وان التي احببت قد حيل بينها

فكن حازماً ، والحاZoom المتحول

« لعلها »

وقالوا نراها يا جميل تبدلت

وغيرها السوشي فقلت لعلها

« آلة الصيد »

ولكننا يظفرن بالصيد كلها

جلون الشيايا الغر ، والأعين النجلا

« صلح على انفراد »

فان تك حرب بين قومي وقومها

فاني لها في كل نائبة سلم

عَبَاسُ مُحَمَّد

# الْعِقَادُ

- جَهَادُ الصَّاحِلِ الْمُضْهِرُ

دار الكتاب اللبناني - بيروت

## الكلمة والضحك

الكلمة أكبر الفتوح الإنسانية في عالم الكشف والاختراع ، لو لم يخترعها الإنسان لوجب أن يخترع ما يساويها وينوب عنها ، لأنه لا حياة له بغير التفاهم بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تفاهم على شيء من الأشياء بغير الكلمة أو ما يدل دلالتها ..

أنقول على شيء من الأشياء وكفى ؟

كلا .. بل نعم القول على الأشياء وما ليس بشيء من الأشياء ، ونضرب المثل بيوم الأربعاء أو يوم الخميس أو يوم من الأيام في الشهر الأول من السنة الحاضرة .

ما هو ذلك اليوم ؟ وما هو ذلك الشهر ؟ وما هي تلك السنة ؟  
يصعب علينا أن نسميه شيئاً من الأشياء يتأنى لنا أن نشير إليه كما  
نشير إلى كل شيء نراه أو نحصره :  
مسافة من الفلك تدور فيها الأرض حول نفسها ، وليس هي بالمسافة  
الثابتة التي تعود إلى مكانها في مجرى المنظومة الشمسية من جواز  
الفضاء ! ..

شيء أو لا شيء ..

ولكنه على ذلك اسم لا بد منه لمن يذكر التاريخ ، ولمن يعمل في ساعته الحاضرة ، ولمن ينظر إلى المستقبل ويقرر له المواعيد والمواقع .  
والاسم في اللغة هو الذي استطاع أن يصطاد للعقل هذه المسافة  
المجهولة من الفضاء الأبدى ويعطيها الدلالة التي لا غنى عنها .

ولكنها ليست بالدلالة الوحيدة التي لا غنى عنها .  
كل ماتدل عليه اللغة لا غنى عنه للإنسان ، ومنه هذه المحسوسات  
التي تلمسها ونراها بالعين ، كالطريق والمركبة والكرسي والأناء . فانتا  
تُجرب الاستغناء عن اللغة يوماً وتحاول أن تتفاهم عليها وهي غائبة عنها  
لا نستطيع أن نشير إليها .

لا سيل ! ..

وصدق القرآن الكريم : كل علم هو علم الأسماء ، والله علم آدم  
الأسماء كلها ، لأنها هي العلم الإنساني من مبدئه إلى متنهاء .  
إلا ما أنه علم الإنسان .

وكل علم للإنسان يعرض له النقص من بعض نواحيه ، فإذا قال لنفسه :  
لابد لي من اللغة ! فلا ينس أن يقول لنفسه : نعم . وحذر من هذه  
اللغة ، فإن النفع منها للعقل عظيم جداً ، ولكن الضرر منها غير قليل  
وغير مأمون ..

من منافعها أنها تحصر المارد المنطلق فتجبسه في القمقم المرصود مطيناً  
حيث يراد ..

ومن أضرارها أنها تحبس المرأة الكثيرة في قمقم واحد ، فتنطلق مرة  
واحدة حيث يراد واحد منها ، وتتجبس مرة واحدة حيث تريده أن تنطلق  
منها هذا وندع منها ذاك .

عودتنا اللغة أن نحسب كل اسم علمًا على شيء واحد ، وكثيراً ما يكون  
هذا الاسم كالمقاييس الذي يحتوى فيه عشرات المرأة بعلامة واحدة ، وما  
من شبه بينها غير تلك العلامات لضرورة التمييز والتقطيع .

تعودنا أن نسأل : ما العلم ؟ ما الفهم ؟ ما الحس ؟ ما الضمير ؟  
وتعودنا أن نسأل : كيف نعلم ؟ وما وسيلة الفهم ؟ ولماذا نحس ؟ وما  
بالنا نصفي للضمير ؟

تعودنا ذلك ، وتعودنا أن نجيب بجواب واحد ، كأننا نسأل في جميع  
هذه الأحوال عن شيء واحد .

وما نسأل في الحقيقة الا عن أشياء كثيرة تتبئ عنها كلمة واحدة .  
ما نسأل في الحقيقة الا عن عشرين مارداً أو أكثر من عشرين ، يجمعهم  
القمعم الواحد الذي نشير اليه .

وفي سياق هذه الرسالة — رسالتنا عن حكمة جحا أمير المضحكتين  
نسأل كما تعودنا من كل كلمة : ما الضحك ؟  
ولماذا نضحك ؟

وما الضحك بشيء واحد ..

وما نضحك لسبب واحد ..

وما نفكري في الضحك على نحو واحد ..

ولكنها الكلمة التي لا غنى عنها ، ولاأمان منها كذلك ما لم نعرف ، سر  
الرصد المسحور .

وها نحن أولاء في هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد في كلمة واحدة —  
كلمة الضحك — لنعرف منها أمير المضحكتين بين المضحكتين ، ونعرف منها  
أضاحيكه بين أشتات المضحكتات ..

الضحك ضحوكه عدة اذا صع هذا التعبير ، وليس بضحك واحد .

ونحن نضحك لأسباب كثيرة ، ولستنا نضحك لسبب فرد لا يتعدد ،  
ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحكتها التي تصدر عنها ولا  
تصدر عن حالة غيرها ، لأنما هي لغة كاملة على أسلوبها في التعبير .

هناك ضحك السرور والرضى ، وهناك ضحك السخرية والازداء ،  
وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والاعجاب ، وهناك  
ضحكت العطف والمودة ، وهناك ضحك الشماتة والعداوة ، وهناك ضحك  
المفاجأة والدهشة ، وهناك ضحك المقرر وضحك المنشوج وضحك  
السذاجة وضحك البلاهة ، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير  
اضطرار ..

بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكتات ألوان لا تتشابه في  
جميع الأحوال .

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهوأً بنفسه واحتقاراً لغيره ، وقد يكون سروره فرحاً بغيره ، لا زهو فيه بالنفس ولا احتقار الآخرين .

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس لأنه يبحث عن تلك العيوب ويستريح إليها ولا يتمنى خلاص أحد منها ، وقد يضحك من تلك العيوب لأنه ينفس عن عاطفة لا يستريح إليها عامة بين أخوانه الأدرين ، ولا خاصة في أحد يعنيه من أولئك الأخوان .

والضاحك من عيوب السخف والحمامة قد يضحك من السخيف الأحمق أو يضحك من الذي يحكى في سخافته وحمقه فيعرف كيف يحكى ، وكلاهما باعث من بواعث الضحك مخالف لغيره في أثره وداعيه ومعناه ..

\* \* \*

هذه المسألة وضعت موضوع التجربة العلمية بعد انتشار الصحافة ، وتتنوع موضوعاتها ، واختصاص طائفة منها بموضوع الفكاهيات والمضحكات ، وتنافس الكتاب في ابتداع فن جديد من أساليب الفكاهة والضحك ، كلما ألف القراء أسلوباً منها وسموه أو اشتقاوا إلى غيره ، فظهرت الفوارق بين النكات التي تدعو إلى الضحك ، وتمايزت بأسمائها وعلاماتها ، وأوشك الكتاب الفكاهيون أن يتمايزوا بالتفوق في كل باب من هذه الأبواب ، واستطاعوا أن يفرقوا بينها بالتعريفات أو بالحدود المفهومة ..

ولعلنا نطالب هؤلاء الكتاب بما ليس عندهم إذا سألهنهم ، أن يرجعوا بهذه الفكاهات المختلفة إلى مصادرها من الطبيعة البشرية والعمل الفلسفية ولكننا نستطيع أن نعتمد على تجربتهم في التثويغ والاقتبان ، لأنه عمل يزاولونه كل يوم ، ويعرفون خطوات الانتقال فيه من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، ولو لم يكن هذا الاختلاف في الأساليب إلا اختلافاً في التعبير والتنمية .

ومن أمثلة الاجتماع في التفرقة بين موضوعات الضحك والفكاهة كتاب

مزاج الفكاهة *The Humour of Humour* لمؤلفه اي凡 ايسار Evan Esar الذي اشتغل زمناً بكتابه الفكاهيات وتقسيمها وترتيب أقسامها ، وأراد بكتابه هذا من عنوانه الى خاتمه أن يكون تطبيقاً لآرائه واختباراته ، لأن العنوان نفسه يشتمل لعباً بالألفاظ كاللعبة الذي يدخل في النكات الجناسية ، لأن كلمة « هيومر » بالإنجليزية تأتي بمعنى المزاج وتأتي بمعنى الفكاهة وتدل على الخلط الجسم في مذهب الاقمين كما تدل على وسائل تعديل هذه الخلط بالدواء أو بتطيب الخواطر وتنزيه النفوس ولا تحصى أفانين الضحك والفكاهة كما شرحها المؤلف في كتابه ، ولكننا نشير الى بعضها على سبيل التمثيل ، وندع للقاريء أن يقيس عليها من تجاربه ما يشاء .

\*\*\*

فن هذه الأفانين « الملاحظة المزدوجة أو الملاحظة اللاذعة » ومثالها الكلمة تقال عن الزواج من أجل المال : « إنه يصلح أمأ لها بنته ، وزوجاً لها بثروته » أو الكلمة تقال عن البخل : « إنه بعض ثقوده في الحشية ليجد تحته شيئاً يستند اليه ».

ومن هذه الأفانين « الآبدة » أو العبارة الشاردة ، والفرق بينها وبين الملاحظات السابقة أنها أقرب الى المثل السائر الذي يسهل تعميمه ولا يخص أحداً بعينه . وأما الملاحظات السابقة فأكثرها يقال عن الاشخاص أفراداً بغير تعميم ، ويدور على شؤونهم ولا يدور على الواقع والأطوار . ومن أمثلة النكتة الآبدة أو العبارة الشاردة أن الأخلاق طلاء تمسحه الخبر ، وإن السن تخون أصحابها لأنها تدل على السنين ، وأن الحكم حين تقنعه حكمته بأن يتزوج يصبح الأحمق زوجاً وله أبناء ، وأن لا يس النظارة « منظره بغيرها أحسن ونظره بغيرها أقبح ! » وأن الأميركيين أحراز لأنهم « يأخذون » حريات كثيرة ! ..

ومنها اللغو ، وعمادة على المعالطة ، أو على جمع المتشابهات التي تختلف ، في الحقيقة بعد اختلاف .

ومثاله أن يسأل السائل : « لماذا وضعوا واشنطن على تل ؟ » فيجيب الجيب : « لأنّه مات. » !

أو يسأل السائل : « ما ذلك الشيء الذي يصنعه الرجل واقفاً وتعسنه المرأة جالسة ويصنعه الكلب على ثلث. ? »

والجواب : « المصادفة أو تحية السلام عند اللقاء. »

ومن أفالين الفكاهة الجناس اللفظي ، وهو يشبه الفرز في السؤال والتورية ..

يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الفلسفه والمرايا ؟ »

والجواب : « التأمل والنظر. » !

أو يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الكتاب والشجرة ؟ »

والجواب : « كلامها له ورق ! »

أو يسأل السائل : « ترى هل يحاسب الرجل على قتل الوقت اذا حطم الساعة ؟ »

والجواب : « كلا ! اذا ضربت الساعة أولاً »  
ومن هذه الأفالين المساجلة والمحاورة ، وقد يكون السائل فيها هو الجيب .

تقول لي : « لماذا تشرب الخمر ؟ .. قل لي ماذا تقترح أن أصنع بها ؟ »  
وتسألني : « أي الدجاج أطول رقاداً ؟ كيف ؟ ألا تعلم ؟ .. الذي مات ! » ..

ومنها الظن المختلف وهو يتوقف على الموقف ، وتعدد المشتركين فيه ،  
ووجود اللبس الذي يدعو الى اختلاف الظنون ، ومثاله قصة عن أربعة في مقصورة قطار : فتاة حسناء ، وامرأة عجوز ، وكهل فرنسي ، وضابط ألماني أثناء احتلال الالمان باريس . ودخل القطار نفقاً فسمع في المقصورة صوت قبلة وصفعة ، ثم خرج القطار من النفق وهم صامتون وعلى وجه الضابط الألماني أثر صفعه . فقالت المرأة العجوز لنفسها : « ما أظهرها من فتاة » ! وقالت الفتاة الحسناء لنفسها : « عجب له . يقبل العجوز ولا

يُقلّني؟» . وقال الضابط الألماني : « يا له من فرنسي خبيث .. غَنِمَ الْقُبْلَة، وَغَنِمْتُ أَنَا الصَّفْعَة ! » وقال الفرنسي : « لقد نجوت بها . قبلت ظاهرو كثي وصفعتُ الألماني ، ولم يتمهني أحد » !

ومنها النادرة ، وهي نكتة لابد لها من قصة تتعلق بصناعة أصحابها أو بعلمهم وقواعدهم المتعارف عليها : كان مارك توين – الكاتب الفكاهي المشهور – يعمل في احدى الصحف ، وتكلّم الدّيون تستغرق مرتبه ، وكان من عادته أن يهمل كل اندار يأتيه من صاحب دين . واتفق يوماً أن كاتباً من مساعديه كان إلى جانبه ، وهو يهمّ بأن يلقي بعض هذه النذر في سلة الهمّلات . فنبهه الكاتب قائلاً : « انتظر يا سيدي . فان في ظهر الورقة كلاماً يقول فيه صاحب الدين انه سيقاضيك ان لم تسرع الى السداد ». فقال له مارك توين كأنه ماض في عمله : « ألا تعلم يا صاح أن الورقة التي تكتب على وجهين تهمل في هذا المكان؟! »

\* \* \*

ومنها الكلمة التي تقال وتفهم على معنين ، أحدهما يسرّ والآخر يزعج أو يخفّ ، وتشبهها كلمات الجناس كلما دلت على نقاصين . يقول الرجل لزميله في بلاد النّيام نيام أَكْلَةُ البَشَرَ : « ان الزعيم يريدك للغداء .. »

أو يقول فرنكلين وهم يكتبون وثيقة الاستقلال : « يجب أن يتعلق ببعضنا البعض والا تعلقنا على افراد » .. أو يقول الشيطان : « الفضيلة في الوسط » ، وهو يجلس بين رجلين من رجال السياسة ! أو يقول قدح الماء للبرشامة : « تقدمي وانا بعدهك » .. وفيها مثل ظاهر التّحية وباطن الاشتراك في البلاء ! أو تقول الفتاة من يغازلها : « أنا كالقاطرة .. ان لستني صرخت » ! وما أحصاء الفكاهيون المعاصرون من أساليب التعبير الفكاهي أسلوب القلب والعكس ، ومن أمثلته : « ان الحب يذهب بالزمن وان الزمن يذهب

بالحب » ومنها : « أن بعضهم يحب أن يشاهد الصور المتحركة ، وبعضهم يشاهد الصور المتحركة ليحب ». ومنها : « ان الانسان يخلق المتابع وان المتابع تخلق الانسان ». ومنها : « أن من يتعمق الى أساس الأمور ترتفعه الأمور الى الذروة العليا »، ومنها : « ليس الضحك بداية سيئة للصداقة ولكنه نهاية حسنة ».

وتكرار الكلمة في مواضعها فن من فنون الفكاهة ، كتكرار ذكر الذكاء في هذه العبارة :

« الفتاة الذكية أذكي مما يبدو عليها لأن الفتاة الذكية لا تبدي ذكاءها » ..

أو هذه العبارة : « غير المتوقع يقع أحياناً حين لا تتوقع من المرء ما هو خلائق أن يقع منه »

أو هذه العبارة : « علينا أن ننسى أنفسنا لنشعر بالسعادة ، ولكننا لا نسعد اذا نسيينا أن ننسى أنفسنا ».

والنسيان المعهود في العلماء والمعلمين يضحك أو يحسب من أسباب الفكاهة ، وتروى لذلك قصص كثيرة هذه أمثلة منها :

« جلس أستاذ في مكتبه بالمنزل وهو في قلق شديد على زوجته التي أدركها المخاض ، وإذا بقريبة له تقتسم المكتب لبشره بولادتها وتصيح به : « انه ولد » .. ويكون قد ذهل عما حوله فيسألها : « وماذا يريده ؟ » !

وذهب أستاذ الى طبيب فقال له : « اخرج لسانك » ثم قال له : « لسانك في حالة حسنة ولكن ما هذا الطابع الذي عليه ؟ » .. فابتسم الاستاذ وقال : « فهو هناك وأنا أحسبني وضعته على الغلاف !

وآخر كذوبة ابريل وما جرى مجريها فن من هذه الفنون الفكاهية ، يقول مارك توين : « ان أول ابريل يوم واحد في السنة يذكرنا بعقلتنا في جميع الأيام » ..

ويقول المتذرون بهذا اليوم ، ان الذين يولدون فيه يكتمون تاريخ ميلادهم ليثبتوا وجودهم ويستريحوا من ولع الناس بتذكيرهم ما يحاولون كتمانه ، وكذلك من يولد في اليوم التالي أو اليوم السابق .. ولكنهم يطلقون اسم مغفل ابريل على كل ضحية تعجز عليه الاكاذيب في يوم مجعل ل هذه الاكاذيب.

والعاشرة اللسانية أو القلبية تضحك وتهيء النفس للفكاهة ، ومن قبيلها قول بعض الخطباء على اثر حفلة موسيقية من الحفلات التي لا تكثر في القرى : « انها لحسن الحظ حفلة فادرة » .. ويشبه هذه العاشرة ان طيباً كتب شهادة وفاة فوضع اسمه في موضع سبب الوفاة .. بدلاً من موضع التوقيع !

والفلطة مع حسن النية تثير الغيظ فيمن يصاب بها وتثير الضحك فيمن يشاهدها ، واحدى النوادر المروية عن هذه الفلطات أن صاحب حانة كان يقف وراء البنك في حاته اذ هجم عليه قادم مستعجل وسأله في لهفة : « أعنديك شيء يزيل الفوائق ؟ » فلم يجيء صاحب الحانة ولكنه ضربه بالفوطة المبلولة على وجهه ، فنظر الرجل اليه شرزاً وهمّ أن يطش به لو لا أن بادره صاحب الحانة متذرراً ، وقال له اتنى أرحتك بهذه الضربة من الفوائق .. ثم ظهر ان الرجل لم يكن به فوائق وانما طلب الشراب الذي يريده لزوجته التي كانت في السيارة عند الباب !

وقد يتبع الفلطة حسن التخلص فتضيق إليها فكاهة على فكاهة :  
أخذ بعض المدعين الى احدى الولايات في حديث مع جارته ، وأحب أن يبدأه بالغيبة والنقد لأنها من الأحاديث المحبوبة في أمثال هذه المجتمعات ، فأناهى باللذم والحقيقة في رجل لا يعرفه على مسافة منهما ، وفاجأته السيدة قائلة : « ويحك ! انك تعني زوجي ! »  
قال : « نعم ! ولهذا أكرهه ! »

وأراد طبيب مستشفى المجانين أن يتصل برقم يحتاج الى التحدث مع صاحبه على عجل ، فجن جنونه لامال العاملة ومراؤتها في العواب ،

وصاح بها محتدماً : « ويلك ! أتعلمين من أنا ؟ » قالت : « لا . ولكنني  
أعلم أين أنت ! »

والغلوطة المطبعية احدى الغلطات الفكاهية أو المضحكة ، وهي خاصة بكل لغة وقلما تصلح للترجمة الى لغة أخرى ، ولكننا نضرب لها الأمثلة بما عرفناه من غلطات المطبعة عندنا واحداها غلطة الصفاف في نقل السطور بين اعلانات الزواج واعلانات الوفيات ، فإذا بالخبر يقرأ أن العروس قبل التهنة من المدعين ثم شيعوه بالرحمات والدعوات .

وحدث في الاحتفال برفع الستار عن تمثال نهضة مصر ان حكمدار العاصمة وقف على مقربة من كبار الرؤساء وقبعه على رأسه ومنشته في يده ، فعلقنا على ذلك في كتابة أخبار الحفلة ، واضطربت السطور بين يدي الصفاف فجرى الخبر على هذا المثال :

« وحضر فلان وفلان وصاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر ، ولوحظ عليه أنه كان يلبس قبعته ويعيث بمنشته وهو على مقربة من كبار ولاة الأمور . »

وكتب بعض المخبرين حديثاً مع مستر فريديرك ، فإذا به يسمى مستر فرييد باث !

وغلطات المطبعة من هذا القبيل لا تحصى في جميع اللغات ولكنها تزداد في اللغة العربية لتشابه بعض الحروف .

وحسن التخلص وحده قد يحول الموقف من الغضب الى الضحك ، ولو عرف السامع أنه ملتقى للخلاص من العرج واللوم .

ذهب عريس مع عروسه الى محطة السكة الحديد للسفر الى ضاحية يقضيان فيها شهر العسل ، ثم عاد الى عروسه من شباك التذاكر ومه تذكرة واحدة ، فصاحت به مفتبة :

ـ ما هذا ياعزيزي ! تذكرة واحدة ؟

فما كان أسرع منه الى الاعتذار بالكلمة الوحيدة التي تخطر على البال ، ولا يخفى على الزوجة أنها عذر مختلف للخلاص من هذا المأزق

الأليم في مطلع شهر العسل ، قال :

ـ ما هذا ياعزيزتي ؟ لقد أنسنتي نفسى !

وفوجيء موظف في مصرف ، وقد أغمض عينيه ، وكاد أن يستسلم للنعاس ..

قال الرئيس : « أناهم في أول النهار ؟ »

قال الموظف « اليقظ » : « على رسالتك ياسيدى الرئيس ، ألا أستطيع أن أغمض عيني لحظة للصلة قبل بدء العمل ؟ »

\* \* \*

ويذكرون من ضروب الضحك خيبة الحيلة وارتدادها على صاحبها ، أو ظهور الخديعة على من يفرط في الذكاء فلا يلبث أن يجد لنفسه ولغيره كأنه مفرط في الغباء .

دخل رجل على طبيب في « عيادته » فاعتتقد الطبيب أن الزائر مريض بطلب العلاج ، وأراد أن يوحى إليه بمقدار أجرته في غير مساومة ، فعمد إلى التليفون وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم : « نعم ! أنا الدكتور جونسون ! انتي مشغول جداً .. تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ .. انها كما أخبرتك خمسمائة ريال .. وأنت تذكر هذا ؟ .. حسن .. الى اللقاء اذن ! » ثم وضع سماعة التليفون والتفت إلى الزائر متسائلاً : « ماذا أستطيع أن أصنع لك ياسيدى ؟ »

فأجابه الزائر : « لاشيء .. انتي موظف مصلحة التليفونات الذي طلبه لصلاح تليفونك » !

وكان موظفان يعملان في مكتب واحد ، يفرغ أحدهما من عمله نحو الساعة الرابعة كل يوم ، ويبقى الآخر بعده ساعتين أو أكثر لإنجاز عمله . فسأل هذا صاحبه ذات يوم : « كيف تجز عملك في هذا الموعد ؟ » قال صاحبه : « انتي لا أنجزه أيها الزميل ، ولكنني كلما صادفت مسألة معضلة كتبت على الورقة : يعرض على مستر سمث . ولا بد أن يكون في هذا المكتب « مستر سمث » واحد على كل حال » !

فخلع صاحبه ستره ونظر اليه متهدياً وهو يقول كمن نشط من عقال : « الآن تبقى أنت للساعة السادسة .. أنا مستر سمث الذي تجهله . فاعرفه بعد اليوم » !

ومن أساليب الفكاهة الاقضية التي يسمونها بالاقضية السليمانية :

اتهم رجل بالسرقة ، فأراد المحامي أن يجر القاضى إلى شرك يغريه بالوقوع فيه ، وتحذق في دفاعه متعمداً فقال : « انكم تعاقبون رجالاً كاملاً بعمل ذراع واحدة هي التي جذبت السلعة المأخوذة من وراء التضيّان » ..

قال القاضى ، وهو يظن أنه أوقع المطحمى في شركه : « حسن ! نحن نحكم على الذراع بالسجن ستة أشهر ، ولينطلق صاحبها حيث يريد ». فخلع المتهم ذراعه المصنوعة وهم بالانصراف !

والمفارقة أحدي هذه المضحكات ، وعلى نحوها نصيحة الناسخ : « لا تقص على الاصلح حكاية يقف لها الشعر . فهو جهد ضائع ». وعلى نحوها تحذير المحذر : « لا تقتل الرجل الذى قبل زوجتك اليوم ، فإنك لم تقبلها منذ سنة ! »

ويأتى الضحك من تناقض المعانى الكثيرة في هذا التحذير . فمنها أن الرجل الذى قبل الزوجة لقى عقوبته التى تساوى القتل ومنها أنه قام بواجب أهمله الزوج . ومنها أنه لازم في المستقبل . ومنها أشباه ذلك كثير ...

وعلى نحوها : « إن غاية الكسل أن تستيقظ عند الفجر لكي تجده وقتاً طويلاً للدوران »

والصورة الهزلية ، في الكلام ، أهم هذه المضحكات ، ومن هذه الصور أن فلاناً بلغ من طول وجهه أن العلاق يتقاده أجر الحلاقة ضعفين ، وأن فلاناً بلغ من ضخامته أن ظله وقع على رجل فمات ، وأن فلاناً بلغ من طوله أنه يصعد على كرسى ليغسل أسنانه !

وسرعة العجواب مع المعالطة فيه لون من ألوان الفكاهة وتهيئة النفس  
للضحك ..

مصور له أولاد قباح .. يداعبه ناقد فيعجب له كيف يصنع أولاده  
بهذا القبح ويصنع صوره بذلك الجمال .  
والمصور يجيب : « لا عجب ياسidi . أولادي أصنعم في الظلام  
وصوري أصنعمها في النور ! »

وتقول فتاة لزميلتها : « لقد رفضت الزواج من فلان ، وهو منذ ثلاثة  
أشهر عاكف على الشراب .»

فتقول الرزميلة وهي تصطعن الجد في العجواب : « هذا الذي نسميه  
بالغا في احياء الافراح ! »  
وتهزا سيدة من زميلتها المؤلفة فتسألاها : « من الذي ألف لك كتابك  
الأخير ؟ انه بديع »

وجواب المؤلفة من جنس السؤال : « سرني والله انه أعجبك من  
الذي قرأه لك ؟ »

\*\*\*

و تعد « المقالب » من بواعث الضحك ، وهي الأكذوبة التي توقع  
السامع في بعض الغرم أو بعض التعب ، دون أن يصحها ضرر أليم .  
والبالغة فيها كاختلاق أخبار التعى ، والاعتadal فيها كالدعوة الى وليمة ،  
ولا وليمة ! أو تقديم الحلوى وفيها دواء .. غير مطلوب .

ومن الفكاهة باتباع الحكمـة بحكمة أخرى توافق مقدماتها ولا تخطر  
في الحسبان ، ومن أمثلتها أن الألفة في الحب تولد الاحتقار .. والاطفال ،  
وأن الفتاة التي تشبه الكتاب المقروء توضع مثله على الرف ، وأن تقاحة  
في اليوم تبعد عنك الطبيب ، ولكن بصلة في اليوم مفعولها أكيد .. تبعد  
عنك كل انسان ، وأن اثنين لازمان للشجار ، ولا زمان أيضا للزواج ،  
وأن المال ينطق .. والمال يخرب !

والسخرية احدى هذه الالوان ، ومن السخرية أن يقول القائل جاداً

كأنه يعني ما يقول : « ما بال فلان يتقم مني كل هذا الاتقام ؟ انتي لم أحسن اليه كل هذا الاحسان ؟ »

وذهب فتى الى شباك البريد ، فوجد الموظفين في شاغل عنه بحديث طويل عن زي فستان السهرة الذي كانت تلبسه أحدهما ، فتألق الفتى في الوصف والرجاء ، وطلب الى إحداهما أن تتفضل باعطائه طابعاً قرمزيّاً الوسط وردي الحافة منقوش الاطراف والجوانب ، ومشغولاً كله ولا يساوي مع هذا أكثر من ثلاثة مليمات !

والمحاكاة بباب من ابواب السخرية ، تتشابه الأمثلة عليها ، ويدخل فيها التهكم والمجارة .

خلا أحد المدعين باحدى المدعوات في سهرة الرقص فقبلها ، واستجابت لقبلته لحظة غير قصيرة ، ثم قالت له بعد أن افترقت شفتاها وشفتها : « أتعلم أنها أول قبلة رضيت بها في حياتي ؟ » فقال الفتى كأنه يجاريها : « نعم . لأنك على ما يظهر ورثت الشيء الكثير بغير تعليم . »

وتحدث بعض الجلساء في دعوة عامة عن الثروة ووسائل جمعها ، كأنه يوهم السامعين أنه من أصحابها ، فأثبتت احدى الجالسات على سرعة ذهنه ، لأنها يعرف الكثير عن المكافئ مع قلة ما يكسب !

\* \* \*

والنصائح المطردة ، مع القياس الظاهر ، مع استحالتها بعد التأمل اليسير ، أحد هذه الأقسام التي اصطلاحوا على تقسيمها في الصحافة الفكاهية ، ومن قبيلها هذه النصائح :

قل لا لمن يهمون بالزواج .

وقل لا لمن يهمون بالطلاق .

وقل لا لمن يهمون بالموت .

وقل لا لمن يهمون بالولادة .

ويتمشى على أسلوب هذه النصائح الهازلة جواب رجل أصيب بالزكام وأشار عليه صديق بوصفه ناجعة ، فقال له : « نعم . اليوم أعمل بوصفه

جونس ، وغداً بوصفة سميث ، وبعد غد بوصفة براون ، فان بقيت مني  
بقية لوصفتكم يوم الأحد فهو دوركم !

وقد تطرد الوصايا التالية مع هذا النسق من النصيحة :

« لا تطرد الذبابة من جبهة امرأتك بمطرقة !

« لا تقلق اذا علمت أن كل شيء يذهب في الفسيل ، حتى البدلة !

« لا تتنفسخ وأنت تعلم أن الصفر أسمن الأرقام !

« لا تحمل هم الزبدة . انك تصنعها من حشائش الأرض ، متى تيسر  
البقرة !

« لا تتردد في بذل النصيحة ، لا أحد سيسمعها .

« لا تعمل بنصيحة ، وأولها هذه » !

\* \* \*

وعندهم فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » مدارها على المقابلة بين  
هذين الطرفين في مسائل الزواج على الخصوص ، وهذه أمثلة منها :

« قبل الزواج تقبل الفتاة الفتى لتربيته ، وبعد الزواج تربيه لتقبله ».

« قبل الزواج يأخذ الرجل بيد المرأة حباً ، وبعد الزواج يأخذ يدها  
دفعاً عن النفس ..»

« قبل الزواج يقول الرجل لابد أن ينفذ أمري في منزلي أو أعرف  
السبب ، وبعد الزواج يعرف السبب ! »

« قبل الزواج يسعى الرجل الى المرأة ، وبعد الزواج يسعى للمرأة ! »

« قلما يكون الرجل بالزايا التي تراها فيه المرأة قبل الزواج ، وقلما  
يكون بالعيوب التي تراها فيه بعد الزواج ..»

« في بعض البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج ، وفي البلاد  
الغربية لا يراها بعده ! »

ويتحقق بهذه الروجيات تهمك المحدثات والمحدثين من بنات « الدقة  
القديمة » كما يقال في مصر باللغة « البلدية » .. ومنه أمثال هذه  
المقارنة :

« البت من الدقة القديمة تحرر اذا خجلت ، وبتها العصرية تخجل  
اذا احررت ! »

« والبت من الدقة القديمة كانت تذهب إلى المدينة وتقف عند جماعة  
الشابات المسيحيات ، أما بتها العصرية فانها تذهب الى المدينة ولا تقف  
عند شيء ! »

« والبت من الدقة القديمة كانت تشعر بالاهانة اذا عرض عليها  
الشراب ، وأما بتها العصرية فتبليغ الاهانة ».

« والبت من الدقة القديمة كانت لا تجسر على تناول يد فاتها ، ولكن  
بتها العصرية لا تجسر على تركها ».

« والرجل من الدقة القديمة له رأس يصلح للحسابات ، ولكن ابنه  
العرضي له عين تنظر اليها » !

وهم يصطحبون على تسمية انسان مشهور ينسبون اليه الحكمة التي  
يخترعنها ساعتها ، من قبيل قول الشرقيين « قال الراوي » عند استاد  
الكلام الذي يعلم السامعون انهم مخترعوه .

وأشهر هؤلاء الحكماء المختارين للإسناد الصادق والمدعى حكيم  
الصين كونتشيوس ،

فمن كلامه المزعوم ، قال كونتشيوس : « الرجل الذي يسوق بيد  
واحدة يصطدم بالكنيسة ».

وهم يعنيون بذلك خطر الزواج ، لأن الرجل الذي يسوق بيد واحدة  
يخسر امرأة معه في السيارة باليد الأخرى .

ومن كلامه المزعوم ، قال كونتشيوس : « الفتاة التي لها مستقبل  
تحذر الرجل الذي له ماض . »

ومن كلامه : « الرجل الذي يفازل المرأة على المصعد ليس في  
مستواها ! »

ومن الأضاحيك ضرب من المزاح الفارغ الذي يشبه ما يسمى في الزجل  
العربي الحديث بالدور المجنون :

يسأل السائل محدثه : « ألم أرك في بلدة بفالو ؟ »  
فيجيبه محدثه : « لم أذهب قط الى تلك البلدة ».  
ويعود السائل فيقول : « ولا أنا ! »  
ويجري الحوار بين اثنين على هذا المنوال :

- ماذا تصنع ؟
- أبحث عن ورقة ضائعة .
- أين سقطت منك ؟
- في الشارع الثامن والثلاثين
- لكننا في الشارع الأربعين !
- نعم ، أعلم ذلك ، ولكن هنا نور !

والحكمة التي « يفلت » منها درسها محسوبة في هذه الأضاحي :  
تقض المدرسة على الأطفال قصة الحمل الذي لم يسمع كلام أمه فأكله  
الذئب ، فيقول أحد الأطفال في براءة أو في خبث : « والحمل الذي سمع  
كلامها أكلناه نحن ! »  
أو يقول المدرس لتلاميذه الصغار : « إن العصفور المبكر يلتقط  
الدودة » ..

فيقول أحدهم : « والدودة المبكرة يلتقطها العصفور » !

ومن المفيد أن نلاحظ هنا أن هذه « التقسيمات » لا تبدو غريبة للقاريء العربي الذي ألمّ بعلوم البيان والمعانوي والبديع ، لأن الكثير منها مقرر بتعريفاته وأمثالته وشواهده في تلك العلوم ، ومامن قاريء عربي ألمّ  
بعلوم البلاغة بعض الالام الا وهو يعرف التورية والمقابلة والمشاكلة ،  
والهزل الذي يراد به الجد ، وتأكيد المدح بما يشبه الدم ، وتجاهل  
العارف ، والاضمار في مقام الاظهار ، وخروج الكلام على خلاف مقتضى  
الظاهر ، والتشبيه الملتوى والمفروق ، والفصل والوصل ، والقلب  
والالتفاف والتغليب ، والكتابية والتحريف والتصحيف .

كل هذا مألف للقاريء العربي من بلاغة لغته ، كما يألف من كتب

الصناعة اللغوية جميئاً محكم القول في جوامن الكلم والفرائد والأوابد والمثل السائر واللحن الذي يحسب من الألغاز والألغاز التي تحسب من ضروب الرمز أو الإيهام والتعمية .

إلا إننا لم نشا أن نطلق هذه التقسيمات والتعريفات على ضروب الفكاهة المصطلح عليها بين المشتغلين بالكتابة الصحفية وما إليها ، لأن مصطلحات الصناعة اللغوية وضعت في لغة العرب لتميز درجات البلاغة ومعانها ، ولم توضع هذه المصطلحات الحديثة عند الغربيين لشيء من ذلك وإنما وضعت للتفرقة بين موضوع موضوع من مادة الصعافة الفكاهية ..

وأمر آخر يباعد بين هذه المصطلحات الحديثة وبين مصطلحات علوم البلاغة العربية . وذلك أن المصطلحات الحديثة لفنون الأضافات لم تزل على فجاجتها الأولى ولم تبلغ بعد من الدقة في الأسماء والتعريفات وال Shawahed مبلغ نظائرها في علوم البديع والمعاني والبيان ، وقد يختلط بعضها لاتفاقه في مصدر الشعور وأثره فلا يتم التعريف بينها إلا بحكم العادة بين المشتغلين بعمل واحد يعرفون مواده وأجزاءه بالاشارة والنظرية العابرة ولا يلزم أن يقيموا الحدود بينها بالفواصل المنطقية أو النفسانية .

على أن الاختلاف بين عناوين الفكاهات — ولو بحكم العادة — جدير أن توقف عنده ونتظر مايليه من التعريفات والتقسيمات التي ترجع إلى اختلاف في أصول الموضوعات أو اختلاف في طبيعة الشعور . وسوف يأتي الوقت الذي تميز فيه بين ضحكه وضحكة كما تميز بين كلمة وكلمة ، ونعني بذلك تميز الفهم والتفسير ولا نقصر الأمر على الشعور والتلبية النفسانية ، فأننا الآن تميز بشعورنا بين ضحكات مختلفات كما كان آباءنا وأجدادنا يميزون بينها بتبادل الشعور والتلبية بين نفس ونفس ، وليس هذا ما يعنيه طلاب التمييز بين أفنان الفكاهات والمضحكتات في الدراسات المصرية ، سواء قصدوا من هذا التمييز تيسير العمل بين المشتركين فيه كما يتيسر للعاملين في حانوت واحد أن يميزوا أنواعه بحرف

مرقوم على الرف أو علامة منقوشة على الصندوق ، أو قصدوا من هذا التمييز أن ينفدوه الى ينابيع الشعور المتعقة في النفس البشرية ، حيث تصدر المضحكات والبكاءات وتكمم أسباب الفرائض والمؤلفات ، وما ينبغي لنا أن نزعم أننا نفهم نفوسنا حق فهمها ونحن نجهل الفرق بين ما يضحكها وما يكثيها وما يقع منها موقع الالفة أو موقع الغرابة في أعمق الأعماق ..

وربما كان اسم « الضحك » مغرياً بالاستخفاف منافيًّا للجد في بواعته ومعانيه ..

ولكن البحث عن أسباب الضحك جد كاصدق الجد الذي يعرفنا بنفوسنا كما يعرفنا بها أعظم المظالم وأفধ المحننات . بل ربما كان الأمر « المحنن » يسير التعليل لأننا لا نحار فيه ولا يخفى علينا أنه يرجع الى حب السلامة وكراهة الضرر والاصابة ، وربما كان لنا نحن الآدميين شركاء في الشعور بالمحننات بين الحيوانات العليا وبعض الحيوانات الدنيا ، لأن الحزن عندها بمشابه رد الفعل الجسدي لكل ألم وكل مكروه . أما الضحك فليس من سهولة التفسير بهذه المزلة ، ولا سيما الضحك الذي يتشعب ويتفرع وتباعد مصادره من النفس أو تقارب — مع التفرقة بينها في الأسماء — حتى يتبس موضوع منها بموضوع وعنوان بعنوان ..

هذه عوارض نفسية يختص بها الإنسان ولا يشاركه فيها حيوان من الحيوانات السفلية أو العليا ، بل يعتقد الكثيرون من علماء الجناس البشرية أن القبائل البدائية من الناس لا تضحك ولا تدرك الضحك ، وأن هذه الظاهرة المترقبة في سلم الإنسانية لا تشاهد بين الهمج إلا بعوارض العصبية التي لا تدخل في حيز الإرادة ، كأنها ضحكة المقرور أو ضحكة المتشنج ، وحتى هذه الضحكات التي تشبه العوارض المرضية لا تشاهد بين الهمج على كثرة تجعلهم يلتقطون اليها ويسموها بكلمة من كلساتهم القليلة ، فهي والتخطيط من الصراع عندهم سواء .

لا جرم يجد الفلاسفة غاية العجد في النظر الى الضحك وأسبابه منذ عهد بعيد ، ولا جرم يجدون اليوم وغداً في هذه الدراسة بين نفسيتين واجتماعيين ونقاد للفنون والآداب .  
ونحن في هذه الرسالة نريد أن نعرف « جحا » ونريد أن نعرف الإنسانية كلها بهذه المعرفة ..

\*\*\*

وربما كان بعض ما تقدم من التعريفات مفيداً لنا في وضع جحا بموضعيه من الحياة الإنسانية حيث كانت في كل مجتمع وكل حقبة وكل عنصر وكل قبيل ، فان بعض هذه التعريفات يرينا ان « جحا » ليس بالغريب المجهول في بيئه من البيئات التي تضحك كما نضحك وتستغرب من نوادر جحا وبوادره ما يستغرب ، وبعض الأمثلة التي تقدمت تستطيع أن تنسبها الى جحا فلا تختلف في معدها ما ينسب اليه ، وهذه احدى العلامات على سريان الضحك مسرى اللغة بين بني الإنسان ، فهو كاللغة يؤدي لجميع الناس معاني مشتركة يتقاربون بها على تباعد المنازل والأجناس ، وهو كاللغة يختلف بين وطن ووطن وبين جنس وجنس ، كما يختلف بين قائل وقائل في مناهج التعبير بين المتكلمين بلسان واحد في أسرة واحدة .  
وسنعرف « جحا » حقاً حين نعرف لماذا يضحك الناس عامة بغير اختلاف ، ونعرف لماذا يضحكون خاصة من شيء دون شيء ، ومن إنسان دون إنسان ..

وسنجد « جحا » واحداً ولكنه « جحا » الناس أجمعين ، لأن الناس أجمعين يضحكون منه وإن لم يظهر في غير موطن واحد أو مواطن متشابهة تحسب كالوطن الواحد . لأن الإنسان حيوان ضاحك حيث كان ، ولعله ضحك آلاف السنين ولم يفهم بعد أسباب الضحك على جليتها ، وسرى بعد - مقدار ما فهمه ويفهمه .  
وسنضحك من بعضها وهي صحيحة أو باطلة ، فنتعلم من الضحك كيف تتلقى تلکم الأسباب .

## لماذا نضحك؟

بعض الناس يحبون المتعة ولا يعنهم لماذا يستمتعون بها ، وبعضهم تتم متعته بها اذا عرف أسبابها .

قلت في الكلام عن سارة وهام من قصة سارة : « تتسرب الى المنزل أنياء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة في معظم الأيام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الأغاني ، أو يلعبان الدومينية قليلاً ، وهي لعبة تحدّقها سارة ، ويعتقد همام أنها أصح الألعاب وأشدّها مطابقة للحياة .. فالشطرنج والضامة يعلوان على الحيلة ، وكل شيء فيها مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعود على المصادفة والذكاء ، وكل شيء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة .. أما الدومينية ففيها حساب للمصادفة ، وفيها حساب للتديير ، وفيها حساب لللقيين ، وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك ، وللغيب الذي تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وترى أنه ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء .. ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هوائه ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما في يديك .

« قالت سارة يوماً ، بعد ما استعادته شرح فلسفة الدومينية للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : « أولاً تستمتع بشيء الا أن تكون له فلسفة » ؟

قال : « لا . بل أنا أستمتع بشيء ثم أبحث عن فلسفته ، وانني لأبحث عن فلسفته كما يجил الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولوهاته ، تكي لا يقى جانب من النفس لا يأخذ نصيحة من متناعه ، فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه وأستقصي معناه .. »

وأقول في صدد البحث عن أسباب الضحك أنتي أشبه هماماً في هذه الخلية ، وانتي أحب أن أفهم ما احسه وان احس ما افهمه ، وانتي جريت على ذلك في البحث عن اسباب الضحك منذ بدأت الكتابة وتدونين الخواطر والأفكار بين الخامسة عشرة والعشرين ، ولهذا أذكر هذه العادة فيما نحن بصدده . لأنني اذا مررت بما اعتقدته من أسباب الضحك قبل العشرين وبعد العشرين وفي خلال النظر والمطالعة والتجربة الى اليوم – تدرجت بهذه الأسباب في أطوار طبيعية تعيّن على المقارنة والتسلّع والوصول الى النتيجة ..

كانت لي في نحو السادسة عشرة مفكرة يومية أدون فيها خواطري وتعليقاتي ، جمعتها بعد ذلك باسم خلاصة اليومية وحذفت منها عند الطبع كثيراً من الخصوصيات التي ترتبط بذلك الخواطر لا ذكره الآن .

وأحسبني قد كتبت فيها عن المضحكات أكثر مما بقي فيها بالنسخة المطبوعة ، ولكنني لاحظت فيها أن المضحكات أكثر من الضحك وقلت بهذا المعنى في الصفحة السادسة عشرة من النسخة المطبوعة :

« ان المضحكات ليست بالقليلة ، ولكن الذين يحسنون صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضروري أن نقتنش عن رجل من أمثال مولير لنغرب في الضحك ، فان في كل رجل من الذين نراهم ونعاشرهم موطنًا للنقص ، وفي كل عمل موضعًا للكلفة والتصنع .. والوادع الناعم البال – ولو كان مغموراً بالشقاء – ذلك الرجل الذي يعرف كيف يفطن الى مواطن الفرور والرياء من أعمال الانسان ، فإنه لا يطبق فمه مادام يفتح عينيه » ..

وهنا كتب أقرن أسباب الضحك بملحوظة النقص والادعاء والفسرور والكلفة التي يحاول صاحبها أن يخدع الناس عن الحقيقة ، وهي واضحة لم يلتقط اليها .

ولا أذكر أنتي تحررت الترتيب عند طبع الخواطر والمنكريات ، ولكنني أجد في الصفحة الثالثة والأربعين هذه الخاطرة عن الضحك ، وفيها أقول

إن « للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغبطة  
بأنفسنا ، أما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكشفه  
في سوانا ... »

« ولما كان الإنسان لا يضحك إلا سروراً برجحانه فهو لا يضحك في  
الأحوال التي رجحانه فيها معروف غير محدود . فالرجل المعروف المكانة  
ليس يضحك من تصرف الصعلوك الوضيع وإن كان مضحكاً في ذاته ، إلا  
إذا كان يسخر من أهل طبة لياهي بطبقته أو من أهل بلاد لياهي ببلاده .. »  
« وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا يناله وحده ...  
فلما كان ملوك أوربا وأمراؤها وسواسها وقادها مجتمعين في سنة ١٨١٥  
في فيينا وهم واثقون أنهم أحکموا الشبكة على بونابرت وقد جلسوا  
يصلحون ما أفسده ويعيدون مادرسه من معالم أوربا — أعلن في المجلس ..  
ان الرجل قد أفلت من جزيرة إلبا وانه قد عاد ثانية امبراطوراً على فرنسا .  
فوجموا هنية ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأنما يقول كل منهم :  
ان هذا الكوريسيكى لم يبعث بي وحدى ، بل عبث بنا جميعاً . »

ويلى هذه الخاطرة عن الضحك خاطرة عن البكاء قلت فيها ان الإنسان  
« ييكي لغير ما يضحك له : ييكي حين يظهر به النقص والعجز ظهوراً  
لا سيل الى المداجحة فيه . ييكي في الموضع التي يشعر لديها بالقهر  
التام ويتحقق له تجرده من الحول والقوة حيالها . »

« في تلك الموضع يقول المسلم متمنلاً : لا حول ولا قوة الا بالله .  
كأنه لا يريد أن يكون ضعيفاً الا أمام الله الذى يتساوى الناس عزيزهم  
وذليلهم في الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال المستضعفون أكثر الناس  
بكاء لأنهم أقلهم اقتداراً .. على أن عدم البكاء لا يفيد في أكثر الأحيان  
القدرة على دفع المصائب ، فان من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن  
البكاء ويتكلف الجلد والسكنون حتى في الفجائع الفادحة كأنهم يأبون  
الاقرار بالانهيار على كل حال . »

## الضحك والبكاء نقىضان

في هذه الحاطرة حسبت أن الضحك والبكاء نقىضان ، وان الانسان يبكي لغير ما يضحك له ، ومدار الضحك والبكاء معًا على الغبطة بالنفس أو نقضها . فاذا اغتبط الانسان بنفسه ضحك واذا شعر بالمهانة والتقص بكى ..

وليست هذه المقابلة بالصحيحة في جميع نواحها ، اذ نحن لا يضحكنا كل شيء لا يبكيانا ، وقد يكون الشيء مضحكاً ومبكياً كما يقول أبو الطيب :

وكم ذا بمصر من المضكت ولكنه ضحك كالبكاء

والاصل أن الضحك لغة تعبّر عن كثير من الحالات كما قدمنا في الفصل السابق ، وليس من اللازم أن يقابل البكاء في كل حاله ، وقد قال الشاعر بيرون وغيره : «انتي أضحك لكي لا أبكي» .. كأنما يقولون إن الضحك بدل من البكاء في بعض الأحوال ، ويشبه هذا من بعيد قولنا في تلك الحاطرة أن بعض الناس يتتكلفون الجلد والسكنون حتى في الفجائع الفادحة لأنهم يأبون الاقرار بالانقهار .

ونقول إنه شبه بعيد .. لأن الذي يضحك «لكي لا يبكي» يضحك حقاً ولا يتكلف الجلد . بل يقدر على الضحك لأنه يكشف من أسبابه ماليس يكشفه غيره ، أو لأنه يوسع النظر الى المسألة ولا يحصرها في أضيق حدودها . فهو ضاحك لأسباب أوسع من الأسباب التي تبكي غيره ، وان لم تتناقض هذه الأسباب وتلك الأسباب .

وقد كان آخر ما دوته في خلاصة اليومية عن الضحك كلمة في الصفحة السادسة والثمانين ، فحوارها أن قوة الاستحضار في الذهن لها شأن في الشعور بالمضحكات وغيرها .. «فمن أهل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر أمراً مضى فيضحك أو يبكي كما لو كان الأمر قد وقع له فعلاً في ذلك الحين ... »

وفي ختام هذه الخاطرة أقول إن «الرحمة ليست إذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون ، ولكنها طبيعة من طبائع الإنسان ، والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الإنسان لارتقاء تركيبيه يأخذ الشبيه بالشبيه ، وذلك مالم يصل اليه الحيوان.»

وفحوى هذه الآراء في مجتمعها أن الشعور بالمضحكات والمحزنات ملكة إنسانية وجدت في الإنسان ولم توجد في الحيوانات لأنه يدرك المشابهة ويحس بالتعاطف ويستدعي الخواطر من قريب أو بعيد .

### ملكة السخرية

ولست أحصي تطور هذه الآراء خلال الفترة التي تلت طبع «خلاصة اليومية» سنة ١٩١٢ .

ولم أقصد خلال هذه الفترة إلى كتابة شيء أبسط فيه القول عن أسباب الضحك في عمومه ، وإنما كنت أعود على الموضوع كلما استدعاه التعقيب على سؤالة تمتُّ إليه ، كسخرية أبي العلاء والصور الفكاهية في المرأة من تأليف الأستاذ عبد العزيز البشري رحمة الله .

فابتداًت القول عن ملكرة السخر عند الموري سائلاً : « لم يسخر الإنسان ؟ »

ثم أجبت قائلًا : « انه ينظر إلى مواطن الكذب من دعاوى الناس فييتسم ، وينظر إلى لجاجهم في الطمع وإعانتهم أنفسهم في غير طائل فييتسم ، وهذا هو العبث . وذلك هو الغرور .

« فالعجب والغرور بابان من أبواب السخر ، بل هما جماع أبوابه كافة ، وكل ما أضحك من أعمال الناس فانيا هو لون من ألوان الغرور أو ضرب من ضروب العبث ، وكثيراً ما يتلقيان . فان الغرور هو تجاوز الإنسان قدره والعبث هو السعي في غير جدوى ، ولا يكون هذا في أكثر الأحيان الا عن اغترار من المرء بنفسه وتعذر منه لطوره .

« والناس يعلمون ذلك بالبداهة . فهم يعلمون أن الفرور والعبث مادة الضحك وجرثومته التي يتفرع منها كل مضحك من الأعمال والأقوال ، ويتجربون ذلك كل يوم في مداعباتهم لصغارهم وامتحانهم لقوة أطفالهم ، يقضم الرجل كفه لابنه الصغير على غير شيء ، فيأخذه بأن يفتحها ويعده بكل ما يجد فيها اذا هو قوي على فتحها ، فيجاهد الطفل في ذلك ما يجاهد : يقوم ويقعد ، ويشتد ويختد ، ويلتوى ويعتدل ، ويرفع اصبعاً بعد اصبع ، فإذا الذي رفعه قد عاد فأطبق مرة أخرى ، ويعيشه الجهد فيركن الى الملق والخدية ، وهو في كل هذا يحسب نفسه قادراً على أن يغلب آباء عنوة وقسرأً أو يغلبه خديعة ومكرأً ، وهذا هو الفرور .

« ثم تلين تلك القبضة فيفتحها فإذا هي خاوية وإذا بذلك العناء الذي أجهده وبهره قد ذهب سدى ، وهذا هو العبث ، ومن هذا وذلك تضحكنا الطفولة وتعجبنا غرارتها وكبرياتها ونتخاذلها تسلية ولهوأ . ولكن هل يضحكنا من الكبار شيء غير هذا ؟ وهل مهازل الحياة ومساخر التمثيل الا صورة مكثرة من هذه اللعبة الصبيانية وسذاجة مرکبة من هذه السذاجة البسيطة ؟

« وإذا كان هذا معدن السخر وأصل الدعاية فما أجر رجلاً كصاحب رسالة الغفران أن يكون ساخراً ! بل ما أجره ألا يكون له عمل في الحياة غير السخر ؟ انه رجل استخف بالحياة جموعاً ، وهانت عليه الدنيا بما وسعت ، فما من دعوى من دعاوى الناس تتنزه عن الفرور في اعتقاده ، وما من غاية من غايات الناس لا تنتهي في تقديره الى عبث فارغ وخديعة ظاهرة : كلهم معروف وكلهم عابت وكلهم متعلق من الأقدار بمثل تلك القبضة التي يعيشه أن يفض اصبعاً منها ... حتى اذا فضها أو خطط في وهم أنه فضها لم يجد ثم شيئاً ، أو وجدتها ملائى بما يشبه الفراغ سخية بما ليس يختلف عن العرمان .. وكلهم محظقب حلة لا تنبع ومتقلد سلاح لا يصيب :

ورب كمّي يحمل السيف صارماً  
الى الحرب والاقدار تلهمو وتسخر

لا . بل هبه وصل الى الحرب بسيفه الصارم وقاتل وظفر وسلم ،  
فماذا عساه يغنم ؟ أعلمه الثناء على الأقواء ؟ أو لعله عرش مملكة ؟ .. إن ..  
كان ذاك - وقلْ أن يكون - فلعمرا أبي العلاء ما قصارى النساء  
والسمعة ؟ ..

وما يبالى الميت في لحده بذمه شُعّيْت او حمده  
وما العروش والدول ؟ وما الملوك والأقيال ؟ فلكم غير على هذه الأرض  
من جيل وزال من مجد أئل وملك عريض طويل :  
وكم نزل القييل من منبر قعاد الى عنصر في الثرى  
وأخرج من ملكه عاريًّا وخلف مملكة بالعرا ..  
... وهل نسينا أن القبر يضحك من تراحم الأضداد ؟ فهكذا تتشابه  
الأمور فإذا الهزل كالجدع وإذا الحلم كالعيان !

وشبيه صوت النعي اذا قي س بصوت البشير في كل ناد  
لا بل هو كل شيء ككل شيء . هو العلم كالجهل والحق كالباطل والمهدى  
كالضلal ..

وقد زعموا الافلاك يدركها البلى فان كان حقاً فالنجاسة كالطهر  
فعلام اذن يزعج الانسان نفسه ؟ وبأي شيء يحصل ؟ وما اجتهاده في  
التدبر والتقدير وتغيير ما كان بما سيكون ؟ الا أنها لنسعد ونشقى شيئاً ،  
ونسعى ونسكن شيئاً ، ونرجو ونقطط شيئاً ، ونبكي ونضحك شيئاً ، ومن  
وراء ذلك كله هاتف يهتف بنا في غير رفق ولا رحمة :  
« تقرون والفالك المحرّك دائـر وتقـدون فتضـحك الـاقـدار »

### مود النكتة

كانت كتابة هذا الفصل بعد طبع خلاصة اليومية باحدى عشرة سنة ،  
وبعد كتابته بأربع سنوات عقبت على كتاب « في المرأة » للأستاذ البشري

الذي يقول في مقدمته :

« ان مرد النكتة الى خلل في القياس المنطقي باهدار احدى مقدماته او تزييفها او بوصلها بحكم التورية ونحوها بما لا تتصل به في حكم المطلق المستقيم . فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي اليه العقل لو استقامت مقدمات القياس ... وهذا الذي يبعث العجب ويثير الضحك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع ، ولا يعزب عنك كذلك أن النكتة اذا لم تكن محكمة التلقيق متقدمة التزييف بحيث يحتاج في ادراكهما الى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليحة لا طعم لها في مساغ الكلام »

وكان تعقيبي على مقدمة الأستاذ البشري « انه على صواب في جزء واحد من أجزاء هذا التعريف وهو الذي يقول فيه إن الخلل في القياس المنطقي مضحك وأن التزييف والتلقيق داعية من دواعي السخرية . أما الجزء الذي نراه على غير الصواب فيه فهو قوله ان النكتة هي التي تشتمل على الخلل أو على التلقيق والتزييف . لأن اشتغال النكتة على خلل في القياس يسقطها ويلحقها بالهدر والمجانة ، والذي نظنه نحن ان النكتة تصحّننا لأنها تفضح الخلل وتهتك الدعوى الملفقة وتطلعنا على سخافة العقول التي لا يستقيم تفكيرها ولا تطرد حجتها . ومن ثم تكون النكتة هي المنطق الصحيح وهي الحجة المفحمة وهي البرهان الذي يرجع بالبراهين في معرض الجدال »

« .. وقد يسأل سائل : ولماذا تصحّننا النكتة السريعة ولا يضحكنا القياس المفصل والفضيحة المبوطة ؟ فجواب هذا قد يوجد في تعليل هربرت سبنسر للضحك وهو خير تعليل وقفنا عليه في كتابة المعاصرين ، ولا تقصد هنا الا تعليل حرفة الضحك الجسدية لا تعليل أسباب الضحك . فان السبب الذي يذكره برجسون مثلاً رجيح صالح لتقسيم كثير من علل المضحكات ، وعني رأيه الذي يذهب فيه الى أننا نضحك من كل تصرف في الانسان يشبه التصرف الآلي الحالى من التفكير ، ونحن مع هذا نقول ان التماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدي الى رأي

صاحب ، لأن الضحك وان كان اسمه واحداً الا انه ليس بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد .

« ونعود الى رأي سبنسر بعد هذا الاستطراد فنقول ان الضحك عنده ينشأ من تحول الاحساس فجأة من الأعصاب الى العضلات . فان من المقرر في النظريات أن الاحساس اذا اشتد وألحف على الأعصاب تجاوزها الى العضلات فظهر عليها في حركة عنيفة او رقيقة على حسب قوته واشتداذه ، فإذا جلس الاحساس في طريقه فجأة تحول بغیر ارادتنا من الأعصاب الى أسهل العضلات حركة وأسرعها تأثيراً وهي عضلات الوجه والشفتين ثم عضلات العنق والرئتين ، فتتحرک بالابتسام أو بالضحك أو بالتهكم أو بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك وتهتز له عضلات الجسم كله . والدليل على ذلك أننا نضحك اذا غلبنا الاحساس وتحول من العصب الى العضل أيّاً كان الموجي به والباعث عليه . فتضحك من الفيظ والألم وتضحك الضحكة المستيرية التي يفرج بها المكروب عن أعصابه المقطومة كأنما يخفف عنها بنقل شيء من ضغط الاحساس عليها الى العضلات ... فالضحك هو الانتقال فجأة من الاحساس الى الحركة العضلية ، والنكبة السريعة تضحكنا لأنها تفاجيء التفكير بحالة غير مرقبة وتعجله عن انتظار النتيجة في طريقها المهد المألف . ومن الأمثلة التي أوردها سبنسر للمضحكات منظر جدي يظهر على المسرح فجأة بين حبيبين يتناجيان ... فاحساس النظارة هنا يمسي في طريق الفزل ويتنظر أن يمشي فيه الى نهايته المناسبة له ويوجه الذهن الى هذه الناحية . ولكنه لايلبث أن يلمع الجدي على المسرح حتى يختبس في موضعه ويتحوال على غير انتظار الى ناحية أخرى ، فيندفع الاحساس من الأعصاب الى العضلات وتحدث الحركة التي نسميها الضحك حين يختلج بها الفم والرستان ... وفي كل نكتة شيء من هذا التحوال الذي مثل له سبنسر ينجم عن المفاجأة بما ليس في الحساب ويخلص في اظهار نتيجة غير النتيجة التي تبدى الى الذهن لأول نظرة من الشيء المضحك منه ..

« فالنكتة الصادقة هي الحجة التي تظهر لنا فساد الأقىسة المختلفة واضطربان النتيجة التي تأتي في غير موضعها وتلتوي على مقدماتها . وهذه هي النكات التي تقيد النفس لأنها تروح عنها وتقيد الذهن لأنها ضرب من المرأة على التفكير السريع وشحذ لفهمه وتقويم له على المنطق السديد . ولنكتة واحدة يفهمها الطالب حق الفهم خير من مائة درس في المنطق يقرؤها ويعيدها وهو لا يحسن القياس ولا يفقه الدليل .

« وكتاب الأوصاف المضحكة يعتمدون في نكتاتهم على ملوكات كثيرة قد ينافق بعضها بعضاً وقد لا يجتمع منها ملكتان لكاتب واحد . فمنهم من يعتمد على ملكة السخر وهو يحتاج إلى الذكاء وادرأك الفروق وقد يصحبه شيء من الجد والمرارة ، ومنهم من يعتمد على الدعاية وهي تحتاج إلى مرح في الطبيعة مرجعه في الغالب إلى المزاج لا إلى الدرس والتعليم ، ومنهم من يعتمد على الهزل وهو خلق ينشأ عن جهل بتقدير عظام الأمور وقد يستحل الضحك في جلائل الخطوب ، ومنهم من يعتمد على العطف وهو يرضي الإنسان عن نقائص الناس ويوضحه كما يرضي الوالد الشقيق عن جهل ولديه الصغير ، وخير هذه الملوكات وأعلاها ملكة السخر بيازجها العطف ، وهي عبقرية لا تقل في اقتدارها على تجميل الحياة وتنقيف النفوس والأذواق عن عبقرية الفلسفة وعبقرية الشعر والتلحين . . . »

وقد عنّ لي غير مرة بعد كتابة الفصل المتقدم عن النكتة ( في سنة ١٩٢٧ ) أن أتوفّر على تصنيف كتاب واف أبسط فيه منادح البحث عن مصادر الأحساس التي تمتزج بالفنون والأداب كالاحساس بالجمال والاحساس بالجلال والاحساس بالقدس والاحساس بالملحيم Pretty والاحساس بالضحك على أنواعه ، ولكنني وجدت الوقت يضيق عن استيعاب هذا البحث لضخامته وصعوبة مسائله وجدّته في اللغة العربية وسائر اللغات ، فجعلت المنس هذا الموضوع متفرقاً من حين إلى حين ، وكان أهم ما لمسته في مسألة الفكاهة توضيح أقسام السخرية من حيث النية ، اذ يكون منها ما يلتجأ إليه الساخر كأنه يفتش عن العيوب الإنسانية

مستريحاً إلى وجودها وبقائها ، ويكون منها ما يلجمُ إليه الساخر آسفاً  
مضطرباً كالأب الذي يعرف عيوب ولده ويبالغ فيها ويفرط في التأنيب  
فيقول له انه لا يفلح ولا يرجى وهو في الواقع أول من يرجو له الفلاح  
ويتمنى لو يكذب ظنه في تلك العيوب.

ووقفت بالبحث حيث وقفت في الكلام على النكتة ورأي سبنسر  
وبرجسون فيها ، وأعني أنني وقفت بالبحث كتابة ولم أقف به عنصراً  
بالموضوع واطلاعاً على آراء خبرائه وذوي الاختصاص بفنونه ، وكانت  
كلما توسيع في استيعاب آراء الخبراء وتاريخ هذه البحوث من أوائلها  
بدا لي أن فهم «المضحك» كما فهمته لأول الأمر مماثلاً للمبكى أو المحزن  
بداءة طبيعية لهذه البحوث ، فإن الفلسفه الذين تكلموا عنه قبل أربعين  
وعشرين قرناً إنما تحرّكوا من هذه النقطة ، فوضعوا التراجيديه أو المأساة  
مقابلة للكوميديه أو المهزلة ، وضموا الجد والبكاء جميعاً في تعريف  
المأساة كما ضموا الهزل والبيث جميعاً في تعريف المهزلة ، وكذلك فعل  
أفلاطون وفعل أرسطو من بعده واقتدى بهما كل من تصدى لتحليل فنون  
المسرح والشعر عامة مع قواعد الخطابة والبلاغة في جميع هذه الأغراض .  
يبدأ فهم المضحكات على هذا النحو الذي تغلب عليه المقابلة الاسمية  
بين الضحك والبكاء ، ثم يتفرع الضحك ويتشعب وتلوح منه الأفانين  
التي لا يقابلها البكاء في كل حالة ، بل يدخل فيها ويحسب منها في بعض  
الحالات ..

### الفيلسوف الباكى والفيلسوف الضاحك

وقبل أن نأخذ في تلخيص آراء أفلاطون وأرسطو لانتسى من السابقين  
لهما في تاريخ الفلسفة اليونانية اسمين متناقضين كان كلاهما مادة من مواد  
الضحك وشاهدًا من الشواهد التي يسوقها المعنيون بتعريفاته وتقسيماته ،  
وهما الفيلسوف هيرقلطيتس المولود في القرن السادس قبل الميلاد ،  
والفيلسوف ديمقريطيتس المولود في القرن الذي يليه .

فالأول كان يلقب بالفيلسوف الباكي لأنه كما زعموا كان دائم البكاء لا ترقأ له عين ولا يتسم له ثغر ، ولا يزال ناعماً على قومه سوء ما صنعوا وما يصنعون من أمورهم العامة والخاصة.

والثاني كان يلقب بالفيلسوف الضاحك لأنه كما زعموا كان دائم الضحك لا يكتف عن الابتسام أو التهكمه ولا يكرره خطب من الخطوب جل أو هان ..

وقد قال جوفنال الشاعر اللاتيني الساخر ان العجب لهيرقليطس أعظم من العجب لزميله ، فان دوام الضحك - صحيحًا أو متكلفاً - لا يشق على أحد يريده ، وأما العجب كله فمن ذلك الفيلسوف الذي يجد في عينيه معيلاً لا ينضب من الدموع ويحزن جدًا أو يتكلف الحزن تمشياً ولهوًا حيثما وجد مع الناس .

والقصة كلها « مزدحمة » بشواهد الضحك ومعارض البحث في حقائقه وأكاذيبه ..

فمن من الرجلين ياترى أدعى الى الضحك عند الناظرين اليه؟ ..

أنضحك من دائم البكاء أم نضحك من دائم الابتسام والتهكمه؟ يخيل الى الاكترین أن الرجل الذي لا ينقطع بكاؤه أدعى الى الضحك من الرجل الذي لا ينقطع ضحكه وابتسامه ، وأنهما - بعد - موضوع صالح جدًا للدعابة والسخرية.

وأول ما يرد على الذهن من أسباب ذلك أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما غير معقول .

وهنا نذكر أن الانسان حيوان ناطق وحيوان ضاحك ، وانه استثار بالنطق وبالضحك ، لأنهما مقاييسان مشتركان للعقل وللمعقول ... وهنا نذكر أيضًا أن النكتة وسيلة لاظهار الخلل المنطقي وان كل الفرق بينهما أن النكتة تفاجئنا باظهار الخلل وان الدليل المنطقي يسترسل في اظهاره بغير مفاجأة ..

ثم يرد على الذهن أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما افراط

وخرج من الجد الى ماعده ، واما الجد يلتقي بالضحك ولو في بعض الطريق ..

وغني عن القول أن الفيلسوفين لم يكونوا على الصفة التي تفهم من كلمة الفيلسوف الباكى والفالسوف الضاحك ، وإنما تعرضا لهذه الزيادة في الوصف لأنهما مبالغان أرادا أن يكشف الناس هذه المبالغة منها فوصلما بها الى غايتها المستحيلة ، وصنعوا لهم بذلك الوصف صورة هزلية تشبه الصور التي يتعمد فيها الرسامون الفكاهيون ابراز الملامح الشاذة بتكبيرها والخروج بها عن جميع مألوفاتها .

ولقد كان هيرقلطيس يترجم عن سخطة أحياناً بحركات صبيانية ليست من البكاء ولا الحزن في شيء ، فكان يلعب مع الأطفال ليسأل الشيوخ فيجيئهم بأن الأطفال أعقل منهم في تدبير اللعب ، لأنهم لم يصنعوا في ألاعيبهم ما صنعه الشيوخ المحنكون في أحق الأمور بالجد والرصانة .

وكان ديمقريطس يسيح في الأرض من بلاده الى مصر والحبشة وفارس والهند وكل قطر معهور ، وكانت الدنيا على أيامه قائمة قاعدة تهون فيها مصائب الآحاد الى جانب المصائب التي تحيق بالدول والشعوب ، فكان يضحك من أولئك الذين يستسلمون للحزن ولا يعتبرون بما حولهم من عادات الزمن وصروفه حيث ارتحل وحيث أقام ، وقيل من نوادر جرأته بالسخرية أنه اجترا بها على « دارا » جبار الفرس وهو يسيح في بلاده ، فان هذا الجبار أحرزه أن تموت له جارية يحبها فوعده ديمقريطس باحياها بعد دفنتها ، وقال له ان الأمر لا يتطلب أكثر من كتابة ثلاثة أسماء على القبر فتمود الجارية الى الحياة ، وسأله « دارا » في لهفة : « وما تكون هذه الأسماء ؟ » فأجابه الفيلسوف وهو يصنعن الجد : « أسماء ثلاثة لم يفقدوا أحداً من الأعزاء » ..

وكان هذا هو العزاء ...

ولا ريب أن البديهة الإنسانية كانت من قبيل الحديد الذى يفل الحديد . فهى التي لقى منها الفيلسوفان جزاءهما من جنس العمل : سخر كلاهما من

قومه فأرسله قومه في التاريخ على ذلك « الكاريكاتور » بين ضاحك دائم الضحك وبالدائم البكاء .

وهذا أيضاً باب من أبواب المضحكات التي انطوت عليهـ قصة الفيلسوف : بـاب الصورة الهزلية أو الكاريكاتور .

ثم يجيء الشاعر الساخر جوفنال فيغمض باختياره عن هذه المبالغة لأنها توافق « القافية » كما نقول في النكتة العربية ، وما كان للشاعر الساخر أن يجد بين يديه هاتين الصورتين ثم يردهما إلى سوء الخلقـة ليضيع منه المجال الصالح للتهكم على الموصوفين والواصفين .

### فلسفة الضحك

على أن هذين الفيلسوفين المضحـكـين قد زودـا فلسـفةـ الضـحكـ من سيرـتهـما ورسـمهـما بـزـادـ لمـ تـزوـدـهـ تـلـكـ الفـلـسـفـةـ منـ عـقـلـينـ كـبـيرـينـ كـعـقـلـيـ الفـيلـسـوفـ أـفـلاـطـونـ وـتـلـمـيـذـهـ الفـيلـسـوفـ أـرـسـطـوـ وـهـمـاـ أـعـظـمـ فـلـاسـفـةـ اليـونـانـ ،ـ وـلـمـ يـعـرـضـ لـفـلـسـفـةـ الضـحكـ بـعـدـهـماـ عـقـلـاـكـبـرـاـ مـنـ عـقـلـيـهـماـ إـلـيـهـماـ إـلـيـهـماـ ..

وكان خليقاً بأفلاطون وأرسطو أن ينفذـاـ إـلـىـ جـوـهـرـ المـوـضـوعـ فـلـسـفـةـ الضـحكـ وـأـسـبـابـهـ لـوـ أـنـهـمـاـ قـصـداـ إـلـىـ المـوـضـوعـ فـيـ صـيـمـيـهـ ،ـ وـأـرـادـهـ أـنـ يـسـتـوـعـبـاـ فـرـوـضـ وـالـاحـتمـالـاتـ فـيـ أـسـبـابـ الضـحكـ وـأـنـوـاعـ المـضـحكـاتـ ،ـ وـلـكـنـهـمـاـ لـمـ يـقـصـداـ هـذـاـ المـقـصـدـ وـلـمـ يـتـكـلـمـاـ عـنـهـ إـلـاـ عـرـضاـ فـيـ سـيـاقـ الـبـحـثـ عـنـ الـمـدـيـنـةـ الـفـاضـلـةـ وـالـبـحـثـ عـنـ الـشـعـرـ وـأـقـاسـ الـرـوـاـيـاتـ الـشـعـرـيـةـ .

فـأـفـلاـطـونـ ذـكـرـ المـضـحـكـينـ وـالمـضـحـكـاتـ وـهـوـ يـبـحـثـ عـنـ مـكـانـهـمـ فـيـ مـدـيـنـتـهـ الـفـاضـلـةـ أـوـ جـمـهـورـيـتـهـ الـمـثـالـيـةـ الـتـيـ أـرـادـهـ أـنـ يـقـصـرـهـاـ عـلـىـ الـأـفـاضـلـ وـالـمـأـمـونـيـنـ وـأـنـ يـجـبـهـاـ عـوـارـضـ النـقـصـ وـالـرـذـيـلةـ ،ـ فـبـدـاـ لـهـ أـنـ الشـعـرـ موـكـلـ بـالـجـانـبـ الـضـعـيفـ مـنـ الـإـنـسـانـ بـغـيرـ تـرـفـقـةـ بـيـنـ شـعـرـ الـمـأسـاةـ وـشـعـرـ الـلـهـاءـ .ـ فـالـإـنـسـانـ الـكـرـيمـ يـأـبـيـ أـنـ يـسـتـلـمـ لـبـكـاءـ إـذـاـ أـصـيبـ فـيـ عـزـيزـ عـلـيـهـ وـلـكـنـهـ لـاـ يـبـالـيـ أـنـ يـبـكـيـ وـأـنـ يـحـزـنـ إـذـاـ رـأـيـ هـذـاـ الـمـنـظـرـ مـعـروـضاـ عـلـيـهـ فـيـ

رواية فاجعة ، لأن البكاء يخدعه في هذه الحالة ويوقع في روعه أنه يكفي  
لغير مصابه وينغلب على نفسه في سبيل غيره .

والانسان الكرييم يأبى أن يفوه بالأضاحيك أو الخبائث المضحكة ولكنه  
يستسلم للضحك اذا سمعها مجكية في رواية هزلية يمثلها السرحيوز  
آمامه ..

وليس بالحسن على كل حال أن يكون في الجمهورية الفاضلة انسان  
ينغلب على وقاره ضحكاً أو بكاء بله الاناسي الذين يصورون الارباب في  
عليين مغلوبين على هذه الصورة ، ويقول أفالاطون ان الانسان الكرييم  
لا يعرف الجد الا بالهزل وأنه من الحسن أن يشهد مناظر الهزل من العبيد  
والأجراء المسخرين ولا ينغمس فيها بنفسه . وقد أثنى على المصريين لأنهم  
يعلمون الأبناء الموسيقي والرقص قياماً بالشعائر الهيكية ولكنهم  
لا يسمحون للشعراء بخلط الألحان بالأغاني المتبدلة والقصائد الموزونة  
على رقص الخلاعة والمجون ، وقد كانت خلاصة رأيه في كتاب الجمهورية  
وكتاب القوانين أن الشعراء يحسنون صناعة الشعر ويستحقون من أجل  
ذلك أكاليل الغار ولكنهم يلبسونها ويخرجون من المدينة الفاضلة الى  
حيث يشاءون ..

ولم يذكر أفالاطون سبب الضحك الا في كلمات قليلة خلال هذه  
المباحث الأخلاقية ، وهو يرى في تلك الكلمات ان الضحك مرتبط  
بالجهل الذي لا يبلغ مبلغ الايذاء ، وان الشعراء يضحكوننا حين يحاكمون  
أولئك الجهلاء ، ولكنهم اذا طرقوا موضوع الملحة أو المأساة عظموا  
الطغيان وجعلوا روایاتهم حكاية لأعمالهم ، فلا أمان لهم في محاكاة الجهل  
ولا في محاكاة الطغيان .

وأرسطو أدق من أستاذه في تعبيراته عن أقسام الشعر لأنه وضع نيتها  
مبحثاً خاصاً تتبع فيه المسرحيات المضحكة من أصولها منذ كانت ضرباً  
من الهجاء والأغاني الشهوانية الى أن أصبحت موضوعاً للإضحاك  
والتسليمة ، ولهذا جاءت في الترجمات العربية باسم الأهاجي والتبريجات

ولم يتدعوا لها اسماً يقابل اسم « الكوميدية » كما صنعتنا في العصر الحديث اذ ساها بعضهم بالهرزلة وبعضهم بالملهأة وعرّبها بعضهم بلقطها اليوناني فساها الكوميدية .

و عند أرسطو أن المضحك ضرب من الدميم أو المشوه لا يبلغ درجة الإيلام أو الابياء ، وفي نبذة منسوبة اليه من رسالة مقطوعته طبعها كيبل Karbel في برلين سنة ١٨٩٩ يقول ان الملهأة تطهر النفس كما تطيرها المأساة ، لأن النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق تجد في المأساة والملهأة منصرفًا لما تنطوي عليه من العطف والشوق الى الكمال واجتناب التشويه .

وكلا الفيلسوفين قد تطرق اليه الخطأ من فهم المأساة والملهأة على أنها نوع من التقليد والمحاكاة ، لأن الشعر المسرحي يعرض الواقع بتمثيل أناس يحاكون المصاين بها في حركاتهم وأقوالهم ، وكذلك يفعل بالمضحكات والملهيات .

وأفلاطون من أجل هذا ينزل بالقلدين الى الدرجة الثالثة ، فيقول ان الصورة الفضلى هي صنعة الله ثم يحكيها الصانع الخبير بالصناعة ، نم يأتى الشاعر فيحكي عمل هذا الصانع حكاية بعد حكاية .

ولم يلتفت أرسطو الى منزلة الشعراء المقلدين الا في سياق كلامه عن الأخلاق والاستطراد منه الى أخلاق الهجائن أو الذمامين ، فلم يكن من هذه أن ينشيء مدينة فاضلة يسبح المقام فيها لآنس ويحرمه على آخرين .

وليس في هذا الخطأ عيب على عقل الفيلسوفين الكبيرين ، لأنهما يادئان في طريق لم يسبقاها اليها سابق من الخبراء أو غير الخبراء ، ولكن العجيب منها حقاً أن يحسبا الفن تقليداً أو محاكاة ولا يحسبا خلقاً وابتداءً من الشاعر على التخصيص ، مع أن كلمة الشاعر تفيد معنى الصانع أو الخالق باللغة اليونانية .

ونقول ان هذا عجيب من الفيلسوفين حقاً لأنهما كانوا يستطيعان أن يعلما أن وصف كرسى في الشعر أصعب من عمل كرسى بصناعة النجارة ،

وأن النجار الذي يعمل ألف كرسي لا يستطيع أن ينظم بيته واحداً من القصيدة التي تنظم في وصف أحد كراسيه ، وهكذا يستطيع الرسام أن يصور كوبًا من الفخار ولا يستطيع الفخاري الذي يصنع الآنية الفخارية جميعاً أن يخرج صورة لكوب صغير منها.

وقد زاغ هذا الفهم الخاطئ بالفلاسفة عن أسباب الضحك في تفصياتها ، لأنهما التفتا إلى فكرة التقليد فجعلها أحدهما اسفافاً دون صناعة الصانع ، وجعلها الآخر طلباً للمعرفة يكاد أن يتساوی فيه المقلد ، ومن يشهد التقليد ويسر بالنظر إليه ، ولم ينظر كلاهما بعين الشاعر لينفذ إلى مواطن الضحك فيما يتحراء من الصور المضحكة ومن توسيع عرضها وتمثيلها ..

لكنهما على هذا الخطأ الذي لا ينجو منه كل مبتديء قد نجحا في التعريف بسبب الضحك نجاحاً غير قليل ، لأنه كان أساساً لما بناه التابعون كما كان أساساً لنقد الناقدين .

فالقول بأننا نضحك من العمل لأنه ينم على جهل لم يبلغ درجة الإيذاء والإيلام ، أو إننا نضحك من العمل لأنه يعرض لنا تشويهاً لم يبلغ هذه الدرجة — كلاهما قول يؤخذ به للمناقشة والتعليق ولا يرفض كله جملة واحدة في تعريف من تعريفات المحدثين .

وكل من امترض به على التعريفين أن الإنسان قد يتبدل شعوره عن الألم والضحك في وقت واحد ، فليس كل إنسان يرى التشويه ولا يقوله يضحك منه ، لأنه قد يكون بليداً يخفى عليه التشويه والألم في آن .

وانما الخلو من الألم شرط لكل استمتاع بشيء من الأشياء حتى ما كان من قبيل المتعة المادية ، إذ كان الألم على الأقل صارفاً للشعور عن سبل المتعة ، ان لم يكن مناقضاً للشيء المضحك أو للشيء الجميل أو للشيء الجليل .

ونضرب المثل لذلك بانسان مشوه ينظر إليه صاحب الاحساس المرهف فيدرك ما يعانيه ، وينظر إليه الطفل الغرّ أو الرجل الجلف فيهزأ

به أو يولع به للضحك منه واصحائه الناس عليه .  
فلا يجوز أن تفهم من ذلك أن الرجل الحساس غير صالح للضحك  
وغير خبير بالضحك ، لأنه قد يحس منها ما يجعله الأطفال الأغوار  
والرجال الأجلاف . بل يجوز أن تقول إن الطفل الغر والرجل الجلف  
لا يعرفان ما يضحك ولا يعرفان ما يؤلم في وقت واحد ..

\* \* \*

وندر من فلاسفة القرون الوسطى من نظر الى الضحك نظرة جدية  
ورأه في حكمه جديراً بالبحث عنه وعن أسبابه ، لأنصارهم الى البحث في  
الأصول الدينية وأسرار ما وراء الطبيعة ، ولعل فلاسفة اليونان الأقدمين  
كانوا على هذا الرأي ولم يبحثوا بعض البحث في الضحك وأسبابه الا  
في طريق بحثهم عن التراجيدية والكوميدية مع رجوع هذه في أساسها  
إلى سير الأرباب وشعائر الدين ومحافل الأعياد الوثنية .

إلا أنها قد نشر بين الآونة والأخرى على فيلسوف من فلاسفة القرون  
الوسطى بحث في معنى الضحك لاتصاله من بعض أطرافه بمباحته  
الأخلاقية أو الالهوية ، وأحق هؤلاء بالاتفاق إلى رأيه في هذا البحث  
يوسف البو Joseph Albo ( ١٣٨٠ - ١٤٤٥ ) ، وتوماس هوبرز  
Thomas Hobbes ( ١٥٨٨ - ١٦٧٩ ) .

فيوسف البو فيلسوف إسرائيلي من درسوا فلسفة الاندلس الإسلامية  
واقتبس منها في كتابه عن المباديء والأصول ، وتكلم عن الضحك لأنه  
مذكور في كتب التوراة ومنسوب إلى الأنبياء ومنهم إبراهيم الخليل .  
قال : « الضحك — وبالعبرية سحوق — كلمة مرادفة لكلمات في  
معناها ، تدل على الفرح كما جاء عن إبراهيم أنه خر على وجهه ضحك ،  
ومعنى ذلك أنه كان فرحاً بما سمع .

« وقد يدل الضحك على السخرية والاستهزاء كما يقول القائل : انتي  
ضحكة للجار ، وربما امتنج معنى الضحك والسخرية كما جاء أن الذي  
يستوي على السماء — الله — يهزا بهم . اذ كان الضحك أحياناً دليلاً

على الشعور باحتقار من يستحق الاحتقار ، وهكذا يشعر من يلاحظ نقصاً في كلام أحد أو عمله ويشعر بتفوّقه عليه لأنّه لا يقع في مثل ذلك النقص ؛ فانما يتولاه الضحك لأنّه يرى الآخر يقول أو يعمل ما لا يجمل بالانسان ووقاره .

« وعلى هذا النحو ينسب الضحك الى الله في التعبير المتقدم ، وسيبيه أنه يسمع القائلين يقولون : هلموا نمزق شملهم ، وهي كلمات لا يحمل بالبشر أن ينسوا بها ، على حد قول الربانيين ان سبب المشابهة بين نشيد أبسالوم واخبار يأجوج وأمّاجوج أنه لو سُئل سائل : هل من الممكن أن يتمرد العبد على مولاه ؟ لكان الجواب : وهل من الممكن أن يتسرد المولد على أبيه ؟ .. وقد حدث هذا فمن الممكن أن يحدث ذاك .

« وواضح من ثم أن ذلك المقال مما لا يحسن بانسان أن يقوله وإلا كان أهلاً للازدراء والسخرية . وبهذا المعنى ينسب الضحك الى الآلهة والى الانسان ..

« ويضحك الانسان أحياً اذ يخدع غيره في أمر كان ينبغي أن يحذر منه المخدوع ويتبه اليه . ومن ثم يرجع سبب الضحك في جميع الحالات الى الشعور بالتفوق في نفس الضاحك حين يرى غيره يقع في حماقة وأمر ينبيء عن جهالة . ويقول العلماء ان الضحك خاصة انسانية كما يقولون ان أسبابه مجهولة ، ويعنون بذلك اتنا لانعلم لماذا يكون الضحك مصحوباً بحركات جسدية معينة ولماذا يحدث الضحك عند لمس الابط أو بعض المواقع الحساسة من الجسم . على أن حدوث الضحك من السخرية معروف جد المعرفة كما يبينا في شرح الآية ... »

وظل هذا الرأي مأخوذاً به في تفسير الضحك الى أوائل العصور الحديثة ، وهو على التقرير رأي الفيلسوف الانجليزي توماس هوبرن الذي يرجع بكل خلقة أو عاطفة ترضي الانسان الى شعوره بالقوة والامتياز والرجحان ، ويرى أن الأخلاق الانسانية المحمودة تدل جميعها على القوة في صورة من صورها .. فالكرم والشجاعة والصبر والعزيمة

والفضائل جميعها لاتتال حمد الانسان مالم تكن مقرونة بالقدرة والدلاله عليها ، وتساوي الأخلاق الثبلة والعواطف الرفيعة في هذه الخصلة ، بل تتساوي فيها الأعمال الارادية وغير الارادية كالضحك في صورته العقلية وصورته الجسدية . فاما يضحك الضاحك لأنه يحس من نفسه انتصاراً مفاجئاً او مزية مفاجئة ، ولا بد من شعور النصر او الامتياز فيما يضحك الانسان ويرضيه ..

وهذا هو الرأي الذي توافقت عليه أقوال المتكلمين عن الضحك من عصر الفلسفة اليونانية الى العصر الحديث ، ولا حاجة الى انتظار التعقيب الاخير على جملة الآراء لاظهار الخطأ في هذا التعليل الذي يصح في جانب واحد من المضحكات ولا يصح في جميع جوانبها . فان الانسان قد يضحك أحياناً حين يشعر أنه قد انخدع كما يضحك من غفلة غيره حين تجوز عليه الخديعة البينة ، وليس في هذا دليل على الشعور برجحانه بل هو دليل على شعوره برجحان غيره عليه .

والمثل القريب على ذلك ما تقدم عن الضحك « الاجتماعي » في مؤتمر الساسة الذين جلسوا لتضييق الخناق على نابليون ثم جاءهم الخبر فجأة بانطلاقه من جزيرة إلبا وعودته الى فرنسا . فهذا موقف مغلوبين لا موقف غالبين ، ولا يستقيم تفسيره بشعور الرجال أو الانتصار من جانب الضاحكين ..

وكل ما يثبت في جميع الحالات أن هناك مفاجأة وأن المفاجأة تخالف الحالة المطردة أو الاتجاه الذي يجري فيه الشعور ، وبهذا يسهل تفسير الضحك من جلسوا ينظمون القارة الأوربية بعد اعتقال نابليون لأنما هذا الاعتقال أمر مفروغ منه ، ثم تقع المفاجأة بما يخالف الحساب .

### افراط المحدثين

وإذا كانت الشكوى من الثقافة القديمة قلة البحث في الضحك وأسبابه فقد يكون الافراط في هذا البحث شكوى القاريء من الثقافة الحديثة ،

لأنها توشك أن تتطلب منه تخصصاً ثقافياً مقصوراً عليها ، وقد أثبت برجسون نحو أربعين مرجعاً من الكتب والأصول الملمّ بها في رسالته عن الضحك ، ويمكن أن يزداد عليها ثلاثة أضعافها من المراجع المتفرقة عن فلسفة المضحكات عامة أو عن موضوعات الفكاهة والنكتة في مزاج هذه الأمة أو تلك أو في آدابها وتأثيراتها .

ويعود هذا الافتراض في الكتابة عن الضحك إلى باعثين جديدين في العصور الحديثة : أحدهما نشأة علم الذوق أو علم الجمال الذي ينظر في الفروق بين الجميل والمضحك كما تعرضها الفنون الجميلة ولاسيما التمثيل ، وكأنما كان اهتمام المحدثين بالتمثيل ورواياته وأدواره تجديداً لاهتمام أفلاطون وأرسطو بالتراجيدية والكوميديا وملكات الشعراة الذين يكتبون في المحننات والمضحكات والملامح الكبرى عن الأرباب والعبادات وما استطردت إليه من موضوعات لا علاقة لها بالدين وقد تناقضه وتخالف الأدب الواجب للمعتقدات وشعائر العبادة . فان عودة الأدب المسرحي في العصور الحديثة كانت فاتحة البحوث الفنية والفلسفية في الموضوع من جميع جوانبه وأطراقه ، فكان البحث فيه عن المضحك والبكى والحسن والقبيح مقرضاً بالبحث عن المقدس والقداسة في شعور الإنسان وفي الكائنات التي يقدسها ويرتفع إليها بالأجلال والابتهاج ، واستدعي تمثيل هذه الكائنات شرعاً ونحواً وتصويراً أن توضع لها الحدود والتعرifications وتقام الفواصل بينها وبين ما يلتبس بها من المتشابهات أو المتناقضات .

هذا أحد الباعثين الجديدين إلى افراط المحدثين في الكلام على الضحك وتحليل أسبابه وتطبيقه على الفنون التجددية في الزمن الحديث

أما الباعث الآخر فهو شيوع البحث في التطور ومذهب الشوء ... فان هذا المذهب يفسر تعبيرات الإنسان عن خوالجه وعواطفه بما يوافق طبيعته الحيوانية ، ويقتضي وجود الشبه ووجوه الاختلاف بينه وبين سائر الأحياء في هذه التعبيرات ، ويراقب ملامحه ليربط بينها وبين وظائفه

الجسدية واستعداد هذه الوظائف لتلبية العوامل الداخلية والعوامل الخارجية ..

ولا يسع الإنسان إلا أن يتسم لتناقض النتائج التي وصل إليها أقطاب هذا المذهب بعد بحثهم في ظاهرة الضحك والفكاهة . فإن العالمين العظيمين اللذين توافيا — بغير التقاء بينهما — إلى تحقيق ظواهره وشواهده قد ذهبا إلى الطرفين المتقابلين في تعليل الضحك والفكاهة .

فمن رأى الفرد رسول ولاس Alfred Russel Wallace أن الضحك وسائل الخصائص الإنسانية التي ينفرد بها النوع الإنساني لا تقبل التفسير بالاتخاب الطبيعي وتطور أنواع الحيوان ، وهو يتساءل كيف يفسر لنا الانتخاب الطبيعي ملكات الرياضة والموسيقى والاحساس بما فوق الطبيعة ؟ ويعود فيقول إن ملكة الفكاهة من هذا الطراز بين الخصائص الإنسانية ، لأنها تحتاج جميعاً إلى تفسير غير تفسير الصراع على الحياة وتنازع البقاء ، ولو كانت من هذه الأسلحة في النوع الإنساني لما كان مفهوماً كيف يتجرد منها معظم الناس ولا تتوفر لغير العدد القليل منهم في أرقى الحضارات ، ولا كان مفهوماً كيف يتجرد منها الجميع والأوائل الفطريون كما يتجرد منها الأكترون بين المتحضرين ، فهي كما قال في تطبيقه المذهب الدارويني على الإنسان أخلق بأن تفسر بالمنحة الآلية التي يختص بها الحال ببعض الطبائع الموهوبة ، ولن تقبل التفسير بغير ذلك ولو باعتساف شديد .

ومن رأى داروين أن الضحك قد يوجد بمعزل عن التفكير كما يلاحظ على البلياء وصغر الأطفال الذين يضحكون ليعبروا عن حالة الرضى والارتياح ولا يصحبون ذلك بفكرة أو خاطرة ذهنية ، والأصحاء من الراشدين تعترفهم حالات الضحك لأسباب غير أسبابه في الطفولة ، ويصدق هذا على الضحك ولكنه لا يصدق على الابتسام ، وكأنما يعبرون بالضحك عن حالة مقابلة لحالة البكاء الذي يقترن بالشدة والكآبة العقلية كما يقترن بالخوف والغضب ، ولعل شيئاً من الغرابة المفاجئة مع شيء من

الشعور بالتفوق هو أشيع الأسباب لضحك الكبار الراشدين . ومن الواجب ألا تكون الظروف على جانب عظيم من الخطير والجسامـة ، فـإنـ الرـجـلـ الفـقـيرـ - مثـلاًـ - لاـ يـتـنـظرـ منهـ أنـ يـضـحـكـ اذاـ سـمـعـ فـجـأـةـ أنهـ كـسـبـ مـقـدـارـاًـ كـبـيرـاًـ منـ المـالـ ، وـلـكـنـ العـقـلـ اذاـ هـاجـهـ الشـعـورـ بـالـسـرـةـ وـطـرـأـتـ عـلـيـهـ خـاطـرـةـ صـغـيرـةـ غـيرـ مـتـوـقـعـةـ فـالـنـشـاطـ الـعـصـبـيـ يـفـرـجـ عـنـ نـفـسـهـ بـتـحـريـكـ الـعـضـلـاتـ تـلـكـ الـحـرـكـةـ التـشـنجـيـةـ الـخـفـيـفـةـ التـيـ نـسـمـيـهاـ الضـحـكـ.

قال في كتابه عن تعبيرات العواطف في الإنسان ان الجنود الألمان أثناء حصار باريس كانوا يندفعون الى الضحك لكل تفاهة من تفاهات النكتة بعد طول التعرض للخطر الشديد ، ويقول مـسـتـرـ هـنـتونـ منـ سـازـفـرنـسـيـسـكـوـ انهـ كـانـ يـتـنـاوـبـهـ الصـياـحـ وـالـضـحـكـ وـهـوـ عـلـىـ التـلـالـ عـنـ الـبـابـ الـذـهـبـيـ مـعـرـضـ لـأـفـدـحـ الـأـخـطـارـ ، وـهـكـذـاـ يـشـاهـدـ عـلـىـ الـأـطـفـالـ الصـغـارـ وـهـمـ يـهـمـونـ مـاـلـبـكـاءـ آـنـ بـكـاءـهـمـ يـتـحـولـ إـلـىـ ضـحـائـةـ حـينـ يـطـرـأـ أـمـاـهـمـ طـارـيـءـ غـيرـ مـتـوـقـعـ ، مـاـ يـفـهـمـ مـنـهـ آـنـ الضـحـكـ يـفـيدـهـمـ يـتـصـرـيفـ فـيـضـ الـجـهـدـ الـعـصـبـيـ الـذـيـ يـحـسـونـهـ عـلـىـ تـلـكـ الـحـالـ .

ويـنـظـرـ دـارـوـينـ إـلـىـ أـسـلـوبـ المـجـازـ حـيـثـ يـقـولـ القـائـلـ اـنـ الـخـيـالـ دـغـدـغـتـهـ فـكـرـةـ مـضـحـكـةـ فـيـلـاحـظـ أـنـ دـغـدـغـةـ الـخـيـالـ مـمـاثـلـةـ لـدـغـدـغـةـ الـجـسـدـ وـيـتـعـذـزـ المـثـلـ مـنـ ضـحـكـ الـأـطـفـالـ وـ «ـ تـشـنجـ »ـ أـجـسـامـهـمـ الصـغـيرـةـ بـفـعـلـ الدـغـدـغـةـ ثـمـ يـلـاحـظـ أـنـ الـقـرـدـةـ الـعـلـيـاـ تـبـدـرـ مـنـهـاـ أـصـوـاتـ مـرـدـدـةـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـةـ ، وـيـعـودـ فـيـفـرـقـ بـيـنـ الضـحـكـ مـنـ فـكـرـةـ مـازـحةـ وـالـضـحـكـ مـنـ أـثـرـ الدـغـدـغـةـ إـلـاـ فـيـ أـمـرـ وـاحـدـ هـوـ آـنـ يـكـونـ الـفـكـرـ فـيـ حـالـةـ رـاضـيـةـ ، فـكـماـ اـنـ الـطـفـلـ يـصـيـحـ وـلـاـ يـضـحـكـ اـذـ دـغـدـغـهـ رـجـلـ غـرـبـ وـاشـتـدـتـ عـلـيـهـ حـرـكـةـ الـدـغـدـغـةـ كـذـلـكـ يـنـبـغـيـ آـنـ يـكـونـ الـفـكـرـ بـعـيـداًـ مـنـ الـجـفـوـةـ وـالـشـعـورـ بـالـأـكـرـاثـ وـالـهـتـامـ ، وـتـحـدـثـ الدـغـدـغـةـ الـجـسـدـيـةـ فـيـ الـمـوـاـضـعـ الـتـيـ لـاـ تـعـرـضـ كـثـيرـاـ لـلـمـسـ وـلـاـ يـكـونـ مـوـضـعـ الدـغـدـغـةـ مـعـروـفـاـ قـبـلـهـاـ ، وـكـذـلـكـ تـحـدـثـ الدـغـدـغـةـ الـفـكـرـيـةـ مـنـ خـاطـرـ غـيرـ مـعـهـودـ وـلـاـ مـعـرـفـ قـبـلـ ذـلـكـ ، وـيـسـدـوـ اـنـ عـنـصـرـ الـطـرـوـءـ اوـ الـمـنـافـرـةـ الـذـيـ يـجـريـ فـيـ سـيـاقـ التـفـكـيرـ هـوـ الـعـنـصـرـ الـقـويـ فـيـ

## تكوين المضحكات ..

ثم يراقب داروين عوارض الضحك على الوجه والجسم ويحصيها أحصاء دقيقاً في تتبعها على حسب الرخاوة أو العنف في الشعور ، ويقرر أن الشعور العنيف كله يتخذ تعبيراً واحداً في حالي الحزن والسرور وأن مشاهدة ذلك ميسورة لمن يراقب العصابيين ( المستيريين ) والأطفال لسرعة تأثيرهم بأنواع الاحساس ، فانهم يتراوحون بين الضحك والبكاء في الوقت الواحد وينتقلون من الشعور الى تقىضه لأنهما عندهم متقاربان . وشأن القبائل الفطرية عند داروين كشأن الأطفال في هذه الخصلة ، لأنه رأى في جزر ملقة نساء ي Sikin اذا أغربن في الضحك ، وروى أقوال السائجين عن سكان استراليا الأصلاء فقال انهم يقفون ويصفقون وتغورق أعينهم بالدموع وهم مرحون ضاحكون ، ثم قال ان الاستراليين والأوربيين يتشابهون في ضحكتهم جميعاً من روية المحاكاة . ومن القبائل الفطرية في جزيرة سيلان أناس لا يضحكون لمنظر قط من المناظر المضحكة — فيما رواه هارتشرتون Hartshorne — لأنهم يقولون اذا سألاوا مستغربين : وما الذي يدعوا الى الضحك في هذا او ذاك ؟ .. الا أن الابتسام والضحك في جميع الأمم يجريان في مسلك واحد فلا يستطيع وضع الحد الحاسم في الحركات أو المعاني بين دواعي الضحك ودواعي الابتسام ..

وظاهر من دراسة داروين كلها للتعبيرات الانسانية والحيوانية أنه يتوجه بمراقبته الى العوارض الجسدية التي تعم جميع بني الإنسان وقد تعم بعض الحيوان في بعض الأحوال ، والعوارض الجسدية أدق لذاته من العوارض الأخرى التي لا يسهل ضبطها وتعيمها ولا يسهل كذلك تعليلها بالافعال المشتركة بين الناس من جانب وبين الناس والأحياء العليا من الجانب الآخر ، وهو على خلاف زميله في مذهب النشوء والتطور ، — الفرد ولاس — موكل بالتعيم والأشباء الشائعة دون تلك الملكة الخصوصية التي يرى صاحبه أنها مزية محدودة لا يفسرها تنازع البقاء

لأنها ملكة الأدراك الرياضي والبداهة الموسيقية وما إليها . في بينما يهبط داروين إلى عوارض الضحك التي يقل فيها التفكير كضحك الأطفال والعصابين والقبائل الفطرية – يرتفع ولاس إلى ملكة الفكاهة العالية التي يتمتع بها أحد من النوافع كلما يزيد عددهم على عدد العباقرة الذين يكتشفون خفايا الحقائق الرياضية و دقائق النسب الموسيقية ، ويعلموه الناس كيف يفهمونها ويدركونها بعقولهم وبصائرهم فلا يتيسر للثريين أن يجاروهم على فهمها وادراكها .

والنزعـة الوجـданـية هي سـر الاختـلاف في النـظـرة إـلى المـضـحـكـات بينـ العالمـينـ الكـبـيرـينـ . فـدارـوـينـ يـبـحـثـ عـنـ وـحدـةـ الـأـنـوـاعـ الـحـيـوـانـيـةـ فـيـبـطـ الـمـوـاطـنـ الشـبـهـ بـيـنـ أـرـقـيـ الـأـحـيـاءـ وـأـقـلـ النـاسـ وـيـعـقـدـ الـصـلـةـ بـيـنـ هـؤـلـاءـ وـهـؤـلـاءـ بـوـحدـةـ الـعـوـارـضـ الـجـسـدـيـةـ الـتـيـ تـصـاحـبـ الضـحـكـ مـنـ تـأـثـيرـ الـدـخـدـغـةـ أوـ تـأـثـيرـ الـمـشـاهـدـاتـ الـحـسـيـةـ ، وـيـعـنـيـهـ أـنـ يـرـاقـبـ عـوـارـضـ الـدـخـدـغـةـ فـيـ الـقـرـدـةـ الـتـيـ تـأـثـرـ بـعـضـ الـمـوـاضـعـ فـيـ أـجـسـامـهـ بـالـلـمـسـ الـمـفـاجـيـءـ عـلـىـ غـيرـ الـمـأـلـوـفـ ..

وـكـلـ هـذـاـ لـاـ يـسـرـ الـمـلـكـةـ الـتـيـ يـعـنـيـهـ زـمـيلـهـ وـلـاسـ وـيـعـلـوـ بـهـ إـلـىـ الطـبـقـةـ الـتـيـ يـنـفـرـدـ بـهـ الـأـدـمـيـوـنـ بـلـ يـنـفـرـدـ بـهـ آـحـادـ مـنـ الـأـدـمـيـنـ ، لـأـنـ نـزـعـتـ الـوـجـدانـيـةـ تـتـجـهـ إـلـىـ الـإـيمـانـ بـالـرـوـحـ الـآـهـيـ وـمـزـايـاهـ الـتـيـ يـفـيـضـهـ عـلـىـ الـأـرـوـاحـ الـأـنـسـانـيـةـ كـلـمـاـ تـهـيـأـتـ لـهـ بـهـدـاـيـةـ السـمـاءـ .

ولـمـ يـزـعـمـ دـارـوـينـ أـنـ فـسـرـ الضـحـكـ كـلـهـ وـاسـتوـعـبـ الـكـلامـ فـيـ أـسـرـ الـمـضـحـكـاتـ عـلـىـ اـخـلـافـهـ ، وـانـمـاـ أـرـادـ مـنـهـ مـاـ ثـبـتـهـ التـعـيـرـاتـ الـمـحسـوـسـةـ وـتـنـطـرـدـ فـيـ الـمـلـاحـظـةـ اـطـرـادـاـ يـقـبـلـ التـعـيـمـ .

ويـقـالـ هـذـاـ أـيـضـاـ عـنـ الـفـلـاسـفـةـ الـذـيـنـ درـسـواـ الضـحـكـ مـنـ نـاحـيـةـ عـلـمـ الـذـوقـ أوـ عـلـمـ الـجـمـالـ . فـانـهـمـ تـنـاـولـهـ مـنـ وـجـهـ الـمـقـاـبـلـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـأـحـاسـيـسـ الـجـمـيـلـةـ أوـ الـجـلـيـلـةـ أوـ الـمـقـدـسـةـ وـلـمـ يـسـتـوـعـبـواـ أـصـوـلـهـ وـتـفـرـيعـاتـهـ فـيـ درـاسـةـ مـسـتـقـلـةـ تـحـيـطـ بـهـ فـيـ مـعـانـيـهـ الـفـنـيـةـ وـمـعـانـيـهـ الـحـيـوـيـةـ .

فـخـلاـصـةـ رـأـيـ كـانـتـ Kantـ انـ الضـحـكـ يـنـشـأـ مـنـ التـوـقـ الذـيـ يـتـهـيـ

فجأة الى غير طائل ، وخلاصة رأي شوبنهاور أن الضحك في جميع الأحوال نتيجة للمفاجأة بادرًاك عدم التاسب بين الشيء المضحك والشيء الذي يخطر على البال أنه يشبهه ، وخلاصة آراء الباحثين في الجميل والجليل عامة أن المضحك هو النزول بالجليل — أو الوقور — فجأة الى الابتدا والاسفاف ، وأنه في جملته نوع من الحطة Degradation يسرع الذهن في الالتفاف اليه ..

وليس من اليسير أن نستقصي هنا كل ما قبل في تعريفات الضحك وأسبابه ، فان الجمع الذي يدل على طائفة قليلة من نماذج التفكير أجدى من احصاء التفصيات التي تتبعها بغير رابطة بينها تدور على محور معلوم ..

ونرى أننا قد نستغني عن تتبع الآراء المبعثرة في تعليل الضحك اذا اجتزأنا منها بتلخيص ثلاثة آراء نموذجية هي رأي سبنسر العالم الانجليزي وبرجسون الفيلسوف الفرنسي وفرويد الطبيب النسووي صاحب مذهب النفسانيات الحديث .

فرأي سبنسر رأي عالم نشوئي يفصل رأي داروين وينقحه ويزيد عليه من الوجهة العلمية الطبيعية .

وبرجسون فيلسوف ينظر الى الوجهة الاجتماعية ولا يهمل الوجهة الفنية ، وان كان يوجزها ولا يستقصيها .

وفرويد ينظر الى الدخائل النفسية مع ارتباطها بالمجتمع وعلامات الصحة والمرض في الآحاد .

وقل أن يوجد رأي في الضحك لا يتقي بهذه الآراء في جزء من الأجزاء ..

## ثلاثة آراء في الضحك

كتب سبنسر رأيه بعنوان فزيولوجية الضحك :

The Physiology of Laughter

وهو عنوان يدل على مدار البحث كله ، ويؤخذ منه أن الباحث أراد أن يفسر عوارض الضحك الجسدية وارتباطه بالأفكار والأحاسيس التي تستدعيها ..

وفكرته تشبه فكرة داروين في أساسها ، ولكنه يخالف القائلين بأن الضحك محاولة عضلية للتخلص من شعور مكرب أو غير محتمل ، ويختلف القائلين بأن الضحك يتولد من الشعور المفاجيء بالفجوة والرضا عن النفس بما يوحى إليها من السلامة أو الرجحان .  
ويقول سبنسر أن هذا كله قد يحدث ولا يحدث معه الضحك ، وأنه لا بد ل تمام العوارض جميعاً من التحول المفاجيء من سياق إلى سياق في وجهة الشعور ..

يشتغل الموسيقي بتوقيع قطعة من الألحان موسيقى يتهدون مثلًا فيعطي أحدهما الحاضرين عطة قوية يسمعها الحاضرون خلال التوقيع ، فيضحكون . ليس في الاستماع إلى الموسيقى شعور مكرب تتخلص منه النفس بالضحك ، ولكن الذي حدث أن العطسة غيرت مجرب الشعور أو جبوته عن المضي في طريقه المألف ، فتنقله هذه المفاجأة من أعصاب الحس إلى العضلات ، ويحدث الضحك من جراء هذا الاتصال .

ويقف العاشقان على المسرح يتناجيان ويتخاضبان أو يتراضيان ، وإذا بجدي يصل طريقه ويذهب إلى العاشقين فيقطّع عليهم النظارة هذه المفاجأة ، فيحدث من هذه المفاجأة ما أحدثته العطسة القوية أثناء سماع الموسيقى ، ويضحك النظارة الذين كانوا يرقبون منظر المفاجأة ولم يكن فيه ما يذكر بهم أو يحيون التخلص منه بالضحك ، وإنما يغلبهم الضحك

لاتصال الشعور من وجنته المطردة ، ولا بد له اذن أن ينتقل من أعصاب الحس الى العضلات .

يقول سبنسر : ولا يحدث هذا لجميع السامعين اذا كان فيهم من يستغرقه الشعور بال موقف ولا يدع فيه بقية للاتصال منه والالتفات الى غيره . فان هؤلاء قد يغفلون عنه او يغضبون لتبنيهم من الشعور الذي هم مستغرقون فيه .

ويقول سبنسر ان المؤثرات لها في الانسان ثلاثة منافذ : منفذ الحس ، ومنفذ الفكر ، ومنفذ الحركة العضلية ، وانها كلها قابلة للتحول من منفذ الى منفذ سواء بدأت بالتفكير او بدأت بالحس او بدأت بحركة من العضلات ..

فالرجل الذي يهرب من الخطر الداهم يجري وتشتغل عضلاته بهذه الحركة ، ولكن هذه الحركة العضلية لا تستغرقه ولا تمنعه أن يفكر في الخطر والحيلة التي يحتالها أو العمل الذي يعمله للنجاة منه .

فاما كان الخوف أهون من الخوف على الحياة فربما انصرف بالحركة وأصبحت الحركة ضرورة من الرياضة التي يشاغل بها الانسان عن حاليه النفسية ..

والطفل يصفق اذا فرح لأن شعوره ينتقل من الأعصاب الى العضلات ، وربما فرك الرجل الكبير كفيه في مثل هذه الحالة ، لأنه تعود هذا الشعور او تعود أن يتحول عنده الى الفكر كما يتحوال الى العضلات .

ومما يدل في رأى سبنسر على أن الشخص من حركات رد الفعل أو من الحركات الانعكاسية انه حركات لغير قصد أو حركات غير مقصودة بارادة صاحبها ، كأنها غمضة العين للوقاية أو رعشة البرد التي لا يريد لها المقرور ..

ويتبسط سبنسر في وصف تأثير هذه الانفعالات غير الارادية فيرى أن تأثير الشعور قد يعطى تفكير الخطيب على الرغم منه وهو واقف أمام الجماهير يحس وجودها ويخشى أن يتلعثم أمامها أو لا ينال موافقتها

واعجابها ، ولو أنه وقف ليلقي خطابه امام الكراسي الخالية لانطلق تفكيره بغير عائق من الحس والشعور . وها هنا ثلاثة عوامل مشتركة في التأثير على الخطيب : عامل الحس اذ يرى الجماهير ، وعامل الشعور اذ يخشى التقصير والخيئة ، وعامل الفكر الذي يشغل الحس والشعور جانباً منه فلا ينطلق مع اشتراكها كما ينطلق على افراد .

فالسريان بين منافذ الحس والتفكير والحركة طبيعي في المؤثرات النفسية ، وكلها تجري في مجريها الطبيعي من الفكرة الى الحس والحركة ، أو من الحس الى الحركة والفكر ، أو من الحركة الى الاحساس والأفكار .

غير ان الحس أو الفكر لا ينتقل الى العضل الا في غياب الحس والحركة التي من قبيله ، فإذا كان الألم شديداً جداً يستوعب الشعور كله فهو لا ينتقل الى العضلات عند المفاجأة ، لأنه يجد طريقه في اتجاه الشعور بغير عائق يصده عن مجريه .

ويستطيع من شاء أن يتحقق ذلك بمنظر يذكره أو يتخيله على وفاق المؤلف من تجاربه ومشاهداته :

اذا جلس الناس في مأتم وحدثت على مشهد منهم مفاجأة مضحكة فقد يضحك الغرباء عن المأتم وقد يضحك الصغار الحاضرون وان كانوا من أهل الميت ، ولكن الكبار المفجوعين لا يضحكون لأن شعورهم يفيض في مجريه ولا تشغله المفاجأةمضحكة حتى تنتقل من الحس الى حركة العضلات ، وربما أثارهم وأغضبهم أن يروا أمامهم أحداً يضحك وهم مغلوبون بالأسى والفعجية .

وملاحظة سبنسر - هذه - مهمة جداً في تصحيح التعريفات الأخرى ، ومنها تعريف أفلاطون وأرسطو وغيرهم للضحك اذ يقولون انه نتيجة الشعور بالسخف أو التشويه الذي لم يبلغ مبلغ الايام والإيذاء .

فالألم مانع للضحك لأنه يشغل الشعور بغير المضحكات ومتى اشتعل الشعور بشيء آخر لم يشعر الانسان بالجمال ولا باللذة ولا بالسرور ، وليس الأمر هنا خاصاً بالمضحكات دون المحاسن واللذات والمسرات .

ان المفاجأة التي تعيق الاحساس عن مجراه وتحوله الى العضلات  
كافية وحدها للضحك ولا حاجة معها الى استثناء الألم ، لأن الألم استثناء  
لكل شعور وليس بالاستثناء للمضحكات دون سواها.

أما اذا كان الاحساس من القوة بحيث لا تعيق المفاجأة فالله يجترفها في  
طريقه ولا يتحول الى العضلات ، ولا يحدث الضحك من ثم على الرغم  
من جميع المفاجآت .

وإذا قال قائل عن جدول الماء انه يجري ما لم يعقبه عائق ، فهو لا يقول  
لنا شيئاً عن طبيعة الماء دون غيره . فمهكذا يحدث لكل متحرك انه لا يتحرك  
مع وجود العائق في طريقه سواء في ذلك حركة الماء وحركة البخار وحركة  
السهم وحركة القذيفة من أقوى المدافع والراميات ..

وكذلك يكون من قبيل تحصيل الحاصل ان يقال ان الضحك يحدث  
ما لم يمنعه الألم . فان الألم يحجب الشعور بالمضحكات وغير المضحكات :  
يحجب المتعة بالنكتة كما يحجب المتعة بالجمال والجلال واللذة وبدائع  
الفنون على الاجمال .

ويؤكد هذا ما لاحظناه آنفاً على تعريف أرسطو الذي يشترط في  
الدمامة المضحكة ألا تبلغ حد الايام . فان الانسان البليد لا يتالم ولا  
يفطن للضحك في وقت واحد ، واذا جمعنا اثنين أحدهما مرهف الاحساس  
والذهن والآخر ثقيل الاحساس والذهن فلا يلزم أن يكون هذا أكثر فطنة  
للضحك من ذاك لأنه بطيء الألم . بل يبطيء شعوره بالألم وشعوره  
بالضحك في وقت واحد ، ويغفل عن التشويه كله بجميع درجاته فلا يلمحه  
ولا يحسه في درجة من الدرجات .

ومن ثم ننتهي بعد ما تقدم الى الثقة من شرط واحد في المضحكات وهو  
شرط المفاجأة التي تتحول بالشعور عن مجراه . فإذا كان الشعور جارياً  
في مجراه - كشعور الحزن العميق - فالمفاجأة لا تدفعه الى الضحك ،  
وإذا كان في المجلس نفسه أحد لا يبلغ منه الحزن ذلك المبلغ من العمق

والاستغراق فانه يضحك من المفاجأة لأنها تستطيع أن تحول بالنظر ، أو المسمع ، من حس الأعصاب الى حركة العضلات .

### رأي برجسون

والرأي الثاني بين الآراء النموذجية هو رأي هنري برجسون الفيلسوف الفرنسي صاحب مذهب دفة الحياة ، ورأيه في الضحك أنه في وقت واحد تطور منطقي وحاسة اجتماعية .

فنحن نضحك اذا رأينا انساناً يتصرف تصرف الآلة ويقيس الأمور قياساً آلياً لا محل فيه للتمييز المنطقي ، ولكننا نضحك في الجماعة عامة ولا نضحك منفردين لأن الضحك تنبيه اجتماعي أو عقوبة اجتماعية لمن يغفل عن العرف المتبع في المجلس أو في المحفل أو في الهيئة الاجتماعية بأسرها ..

والضحك عند برجسون انساني بمعانى الكلمة جميعاً ، فلا يشاهد في غير الانسان ولا يستثيرنا الضحك في غير عمل انساني أو عمل تربطه بالانسان ..

فنحن لا نضحك من منظر طبيعي أو من جماد كائناً ما كان الا اذا ربطناه بصورة انسانية ، وجعلناه شبيهاً بانسان نعرفه أو منسوباً الى عمل من أعمال الناس . وقد نضحك من قبعة نراها فلا يكون الضحك من القبعة بل من الانسان الذي يلبسها وتتصور هيئته فيها .

ومن شروط الأمر المضحك عند الفيلسوف أن يكون عملاً انسانياً بغير معنى ، أو يكون المعنى فيه مطرداً على طريقة آلية كأنه من أعمال الأدوات المجردة من التفكير .

ومن شروط الأمر المضحك عنده أن يحصل في جماعة أو يرتبط بالتصرف في الجماعة . فقلما يضحك الانسان على انفراد الا اذا استحضر العلاقة الاجتماعية في ذهنه ، وقلما تنظر الى أحد يضحك على انفراد الا خامرنا الشك في عقله ما لم يكن له عذر نعلمه ، فلا يزال الضحك على

انفراد محتاجاً الى اعتذار وتوضيح .

لهذا يقرر برجسون أن الضحك مرتبط بالتصريف المنطقي وبالحساسة الاجتماعية في وقت واحد . فهو وسيلة من وسائل المجتمع لحمل أبنائه على التصرف فيه تصرف الراشدين الذين يفهومون معنى ما يصنعون ..

ويفسر الفيلسوف أنواعاً كثيرة من الضحك على ضوء هذه الشروط . فيقول مثلاً أن مرونة الحركة تهم الأطفال كثيراً فهم يضحكون من كل حركة تصطدم بغير وعي ويفقد فيها المرء قدرته على المرونة ، ويقول ان كل خلل في الحركة يضحكنا اذا قارنا بين الخلل والواقع ، وبين اللباقة التي يستدعها تمام الخلقة والتکوين والتصرف المعهود . وكثيراً ما يضحكنا شرود الذهن لأن الانسان الذاهل ينسى عقله وحاسسته الاجتماعية ويتكلم أو يعمل على غير ما تقتضيه الحالة التي هو فيها .

ويوميء الفيلسوف الى مناظر المحاكاة فيقول ان المحاكاة تضحكنا لأنها عمل يشبه عمل الآلات وتضحكنا لأنها تلفت النظر الى النفلة أو التناقض في الانسان المحكي لأنه شبيه بالآلات ، واذا رأينا وجهين يتشاركان تشابهاً تاماً ضحكنا لأننا تتصور أنهما مصنوعان في قالب واحد كما تصنع الوجوه التمثيلية ..

ويضحكنا أن يتحكم الجسد في العقل والارادة تحكماً غير مناسب للموقف الحاضر ، فتضحك من الخطيب الذي تغلبه الحماسة والعطاس في وقت واحد ، ويضحكنا أن نرى أمامنا أحداً يطبق على الأحياء أحكام الآلات ، وهذا هو سر ضحكنا من الطبيب الذي يقول للمريض أن موته باطل لأنه لم يجر على وفاق الأصول المتبعة .

ويضحكنا الرجل الذي تتكرر في كلامه لازمة محفوظة تتوقعها فتضحك حين نسمعها .

وهذا المثل من أمثلة برجسون جدير بالاتباه اليه ، لأنه يرجح رأيه على آراء القائلين بشرط المفاجأة في الضحك .

فالرجل الذي يكرر لازمة واحدة يضحكنا حين نسمع ما ننتظره منه فلا

يقال اذن انه يضحكنا بالمفاجأة ، بل يصح فيه رأي برجسون وهو الرأي الذي خلاصته أن المضحك من أعمال الانسان هو الذي ينساق فيه انسياق الآلات .

\*\*\*

ونحن نستدرك ما يستدرك من هذه الآراء في أثناء تلخيصه ، وقبل الاتصال الى التعقيب الاخير عليه ، لأننا نحب أن ننتهي الى النتيجة خالصة من الاعتراض والاستدراك خالية من اللبس وداعي الاطالة في المناقشة والتمحيص .

والمثل الذي يجب الاتباه اليه من أمثلة برجسون يرجح رأيه على رأي القائلين بالمفاجأة لأول وهلة ، ولكن لا يليث أن يعود بنا الى القول بالمفاجأة من جانب آخر .

فمشابهة الآلات هي في ذاتها مفاجأة مستقربة من الأدميين العقلاء . ولهذا يتافق القولان ولا يتناقضان ، ويجوز أن يقال ان المفاجأة ومشابهة الآلة شيء واحد ، وان مشابهة الآلة باب من أبواب المفاجأة لا يستوعبها ولا يمنع الضحك من غيرها .

وأما الضحك من تكرار اللازمة التي تنتظراها فهو لا يدل قطعاً على تقي المفاجأة أو على الضحك من الشيء لأنه متضرر ... بل هو نوع من استعادة الضحك السابق كما نبتسم عندما يمر بخاطرنا تمثيل دور مضحك شهدناه من قبل ونود أن نعيده وتتملاه من جديد .. وهذا المثل - بالذات - أصلح الأمثلة لتوضيح الحقيقة في هذا الخلاف ..

فاللازمة المتكررة لابد أن تتكرر حتى تصبح لازمة ملحوظة وحين نبدأ بالاستماع اليها لا نلاحظ أنها لازمة تعاد في مناسبة وفي غير مناسبة إلا اذا سمعنا صاحبها يتكلم في مسائل شتى ويعيد لازمته على اختلاف هذه المسائل وتناقضها ، ومتى ثبت لدينا أنها لازمة واتظرناها فانما نحن نستعيد ضحكتاً سابقاً ولا نشيء الضحك لأول مرة ، ويصدق على هذا

النوع من الضحك أنه من قبيل استعادة المناظر التي سبق لنا أن ضحكنا منها وأحببنا أن تملأها ونرجع إليها حيناً بعد حين.

\* \* \*

ونستطرد بعد هذا في سرد الأمثلة المتعددة التي ينطبق عليها رأي برجسون ، ومنها غير ما تقدم مثل الشاطر الذي يغلب بالشطارة ، أو مثل الفخ الذي يقع فيه واسعه ، فإن هذا الشاطر — على شطارته — يتصرف كآللة حين ينعكس عليه عمله وهو أحق من سواه بالاحتراض منه . وهذا المثل — كالمثل السابق — يمكن تفسيره برأي برجسون ورأي التائلين بالمفاجأة معاً . لأننا تتوقع من الشاطر أن يغلب غيره بالحيلة ونشرع بالمفاجأة حين يقع غير المتوقع وهو انخداعه بما يخدع به الناس .

ويطل برجسون ضحك الكثرين من النكتة الجناسية بأنهما تحول الذهن من المعنويات إلى الحسيات . لأن الكلمتين المتجلانستين تتشابهان في اللفظ وتختلطان في المعنى . فيتصور السامع الحركات الجسدية وهو يفكر في المعاني الأخلاقية أو الذهنية ، وهذا الضحك يشابه الضحك من الخطيب الذي تأخذه الحماسة لفكرة من الأفكار ثم يغلبه العطاس .. فاته في هذا الموقف مغلوب لضرورات جسده الآلية ويتصرف على الرغم منه كما تتصرف الآلات .

وعلى هذا النحو مواجهة الذهن بكلمتين متجلانستين مادياً مادية والأخرى معنوية ، وتلحق بالجنسان كلمات الكنائية والاستعارة والمجاز وسائل الكلمات التي تواجه الذهن بصورةين ماحداهما لائقـة بال الإنسانية والأخرى غير لائقـة ، كأن يقال عن أحد أنه من أهل اليسار ، أو انه فنان ، أو انه جبل ، أو انه طويل الباـع .

والعاـسة الاجتماعية عند برجسون أعم من جميع الأسباب . فالضحك اذن ملكة اجتماعية يراد بها تصحيح الخطأ في معاملة الجماعة ، وهو يتناول الـاخـطـاء التي لا تبلغ حد الـاجـرـام لأن المجتمع يـعالـجـ هذهـ بالـجزـاءـ القـانـوـنيـ أوـ بالـاتـقـامـ ، ويتناول الـاخـطـاءـ التيـ يـنبـوـ عنـهاـ الـذـوقـ كلـ النـبوـ

مع سوء النية لأن المجتمع يداوي هذه بالنقوص والاشمئزاز وإنما يكتفى بالضحك من الأخطاء التي يسموها فيها الإنسان عن التقاليد الاجتماعية على غير قصد وبغير نية سيئة .. فهذه الأخطاء يكفي في التحذير منها أن يتعرض صاحبها للضحك وأن يكون هذا الضحك عقوبة على قدر الإساءة العارضة ، فيحسب في هذه الحالة كأنه قانون خفيف حيث لا حاجة لتطبيق القانون الذي يحمي المجتمع من الجرائم والاضرار الجسمانية .

بل يكاد يكون الضحك عقاباً اجتماعياً خفيناً من يدينون بالاحكام الحرفية ويطبقون القواعد في دقة وصرامة توحى الى الذهن أن الذي يطبقها آلة لا تفك ولا تحس بما تصنعه ولا تفرق بين جراء وجزاء وتقدير .. وتقدير ..

ففي هذه الحالة يكون الضحك تصحيحاً للأحكام المبالغ في « دقتها الحرفية » لأنها صفة آلية لا تليق بالقياس المنطقي والتقدير السليم . وزبدة الأمثلة جميعاً في رأي برجسون تلخص أسباب الضحك في حماية المنطق الانساني وحماية الحاسة الاجتماعية على الخصوص . فكلما هبط الإنسان من مرتبة التصرف المنطقي الذي يناسب علاقاته الاجتماعية كان ذلك مثيراً للضحك منه لتنبيهه الى تقصيره ، على شريطة الوقف بهذه الأخطاء عند حد لا يبلغ الاجرام ولا يدخله سوء النية ، بل يخلو من كل قصد يقصده الكائن العاقل المتصرف ، فيرتدي الى العركة الآلية التي تتجدد من المقصود في جميع الحركات .

#### رأي فرويد

بقي من الآراء النموذجية رأي سigmوند فرويد Freud الطبيب النفسي صاحب المذهب المشهور الذي شاع وشاعت مصطلحاته على الألسنة حتى أصبح حديث الوعي الباطن والعقد النفسية ومركب النقص وما إليها من أحاديث الخاصة وال العامة وكاد هذا المذهب أن يستأثر بتنفس خفايا النفس البشرية في مسائل الأخلاق والعادات والبواعث الفردية والاجتماعية ..

وقد أفرد الطبيب النفسي رسالة مسماة للكلام على النكتة ومدلولاتها الاجتماعية والفنية وموطن الشبه بينها وبين الاحلام والرؤى في الوظيفة التي تؤديها للفرد وللجماعة .

وزبدة رأي فرويد أن النكتة ضرب من القصد الشعوري والعملي يلتجأ إليه الإنسان في المجتمع ليغفي نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ويتحلل من العرج الذي يوقعه فيه الجد ولوازم العمل ، وأن النكتة تشبه الحلم في أساليبه وهي التورية والتأويل والاختزال والمسخ والتلخيص ، أي جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لا تجتمع في الواقع .

والناس يقولون عن الرجل انه يمزح أو يقولون عنه انه يحلم على السواء حين يريدون اعفاءه من المتأخرة ولا يريدون الجد معه في المحاسبة والتحقيق ، وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغه بالحججة والدليل ، وكذلك يحتال في أحلامه على تحقيق الاماني التي تقوته في اليقظة وتشغل باله على غير جدوى ، فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم على صعوبة واحدة وهي تيسير الواقع والاعفاء من الكلفة والمشقة .

وقد أورد في رسالته أمثلة كثيرة سنشير الى بعضها ونكتفي هنا بنادرة واحدة من النوادر الفكاهية التي تساوى الاحلام في رفع الكلفة والسماح لقائلها أو سامعها بما هو محظوظ عليه اذا جد في القول وعبر عن غرضه بالكلام الصريح :

رجلان من أصحاب الملائكة صنعا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت الصورتان في معرض عام وبينهما فجوة تتسع لصورة ثالثة . فقال أحد الناظرين وهو يتأمل الصورتين وينظر الى الفجوة التي بينهما : ها هنا متسع لصورة السيد المسيح .

وسمع الواقعون كلمته وعلموا انه يقول عن صاحبي الملائكة أنهما لصبان ، لأن القصة المسيحية تقول ان السيد المسيح وضع على الصليب بين لصين ، وعلموا أيضاً أنه يعني أنهما يستحقان الصليب كما استحقه أولئك اللصان ، ولكنهم ضحكوا . وسمع صاحبا الصورة ما قيل فلم

يجدا سبيلاً الى مؤاخذته أو رفع أمره الى القضاء ، ولعلهما لو فعلا  
لاتهما الناس بالجلافة وجرأا على نفسيهما من السخرية ما كانوا في غنى  
عنه ..

ويريد فرويد منا في هذه النادرة وأشباهها أن تخيل قائل النكتة وهو  
يحلم ويعزي نفسه عن الحرمان من الثراء . فإنه سيخلق في منامه قصة  
يتمثل فيها صاحب الملايين مشهرين بين الناس بالسرقة أو مسوقين الى  
ساحة القضاء أو مغلقين وراء جدران السجون ، فيعمل الحلم عمل النكتة  
في ترضية الرجل بأسلوبين مختلفين يصدران عن باعث واحد لغاية واحدة .

ويسرد فرويد انماطاً من النكتة تشتراك بين الجنس والفالطة ورد  
الحيلة بحيلة من قبيلها والتفاهم على الكذب والاجوبة المركبة وكشف  
السر على غير قصد وغيرها من المضحكات مما ينطبق عليه تعليمه بسهولة  
أو ينطبق في صعوبة وتعسف .

وهذه انماط منها نقلها بغير ترتيب ، ونبأ منها بنادرة تشبه النواذر  
التي تروى عن قرقوش وتصلح للدلالة على وحدة المنطق الفكري بين  
الناس على تباعد الأقطار والاجناس .

يروى في بعض قرى المجر أن حداداً اقترف جريمة يعاقب عليها بالموت ،  
فحار قاضي القرية في أمره لأنه الحداد الوحيد في القرية ولا تستغنى عنه  
بغيره اذا نفذ فيه الحكم ، ثم اهتدى بعد التفكير الى حل المشكلة باعدام  
الطرزى بدلاً منه لأن القرية فيها طرزيان !

ومن الأقوال المضحكة التي استشهد بها فرويد قول الشاعر هاني في  
امرأة يعيشها في قالب الثناء فيقول انها تشبه تمثال الزهرة «فينوس» ..  
لأنها مثلها عتيقة جداً ، ومثلها بغير أسنان ، ومثلها في البقع البيضاء على  
على بشرتها الصفراء .

وشبيه بهذا الثناء المعكوس قول القائل عن رجل يهجوه انه يشبه  
جميع العظام ، فهو كالاسكندر ينحرف رأسه الى جانبه ، وكيليوس  
قيصر يكمن شيء في شعره على الدوام ، وهو يفترط في شرب التهوة

افراط ليينتر ، وينسى الأكل والشراب اذا جلس على المائدة كأنه اسحاق نيون ، ويحتاج كما يحتاج اسحق نيون الى من يوقظه .. وهو يلبس الشعر المستعار كالدكتور جونسون ، ويترك سراويله مفتوحة كمؤلف دون كيشوت .

ومن نوادر فرويد عن اليهود — وهو يهودي — أن يهودياً رأى على لحية زميله بقايا طعام فقال له : « انتي أستطيع أن أذكر لك الصنف الذي أكلته بالأمس » . قال زميله : « حسن ، قل ودعنا نسمع » فقال له صاحبه المتعلم : « انك أكلت فولاً » .. فسخر منه آكل الفول وقال : « كلا . انك غلطان يا هذا ، فانتي أكلته أول أمس » !

وتلاقى يهوديان في القطار فسأل أحدهما الآخر : « الى أين تذهب ؟ » فأجابه الآخر : « الى كراكاو » ففضب السائل وعاد يقول : لماذا تكذب علي ؟ .. انك تعلم انك اذا قلت لي انك ذاهب الى كراكاو فهمت أنا انك ذاهب الى لمبرج .. ولكنني أعلم في هذه المرة انك ذاهب حقاً الى كراكاو .. فلماذا هذا الكذب ؟ »

ويذكر فرويد من فن النكتة أسلوبياً يعتمد على اللعب بلغة واحدة تجعل من هدفها أضحوكة سهلة ، ومن قبيل هذه النكات قول مزاح مشهور : « ان فلاناً له مستقبل عظيم وراءه ! » .. وقوله عن وزير زراعة أخفق في عمله فعاد الى حقله : « انه عاد الى مكانه امام المحارث » ! ويذكر أسلوباً يعتمد على اللعب بصفة واحدة تختلف مراميها ، كما قيل عن فتاة كانت على اتصال بجميع رجال الجيش : « انها تذكرنا بدريفوس ، لأن الجيش لا يصدق ببراءتها ».

ويذكر المغالطة في الجواب ، ومن قبيلها ان رجلاً قصد الى أحد المحسنين وأفهمه انه في عسرة شديدة وأنه يحتاج الى قرض يسير للنجاة من كارثة محققة ، وبعد اعطائه القرض بساعة رأه المحسن اتفاقاً في مطعم من مطاعم الطبقة العليا وأمامه صفحة من السمك الفاخر فقال له مؤنباً : « أهكذا تنفق المال الذي تستعيره للضرورات لتأكل به الصحاف

الفاخرة؟» فأجابه المحتال وكأنه دهش من سؤاله : « عجبا لك يا سيدي ! متى تظنني أكلها : ان كنت لا أكلها مفلساً ، ولا أكلها وفي يدي ثمنها؟ » وعلى هذا النط قصه مدرس في احدى القرى مولع بالشراب لم يزل يدمن السكر حتى اعتزلته جميع الاسر ونفر منه تلاميذه . فنصح له صديق قائلاً : « انك تستطيع أن تجمع عندك تلاميذ القرية جمیعاً لو تركت الشراب ، فلماذا لا تحاول وتجرب؟ » فأجابه المدرس السكير : « على رسالك يا هذا .. إنما أعطي الدروس لأجد الشراب فهل ترانى أترك الشراب لأنعطي الدروس؟ »

وأقرب من هذا اللعب بالمقابلة قول القائل في تقاهة الحياة : « إنها نصفان تقضي نصفها الأول متطلعين إلى الثاني ، وتقضي نصفها الثاني متأسفين على الأول ! »

وسمع فولتير قصيدة روسو الشاعر الفرنسي الذي كتبها يوجه فيها الخطاب إلى الأجيال المقبلة ، فعقب عليها قائلاً : « هذا خطاب لا يصل إلى المرسل إليه »

وللاجوبة المسكتة تصيب وافر من أساليب الضحك عند فرويد ، وهذه أمثلة منها :

كان القيصر أغسطس يسيح في أرجاء ملکه فلمح شخصاً يشبه كل الشبه ، فسألة :

— أكانت أمك تعمل في بيتنا؟

فأجابه الشبيه الجريء :

— كلا .. بل كان أبي ..!

وكان بعض الوعاظ الامريكيين ينادي بحقوق السود في بلد ليس فيه كثير من السود . فقال له رئيسه :

— لم لا تذهب إلى كنكتيكي حيث يقيم أصحابك؟

فسؤاله الواعظ المسؤول :

— ألسنت يامولي تعلم لإنقاذ الأرواح من النار ، فلماذا لا تذهب إلى جهنم؟

ويتخلل الأمثلة كلها نوادر متفرقة تعتمد على الجناس اللفظي الذي لا ينقل من لغة الى لغة ولا حاجة الى نقله لكثره هذه الفكاهات الجناسية في اللغات جميعاً ولا سيما العربية . ثم يختتم الرسالة بتلخيص لتقسيم المضحكات الى ثلاثة أقسام : النكتة Wit و الهزل والدعابة humour .

وكلها مما يفسر عنده بالقصد في القوى النفسية ، ولكن النكتة قصد في العاطفة التي يكلفنا كبتها الكثير من مجده النفس ، والهزل قصد في الفكر والمنطق ، واما الدعابة فهي قصد في الاحساس ، واننا تتطلب هذه الأفانين جميعاً بعد سن الطفولة التي لا تعرف المفارقات المضحكة ولا تقدر على تفكير النكتة ولا تحتاج الى الدعابة لتشعر بالسعادة ..

\* \* \*

والى هنا ييدو لنا أن الأمثلة التي استشهد بها رائد المدرسة النفسية الحديثة لا ينطبق عليها تفسيره في جميع الاحوال ، وان القصد في الشعور أو التفكير قد يتحقق بالنكتة أحياناً ولكنه لا ينشأها ولا هي متوقفة عليه .

ولنرجع الى نادرته عن اليهودي الذي قابل زميله في القطار وسئلته عن وجهته فصرح له بذهابه الى كراكاو وعتب عليه زميله لهذا الكذب لأنـه كان سينذهب فعلاً الى كراكاو ولم تجر العادة بذكر الوجهة الحقيقة في اجابة أمثال هذا السؤال .

فلا قصد في هذه النادرة ولا ادخار ، وليس فيها موضع لزيادة في المقال أو الاتهام ، ولكنها تضحك السامع لأنـها تفاجئه بغرابة اللوم لهذه المناسبة ، فـإنـ السامع يسمع اللوم على الكذب فلا يخطر بباله أنـ الكذب في عـرفـ المتـحدـثـينـ هوـ الجـهـرـ بـالـصـدـقـ الصـراـحـ ،ـ ثـمـ يـفـاجـأـ بـسـبـبـ اللـومـ فـتـكـونـ المـفـاجـأـةـ عـمـادـ الفـكـاهـةـ هـنـاـ كـمـاـ كـانـتـ عـمـادـ الفـكـاهـةـ فـيـ جـمـيعـ النـوـادـرـ التيـ استـشـهـدـ بـهـاـ فـرـويـدـ مـنـ المـغـالـطـاتـ أوـ التـحـرـيفـاتـ أوـ الـاجـوـبةـ المـسـكـتـةـ ؛ـ وـلـيـسـ فـيـ الـجـوـابـ الـمـسـكـتـ قـصـدـ فـيـ الشـعـورـ أوـ الـقـوـلـ ،ـ وـلـكـنـهـ مـثـلـ واضحـ لـالـمـفـاجـأـةـ عـلـىـ الـخـصـوصـ حـيـنـ يـكـوـنـ السـائـلـ عـلـىـ ثـقـةـ مـنـ اـحـراجـ

المستول فلا يلبت أن يأتيه الجواب السريع فيرتد الحرج اليه .

ويجوز لنا بعد هذه التعليقات الموجزة أن نفهم أن رأي برجسون ورأي فرويد لا ينافقان تفسير الضحك من الوجهة الجسدية كما أجمله داروين في كتاب التعبيرات وفصله سبنسر في مقاله عن الضحك من الوجهة الفزيولوجية وأنهما لا يعنيان عن ذلك التفسير في النهاية سواء كان سبب الضحك فكرة أو مشاهدة حسية ، لأن نتيجته هي أن يتأثر الجسد به على النحو الذي ذهب إليه سبنسر وداروين من قبل .

مفاجأة تحبس الفكر أو الشعور عن مجراه فيتتحول عنه الى العضلات ويبدأ الاثر في أسهل هذه العضلات حركة ثم يسري الى غيرها من عضلات الجسم كله اذا اشتد الباعث على الضحك .

ولا تناقض بين هذا وبين قول برجسون اننا نضحك من الانسان اذا تصرف في حركاته وأقواله تصرف الآلة الصماء . فان هذا التصرف يفاجئنا بشيء لم ننتظره من انسان عاقل تجري أعماله على حكم المنطق الفطري الذي طبع عليه الانسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقي بعبارة أخرى . فنحن ننتظر عملاً منطقياً فنرى أمامنا عملاً آلياً على غير انتظار او على خلاف المتضرر ، وهذه هي المفاجأة التي ترجع بنا الى تفسير داروين وسبنسر ، وقد ضحك الانسان من التناقض المفاجأة قبل شروع الآلات وخلق له جهاز الضحك قبل احتقاره التشبه بالآلة .

وقول برجسون أن الضحك تبيه اجتماعي لمن يذهبون عن آداب البيئة لا ينقض هذا السبب ، لأنه فائدة من فوائد الضحك لا تفسر أسبابه ولكنها تدل على غاية من غاياته ، والفرق ظاهر بين الأسباب والغايات ..

ويرجع بنا رأي فرويد الى المفاجأة كما يرجع بنا رأي برجسون اليها . فان استخدام الضحك أحياناً في « الاقتصاد الشعوري » هو أيضاً من قبيل الفوائد التي يستفيد بها منه وليس الفوائد كما تقدم معطلة للأسباب

وليس في النواذر التي تمثل بها فرويد نادرة واحدة تخلو من المفاجأة وتعيننا عن تفسير سبنسر أو تفسير داروين ، فالجواب المskt مفاجأة ، والحيلة التي ترتد على صاحبها مفاجأة ، والتخلص السريع بالغافلة التي تختلف المنطق المألوف مفاجأة ، وتكميم الجواب الصادق لأن الصدق غير مألوف من صاحبه مفاجأة ، وسائل النواذر التي نقلناها أو لم ننقلها ترجع بنا إلى علة المفاجأة من أقرب طريق .

وقد فرق الباحثون في الضحك بين كثیر من المضحكات لاختلاف أسمائها كما تختلف كلمات السخرية أو الاستهزاء أو الدعاية أو الفكاهة . فإذا استرسل الناظر في تبع هذه الفروق وجد في النهاية أنها تؤول إلى فروق بين أنواع الضاحكين وليس فروقاً بين أنواع الضحك في أصوله . فالضحك كله مفاجأة تحول بالفكرة أو الشعور عن مجريه .

ولكن السخرية التي تؤلم الناس أو تكشف عيوبهم ومثالبهم هي ضحك الشرير الغبيث .

والاستهزاء الذي يتعالى صاحبه على الناس هو ضحك المتكبر الذي غلطت نفسه فلا يعادلهم الشعور ، أو هو ضحك العايث الذي يستخف بكل شيء ويجد الناس وهو ناظر إلى جدهم بغير أكترا .  
والدعاية التي يشتراك فيها الضاحك والمضحوك منه هي ضحك القلب الطيب الذي يسر نفسه ويسر غيره بما يكشفه من هفواتهم أو يعرضه من تقاضهم ، فلا يحسون أنه يفردتهم بتلك النقاوص أو يأخذ تلك الهمفوات مأخذ الشماتة والخباء .

والفكاهة التي تمثل لنا المضحكات هي ضحك الفنان أو الناقد الذي يصور لنا دواعي الضحك ويدع في تصويرها وتمثيلها ، فهو مضحك وليس بأضحوكة ، أو هو واضح الضحك وليس بموضع للضاحكين .

وهذه كلها فوارق بين الضاحكين وليس فوارق بين أنواع الضحك في الصميم ..  
ومن الشائع جداً أن يقترن بالضحك شعور الغبطة بتفوقنا على الآخرين ،

ولكن لا يندر أن نضحك من أنفسنا اذا فوجئنا بالهزيمة التي لا تتوقعها في موقف نظن فيه اننا نحكم الشباك لغيرنا فاذا هو قد أفلت من تلك الشباك وأوقعنا فيها .

ومن هذه الهزيمة المفاجئة ضحك الساسة والأمراء حين بلغتهم افلات نابليون من جزيرة ألبًا وعودته الى فرنسا وهم يحسبون أنهم وضعوه في القفص وجلسوا بعده يقررون مصير القارة الأوربية من بعده .

ولو أنهم فوجئوا بنا بليون يحاصرهم في مؤتمرهم ويهددهم ل ساعته في أرواحهم أو عروشهم لما ضحكوا كما ضحكوا وهم آمنون في تلك الساعة. الا أن هذا لا ينفي أن المفاجأة مضحكة ، وأن السامع بعيد يضحك منها وان لم يضحك منها الساسة والأمراء المحاصرون لاشتغال شعورهم بالخطر القريب ، ولهذا يبقى عنصر المفاجأة قائماً في تفسير أسباب الضحك. ويختلف الأمر بحسب الضاحكين في الشعور بالخطر ساعة المفاجأة ، فمن كان قريباً شغله الخوف عن الضحك ومن كان بعيداً لم يشغل عنه خوف عاجل يعطي على شعوره في تلك الساعة .

ويتساوى في هذا الشعور بالضحك والشعور بالجمال والشعور باللذة ، فلو كان المعروض على مؤتمر الساسة فتنـة من فتنـة الـزهـرة ربة الجمال وحاصرـهم العـدوـ المـهـدـدـ لـحـيـاتـهـمـ لـشـغـلـهـمـ الـخـطـرـ عنـ الشـعـورـ بـذـلـكـ الجـمـالـ الفتـانـ ، ولو كانت مائدة طعام جمعـتـ ما لـذـ وـطـابـ بينـ أـيـديـهـمـ ثمـ حـوـصـرـواـ ذـلـكـ الحـصـارـ لـشـغـلـهـمـ الـخـطـرـ كـذـلـكـ عنـ طـلـبـ الطـعـامـ والـقوـتـ .

فلا يلزم اذن أن نقول ان الشيء المضحك هو الشيء المشوه الذي لم يبلغ درجة الايام ، لأن بلوغ درجة الايام يعطى كل شعور ولا يعطى الشعور بالمضحكـاتـ دونـ سـواـهـاـ .

وصحـيـحـ - بـعـدـ هـذـاـ - ان نجمل التـفـسـيرـاتـ جـمـيـعـاـ فـنـقـولـ انـ الضـحـكـ يـنـجـمـ عنـ مـفـاجـأـةـ تـتـحـولـ بـالـفـكـرـ وـبـالـشـعـورـ عـنـ مـجـراـهـ ، وـانـ الاـخـلـافـ بـيـنـ السـخـرـيـةـ وـالـسـهـلـيـةـ وـالـدـعـابـةـ وـالـفـكـاهـةـ لـاـ يـلـجـئـنـاـ إـلـىـ الـبـحـثـ عـنـ اـخـلـافـ فـيـ اـنـوـاعـ الضـحـكـ لـأـنـهـ هـوـ فـيـ لـبـابـهـ اـخـلـافـ بـيـنـ الضـاحـكـينـ .

## الضحك في الكتب الدينية

### في القرآن الكريم

لا يتقابل شعوران من طرفي التعظيم والاستخفاف كما يتقابل الشعور بالقدس والشعور بالضحك في النفس البشرية .  
ولا يوجد لنا مرجع نعتمد عليه في هذه المقابلة الواقعية أولى بالرجوع إليه من الكتب المقدسة ، ولا سيما الكتب التي تسوق العبرة من القصص والأمثال وتروي الأخبار عن الضحك والضاحكين من مختلف الطائعن والأمزجة وفي مختلف المناسبات ،

وهذه الأخبار متكررة في القرآن الكريم ، وكلها شاهد محكم للعالم النفسياني يرکن اليه في تفسيره لأطوار النفس البشرية ، حيث تبرزحقيقة الضحك مع سياق الكلام عنه في كلام مقدس ، لبروز الفارق بين الشعورين : شعور القداسة في موضعها وشعور الضحك بشتى معانيه . جاءت الاشارة الى الضحك في القرآن الكريم مرة في قصة ابراهيم ومرة في قصة سليمان عليهما السلام ،

ففي قصة ابراهيم يقول ابراهيم حين زاره الملائكة فلم يعرفهم وخلفهم ثم بشروه بولادة اسحاق من زوجته سارة :

« ... فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نُكِرُّهُمْ وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط، وامرأته قائلة فضحت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، قالت يا ولتى أَلِيدْ وأَنَا عجوز وهذا بعلٰى شيخاً ان هذا لشيء عجيب » ..

فهنا خوف فاطمة نان فبشرى مفاجئة على غير انتظار ، فتعجب لا تملك سارة أن تجهر به فتقول : ان هذا لشيء عجيب ..

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسيين في تفسيراتهم  
— تعرضاً هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث  
يأتي الضحك مطرداً في مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد  
خوف ، ومعرفة بعد نكaran ، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة بعد  
سن اليأس وخيبة الأمل في الذرية زماناً طويلاً تعلج فيه النفس باشتات  
من دواعي الحزن والعزاء والغيرة والتسليم .

ولا تغنى هنا كلمة «سرت أو كلمة استبشرت أو فرحت» في مكان كلمة  
ضحكـت . فـان الضـحك هو الأثر الملائم لهـذه الحالـة التي تـشابـكت  
فـأصـبحـت في قـرارـةـ النـفـسـ حـالـاتـ مـتـنـاقـضـاتـ .

\* \* \*

وجاء في القرآن الكريم عن قصة سليمان عليه السلام : « حتى إذا أتوا  
على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم  
سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب  
أوزعني أن أشكـرـ نعمـتكـ التيـ أـنـعـمـتـ عـلـيـ وـعـلـىـ والـدـيـ وأنـ أـعـمـلـ صالحـاـ  
ترضاـهـ ..

فـهـاـ هـنـاـ عـوـاـمـلـ الضـحـكـ عـلـىـ سـجـيـتـهـاـ مـاـثـلـةـ فـيـ نـقـائـصـهـاـ الدـقـيقـةـ  
وـمـصـاجـاتـهـاـ التـيـ تـقـرـنـ بـهـاـ عـلـىـ حـسـبـ هـذـهـ المـنـاسـبـ دـوـنـ غـيرـهـاـ ،ـ وـهـيـ  
مـنـاسـبـةـ مـخـالـفـةـ فـيـ بـعـضـ أـجـزـائـهـاـ لـمـنـاسـبـةـ الضـحـكـ فـيـ قـصـةـ إـبـرـاهـيمـ .ـ  
هـنـاـ الفـارـقـ الشـاسـعـ بـيـنـ ضـائـلةـ النـسـلـ وـبـيـنـ ضـخـامـةـ الـمـلـكـ الـذـيـ أـوـتـيـهـ  
سـلـيمـانـ ..

وهـنـاـ رـضـىـ سـلـيمـانـ بـمـاـ تـقـيـضـهـ نـعـمـةـ الـمـلـكـ الـعـرـيـضـ فـيـ نـفـسـهـ مـنـ السـعـةـ  
وـلـاـ يـفـهـمـ عـنـهـ مـاـ تـقـولـ ،ـ

وهـنـاـ رـضـىـ سـلـيمـانـ بـمـاـ تـقـيـضـهـ نـعـمـةـ الـمـلـكـ الـعـرـيـضـ فـيـ نـفـسـهـ مـنـ السـعـةـ  
وـالـفـبـطـةـ وـتـلـهـمـهـ مـنـ الشـكـرـ وـالـخـشـوعـ ،ـ وـكـلـ ذـلـكـ آـتـ مـنـ حـيـثـ لـاـ يـتـنـظـرـ :ـ  
مـنـ نـمـلـةـ ضـئـيلـةـ تـخـشـيـ أـنـ تـحـطـمـ هـيـ وـوـادـيـهـاـ كـلـهـاـ وـلـاـ يـشـعـرـ بـهـمـ سـلـيمـانـ ..ـ  
الـعـظـيمـ ..

وورد الضحك في آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء ، فجاء في سورة المطففين : « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون اذا مروا بهم يتغامزون اذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فكين وإذا رأوه قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليلوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون »

فالضحك هنا مقترب بالتعامز الغفي ، كأنما يحسب المستهزئون أنهم يستغلون المؤمنين الذين يمررون بهم فيسخرون منهم بالتعامز بينهم ويفضحون اذا التفت اليهم المؤمنون على حين فجأة فلا يملكون اخفاء العبرة والسخرية ، كما يحدث دائمًا بين المتعازمين اذا انكشفوا وامتنع عليهم الكتمان والتتمادى في الاستهزاء من وراء الأنظار .

والضحك الأخير يأتي حين لم يكن في الحسبان ، لأن الكفار كانوا يضحكون فإذا بهم قد انقلب عليهم الأمر فهم أضحوكة للضاحكين ، وهؤلاء وادعون على الأرائك ينظرون .

وجاء في سورة الزخرف : « ولقد أرسلنا موسى بأياتنا الى فرعون وملأه فقال اني رسول رب العالمين فلما جاءهم بأياتنا اذا هم منه يضحكون »

وضحك المفاجأة هنا واضح من طلب الآيات ثم اخلاف ظن موسى عليه السلام لأنهم عبوا به وهو يتضرر منهم بعد مجئهم بالآيات أن يؤمنوا فإذا هم يفاجئونه بما لم يتضرر من اصرارهم على الكفران .  
ولابد في كل ضحك من الشعور بالمفاجأة في الضاحك أو فيمن يتعرض للضحك . فهو شعور ملازم للمضحكات من طرفها .

وفي سورة النجم عن نوح عليه السلام : « وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغضيبي ما غنى فبأي آلاء ربك تتسارى هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآفة ليس لها من دون الله كاشفة فمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تكونوا وأتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا » .

ففي هذه الآيات يحسب الرسول أنه يأتيهم بما يكفيهم فلا يحسون داعية للبكاء ويستغربون فيتقل بهم الاستغراب من أحاديث الرسول عن نذير الآزمة المطبقة إلى الأمان الذي يتصورونه ولا يحسون غيره . وبين هذين النقيضين المتبعدين يتعجب القوم ويضحكون : موقف لا وسط فيه بين البكاء والضحك . فاما أن يحس السامع نذير الآزمة فيكفي أو يستغربها ويستبعدا فيضحك تعجبًا من كلام القائل واطمئنانه إلى الأمان الذي يقال لهم انهم مهددون فيه .

والضحك من البلاء الذي لا يحسه السامع ويحس نقيضه كالضحك من البلاء الذي يحسه ويحس أنه ناج منه ، وقد تكرر ذكر الضحك بهذا المعنى فجاء في سورة التوبة عن المخلفين الذين فرحوا بمقعدتهم عن القتال : « فرح المخلفون بمقعدتهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفهون . فليضحكوا قليلاً ولبيكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون » ..

وهذا الضحك أيضًا مقرون بالسماع عن الخطر مع الشعور بالأمان ، فهو — كما تقدم — كالشعور بالخطر حيث يغلب اليقين بامتناعه أو يمتنع بعد نذير لا يخفى .

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الضحك بمعنى السرور لأنه يلزم في معظم دواعيه ومظاهره .

وورد ذكر السخرية والاستهزاء ، وهما في أكثر الآيات بمعنى الاستخفاف والكبراء ، أو بمعنى التردد بين حالتين : حالة ظاهرة وحالة باطنية تناقضها ، ولا يخفى أن نقل الشعور بين هاتين الحالتين سبب من أسباب اضحك على اختلاف الصاحبين : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وادا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم اما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . »

وما من آية ورد فيها ذكر السخرية الا كان فيما تحتويه شعور قوم

فارغين باجتهاد الأنبياء وندائهم في غير طائل على ما يبذلو لأولئك الفارغين ، ويذكر هذا الضرب من السخرية في قصة نوح لأنه من جهة ينذر ويحذر ويتوعد بالغضب المحيق ، وهم من جهتهم وادعون غافلون يمرون به وهو جاحد في عمل الفلك فيتضاحكون :

« ويصنع الفُلّات وكلما مر عليه ملأً من قومه سخروا منه قال انتسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . »

وكلا العجانيين - جانب نوح وجانب قومه - فيه أمان مع خوف يتناقضان ، وفيه ثقة تناقض الثقة التي تقابلها ، فكلامها عنده سبب للسخرية بين هذين النقيضين .

### في التوراة

وقد مر بنا استشهاد الفيلسوف اليعري بالتوراة عن ضحك الله من يغترون بقدرتهم ويعتزمون أموراً يجترؤون عليها ثم يعجزون عنها . وهذا الشاهد مأخوذ من المزמור الثاني الذي يقول ناظمه إنه يسمع دعوى المغرورين فيضحك لأنه أخبر منهم بما يريده رب على عرشه ، وهذا نص المزמור :

« لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب في الباطل ؟

« قام ملوك الأرض وتأمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه . لقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما .

« الساكن في السماوات يضحك .

« الرب يستهزء بهم . وحيثند يتكلم عليهم بغضبه ويرجمهم بعينيه .

أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي .

« أني أخبر من جهة قضاء الرب . »

فالضحك هنا يترجم عن حالتين متناقضتين : احداهما غرور ظاهر بالقوة ، والأخرى حقيقة هذا الغرور العاجز الذي لا قبل له بما يدعوه

والاختلاف بين هاتين الحالتين هو مثار الضحك مجازاً بالنسبة للله ،  
وحقيقة بالنسبة الى الانسان .

وجسيم ما ورد في العهد القديم عن الضحك فانما يفهم الضحك فيه  
بمعنى الاستهزاء والسخرية اذا كان من المنكرين ، وبمعنى الاستغراب  
والدهشة اذا كان من المؤمنين .

وجميع هذه الشواهد ينحي على المستهذئين لأنهم يستكرون  
ولا يصدقون ، فهم يستهذئون بالأنبياء لأنهم يرونهم بأعينهم مدعين القدرة  
ظاهراً وعلى غير شيء في الباطن ، والأنبياء يستهذئون بهم لأنهم يرون  
الحقيقة معاكسنة من جانبهم على أولئك المنكرين المستكبرين ، فهو لاء  
المنكرون المستكرون هم الذين يتشفتون على هواء ، ويرى النبي صورتهم  
المتنفسة وصورتهم الخاوية فيرى منهم تناقضاً يوحى بالاستهزاء ، ولا سيما  
حين يفتر أصحابه فيستهذئون بالعارفين .

ففي سفر أشعيا يقول النبي عن الأمراء والساسة : « اسمعوا كلام  
الرب يا رجال الهراء — ولادة هذا الشعب الذي في أورشليم »

وفي الأمثال من الاصحاح الأول كلام عن ضحك الشماتة والاستهزاء  
يقول فيه صاحب السفر : « اني دعوت فأبكيتم ومدلت يدي وليس من  
يالي ، بل رفضتم كل مشورتي ولم ترضوا توبيخي ، فأنا أيضاً أضحك  
عند بليتكم ، أشتت عند مجيء خوفكم »

وليس أكثر في كتاب الأمثال من الاشارة الى الاستهزاء بمعنى الكبراء  
والغرور والجهالة ، ومن الاشارة الى جزاء المستهذيء وأثره السييء في  
قومة وحكمة تأديه ليتفتح الحمق بعترته ويزدجروا بالنظر الى مصيره .  
قال : المستهذيء يطلب الحكمة ولا يجدها .

وقال : المتنفس المتكبر اسمه مستهذيء عامل بفيضان الكبراء .

وقال : اضرب المستهذيء فيتذكى الأحمق .

وقال : بمعاقبة المستهذيء يصير الأحمق حكيمًا .

وقال : المستهذئون يفتونون المدينة ، أما الحكماء فيصرفون الغضب .

وقال : الابن الحكيم يقبل تأديب أبيه والمستهزء لا يسمع اتهاراً .

\*\*\*

وكتاب الأمثال أكثر الكتب في العهد القديم اشارة الى الهزء والاستهزاء وهو تكرار يوافق طبيعة السفر كله ، لأن الأمثال سفر الحكم والتجربة وهما نقىض الاستهزاء الذي يستخف صاحبه بجميع الأمور ولا يزال كذلك حتى تهديه تجارب الأيام الى الاعتبار بالحوادث وبعد النظر في عواقب الأمور ، فاذا هو ينظر اليها كما قال الشاعر العربي :

أمور يضحك السفهاء منها      ويبكي من عواقبها الليب  
وليس في كتب العهد القديم كتاب تكررت فيه الاشارة الى الاستهزاء كما تكررت في كتاب الأمثال ، ولكنه جاء في بعض الكتب على ندرة واختلاف يسير في المعنى ، وكادت قصة سارة في سفر التكوان أن تتم عن ضحك بمعنى الاستغراب والاستعظام ، لأنها لا تستهزء بالبشرة ولكنها تستغрабها ولا تطئن اليها لأول وهلة ، ولهذا يروى الاصحاح الثالث عشر عنها أنها ضحكت في باطنها وأنها أنكرت الضحك حين سمعت من ضيوف ابراهيم سؤالاً فيه شيء من صبغة الملام :

« وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هي في الخيمة ، فقال اني أرجع اليك نحو زمان الحياة - اي الربيع - ويكون لسارة امرأتك ابن . وكانت ساره سامعة في باب الخيمة وهو وراءه ، وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام ، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء فضحكت سارة في باطنها قائلة : أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ ؟ فقال الرب لا ابراهيم : لماذا ضحكت سارة قائلة : أفالحقيقة أللد وأنا قد شخت . هل يستحيل على الرب شيء ؟ في الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن . فأنكرت سارة قائلة لم أضحك ، لأنها خافت ، فقال لا بل ضحكت ».»

فالملاضع التي ورد فيها الضحك في كتب العهد القديم انما كانت تنديداً بخليقة الاستهزاء والسخرية ، أو كانت بمعنى الاستهزاء الذي يرد

الاستهزاء على أصحابه ، ومن هذا القبيل ما ينسب الى الآله أو الى عباده الصالحين ..

وبهذا المعنى نسب الى أيوب حيث جاء في سفره : « لا ترفض تأديب القدر لأنّه هو يجرح ويعصب ، يسحق ويدهش تشفيان ، في ست شدائٍ ينجيك وفي سبع لا يمسك بسوء ، في الجوع يهديك من الموت وفي الحرب من حد السيف ، من سوط اللسان ، فلا تخاف من الخراب اذا جاء ... تضحك على الخراب والمحل ولا تخشى وحوش الأرض.»

وهنا يعود أيوب فيهزاً بالخراب والمحل بعد أن كان ضحكة لهما أو ضحكة للهازلين الذين حسبوه فريسة لهما وحسبوا لأنّجاة له من مصابيه بهما وبغيرهما من ضروب المحنّة والبلاء .

لا جرم يقال عن الضحك بمعنى الاستهزاء . كما جاء في الأمثال : « انه في الضحك يكتب القلب وعاقبة الفرح حزن.» .. أو كما جاء في الجامعة : « ان الحزن خير من الضحك لانه بكاء الوجه يصلح القلب ...»

ولم يذكر الاستهزاء بخير في كتب العهد القديم الا أن يكون ردًا على المستهزئين وعقاباً للسخرية والمجون .

على أن الضحك قد ورد في العهد القديم بمعنى السرور مقابلًا للحزن مصحوبًا بالغناء ، كما جاء في المزامير بعد رد النبي « انا ... حيث ذلت أفوأهنا ضحكاً وأستتنا ترناً.»

ولا يلزم في هذا المعنى تفسير الضحك بالأسباب التي أجملناها فيما تقدم ، ولكنه — على هذا — لا يخلو من الشعور بالنقيش بعد النقيش ، اذ يتنتقل المرء من الأسر الى الطلاقة ، فيعبر عن فرحة بالضحك والغناء .

### في الانجيل

اما في العهد الجديد فقد جاء ذكر الضحك في انجيل لوقا على لسان السيد المسيح حيث يقول وقد رفع عينيه الى تلاميذه :

« ورفع عينيه الى تلاميذه وقال : طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الان لأنكم تشعرون . طوباكم أيها الباكون الان لأنكم ستضحكون ». »

وهنا يأتي الضحك مقابلًا للبكاء ولا يخلو من دواعي الضحك في جميع الأحوال وأهمها تبدل الحال والمقابلة بين القصرين .

\* \* \*

وهذه الشواهد من هذه الكتب الدينية التي يقرأها المؤمنون بها ويقدسون ما فيها — خير ما يستشهد به على طبيعة الضحك في حالات متعددة ، لأن هذه الدواعي تبرز في مواضعها بروزاً واضحاً بما يقابلها من شعور القداسة ، وتنبئنا عن أناس متبعدين في الأزمنة والأمكنة والطبع والأخلاق ، فنعلم أن الإنسان في كل زمان ومكان ، وإن الضحك خاصة إنسانية تعم بني الإنسان .

## الإنسانية والفكاهة

أيًّا ما كان القول في تعريف الضحك وتعليله ، فمن أصح الأقوال مع جميع التعريفات والتعميلات أن الضحك — كما قال برجسون — ملحة إنسانية من طرفها ، فلا يضحك إلا إنسان ، وما من شيء يضحكنا إلا إن يكون « إنسانياً » في صورة من صوره ، ولو على سبيل التشبيه . ولنا أن نقول إن الإنسان حيوان ضاحك كما نقول إذ الإنسان حيوان .. ناطق ..

أفعني بذلك أن كل إنسان يضحك بلا استثناء ؟ كلا . إلا كما يعني أن كل إنسان ينطق ويقتصر ويتكلّم بلا استثناء . فهناك خُرس لا ينطقون ، وهناك بُله لا يفكرون ، وهناك صغار أو هيج تتولاهم الغرائز على نحو قريب من سيطرة الغرائز على الأحياء التي لا تساوى البشر في الخلق أو في الذكاء .

ولكننا مع ذلك نقول إن الإنسان حيوان ناطق ونريد بذلك أنه ناطق « بالقوة » على اصطلاح المناطقة ، أو بالاستعداد العام في أبناء نوعه كما نقول في عرف المصطلحين ، وكذلك يقال إن الإنسان حيوان ضاحك ومنه جماعات بدائية لا تفهم الضحك ولا تدرى موقعه من أعمال الناس ، ولا تميز بين المضحكات وغيرها من الاعمال المخالفة لل地貌 ، لأن مخالفة المألوف بين أبنائها ظاهرة نادرة جداً لأنطباعهم على العرف المتوارث الذي لا يخالفونه إلا وقعوا في محظوظ « المحرمات » ... مع قصورهم عن المقارنة التي تتضح منها النقائض وموطن الضحك أو الاستغراب ..

ولعل هذا العجز عن الضحك في هذا الطور من أطوار الإنسانية معز لقول القائلين أن الضحك خاصة إنسانية لا يشتركت فيها عامة الأحياء

فلا يضحك الانسان وهو — بعد — قريب من اطوار الحيوانية في حكم الغريرة وغلبة العادة على التفكير ، واذا رجعنا الى تفسير برجسون في هذا الصدد فلا محل للمفاجأة هنا من جريان الانسان على سنة الآلات في اطراد العمل بغير تفكير ، فان القبائل البدائية المغرقة في الهمجية تجري كلها على هذه السنة ، ولا يكون فيها مخالفًا للمأثور الا الذي يشد بالتصريف على خلاف الوتيرة المطردة والنهج المرسوم .

اما بعد هذا الطور من الهمجية البدائية فالشعوب جميعاً تعرف الضحك وتعرف واسعه موضوعه بالتجربة العملية وان لم تعرفهما بالتفسير والتفسير ..

ونريد بواسع الضحك من يخلقه بتمثيل المضحكات واختراعها وحكايتها كالفنانين والنديمة ..

ونريد بموضع الضحك من يكونون أضحوكة الناس بالغفلة أو النقص أو التصرف المتناقض الذي يحول شعور ناظره من وجهة الى وجهة على حين غرة على الاجمال .

### الامم الضاحكة

وقد جرت عادة المعاصرين على وصف بعض الأمم بالفكاهة وتجريده بعضها منها أو وصفها بجهلها وبطء الاحساس بها عند المقابلة بينها وبين الأمم « الفكاهية » .

والثابت الذي لا شك فيه عن جميع الأمم أنها أخرجت نوابع الفكاهة في جميع أجيالها ، وانها في العصر الحاضر تمثل الفكاهيات وتعرضها على جمهورة من أبنائها ، فلا توجد أمة متحضره لها تاريخ قديم خلت من نوابع الفكاهة ومن آثار هؤلاء النوابع في الآداب والفنون .

ولكننا نرى أن إحصاء النوابع هنا لا يفيينا كما يفيينا دليل الأمثال التي يتداولها الناس ويتوارثونها جيلاً بعد جيل ، فان آثار النوابع قد تكون مقصورة عليهم وعلى فئة من قرائهم أو من القادرين على الاستمتاع بفكاهتهم ، ولكن الأمثال الشائعة تترجمان صادق لتفكير الأمة وشعورها

و طريقتها في التعبير عن تجاربها ، وهذه الطريقة تكاد أن تتفق في جميع الأمم أو تتقرب غاية التقارب في المضامين والرامي وإن لم تقارب في اللفظ والتركيب ..

وهذه أمثال الأمم بين أيدينا تقرن فيها الحكمة أو تأتي فيها الحكمة من طريق الفكاهة على أسلوب متزوج فيه السخرية بالتهكم والعطف والدعاية ، وتوخذ فيه الحكمةأخذ الجد والمزاح في وقت واحد ، لأنها تشير إلى عواقب الخطأ والحمامة اشارة التعقيب بعد مرور المئات من الأمثلة والقرائن والمناسبات ، فهي تسكلم في آمان بعد فوات الضرر وقبل وقوعه على المقصودين بالنصيحة والتذكرة .

وعلى سبيل التمثيل بالواقع نستشهد هنا بالأمثال في أمتين من أمم الشرق وأمتين من أمم المغرب ، يقال عن احداهما أنها أمّة ذات فكاهة أو أمّة فكاهية ويقال عن الأخرى أنها لا تفطن للفكاهة وانها اشتهرت بالجهامة وأخذ الأمور كلها بالجed والصراحة التي لا تعرف التورية والتلبيح .

ففي الشرق أمّة الفرس مشهورة بالنكبات القديسة والحديثة من عهد الحضارة الكسرية ، وأمّة اليابان مشهورة بالكد والدأب والأنصباب على العمل والتكليف .

وفي المغرب تقابل هاتين الأمتين الأمّة الفرنسية في صفة الفكاهة والأمّة الالمانية في صفة الجهد والجهامة .

وهذه طائفة من أمثلة الأمّة الفارسية - التي يقال عنها أنها فرنسا الشرق - تتبعها بطاقة من أمثلة الأمّة اليابانية بغير اختيار بين صفحات الكتب الجامعة لأمثال هاتين الأمتين .

#### أمثال فارسية :

- الصدق والسكر زميلان .
- الحب والعطر لا يختبئان .
- الخادم الجديد أسبق من الفزال .
- ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف .

الذهب والحجر من معدن واحد في الصندوق .  
 الخائط عريان والاسكاف حاف .  
 الجاهل لا نفع فيه ، لا هو انسان ولا هو حمار .  
 يبيع العجل قبل صيد الغزال .  
 من دواعي الرثاء أن تنفق الذهب في الطلاء .  
 لا لزوم للستك في بركة بلا ماء .  
 الكلام يلد الماء والأمطار تلد الثلوج .  
 ما الفائدة ؟ عندما استطيع لا اعرف وعندما اعرف لا استطيع !

\*\*\*

وهذه متفرقات بعدها — اثنى عشر — من أمثال الأمة اليابانية في  
 معارض شتى من حكمة الحياة :  
 الحب لا يميز بين « الميكاد » والفلاح .  
 قد ترى السماء من ثقب ابرة .  
 صدر الانسان أصون الصناديق لاسراره .  
 نصف الناس يضحكون من النصف الآخر ، والنصفان حمقى .  
 اذا تقدمت الحماقة رجعت الحكمة .  
 أعني العاصف لا تثير الموج في أعماق الآبار .  
 ما من شجرة تحمل الأرز مطبوخاً .  
 لا السكير يدرى بumar الخمر ولا المفick يدرى بسلطانها .  
 لا يرجع الضحك بما أذبه الغضب .  
 المبالغة في التحيية ازدراء .  
 أجمل الغلال نبت في حقول الاخرين .  
 اقرص نفسك تعلم لماذا يصبح المقصوص .

\*\*\*

والأمة الفرنسية أشهر أمم الغرب بالفكاهة فيما تداولته الألسنة من  
 شهرة الأمم . وهذه متفرقات من أمثالها :

لا تذهب الفضيلة بعيداً الا أن يكون الغرور في ركابها .  
 حب الذات أبعـر المـتعلـقـين .  
 المذنب المـحـبـوب سـرعـانـ ما تـكـشـفـ بـراءـتـهـ .  
 خـيـالـ بلاـ عـلـمـ أـجـنـحةـ بلاـ أـقـدـامـ .  
 الـحـقـىـ الـقـدـماءـ أـحـمـقـ منـ اخـوـاهـ الـمـحـدـثـينـ .  
 الـبـسـاطـةـ الـمـفـتـلـةـ تـكـلـفـ مـطـلـيـ .  
 لا يـقـولـ عـنـ الـحـظـ إـنـهـ أـعـمـىـ إـلـاـ الـذـىـ لـاـ يـرـاهـ .  
 تـزـيدـنـاـ السـنـ حـمـقـاـ كـلـماـ زـادـتـنـاـ حـكـمةـ .  
 أـصـدـقـاؤـنـاـ الـأـعـزـاءـ يـقـولـونـ كـمـاـ نـقـولـ .  
 الـحـبـ سـمـلـكـةـ الـمـرـأـةـ .  
 لـلـقـلـبـ مـنـطـقـ لـاـ يـعـرـفـ الـمـنـطـقـ .  
 الـذـيـ يـحـسـنـ الـحـسـابـ لـاـ يـقـنـعـ فـيـ حـسـابـ .

\*\*\*

وتلي هذه الأمثال الفرنسية طائفة في مثل عددها من الأمثال الألمانية ،  
 وهذه هي :  
 سـفـينةـ وـتـدـهـاـ مـنـ الـذـهـبـ تـرـسـوـ فـيـ كـلـ مـيـنـاءـ .  
 انـ لـمـ تـكـنـ سـطـرـةـ فـكـنـ سـنـداـنـاـ .  
 الـكـيـسـ الـفـارـغـ لـاـ يـقـفـ مـسـتـقـيمـاـ .  
 بـطـنـ فـارـغـ أـشـبـعـ مـنـ رـأـسـ مـلـاـنـ .  
 الـضـرـيرـ أـقـلـ عـرـاثـاتـ مـنـ الـبـصـيرـ .  
 مـنـ بـدـأـ بـالـأـلـفـ التـهـىـ إـلـىـ الـيـاءـ .  
 الـتـخـمـةـ أـقـتـلـ مـنـ الـجـوعـ .  
 طـرـيقـ الشـحـاذـ لـاـ ضـلـالـ فـيـهـ .  
 آـدـمـ وـحـوـاءـ أـكـلـاـ التـفـاحـ ،ـ وـنـحـنـ نـطـالـبـ بـقـائـمـةـ الـحـسـابـ .  
 اـمـرـأـتـانـ طـيـيـتـانـ فـيـ الدـنـيـاـ :ـ اـحـدـاهـماـ مـاتـ وـالـأـخـرـىـ مـفـقـودـةـ !  
 الـمـرـأـةـ الـتـيـ لـاـ يـصـحـبـهاـ أـحـدـ يـصـحـبـهاـ الـجـمـيعـ .  
 يـضـحـكـ مـنـ النـدـوـبـ مـنـ لـمـ يـعـرـفـ الـجـرـاحـ .

وهذه اثنا عشر مثلاً من كل أمة مشهورة بالفكاهة أو مشهورة بالجهة . غير أننا لو جعلناها عشرة أضعافها لما تغيرت نسبة الموارنة بينها ، ولا خرجنا منها بتفضيل حاسم لأمة على أمة حين تقىس فكاهة الأمم من تجاربها وأمثالها ، فكلها سواء في مزاج الجانب المضحك بالجانب العكسي من تجارب الحياة المتكررة ، ولاشك أن هذه التجارب وهذه التعبيرات عنها أدل على ملكة الفكاهة الشائعة بينبني الانسان من الأقوال المتفردة على ألسنة الآحاد .

\* \* \*

وهناك مقياس آخر للفكاهة الشائعة بينبني الانسان نرجع فيه إلى مواسم الفكاهة التي تعرض لجميع الأمم في حالات متسائلة ، وهي حالات التفيس عن الحرج أو حالات الترد والاحتجاج على البدع الشائعة ، ولا سيما البدع التي حان لها أن تزول أو تبدل دواعيها بتبدل الأحوال . وشعوب الصقالبة في أوربة الشرقية وأوربة الوسطى من الشعوب التي اشتهرت بجهل النكتة وخشونة الفطرة وقلة الفطنة لكل معنى في القول غير معناه الصريح الذي يفهم على وجه واحد ولا يفهم على وجهين كما يغلب على جميع المضحكات ..

الا أن هذه الشعوب قد رويت عنها نوادر في موسم الحرج لا تفضلها من نوعها نوادر الشعوب الغربية في أمثال هذه المواسم .

وهذه متفرقات من تلك النوادر مأخوذة من صحف أو من مجتمع الفكاهة العالمية التي تصدر من حين إلى حين وسن فيها أمزجة الأمم التي تروي تلك النوادر على غير قصد من جامعيها :

\* أرادت اذاعة روسية أن تطلع الفلاحين علم ، أجهزة الاذاعة وأن يشترك كل منهم في ارسال الحديث الى العالم بكلمة واحدة لا يزيد عليها ، فلما تقدم الفلاح الأول وسئل أن ينادي بالكلمة الوحيدة صالح بملء فيه : النجدة !

\* وظاف مقتش من مقتش الدعاية بين الفلاحين المتذمرين فقال في

بعض القرى للشاكين من قلة الطعام والكساء :

« ماذا تقولون ؟ أتشكون من أبدع المذاهب الاجتماعية من أجل لقمة وخرقة ، فماذا عساكم قائلين لو رأيتم الأفريقيين العراة الذين لا يعرفون الخبز ولا الطعام المطبوخ في مجاهل القارة السوداء ؟ »  
وحك أحد السامعين رأسه وقال :

« أظن يا حضرة الرفيق أن هؤلاء سبقونا الى أبدع المذاهب الاجتماعية » !

\* وساح تاجر مجري في روسيا والأقاليم المجاورة لها فجعل يرسل التذكرة البريدية الى أصحابه كلما نزل بعاصمة من العواصم ، فكتب في التذكرة الأولى : تحيات من موسكو الحرة ، وكتب في التذكرة الثانية : تحيات من وارسو الحرة ، وكتب في التذكرة الثالثة : تحيات من براغ الحرة . ثم صمت شهرًا وجاءت الى أصدقائه من باريس تذكرة يقول فيها هذه المرة : تحيات من الحر رايسيوفشن !

واقترب غريب في بو دابست من جندي الشرطة ليسأله عن الساعة ، فنظر الشرطي الى النوافذ وقال له : « انها الساعة الثامنة وثلاثون دقيقة بالضبط » ..

فعجب الزائر الغريب وفاته بعجه قائلًا : « كيف عرفتها وأنت لم تنظر في ساعتك ؟ »

وقال الشرطي : « هذه النوافذ المغلقة في هذه اللحظة دليل على ميعاد الاذاعة الأجنبية » !

\* واجتمع ثلاثة مساجين في أحد المعسكرات فقال أولهم همساً : أنا هنا لأنني منهم بمشایعة راداك ، وقال الثاني : أنا هنا لأنني متهم بتآييد راداك ، وقال الثالث : أنا هنا لأنني راداك .<sup>(١)</sup>

وقد نقلت عن الألمان في أيام هتلر حكايات يتداولها الشعب الألماني من قبيل التمرد والاحتجاج على شدة الحجر أو على البدع الاجتماعية

ونختار حكاية من كل منها تنبئ عن سائرها .  
 فمن حكايات التمرد على الحجر وسوء الحال أن رجلاً ضاقت به الدنيا  
 فعول على الانتحار واشتري حبلاً ليشنق نفسه فانقطع الحبل ونجا الرجل  
 من الموت ، لأن الحبل « ارساتز » ، أو تقليد صناعي .. فاشترى سماً  
 من صيدلية وضاعف المقدار فلم يمت لأن السم « ارساتز » أي تقليد  
 صناعي للمواد التي تصنع منها السموم .. واشتري مسدساً وأطلقه على  
 نفسه فلم يمت لأن المسدس والرصاص كله « ارساتز » لا يميت .. فلما  
 يشن من الموت عدل عن الانتحار ، وأجمع عزيته على البقاء واحتماله  
 الحياة على علاتها ، وذهب إلى مطعم أكل فيه وشرب وأفرط في أكل  
 اللحوم وشرب الجمعة تعويضاً لما فاته من متعة الحياة في اليومين السابقين .  
 فمات في هذه المرة ، لأن الطعام والشراب « ارساتز » !  
 وشاع بين الفتيات زي الملابس التصيرية التي تكشف عن الصدور  
 والسواعد والسيقان ، وعاد أحد الأزواج إلى بيته في بعض تلك الأيام  
 فاستقبلته زوجته متهللة وقالت له : أتدري يافلان ! انهم يبيعون الفساتين  
 بالتقسيط على عشرة أقساط ، وقد اتهزت الفرصة واشترت فستاناً  
 يوفر عليك سداد ثمنه الكبير دفعه واحدة .  
 فنظر الزوج إلى امرأته التي كادت أن تبدو أمامه بغير كساء ، وقال  
 وهو يظهر الموافقة على مضض :  
 — أظن أن هذا هو القسط الأول من الفستان !

### النواود القرقوشية:

ان الاستعداد لتاليف الفكاهة التي تنفس بها الأمم عن صدورها في  
 أوقات الحرج يكاد يتساوى بين جميع الأمم ومنها — أو في مقدمتها —  
 الأمم التي لم تشتهر بالنكثة واشتهرت على تقىض ذلك بأنها تجهلها  
 ولا تحسنها ..  
 وقول إن هذه الأمم في مقدمة الأمم التي تؤلف النكات في هذا الغرض

لأنها في الغالب هي الأمم التي تتلي بالخرج وتعز عليها حرية القول ، فلا يوجد في العصر الحاضر نظير لهذه النوادر في الأمم التي تملك حرية النقد وتجهز بأرائها في حكومتها وحكامها ، ولا محل للمقارنة بين الشعوب الأوربية في هذا الباب من أبواب الفكاهة لأنها لا تساوى في ظروفه ودعائيه ، وإنما تستطاع المقارنة بين النكات المتقدمة والنكات التي شاعت في مصر على عهد « قرهقوش » ودونها « ابن مماتي » في كتابه المسماى « الفاشوش في حكم قراقوش » وليست كلها من تأليفه وابتكره ، بل هي مما يشيع مجھول المصدر ثم يقاس عليه ويظل في طي الكتمان إلى حين ..

واحدى هذه النوادر أو النكات قد سبق لها نظير في النوادر التي استشهد بها فرويد وهي نادرة الحداد المحکوم عليه بالموت .

قيل إن غلاماً لقره قوش قتل نفساً فحكم عليه بالشنق ، ثم تشفع لديه الشفاعة وقالوا له : انه حدادك ينعل لك الفرس ويخدمك ، فان شنقته لم تجد غيره ، فنظر قرهقوش ناحية الباب ووَقَعَتْ عينه على رجل قفاص فقال : هذا القفاص لا حاجة بنا اليه ، فاشنقوه في مكان الركيدار ، وهي وظيفة الغلام الحداد عنده !

وعلى هذا المثال تجري النوادر « القرقوشية » التي أثبتها « ابن مماتي » في كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره .

\* ومنها نادرة الرجل الذي أوثقه الناس وحملوه حياً ليُدفنوه وهو يصبح في النعش مستبئضاً بقره قوش ، فلما سمعه قره قوش ترك المشيعين يمضون به وقال له : ويحيك ! لا أصدقك وأكذب مائة من ورائك !

\* وقيل إن قره قوش نشر قميصه فوق القميس من الجبل ، فصدق بالف درهم وقال : لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت .

\* وقيل إن جندياً نزل في مركب ، وكان به فلاح وزوجته وهي حامل في سبعة أشهر . فصدما الجندي وأسقط حملها فأخذ زوجها بتلاييه وقاده إلى قرهقوش ، فقضى على الجندي أن يأخذ الزوجة

ويطعمها ويكسوها ولا يعيدها الى زوجها الا وهي حامل في سبعة  
أشهر ! ..

\* وشكا اليه مدين أنه يجمع دينه وينذهب به الى صاحب الدين  
فلا يجده ، ثم يأتي هذا فيطالبه ويلوح عليه وهو خالي الوفاض لا يملك  
السداد ، فأمر قرهقوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه  
متى جمع المال المطلوب منه ، ولا يضيع الدين على صاحبه بين البحث  
والتأجيل ..

\* وكان لقرهقوش باز يصيده به فطار الباز ولم يعد اليه ، فأمر بإغلاق  
أبواب المدينة ليرجع الباز اليه اذا أغلقت جميع الأبواب !

\* وشكا اليه الفلاحون برداً أصاب القطن وأتلفه والتمسوا منه أن  
يعفيهم من الضريبة ذلك العام ، فأبى أن يعفيهم لأن القطن إنما أصيب  
بالبرد لاهتمامهم وقلة درايتهن ، ولو زرعوا معه صوفاً لما أصابه التلف من  
برد الشتاء !

\* \* \*

ومن باب هذه الحكايات عن فره قوش حكايات كثيرة يتناقلها المصريون  
عن الحكم التركي في عصر المماليك وبعد عصرهم الى أيام الخديو  
اسماعيل ..

\* ومنها أن حاكماً تعود أن يفترض مالاً من بعض الصيارفة ويكتب له  
وثيقة بها ثم يأمره بابتلاعها اذا جاءه في الموعد مطالبًا بحقه . ولا يزال  
يفترض ويأبى السداد على هذا النحو ويضيف الدين الجديد الى الديون  
القديمة حتى يئس الصيرفي من سداد جميع الديون ، فلما استدعي الصيرفي  
بعد ذلك جاءه ومعه ورقة شفافة ورجاه أن يكتب له الوثيقة عليها ..  
ليسهل عليه ابتلاعها في موعد السداد .

\* ومنها أن والياً كان يجمع الضرائب ولا يقبل عذرًا في تأخيرها ..  
ولا يزال يقول لمن يعتذر بقلة المال :  
— ماذا ؟ أليس لديك أربعون ريالاً ..

وعلم القوم من تكرار هذه « الأربعين » ان الرجل يملك أربعين ريالاً  
فلا يصدق أن أحداً لا يسلكها مثله ، ونقبوا دفائفه حتى عثروا بالثروة  
المجهولة ، أو المعلومة ، فلم يضرب الوالي بعدها أحداً يماطل في الضريبة ،  
وجعل يقول لكل معتذر :

— من أين لك أربعون ريالاً يامسكين؟ .. أنا لا أملك ريالاً واحداً من  
الأربعين ..

\* \* ومنها أن واليًّا كان يصلٍي في أخيريات أيامه ويتبَع الصلاة بالدعاء  
والتحبب ويسأله أن يُكفر له ذنبه لأنَّه قتل أربعة .

وسمعه زميل له فأدْهشه أن يستعظم هذا الذنب البسيط وينحب هذا  
التحبب من أجل أربعة قتليهم وهم في حسابه عدد غير كبير ، فقال له كأنه  
يؤنبه :

— ألم تقتل في حياتك غير أربعة يا آغا؟

قال : « لا يا صاحبى .. أربعة من الترك ، أما الفلاحون فلا عداد لهم  
فيما ذكر ! »

وأشباء هذه النوادر لو أحصيت لاجتمع منها مجلدات تُربى على  
العشرات من أمثال كتاب الفاشوش عن حكم قوه قوش ، وهي جميعاً من  
تأليف أمة مشهورة من قديم الزمن « بالقش » والنكتة السريعة ، فإذا  
قوبلت هذه النوادر بنوادر الأمم التي لم تشتهر بالفكاهة في أوربا الحديثة  
ظهر من المقابلة أن الاستعداد متقارب أو متساو بين جميع الأمم ، وإنما  
ترزد النكتة المصرية بطبع خاص بها وهو الجمع بين التنتيس عن الحرج  
وبين وصف الحاكمين بالغفلة والبلادة ، وسبب هذا الفارق أيضاً راجع  
إلى الظروف الاجتماعية لا إلى طبيعة الضحك في النفس الإنسانية ،  
فإن الحاكم الذي تصيبه النكتة المصرية من غير أهل البلد فلا ضير من  
اتهامه بالغفلة والبلادة واعتذار المحكومين على الحاكمين بالفطنة والدراءة ،  
ولكن هذا الاعتذار في أوربا الحديثة يصيب المحكومين كما يصيب  
الحاكمين لأنهم من عنصر واحد ، فلا حاجة في النكتة هنا إلى أكثر من

التنفيس عن الحرج وتمثيل الحجر على الألسنة والأقلام .

### فكاهات عهود التحول

وأتم من هذه الموسس الفكاهية التي تنفس بها الأمم عن صدورها فكاهة أخرى أعم وأبقى أثرا لأنها تشمل العهود المتحولة في حضارة واسعة تحيط بأمم كثيرة ، وتأتي هذه الفكاهة في أوانها حين تؤذن العهود بالتحول لتزعزع أركانها وزوال مقوماتها ، فينبغي لها تابع ملهم في فن النقد الفكاهي يجسمها في « شخصية » مخترعة يجعلها هدفاً للسخرية والتسييف أو يمدد إلى شخصية خالية قائمة يلبسها ذلك الثوب ويودعها بقايا النفاق والتتكلف والتقاليد الخاوية التي تختلف بعد أجيال عدة في أعقاب العهود الدائمة التي آذنت شمسها بالأفول .

من هذه العهود المتحولة عهد الفتك وابشع البطون والشهوات في القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد تصدى له الأديب الفرنسي رابليه Rabelais ( ١٤٩٤ - ١٥٥٣ ) فمثل ملوكه وأبطاله في شخصيتين خالدتين أحدهما شخصية جارجنتوا Gargantua الذي يلتهم الآدميين والأنعام نهماً ولا يشبع ولا يكتف عن الطعام ، والأخرى شخصية بكروشول Picrochole الذي ضربت نفسه بالعدوان وهانت عليه النفس البشرية يزهقها لقليل من المال أو لزيارة من نزوات الساعة أو لغير شيء غير العتو والطفيان .

وليس أدل من اصطحاب هذه المساوية في العهود الدائمة من آيات القرآن الكريم في سورة الفجر حيث تتعى دول التابعية والفراعنة والجبارية جميعاً في أمثل هذه العهود :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد هارم ذات العمامات التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها النساء فصب عليهم ربكم سوط عذاب ان ربكم لبالمرصاد » الى قوله تعالى : « بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضرون على

طعام المسكين وتأكلون التراث أكلًا ملأً وتحبون المال حبًا جمًا »

وهذه المفاسد التي جمعتها هذه الآيات هي بعينها مفاسد العهد الذي يمثله جارجنتوا في النهم ويمثله بكر وشول في الفتوك والعدوان ، وكلاهما بعد ذلك باع نهم على زيادة البغي في أحدهما وزيادة النهم في الآخر

\*\*\*

ومن المعهود المتّحمرلة عهد الفروسيّة في القرن السادس عشر بين نبلاء الأسبان على الخصوص ، فان هذا العهد قد شاخ وشاء حتى بطلت فيه النخوة والحماسة فأصبحت أكذوبة خاوية يتعلق المخدوعون بظواهرها أو الجامدون على بقائها ، وقد تصدى لهذا العهد كاتب إسباني من طراز رابليه هو سرفاتييز *Cervantes* صاحب كتاب دون كيشوت الذي تضمن من أمثال العرب وكلماتهم المأثورة ما يكاد يسلكه في عداد الكتب العربية، ولم يكن ذلك عبثاً أو لغوياً بل كان من تمام التعبير عن العهد الأفل لأنّه وافق شيوخ التقاليد العربية بين الأسبان وأمم القارة الغربية

ويعاصر هذه المعهود أو يسبقها بقليل عهد اللاعب « الشريعة » الذي فشا بين الولايات الالمانية على أيام النبلاء الذين قيل فيهم انهم نصف أمراء ونصف قطاع طريق ، وتمثلت اللاعب هذا العهد في شخصية القرودي أو لنسبيجل *Eulenspiegel* الذي كان كالمسخ المشوه في تصوره لأولئك العابثين المحتالين الأشرار ، ويقال انه عاش في برنسويفيك وان توماس مورنر *Murner* ( ١٤٧٥ - ١٥٣٠ ) الذي جمع نوادره بعد ذيوعها نحو قرن من الزمان ، ولم تثبت نسبة الكتاب اليه ولكن ثبت ذيوع النوادر قبل ذلك بغير خلاف

ثم جاء الكاتب البلجيكي شارل دي كوستيه *Charles de Coster* ( ١٨٢٧ - ١٨٧٩ ) فاستعار هذه الشخصية وأودعها روحًا فلمنكية مرحة كادت أن تجعلها نموذجاً للطبيعة الفلمنكية في سذاجتها التي آذنت بالتحول عند نهاية القرن التاسع عشر وببداية القرن العشرين وخاتمة المطاف في هذه المواسم الفكاهية كتاب « أتعجّب البارون

منشاوزن » الذى ألفه الكاتب الألمانى رودلف أريث راسپ Raspe وأدار حوادثه أو نوادره على شخصية واقعية عاش صاحبها في القرن السابع عشر وعاد بعد خدمته في الجيش الروسي يصدع الأسماع بأخبار البطولة التي يرويها عن نفسه وخوارق الشجاعة والدهاء التي امتاز بها في وقائع الحرب والسفارة بين الملوك والأمراء ، ومنهم أمراء المشرق في الاستانة والقاهرة

تلك الشخصية الواقعية هي شخصية كارل فردريلك منشاوزن ( ١٧٢٠ - ١٧٩٧ ) نموذج المفاحير الممتعة بين عصر السيف وعصر البنديقة والمدفع ، واحدى أعاجيبه انه نسى النار التي يشعل بها البارود فأوقد زناد البنديقة بضررها على عينه أطارت منها الشرر فانطلق الرصاص .... واحدى هذه الأعاجيب أنه أراد الغروب من القلعة المحصورة فركب القذيفة التي أطلقت عليها فعادت به أدراجها الى حيث أراد ، وكانت أعاجيب منشاوزن هذا خاتمة العهد الذى راحت فيه أباطيل البطولة بعد عصر الفروسية وقبل عصر السلاح الحديث ، وراحت فيه على الجملة أخبار السياحات والرحلات مما يصدقه العقل أو لا يقبل التصديق

وهذه فكاهات ظهرت لمناسبات متشابهة بين فرنسا وأسبانيا وألمانيا وبليجيكا وتقبلتها الأمم من المغاربيين والشرقين حيث تداولتها أيدي القراء ب مختلف اللغات ، ومن هذه الأمم من اشتهرت بالفكاهة ومنها من اشتهرت بجهلها وبطء الالتفات إليها ، ولا يسع الناقد عند المفاضلة أن يرجح النكتة في احداها على النكتة في سواها ، فربما كان بعض النكات في أعاجيب منشاوزن أربع من نكات دون كيشوت ، وربما كانت النكتة الأسبانية أحياناً أربع من النكتة الألمانية ، وعمتها من نسق واحد وطبقة واحدة تؤدي رسالتها في مناسباتها وتسجل الحقيقة التي أسفرت عنها المقابلة بين الفكاهات القومية ودللت على ان الضحك - كالمنطق - مزية انسانية توجد بالقوة كما توجد بالفعل حيث يوجد الانسان ، وأن اختلافها إنما هو اختلاف بين الظروف والبيئات قبل أن يكون اختلافاً بين الطبائع والأصول

على أن طبائع الإنسان العامة لا تمحو الفوارق بين المجتمعات في مواقعها المتباعدة ، ولا تمحو الفوارق بين المجتمع الواحد في الأزمنة المختلفة والاحوال المتناقضة ، وليس من الطبيعي أن تكون الأمة الوادعة كالآمة الكادحة ، أو الأمة الفنية كالأمة الفقيرة ، أو الأمة التي طال عهدها بالحضارة ومؤنساتها كالأمة التي تحضرت بعد وحشة أو مرت بها الحضارة ناشئة متقطعة ، ولا تتشابه في الجد ولا الفكاهة أمة تمرست بالظلم والشدائد وأمة لم تمرس بها الا عرضاً في الآونة بعد الأخرى . فمهما تتفق طبائع الإنسان فستبقى بعد ذلك بقية للصبغة القومية في الجد والفكاهة ، وفي العلم والعمل ، وفي التفكير والذوق ، وفي الضرورات والكماليات ..

### فوارق الأهم في الفكاهة

ونحن في هذه الرسالة نجعل القول في أصول الفكاهة لستطرد منها إلى فكاهة جحا أو الفكاهة المنسوبة إليه في الأمم التي عرفته وتمثلت بحكاياته ، وهي الأمة العربية والأمة الفارسية ، والأمة التركية . وكادت هذه الأمة - أي الأمة التركية - أن تستأثر به في معظم نوادره حتى قيل إن جحا المشهور اليوم إنما هو جحا جديد من مخلوقات البديهة التركية تنقطع الصلة بينه وبين جحا القديم الذي عرفه العرب في أمثالهم ورجع به التاريخ إلى صدر الإسلام ، فلا يجمع بينهما غير التسمية باسم واحد . وأيّاً كان منشأه من الأمة التركية فهناك « جحا » تنسب إليه الحكايات في اللغة العربية واللغة الفارسية ، فإذا عيننا بفوارق الأمم في الفكاهة والمضحكات فليس من غرضنا في هذه الرسالة أن نستقصي الفوارق في جميع الأمم ولا حاجة بنا إلى أكثر من تمييز الفوارق في خصائص الفكاهة بين السليقة العربية والسليقة الفارسية والسليقة التركية ، فربما أعادت هذه الفوارق على اسناد الحكايات إلى كل أمة من هذه الأمم حسب سلبيتها الغالية عليها ، ولا يكون هذا الاستناد بعد كل محاولة في ميسورنا الآن إلا على سبيل الترجيح والتقرير دون الجزم والتوكيد . ونحن في هذا

كمن يقول ان فلاناً عربي لأنه أسمر فيقول شيئاً يستحق أن يقال لأنه لا يستحق أن يهمل ، ثم لا يتجاوز هذا الحد الى توكييد النسبة مع احتمال وجود البشرة السمراء أو المسمرة بين الشعوب الشقراء ، واحتمال وجود البشرة البيضاء بين العرب وغيرهم من الشعوب السمراء .

وعلى هذا النهج من التغليب والترجيح نستطيع أن نميز سلية الأمة في عامة شؤونها ثم غير السلية التي تنتظر منها في معارض الفكاهة ، لأن الصورة الفكاهية نسخة من الصورة المحسوسة مبالغ فيها على مثل المبالغة في هذا الضرب من التصوير المشهور في اللغات الأوربية باسم الكاريكاتور ... وقد وجد هذا الكاريكاتور بالتعبير اللغوي في جميع الأمم قبل أن يوجد بالخطوط والرسوم .

فمن الوصف الصادق لسلية الأمة العربية أن نقول أنها أمة شعرية منطقية ، ومن الوصف الصادق لسلية الأمة الفارسية أن نقول أنها أمة صوفية دبلوماسية ، ومن الوصف الصادق لسلية الأمة التركية أن نقول إنها أمة عملية واقية ..

والى أين تنتهي المبالغة « الكاريكاتورية » بالخيال والمنطق ؟

تنتهي الى الوهم والقياس مع الفارق أو مع الفوارق الكثيرة ، أما المبالغة الكاريكاتورية في السلية الصوفية فقد تنتهي الى المحال والمحاولة ، واما هذه المبالغة في السلية العملية الواقعية فقد تنتهي الى تحصيل الحاصل والحدقة بما هو مفهوم مستغن عن التعريف .

وقد أعطانا الشاعر التركي المستعرب — ابن سودون اليشبغاوي من أدباء القرن التاسع بمصر والشام — مثلاً للسلية التركية لا نظير له فيما نعلم من نظم شعراء العرب والترك ولا شعراء الأمم الغريبة ، لأن أولئك الشعراء يعطوننا المثل فنأخذه من طريق التحليل والاستنتاج ، ولكن ابن سودون يعطينا المثل على غير قصد منه بمنظوماته التي تعدو تحصيل الحاصل ويرسم لنا « الكاريكاتور » بيده ولا بدعا لنا أن نرسمه ونستوحى ملامحه من خلال الألفاظ ومعاناتها .

ونكتفي هنا بقصيدتين من شعره الذي أراد به الأضحاك بمحاكاة  
أدعية المعرفة الذين لا يزدرون في حكمتهم على تعريف المعروف .  
واحدى القصيدتين على قافية الألف المقصورة وهي :

اذا ما الفتى في الناس بالعقل قد سما  
تيقن أن الأرض من فوقها السما  
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل  
وبينهما أشياء ان ظهرت ترى  
وأني سأبدي بعض ما قد علمته  
لتعلم أني من ذوي الععلم والعجب  
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم  
ومنهم أبو سودون أيضاً ، وان قضى  
وأن أبي زوج لأمي ، وأنتي  
أنا ابنتها والناس هم يعرفون ذا  
وكم عجب عندي بمصر وغيرها  
فمصر بها نيل على الطين قد جرى  
وفي نيلها من نام بالليل به  
وليست قبل الشمس من نام بالضحى  
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائمًا  
بها الظهر قبل المساء : فبل بلا مرا  
 وبالشام أقسام اذا ما رأيتهم  
ترى ظهر كلهم منهم وهو من وراء  
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه  
بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا  
ويسخن فيها الماء في الصيف دائمًا  
ويبرد فيها الماء في زمن الشتا

وفي الصين صيني اذا ما طرقت  
 يطن كصيني طرقت سوا سوا  
 بها يضحك الانسان اوقات فرحة  
 ويكيي زمان الحزن فيها اذا ابتلى  
 وفيها رجال هم خلاف نسائهم  
 لأنهم تبدو بأوجههم لحى  
 والقصيدة الأخرى الباية التي يقول فيها :  
 عجب عجب عجب عجب  
 بقر تشي ولهما ذنب  
 ولهم في بزبزهما لين  
 يبدو للناس اذا حبسوا  
 لا تنضب يوماً ان شتمت  
 والناس اذا شتموا غضبوا  
 من أعجب ما في مصر يرى  
 الكرم يرى فيه رطب  
 أوسيم بهما البرسيم كذا  
 في الجيزة قد زرع القصب  
 زهر السكان مع البلسا  
 ن هما لونان ولا كذب  
 كيهسود في دير خلطوا  
 بنصارى حركهم طرب  
 وقناطر أم الخمس بهما  
 ماء في الحفيرة ينسرب  
 والمركب مع ما قد وسقت  
 في البحر بطرف تسحب

والخيمة قال الناس اذا  
 نصب فالجبل لها طب  
 البيض اذا جاعوا اكلوا  
 والسم اذا عطشوا شربوا  
 الناقة لا منقار لها  
 والوزة ليس لها قلب  
 الوز يبيض بثقبته  
 وينام عليه فيشقب  
 والوز القدس بأرض بلقنس  
 كذا في المقدس له زغب  
 لا بد لهذا من سبب  
 حزّر ، فرز ، ما السبب ؟  
 \*\*\*\*

وستمر بنا فيما يلي ألوان من النوادر المنسوبة الى جحا يحسب بعضها  
 من نوادر تحصيل الحاصل ، ويحسب بعضها من نوادر الوهم أو القياس مع  
 الفارق ، وبعضها من نوادر المحال والمفاجأة . ويساعدنا هذا التقسيم على  
 الرجوع بها الى مصادرها مع التحفظ والتماس القرائن الأخرى من التاريخ  
 والمناسبات والشواهد النفسية أو الاجتماعية .

ونبدأ قبل البدء بعرض النوادر وتقسيمها فنقول انه تقريب لا نرجو  
 أن نبلغ به مبلغ العزم والتوكيد ، ولكننا لا نرى من أمانة البحث أن يحمل  
 أو يصرّف عنه النظر ، فلعله بعد كل ما يقال عن أحکامه « التقريرية »  
 أصدق الموازين الميسرة لنا في هذا البحث وما جرى مجرّاه من الروايات  
 المشاعة بلا اسناد تبلغ مبلغ العزم والتوكيد .

## جحا ... ونواوده

### جحا ٠٠٠ في واحد

شيء واحد ثابت كل الثبوت في أمر جحا .

ذلك الشيء الثابت - قطعاً - انه لم يكن جحا واحداً ولا يمكن أن يكونه ، لأن النواود التي تنسب الى جحا لا تصدر من شخص واحد ، ولا تزال دواعي اليقين باستحالة هذه النسبة واضحة في كل قريبة وكل رواية يجوز الاعتماد عليها في تحري الواقع ومن تسب اليه .

ويستحيل أن تصدر هذه النواود عن شخص واحد لأن بعضها يتحدث عن أناس في صدر الاسلام ، وبعضاها يتحدث عن أناس في عصر المنصور العباسي أو عصر تيمورلنك أو مابعده من العصور بآجيال .

ويستحيل أن تصدر عن شخص واحد لاختلاف الشخصيات التي تصورها في مجدها ، فمنها ما يكون التغفيل فيه من جحا ، ومنها ما يكون فيه جحا صاحب الذكاء النادر والطبع الساخر الذي يكشف عن الففلة ويتندر على البلاهة ، ومن هذه الشخصيات من تمثل فيه الحماقة بغير مراء ، ومنها من يتحامق ويدو في كلامه وتمثيله انه يتكلف ما يعلم وما يقول استهزاء منه بمن يدعون الحكمة والذكاء .

ويستحيل أن تصدر هذه النواود عن شخصية واحدة لتبعاد البيئات التي تروى عنها سواء في الأمكانة أو العادات والأخلاق ، فقد يروى بعضها عن فارس ويروى بعضاها عن بغداد أو الحجاز أو آسيا الصغرى أو غيرها من البلدان الشرقية .

بل ربما قيل عن جحا انه نصر الدين التركي وقيل عنه انه أبو الفصن العربي الفزاري ، وقيل عنه انه من النوكي الماكين كما يقال عنه انه من

أصحاب الحالات والكرامات من المسترين بالولاية وهم يجهرون بالهدر والبلادة ..

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن « جحا » وحده كائناً ما كان ، لأنها تنسب - بعينها - إلى المجانين من أمثال هبنة وبهلوأ أو إلى الأذكياء من أمثال أبي نواس وأبي العيناء .

ويزداد على هذه الحالات جميعاً ان طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل الحاصل والقياس مع الفارق والمحاولة والمحال ، مما يجوز أن يتافق عرضاً في نادرة أو قليل من النوادر ، ولكنه لا يتافق في العشرات والمئات .

ونحن قد نقرأ عن جحا في كتاب واحد فنفهم انه شخص موجود أو قابل للوجود ، لأنه متناسق الأخبار مطبوع في تفكيره وتعبيره على غرار واحد . ثم نقرأ عنه في كتاب آخر فنرى صاحب الكتاب مضطراً إلى تسويف نوادره المتناقضة باسنادها إلى المختلفين والمتتحققين ، أو بافتراء المفترين على « جحا » للنكاية والتشهير .

يقول الميداني صاحب كتاب الأمثال : « هو رجل من فزاره كان يكنى أبا الفصن ، ومن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمي مر به وهو يحرف بظهر الكوفة موضعًا فقال له : مالك يا أبا الفصن ؟ قال : ماني قد دفنت بهذه الصحراء دراهم ولست اهتدى إلى مكانها . فقال عيسى : كان ينبغي أن تجعل عليها علامة . قال : قد فعلت . قال : ماذا ؟ قال : سحابة في السماء كانت تظللها ولست أرى العلامة ... »

« ومن حمقه أيضًا أنه خرج من منزله يوماً يغلس فغسر في دهليز منزله بقتيل فضجر به وجراه إلى بئر منزله فألقاه فيها . غير أن أباه أخرجه وغيبه وختق كثما حتى قتله وألقاه في البئر . ثم ان أهل القتيل طافوا في سكة الكوفة يبحثون عنه فلتلقاهم جحا فقال : في دارنا رجل مقتول ، فانظروا أهو صاحبكم ؟ فعدلوا إلوا منزله وأنزلوه في البئر ، فلما رأى الكيش ناداهم وقال : يا هؤلاء ! هل كان لصاحبكم قرن ؟ فضحكتوا وموأوا . »

« ومن حمقه أن أبا مسلم صاحب الدولة لما ورد الكوفة قال لمن حوله :

أيكم يعرف جحا فيدعوه اليه . فقال يقطين : أنا ... وداعاه ، فلما دخل لم يكن في المجلس غير أبي مسلم ويقطين ، فقال : ياقطين ! أيكما أبومسلم ؟ ثم يقول الميداني بعد ذلك : « وجحا اسم لا ينصرف لأنّه معدول عن جاسم مثل عمر من عامر . يقال جحا يجحو جحوا اذا رمى ، ويقال : حيا الله جحولك أي وجهك .»

\* \* \*

وصحا هنا ، كما وصفه الميداني ، شخصية مفهومة متناسقة ، لعل الخبر الذي جاء عن أبيه في خلال الكلام عنه يفسر بالوراثة ما فيه من خلة الحماقة . لأن جحا لم يصنع شيئاً يزيد الشبهة في أمر القتيل بنقله من الدليل إلى البتر ، وأباه لم يصنع شيئاً يزيل الشبهة بوضع الكبش في مكانه ، وكان لكل منها مندوحة عما صنع لولا الحماقة في الأب وفاته.

أو لعل الخبر عن اشتهر اسم جحا حتى سمع به أبو مسلم يفسر لنا وضع الروايات عنه بين الفرس أو اعتباره بينهم علمًا على البلاهة والمهابة يسندون إليه ما شابه نوادره من الفكاهات الفارسية ، فليس في خبر جحا هنا غرابة بما نسب إليه أو نسب إلى غيره ، ولك أن تقبل هذا الخبر دون أن تحتاج بعده إلى توفيق أو تأويل .

ولكنك تقرأ عن جحا في غير كتاب الأمثال فلا ترى كتاباً واحداً يستغني عن شيء من التوفيق والتأنويل ، لغرابة الأخبار التي ترمانت عنه وتلقفها الرواة فحاروا كيف يضعونها في موضعها بين أخبارهم ومن تروى منهم تلك الأخبار .

ومن الأطالة على غير طائل في غرضنا من هذه الرسالة أن نحيط بكل ما وصف به جحا في كتب الأدب العربي فان الحصول منه كله أنه تناقض لا يستقر على قرار ، ولكننا نجتزيء بما كتبه ابن الجوزي اذ يقول في أخبار الحمقى والمغفلين انه - أي جحا - « روی عنه ما يدل على فطنة وذكاء ، الا أن الغالب عليه التغفيل ، وقد قيل ان بعض من كان يعاديه

وضع له حكايات . وعن مكي بن ابراهيم : رأيت جحا رجلاً كيساً ظريفاً ، وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه ، وكان له جيران يمازحونه فوضعوا عليه »

وهكذا يسمع عن الرجل ما يدل على ذكاء وما يدل على تغفيل ويوفقون بين الذكاء والتغفيل فيحسبون ان نوادر التغفيل من وضع المفترين عليه . وغير ابن الجوزي أناس يحسبون أنه من أصحاب الحالات والكرامات يتكلم ولا ينبغي أن يؤخذ عليه كلامه بظاهره لأنه يعتمد فيه اخفاء الأسرار الالهية بهذه المضحكات والغموضات ، وقد حسبه بعضهم من التابعين رواة الحديث ثم شكوا في حقيقة اسمه كما شكوا في حقيقة سماه . وأما بعد ظهور جحا التركي ، الملقب بخوجة نصر الدين ، فالحكايات عنه تنسب إلى رجل واحد وهي مما يمكن أن ينسب إلى عشرة متباينين في الزمان والمكان والعقل والمزاج ، وبعض هذه الحكايات متأخر إلى ما بعد اختراع الساعات التي تحمل في الجيب وبعضها متقدم إلى أيام الصحابة والتابعين .

#### نوادر له ولغيره

ومما لا ريب فيه – قطعاً – أن رجلاً واحداً لا يمكن أن تصدر عنه جميع هذه الحكايات ولو كانت متناسقة متساوية تدل على عقل واحد ومزاج واحد وتتحدث عن فترة واحدة وبيئة واحدة . فاننا اذا فرضنا وجود هذا الرجل وجب ألا يكون له عمل إلا أن يأتي بتلك النوادر والأضاحيك ووجب ألا يكون لعشرائه وأصحابه عمل غير النقل عنه واثبات هذه الاحاديث المنقوله ، وهو ما لم يحدث في حياة الهداة الأعلام الذين تنقل عنهم الاشارات فضلاً عن الكلمات .

فالعجب أن تكون حكايات جحا من رجل واحد ، ولكنه لا عجب على الاطلاق في توارد هذه الحكايات وتلقيها من أبعد المصادر ، ومهما يخطر على بالنا من غرابة ذلك فالواقع يزيل كل غرابة فيه ويرينا أن هذا الفيض من الحكايات – وما هو أغرب منه – يتلacci من أقصى أوروبا إلى أقصى

أفريقيا الى أقصى القارة الآسيوية على امتدادها .

ومثال ذلك قصة تروى عن جحا وعن أبي نواس وعن رابليه الفرنسي الذي تقدمت الاشارة اليه ، وفحواها أن تاجرًا بخيلاً رأى طارقاً فقيراً يتبلغ بالخبز القفار على رائحة شوائه أو طبيخه فطالبه بشمن هذه الرائحة، وحار الفقير في أمره حتى أتقنه حلال المشكلات بحل من قبل دعواه ، لأنه رن أمامه قطعاً من الدرام و قال له خذ رنين هذه الدرام ثمناً لرائحة شوائك ...

ومن الذي روى هذه النادرة عن أبي نواس ؟

لم يروها كتاب ببغداد أو دمشق أو القاهرة ، بل رواها الكاتب الانجليزي انجرام Ingram في كتابه عن أبي نواس وأساطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية في Africaine الشرقية ، وهذه ترجمة القصة كما نقلناها في كتابنا عن أبي نواس . قال انجرام ما ترجمته بحرفة على وجه التقرير :

« ان تاجرًا ذبح معزة ومر به مسكين فجلس الى جانب القدر لعله يستسيغ الخبز القفار باستنشاق رائحتها ، ثم لقي التاجر فقال له : إنك أيها السيد قد أحسنت الى أمس اذ منحتني رائحة معزتك فاصطنبعت بها هنيئاً . فأخذ التاجر بتلبيه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها . فقد اختلستها أنت اذن ولا ندري . وساقه الى هارون الرشيد — وقد كان شديد المحاباة للتجار — فحكم على المسكين بتغريمه الشتي عشرة روبية يأخذها التاجر ثمناً لنكهة ذيحيته ، وخرج المسكين يبكي لأنه لا يملك فلساً من هذه الغرام ، فوجد أبو نواس في الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعده أن يساعدته ، ثم أعطاه اثنتي عشرة روبية وأوصاه أن يغدو بها الى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاء الى المجلس ورأى المسكين يعد الدرام فأخذها منه ورثتها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعت رينها ؟ قال : نعم . ومد يده الى الدرام يريد أن يقبضها ، فرده أبو نواس

وصاح به : حسبك . لقد وصل اليك الثمن رينيناً برائحة . فإذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حرّيٌ أن تملأ يدك من رنين دراهمه ، وترك الروبيات للمسكين ، وانصرف الى داره<sup>٢٠</sup>

هذه نادرة تروى في سواحل افريقيـة الشـرقـية ، ويـتـحدـثـونـ فيهاـ بالـرـوـبـياتـ وـهـمـ يـذـكـرـونـ نـقـودـ بـغـدـادـ ،ـ وـهـذـهـ النـادـرـةـ بشـيءـ منـ التـصـرـفـ فيهاـ تـرـوـيـ فيـ قـصـصـ جـحاـ وـتـرـوـيـ فيـ قـصـصـ رـابـلـيهـ .ـ وـمـنـ النـوـادـرـ ماـ يـتـوارـدـ فيـ خـرـافـاتـ اـيـسـوبـ وـحـكـاـيـاتـ أـلـفـ لـيلـةـ ،ـ كـحـكـاـيـةـ الـخـمـارـ وـالـثـورـ معـ صـاحـبـ الزـرـعـ ،ـ وـقـدـ جاءـتـ فيـ أـوـأـلـ أـلـفـ لـيلـةـ بـالـعـبـارـةـ الآـتـيـةـ :

« اعلمـيـ يـابـنـتـيـ انهـ كـانـ لـبـعـضـ التـجـارـ أـمـوـالـ وـمـوـاشـ وـكـانـ لـهـ زـوـجـةـ وـأـوـلـادـ وـكـانـ اللـهـ تـعـالـىـ أـعـطـاهـ مـعـرـفـةـ الـحـيـوـانـاتـ وـالـطـيرـ وـكـانـ مـسـكـنـ ذـلـكـ التـاجـرـ الـأـرـيـافـ وـكـانـ عـنـدـهـ فـيـ دـارـهـ حـمـارـ وـثـورـ فـأـتـىـ يـوـمـاـ الـثـورـ إـلـىـ مـكـانـ الـحـمـارـ فـوـجـدـهـ مـكـنـوـسـاـ مـرـشـوـشـاـ وـفـيـ مـعـلـفـهـ شـعـيرـ مـغـرـبـلـ وـهـوـ رـاقـدـ مـسـتـرـيـحـ ،ـ وـفـيـ بـعـضـ الـأـوـقـاتـ يـرـكـبـهـ صـاحـبـهـ لـحـاجـةـ تـعـرـضـ لـهـ وـيـرـجـعـ عـلـىـ حـالـهـ ،ـ فـلـمـ كـانـ فـيـ بـعـضـ الـأـيـامـ سـمـعـ التـاجـرـ ثـورـ وـهـوـ يـقـولـ لـلـحـسـارـ هـنـيـئـاـ لـكـ ذـلـكـ :ـ أـنـاـ تـعـبـانـ وـأـنـتـ مـسـتـرـيـحـ تـأـكـلـ الشـعـيرـ مـغـرـبـلـ وـيـخـدـمـونـكـ وـفـيـ بـعـضـ الـأـوـقـاتـ يـرـكـبـكـ صـاحـبـكـ وـيـرـجـعـ وـأـنـاـ دـائـمـاـ لـلـحـرـثـ وـالـطـحـنـ ،ـ فـقـالـ لـهـ الـحـمـارـ :ـ اـذـاـ خـرـجـتـ إـلـىـ الـعـوـطـ وـوـضـعـواـ عـلـىـ رـقـبـكـ (ـالـنـافـ)ـ فـارـقـدـ وـلـاـ تـقـمـ وـلـوـ ضـرـبـوـكـ وـاـمـتـنـعـ عـنـ الـأـكـلـ وـالـشـرـبـ يـوـمـاـ أـوـ يـوـمـيـنـ أـوـ ثـلـاثـةـ فـانـكـ تـسـتـرـيـحـ مـنـ التـعـبـ وـالـجـهـدـ .ـ وـكـانـ التـاجـرـ يـسـمـعـ كـلـامـهـماـ فـلـمـ جـاءـ السـوـاـقـ إـلـىـ الـثـورـ يـعـلـفـهـ أـكـلـ مـنـهـ شـيـئـاـ يـسـيرـاـ فـأـصـبـحـ السـوـاـقـ يـأـخـذـ الـثـورـ إـلـىـ الـحـرـثـ فـوـجـدـهـ ضـعـيـفـاـ فـقـالـ لـهـ التـاجـرـ :ـ خـذـ الـحـمـارـ وـحـرـثـهـ مـكـانـهـ الـيـوـمـ ،ـ فـلـمـ رـجـعـ آخـرـ النـهـارـ شـكـرـهـ الـثـورـ عـلـىـ تـفـضـلـاتـهـ حـيـثـ أـرـأـهـ مـنـ التـعـبـ ذـلـكـ الـيـوـمـ فـلـمـ يـرـدـ عـلـيـهـ الـحـمـارـ جـوـابـاـ وـنـدـمـ أـشـدـ النـدـامـةـ ،ـ فـلـمـ كـانـ ثـانـيـ يـوـمـ جـاءـ الـمـازـرـعـ وـأـخـذـ الـحـمـارـ وـحـرـثـهـ إـلـىـ آخـرـ النـهـارـ .ـ فـلـمـ يـرـجـعـ الـحـمـارـ إـلـاـ مـسـلـوـخـ الرـقـبـةـ شـدـيدـ الضـعـفـ .ـ فـتـأـمـلـهـ الـثـورـ وـشـكـرـهـ وـحـمـدـهـ ،ـ فـقـالـ الـحـمـارـ :ـ اـعـلـمـ

أني لك ناصح . وقد سمعت صاحبنا يقول : إن لم يقم الثور من موضعه فأعطيوه للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعاً وأنا خائف عليك ونصحتك والسلام . فلما سمع الثور كلام الحمار شكره وقال : في غد أسرح معهم . ثم مان الثور أكل علقه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . فلما جاء النهار خرج التاجر وزوجته الى دار البقر وجلسا ، فجاء السوق وأخذ الثور وخرج . فلما رأى الثور صاحبه حرك ذنبه .. وبطع . فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه »

هذه القصة جاءت متصلة بغيرها في ألف ليلة وليلة لمناسبة تجر وراءها مناسبة أخرى على الأسلوب المطرد في تسلسل الروايات بـألف ليلة وليلة ، ولكنها جاءت في خرافات ايسوب منفردة ، على اختلاف في المغزى ، بالعبارة التالية :

« كانت معزة وحمار في حوزة صاحب واحد ، وكانت المعزة تغار من الحمار لأنّه كان وافر الطعام يكتفيه ويفيض منه ، فقالت له : إن حياتك نصب دائم ، تدير الطاحون وتحمل الأثقال ، فأنصح لك بأن تجمح يوماً وتسقط في حفرة تستريح بعدها . فعمل الحمار بنصيحة المعزة وأصيّبت رجله أصابة بالغة من جراء سقطته ، وارسل صاحبه في طلب البيطار ليسأل رأيه ، فوصفت البيطار للحمار مرقاً من طحال معزة وقال انه دواء صالح لعلاج دائنه . فذبحوا المعزة لطهارة الحمار .

« والمغزى من هذه الحكاية أن من نصب فخاً لغيره جر البلاء على نفسه » وفي خرافات ايسوب نوادر أخرى يقل فيها التحوير ويقترب فيها المغزى ، مما تناقله المشارقة عن جحا وأمثاله ، ومنها مالم يرد في الخرافات القديمة كأنه أضيف اليها بعد عصر ايسوب أو بعد العصر المفروض له ولخرافاته ، ومنها ما هو قديم منقول عن الحكمة الموضوعة علىأسنة الحيوان ، وهي شائعة في الشرق من الصين والهند الى البلاد العربية على اتساعها وتبعاً لقطراتها .  
ولا نرانا في حاجة الى انتظار عصر المطبعة أو عصر التأليف وتدالون

الكتب بين الأمم لتحليل هذا التوارد بين النوادر والحكايات في المشرق والمغرب ، وبين القارات الثلاث من العراق إلى الأندلس وفرنسا إلى إفريقيا الشرقية . فان انتقال هذه النوادر على طرق الرحلات والقوافل أسبق جدًا من كل تأليف أو طباعة ، وقد كان الرحالة يطوفون البلاد من أقصى العالم المعور إلى أقصاه ولا سر لهم في الرحلة أشمى ولا أدل على حنكة السائح وطول عهده بالتردد على البلاد من أحاديث الحكمة والفكاهة وأطوار الناس وغرائب الأقطار؛  
خذها شرودا في البلاد مقيمة سرّاً لذي سرّ وزاد مسافر

فإذا سمعت القصة في بغداد لم يكن بعيداً عليها أن تسمع في بلاد الشمال من أوربا أو بلاد الجنوب من إفريقيا مع قوافل الرحاليين والسياح الذين يسرون بها في سهراتهم ويتنافسون عليها بين المؤثر عن أقوامهم وأوطانهم ، وليس العجيب أن ترى هذه النوادر هذا السريان المستفيض بين مرامي السياحة ومطارات السفر، بل العجيب أن يكون للرحاليين والسياح حديث غيرها في لياليهم الطوال كلما فرغوا من أحاديث العمل وما إليه ولا يتطرقون إلى صاحبها ، لأن صاحبها غير واحد ، ولأن أصحابها المتعددين خروب من الخلق تصلح النوادر لأحددها كما تصلح للأخر ، ولكننا نستطيع أن نقسمها على ثقة إلى أقسامها الواضحة من حيث الدلالة أو من حيث « الدور » الذي تؤديه ، ومنها ما يمثل الذكاء والحكمة ، وما يمثل البلاهة والحمامة ، وما يمثل التباله والتحامق أو التغابي ، ولا يقع اللبس كثيراً بين هذه الأقسام أو بين هذه الأدوار.

وسنختار فيما يلي عشرين نادرة في كل قسم من هذه الأقسام أو كل دور من هذه الأدوار ، ثم تتبعها بعض القرآن التي تساعدنا على نسبتها إلى أقوامها مع التحفظ والتوضيح في هذه النسبة الجزافية ، وأما النسبة إلى الآحاد من أصحاب اسم « جحا » أو غير أصحابه فنعرض لقرائتها الممكنة بعد ذلك على قدر المستطاع .

## ٦٠ سِنَادِرَة

### نوادر الذكاء والحكمة

#### ١ - آل خبره

كان جحا يتولى القضاء ، فجاءه رجل يستقيث به لأنّه وجد طنبوره المسروق ، مع بائع في السوق ، وأراد أن يأخذه منه فادعاه السارق لنفسه وأنكره ، فأرسل جحا في طلب البائع المتهم ، وسأل صاحب الطنبور عن شهوده ، فجاءه بشاهدين ، أحدهما صاحب حانة ، والآخر ماجن متبطل بغير عمل ..

وشهد الشاهدان بأنّهما يعرّفان الطنبور ويعرفان أنه للمدعى ، وعلامةه أن فيه كسرًا باعلاه ورباطًا بأسفله ، وليس مفاتيحه محكمة الشد والحركة ..

وطابت العلامة وصف الطنبور ، ولكن السارق طلب تزكية الشاهدين وقال إن شهادة الخمار والماجن لا تقبل في الشريعة ..  
قال جحا : « نعم . وأما حين تكون الدعوى على طنبور فالخمار والماجن أصلح الشهود » !

#### ٢ - من دافب الناس

كان لجحا ولد يعصيه كلما أمره بعمل ، ويقول لأبيه : « وماذا يقول الناس عنا إن عملناه ؟ » ..

وأراد جحا أن يلقنه درسًا ينفعه ، ويعلمه أن رضى الناس غاية لا تدرك . فركب حماره وأمر ابنه أن يتبعه ، ولم يمض غير خطوات حتى مرّ بعض

النسوة فشتمته وقلن له : « أيها الرجل ! أما في قلبك رحمة ؟ تركب أنت  
وتدع الصبي الضعيف يudo وراءك » ؟

فنزل جحا عن الحمار ، وأمر ابنه برکوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ،  
ثم من بجماعة من الشيوخ يستشرقون ، فدق أحدهم كفًا بكتف ، ولقتهم  
إلى هذا الرجل الأحمق ، وهو يقول ويعيده : « مثل هذا فسد الأبناء » ،  
وتعلموا عقوق الآباء ... أيها الرجل ! تمشي وأنت سريح ، وتدع الدابة  
لهذا الولد ، وتطعم بعد ذلك أن تعلمه الأدب والحياة » ؟

قال جحا لولده : « أسمعت ؟ تعال إذن نركب الحمار معًا » ..

وما هي إلا لحظة ، حتى من بهما جماعة من أصدقاء الحيوان صاحوا  
بهما : « أما تتقى الله في هذا الحيوان الهزيل ؟ أتركباه معًا ، وكل منكم  
يزن من اللحم والشحم مازيد على وزن الحمار » ؟  
قال جحا لولده : « الآن نمشي معًا ونرسل الحمار أمامنا ، لأنمن سوء  
القالة من النساء والشيوخ وأصدقاء الحيوان ..

وما هي إلا لحظة أخرى حتى من بهما طائفة من « أولاد البلد » الخباء ،  
فجعلوا يعيشون بهما ويقولون لهما : « والله ما يحق لهذا الحمار إلا أن  
يركبكم أو تحمله وتریحاه من وعاء الطريق » !

فمال جحا إلى شجرة ، وأخذ منها فرعًا متينًا وربط فيه الحمار ، وحمل  
الفرع من طرف ووضع الطرف الآخر على كتف ولده . فإذا البلد كله  
وراء هذا الركب العجيب ، وإذا بالشرطى يفض هذا الزحام ليسوchem  
إلى البيمارستان ..

قال جحا لابنه في طريقهما مع الشرطى : « هذه يابني عاقبة من يستمع  
إلى القال والقيل ، ولا يعمل عملاً إلا ابتغى به مرضاة الناس » !

### ٣ - احصاء المنافقين والرقماء

كان جحا دائم الشكوى من أهل بلده ، يقول لكل من لقيه منهم أو من  
الغرباء عنهم أنهم كلهم منافقون رقماء .

ولامه هذا وراجعه ذاك ، فعمد الى اقناع الائمه والمناقضين بأسلوبه في الاقناع : أسلوب المشاهدة والعيان ، فخلع باب الدار وحمله على ظهره وقال لأول مناقض له في تشهيره بأهل البلد : « تعال معي واحسب » ! وعند منعطف الطريق صاح به صائح من أهل البلد وهو يضحك : « ما هذا الذي تحمله على ظهرك يا جحا » ؟ قال جحا لصاحب : « هذا واحد : أتراء لا يعرف الباب الطويل العريض الذي يسأل عنه » ؟

#### ٤ - العصا تحمل الأرجل

حمل جحا أوزة مشوية الى الأمير ، وغلبه الجوع ورائحة الشواء في الطريق ، فأكل احدى رجليها .

ثم وضعها بين يدي الأمير ، فسأله عن الرجل الناقصة أين ذهبت ؟ قال : « لم تذهب الى مكان ، وإنما الأوز كله برجل واحدة في هذا البلد » ، ثم تقدم بالأمير الى نافذة القصر وأشار الى سرب من الأوز قائم على قدم واحدة كعادته في وقت الراحة ، فدعا الأمير بجندي من حرسه وأمره أن يشد على سرب الأوز بعصاه ، وماكاد يفعل حتى أسرع الأوز يعدو هنا وهناك على قدميه .

قال الأمير : « أرأيت ؟ إن أوز هذا البلد أيضاً خلق بقدمين ولم يخلق بقدم واحدة » !

قال جحا : « مهلاً أيها الأمير ... لو شد أحد على انسان بهذه العصا لجري على أربع » !

#### ٥ - تعاطل الله و تستدين

جلس جحا يبيع زيتونه فساومته امرأة ، واستكثرت على الزيتون الثمن الذي طلبه ، وقالت له : « اذا أردت أن تبيعني بالشمن الذي أخبرتك به مؤجلاً ، فأنت تعرف زوجي وهو فلان ابن فلان » !

وناولها جحا زيتونة ، لتذوقها وتعرف جودة الصنف وحقه من الثمن ،  
فاعتذررت بأنها صائمة لأنها مرضت من سنة وأفطرت في شهر رمضان !  
قال جحا : « الآن بطل الخلاف ، لا مساومة ولا تأجيل .. أتراءك ثماطلين  
الله سنة ولا تماطليني إلى يوم القيمة » ؟

#### ٦ - تيمور في الآخرة

وسأله تيمور لتك الطاغية المشهور : « أين ترى يكون مثواي في الآخرة  
يا خوجة نصر الدين ؟ »  
فقال جحا ولم يتردد : « وain ترضى أن تكون ، ان لم تكن مع  
جنكيز خان والاسكندر وفرعون والنمرود » ؟

#### ٧ - ثمن طاغية

وسأله تيمور لتك ، وقد أخذه معه إلى الحمام ، وخلع ملابسه  
الا مئراً يديره على وسطه : « بكم تشتريني الآن ، لو عرضت عليك  
في السوق يا خوجة نصر الدين » ؟  
قال : « بخمسين ديناراً »

قال تيمور : « ويحك ! ان ثمن هذا المئر خمسون ديناراً »

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذي حسبته » !

#### ٨ - الحساب المهمسوم

وأراد تيمور أن يصادر أموال الحاكم بمدينة « آق شهر » فاتهمه  
باختلاس أموال الديوان ، وأبراً الحاكم فدمته بالحساب المكتوب على  
دفاتر الديوان الغلاظ ... فأخذها تيمور من يده ومزقها وامر بابتلاعها ،  
ثم أحال حكم المدينة إلى الخوجة نصر الدين .

وحان موعد الحساب فجاءه الخوجة نصر الدين بجلود مطوية نشرها  
فوجد في طيها رقائق من الخبز مكتوبًا عليها الحساب بالحلوى .

قال تيمور : « ما هذا » ؟  
قال الخوجة : « هذا الذي يحتمله جوفي ياسidi ، لأنني شيخ قادر  
ولست فتى ضليعاً كحاكمك القديم. »

#### ٩ - أيهما أحب إليه

وكانت له زوجتان ، فجلس معهما يتسامر ، وطاب لهما أن تحرجاه ،  
فسألتهما : أيهما أحب إليه .

قال : « أنتما معًا حبيتان إلى قلبي ! »  
قالتا : « لا ، إنك لا تستطيع أن تضحك منا بهذه المراوغة ، وأمامك  
هذه البركة نخيرك في إغراء أحدانا بها ، فمن منا تلقى بها في الماء  
الآن ؟ .. »

وحار في أمره هنيئة ، ثم التفت إلى الزوجة الأولى وقال لها : « أذكر  
إنك تعلمت السباحة قديماً يا عزيزتي » ١

#### ١٠ - المكان الأمين في الجنازة

وسئل : « أيهما أفضل ؟ المسير خلف الجنازة ، أو المسير أمامها ؟ »  
قال : « لا تكون في النعش ، وسر حيث تشاء. »

#### ١١ - القبلة الأمينة

وسئل : « وماذا يستقبل السابع إذا نزل في الماء ؟ »  
فقال : « يستقبل المكان الذي عليه ملابسه. »

#### ١٢ - الفضول

ولقيه بعض معارفه في الطريق فقال له : « أني رأيت الساعة رسولاً  
يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر. »  
قال جحباً : « وماذا يعنيني ؟ »

قال صاحبه : « إنهم يحملونه الى بيتك »  
قال : « وماذا يعنيك ؟ »

### ١٣ - التقوى المهلكة

وسكن في دار ، فشكرا الى صاحبها انه يسمع قرقعة في سقفها  
قال صاحب الدار : « لا تخف . انه يسبح الله »  
قال : « وهذا الذي أخشاه ، تدركه رقة فيسجد علينا » !

### ١٤ - حدود الآبوة

وسئل جحا : « هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين ؟ »  
قال : « يجوز » !  
قيل : « وبعد بلوغ الثمانين ؟ »  
قال : « يجوز »  
قيل : « وبعد بلوغ المائة ؟ »  
قال : « نعم .. اذا كان له جار في العشرين » !

### ١٥ - العامة القارئة

وعرض عليه رجل كتاباً بالفارسية ليقرأه له فتعذر برداعه الخط ، ورد  
له الكتاب ..  
قال صاحب الكتاب محققاً : « وعلام اذن تضع هذه العمامة على رأسك  
لأنها الرحي ؟ »  
فخلع الشيخ العمامة ، ووضعها جانب ، وقال له : « دونك العمامة  
فأسألكما ، فإنها صاحبة العلم الذي تبغيه » !

### ١٦ - تحويل الجزاء

وصفع رجل « جحا » على قفاه بعرض الطريق يريد أن يسخر منه ،

فأخذ جحا بتلبيه الى القاضي ولم يقبل منه اعتذاره بالخطأ فيه ، لأنه ظنه من أصدقائه الذين يمازحونه بمثل هذا المزاح الثقيل .  
وكان الرجل العاشر من معارف القاضي فأحب أن ينجيه من العقاب ،  
وحكم لجحا بأن يصفعه كما صفعه او يتقبل منه عشرة دراهم على سبيل  
الجزاء أو التعويض .

وطمع جحا في الدرارم فسأل القاضي المدعى عليه : « أمعك الدرارم » ؟  
وفطن صاحبنا لغرض القاضي فقال : « كلا ، ولكنني احضرها بعد  
قليل من البيت .»

واذن له القاضي بالانصراف لاحضار الدرارم ، فذهب ولم يعد . وطال  
الانتظار على جحا ، فأدرك حيلة القاضي واقترب منه كأنه يهمس في أذنه ،  
ثم صفعه صفعه عنيفة ، وقال له وهو ينصرف : « اذا عاد اليك الرجل  
بالدرارم ، فخذها حواله مني اليك » !

#### ١٧ - دعوى بثليثها

وادعى الولاية ، فسأل السامعون عن كرامته ، فقال : « أتريدون مني  
كرامة أعظم من علمي بما في قلوبكم جميعاً » ؟  
قالوا : « وما في قلوبنا » ؟  
قال : « كلكم تقولون في قلوبكم انتي كذاب » !

#### ١٨ - من يلد يمت

واستعار حلة كبيرة من جاره ، ثم أعادها اليه وفيها حلة صغيرة . فسأله  
جاره : « وما هذه » ؟ قال : « هذه بنتها ، ولدتها عندنا » فتقبلها جاره  
ولم يذكر عليه .

ثم استعارها مرة أخرى ولم يردها ، فلما سأله عنها ، قال : « البقية  
في حياتك ، انها ماتت عندنا في النفاس ... رحمها الله »  
قال صاحب الحلة متعجبًا : « أيموت النحاس ؟ »  
قال جحا : « من يلد يمت ، وقد يموت في النفاس .»

## ١٩ - ثمن الضرورة

وعطش في طريقه ، وهو بمنقطع من الماء في الصحراء ، فمر به اعرابي يحمل قربة ، عرض عليه جحا أن يبيعها إياه فلم يقبل بأقل من خمسة دراهم ، فاشترتها جحا ، وجلس يأكل من الطعام دسم كان معه ، واستضاف الاعرابي فأعطاه من الطعام ما أشبعه وأظمأه ، فسأله شربة من القرفة ... فلم يقبل جحا بأقل من خمسة دراهم .. وباع الشربة بثمن القرفة !

## ٢٠ - ثمن الحمار !

وضاع حماره ، فأقصى لبيعنه أن وجده بدينار واحد .  
ثم وجده وندم على حله ، ولم يشاً أن يحث في قسمه ، فاحتال عليه ليير باليمين ، ويحفظ على نفسه ثمن الحمار ، وعرض الحمار في السوق وقد ربط إلى عنقه حذاء قدّيماً ، فجعل ينادي عليه : « الحمار بدينار والحذاء عشرة دنانير ، ولا يباعان على انفراد » !

## ٢١ - السكرام قليل

أمره الوالي أن يعد مجانين البلد ، فقال : « بل اعد لك العقلاء . ومن عداجم كثيرون لا يحصرون .»

## ٢٢ - يقفي على القاضي

جاء الشرطي برجلين إلى مجلس القضاء ، وبحثا عند القاضي يحدثه في بعض شئونه ، فعرض الشرطي قضية الرجلين ، وقال أنه وجد في الطريق بين بيتهما أقداراً ممنوعة وادعى كل منهما أن جاره مطالب بازالتها ، لأنها هو الذي وضعها في عرض الطريق .

وأراد القاضي أن يبعث بجحا ليسخر منه ، ويفضح دعواه ، لأنك كان يدعى العلم ويتصدى للافتاء ، فأحال عليه القضية ، وسأله أن يقضي فيها بالحق بين الرجلين .

فقبل جحا مقترح القاضي ، وسائل الشرطي : « هل كانت الأقدار أقرب  
إلى دار هذا أو دار ذاك ؟ »

قال الشرطي : « إنها كانت في الوسط بينهما »

قال جحا : « إنما يزيلها أذن مولانا القاضي ، لأنها في الطريق العام ،  
ومولانا القاضي هو المسؤول عن المدينة »

## نواذر الحماقة والبلادة

### ١ - على قيد الوضوء

تواضاً جحا ، ولم يكفه الماء لاتمام وضوئه ، وبقيت رجله اليسرى بغير  
وضوء ، فقام يصلّي برجله اليمنى ولا يضع اليسرى على الأرض ..  
فسألوه : « ما بالك تقف على رجل واحدة ؟ »  
قال : « الأخرى غير متوضة » !

### ٢ - أنا مكرر

رأى رجلاً في الطريق لا يعرفه ، فتبسط معه في الحديث ، ورفع الكلفة  
بعد عبارة أو عبارتين ..  
فعجب الرجل وسأله : « ألاك بي معرفة فترفع الكلفة هكذا يبني  
ويبنيك ؟ » ..  
قال : « بل حسبتك أنا .. لأن ثيابك كثيابي ومشيتك كمشيتي، ولكنك  
لست أنا كما علمت الآن » !

### ٣ - ترويج زوجة

وحاول أن يبيع بقرة له فأعياه بيعها ، فرأه دلال في السوق ، تكفل له  
بيعها إذا أسلمه إياها وأعطاه العمل المعلوم ، وقبل جحا ، فأخذ الدلال  
ينادي على البقرة ، ويدرك منافعها ومحاسنها ، ومنها أنها جلبي في سته  
أشهر ..  
ثم جاء الخواطب إلى داره يخطبون بنته ويتطلعون إلى محاسنها ،

فتذكر الصفة التي روجت سوق البقرة ، وقال للخواطب :  
« هي كما ترون وزيادة .. إنها جلبي في شهراها السادس !»

#### ٤ - بيربع كما يواح

ورأوه يركب حماراً ويحمل خرجه على كتفه ، فضحكوا منه ورمونه بالعبث والدعابة ، وقال له قائل منهم : « ألا تعرف كيف تضع الخرج تحتك أو أمامك ولا ترهق نفسك بحمله وأنت راكب ؟ »  
قال : « عدل من الله ، أراضي الحمار من حمل نفسي لأن أريمه من حمل خرجي » ١

#### ٥ - أكبر خوخة

وكان في منديله فاكهة ، فسألها بعضهم : « ما هذا الذي في منديلك يا جحا ؟ »  
قال : « لا أقول لكم : ولكنني أعطيكم أكبر خوخة اذا عرفتموه »  
قال السائل : « ما هو خوخ » ٢  
فانطلق قائلاً : « أي ملعون انبأكم بأمره وهو مصروف ؟ » ٣

#### ٦ - أحجية محلولة

ورأى بعضهم أن يختنه فقال له : « إن عرفت ما في منديلي أعطيتك واحدة منه تكفي لعمل عجقة مليحة »  
قال : « صفة لي ولا تذكر اسمه »  
قال صاحبه : « إنه أبيض وفي وسطه صفار »  
قال جحا : « الآن عرفته .. إنه لفت حشوتموه جزراً » ٤

#### ٧ - الحمد لله

وضاع حماره فطفق يصيح وهو يسأل الناس عنه : « ضاع الحمار  
والحمد لله » ٥

قيل له : « فهل تحمد الله على ضياعه ؟ »  
قال : « نعم ، لو اتنى كنت اركب لضعت معه ولم أجد نفسي ».

#### ٨ - أربعون يوماً من رمضان

وكان من عادته اذا صام يوماً في رمضان أن يلقي بحصاة في جرة ، ورأته ابنته فألقت في الجرة ملء كفيها من الحصى ، وهي تظن أنها تساعده .  
وسأله الجيران يوماً : « كم بقي من رمضان ؟ »  
قال : « أما ما بقي فلا أعرفه ، ولكنني عليم بما مضى من أيامه ». ثم عد الحصى ، فزاد على مائة وعشرين حصاة .  
قال بيته وبين نفسه : « لو أربأتم بهدا العدد لسخروا مني ، ولكنني أنزل به إلى أربعين ».

ثم خرج لهم يقول : « مضى من الشهر أربعون يوماً على التقرير .» فتضاحكوا منه ، وتضاحكت هو منهم وهو يقول : « ما أنه شهر طويل على الصائمين ، فماذا تصنعون لو أربأتم بالعدد الصحيح ؟ »

#### ٩ - الشمس والقمر

وسأله : « أيهما أنفع : الشمس أو القمر ؟ »  
فلم يتمهل واجبهم ييقن : « انه القمر ولا مراء ». فسألوه : « ولم ؟ »  
قال : « لأن الشمس تطلع في النهار حين يستغنى عنها الناس ، واما القمر فلا يطلع الا في الظلام على حين الحاجة اليه ».

#### ١٠ - البحث في النور

ورأوه يبحث في أرض لا شيء فيها ، فسألوه : « عم <sup>ث</sup> تبحث ؟ »  
قال : « خاتم سقط مني »  
قالوا : « وهل سقط هنا وليس في الأرض أثر للخواتم ؟ »

قال : « بل سقط في الزقاق الذي هناك ».  
قالوا : « وما بالك لا تبحث عنه حيث سقط ؟ »  
قال : « وأي جدوى للبحث في الظلام ؟ »

### ١١ - حمار ممسوخ

اشترى حماراً ، واقتاده بزمام طويل ، فتنفله لصان ، ذهب أحدهما  
بالحمار ، وربط الآخر نفسه في مكانه .  
والتفت جحا فرأى إنساناً في مكان الحمار .  
فاستعاذه بالله ، وسأله : « أين الحمار ؟ »  
قال : « أنا الحمار ، أعادني الله إنساناً ببركتك كما كنت بعد أن  
مسخت حماراً لدعاء والدتي عليّ »  
فبارك له جحا ، وأطلقه وهو يوصيه بطاعة أمه ويحذره العودة إلى  
اغضابها ، وجر الغضب من الله عليه بدعائهما .  
ثم عاد إلى السوق بعد برهة ليشتري حماراً غير ذلك الإنسان الممسوخ  
فرأى الحمار بعينه في يد الدلال ، فمال على أذنه وهمس فيها قائلاً : « لن  
تتفعل بركتي بعد مسختين ، ولنأشتريك وأنت بهذا العصيان » ।

### ١٢ - نصف بنصف وتتسن الدار

وكان يشارك على دار ، فباع نصفها الذي يملكه ليشتري بمنه النصف  
الآخر ، وتخلى عن الدار بغير شريك ।

### ١٣ - دابة على رمح

ونام في الخلاء ومعه عكاذا طويلاً ركراها ووضع صرة النقود على رأسه  
لكيلا ينالها أحد .  
فرأاه لص وعرف غفلته ، فأخذ النقود ووضع في موضعها روث دابة .  
وتيقظ جحا ، فوجد الروث في مكان الصرة ، فلم يعجب لسرقة النقود

ولكنه عجب للدابة التي استطاعت أن تصعد على عكاز لتصنع به ذلك  
الصنيع ..

#### ١٤ - مكافأة معقوله

وحل الى تيمور رمادات باكورة ظهرت في غير أوانها ، فرضي عنه تيمور  
وأرضاه ..

ثم طمع في جائزة أخرى ، فجمع رؤوساً من اللفت ليهدى إليها ، فقال  
له بعض جيرانه إن اللفت لا يصلح لاهداء الملوك ، فاذهب إليها بنخبة من  
التيين فهو ألطف وأحلى .

واستكبار تيمور أن يهدى إليه التين وهو يملأ الأسواق ، وأحب أن  
يكف جحا عن طمعه ، فأمر الجندي أن يقتذفوه بالتين واحدة بعد واحدة .  
فوقف جحا يتلقى الضربات على رأسه وعلى وجهه وعلى عينيه وأنفه  
وهو يضحك ويدعو للجار الذي أسدى إليه النصيحة الصادقة .  
واشتد عجب تيمور من ضحكته ودعائه ، فأمر الجندي أن يمسكوا عن  
ضربه ، لينسأله عن سر ذلك الضحك وذلك الدعاء .

قال : « انه سر عظيم ، لو كان اللفت في موضع هذا التين ، لتهشم  
رأسى وانفقت عيناي » !

#### ١٥ - بروج نامية

وسأله : « ما طالع نجمك ؟ »

قال : « ولدت والشمس في برج التيس »

قالوا : « لا يوجد في السماء برج يسمى برج التيس ، ولكنك تعني  
برج الجدي » ..

قال : « أ فمن مولدي إلى اليوم لا يصبح الجدي تيساً ؟ »

#### ١٦ - كيف يعرف يمينه ؟

وانطفأت شمعة في داره فطلبت منه زوجته أن يتناولها أيها من يمينه ،  
قال : « يا حمتاه ! وكيف أعرف يميني من شمالي في هذا الظلام ؟ »

## ١٧ - ادب مع التلاميذ

وركب بغلته مستدرجاً رأسها فسألها تلاميذه : « لماذا لا تعتدل في ركبك يا مولانا ؟ »

قال : « هذا هو الاعتدال ، أدير ظهري لرأس البغة ولا أديره لرؤوس الآدميين »

## ١٨ - يسمع صوته من بعيد

ورأوه يوماً وهو يعني ويجري ، فسألوه : « ما بالك تفني وتجري ؟ »  
قال : « أحب أن أسمع صوتي من بعيد ! »

## ١٩ - لماذا ينتشرون ؟

سؤاله : « لماذا يتشر الناس في جوانب الأرض ، ولماذا يذهبون ذات اليدين ذات اليسار كل صباح ؟ »  
فتأمل قليلاً ثم قال : « لو ذهبوا الى ناحية واحدة ، مالت بهم الأرض وانكفت بهم في هاوية ليس لها قرار ! ».

## ٢٠ - لماذا لا تأكله ؟

ومر بفرن تتصاعد منه رائحة الخبز الساخن ، وهو يشتئه ، ولا يقدر عليه لخلو يده ، فاتجه الى الفران وسأله : « الله كل هذه الرغافان ؟ »  
قال : « نعم » قال : « لماذا لا تأكلها يا أحمق ؟ »

## نوادر التحاجم والتبالة

وهذه نوادر منسوبة الى جحا تتوسط بين الحكمة البينة والحماءة البينة ، لا تقتصر في اختيارها على النوادر التي يصطنع فيها الحماقة ويتكلفها كأنه يمثلها ويستعيرها ، ولكننا نختار من هذه النوادر كما نختار من النوادر التي لا تحسب بطيئتها من الحكمة ولا تحسب من

الحمامة ولكنها تتوسط بينهما وتغلب عليهما هذه مرة وتلك مرة أخرى ؛ وكلها قد نسبت إلى جحا كما نسبت ب موضوعها أو بمفازها إلى ذوي السمعة الفكاهية من أمثاله .

### ١ - أحمق واحمقان

رأه الطحان يأخذ من قحف الناس ويضع في قفته ، فصاح به : « ما هذا يا جحا ؟ »

قال جحا : « لا تؤاخذني فانتي رجل أحمق »

قال الطحان : « لو كنت أحمق لأخذت من قفتك ووضعت في قحف الناس » !

قال : « ويحك ! أنا أحمق واحد ، ولو صنعت كما تقول لكنت أحمقين » !

### ٢ - ما لا يفتخر

ولقيه بعضهم يلهم فقال له : « أنت هنا تلهمو وامرأتاك تقطع احدهما الأخرى ؟ »

ولم يشأ أن يدع مجلسه فسأل الرجل متضاحكاً : « أقالت احدهما للآخر شيئاً يتعلق بالعمر ؟ »

قال : « كلا »

قال : « اذن لا داعي للوساطة ، فانها مشكلة سليمة » !

### ٣ - مرق مرق المرق

جاءه ضيف ريفي ومعه أربب فأكرمه وشيشه كما استقبله بالحفاوة والتحية ..

ثم مضى أسبوع وجاءه ضيف من بلدة صاحب الأربب وقال له انه جاره القريب .

ثم مضى أسبوع أو أسبوعان وجاءه من تلك البلدة جيران كثيرة

يزعمون جميعاً أنهم جيران الرجل في داره أو حقله أو دار أحد من أهله .  
فأجلسهم جميعاً على السساط وقاموا بسطت كبير فيه ماء غال ، وأواما  
اليهم قائلاً : « تفضلوا فكلوا من مرق الأرنب ، يا جيران جيران  
صاحب الأرنب المشئوم » !

#### ٤ - بلبل ولا كالبلبل

وصعد على شجرة يقطف من ثمرها فحضر صاحب البستان وفاجأه وهو  
على تلك الحال .

قال صاحب البستان : « من أنت يا هذا ؟ »

قال جحا : « أنا بلبل أتنقل على الأغصان . »

قال صاحب البستان : « أسمعنا اذن من غنايك أيها البلبل العجيب »  
فتغنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه تغريد البلبل ، وقال صاحب  
البستان : « ماذا بتغريد بلا بلبل . »

قال جحا : « هاتها واسمعها ، ألم تقل التي بلبل عجيب ؟ »

#### ٥ - مضيبة أكبر من مضيبة

ونظر تيمور الى وجهه في المرأة بعد أن تنعم وتعود معيشة القصور  
فانقبض لمنظره القبيح ، وللح وزيره اقباشه فأخذ يواسيه على عادة  
الوزراء بما يسري عنه ، وقال له فيما قال : « مثلك أيها الخاقان الأعظم  
لا يأسى على جمال الوجوه وقد أعطاك الله بسطة في الجسم وبسطة  
في القوة وبسطة في الثروة والسلطان ، وإنما يأسى على جمال الوجوه  
النساء وأشباه النساء من الرجال . »

فابسطت أسارير الطاغية ، وابتسم راضياً عما قاله الوزير ، ولكنه  
التفت الى الخوجة نصر الدين فرأاه يبكي ويستحرط في البكاء ..  
قال له : ماخطبك يا خوجة نصر الدين ؟ أنا صاحب المضيبة تسليت ،  
وأنت تأبى أن تتسلل ؟ »

قال جحا : « معدرة يامولي ، ان مصيتي أكبر من مصيتك أضعافاً مضاغفة . أنت نظرت الى وجهك مرة فانقبضت . فماذا أصنع أنا الذي أنظر اليك بالليل والنهار مرات ؟ »

## ٦ - نقل

دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الأثاث حتى دخل وراء اللص الى داره .  
ونظر اللص وراءه فرأه يدخل الدار ، فسأله : « من أنت يا هذا ؟ »  
قال : « أنا صاحب هذه الدار التي نقلتنا اليها ! »

## ٧ - كلام محظون

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شکواه ، فقال له : « أنت محق في شکواك أيها الصديق ». وجاءه الصديق الثاني في اليوم التالي قعرض عليه شکواه فقال له كما قال لخصمه : « أنت محق أيها الصديق ». وكانت امرأته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة : « يالك من منافق ، خصمان مختلفان ، وكلاهما محق في شکواه !؟ » قال : « ولماذا تغضبين ؟ أنت محققة أيضاً فيما تقولين ؟ »

## ٨ - تنقلب الدنيا

وأراد أن يتزوج ، فبني داراً تسع له ولأهله ، وطلب من النجار أن يجعل خشب السقوف على أرض الحجرات ، ويجعل خشب الأرض على السقوف ، فراجعه النجار دهشًا ، ولم يفهم ما يعنيه .  
قال جحا : « أما علمت يا هذا أن المرأة اذا دخلت مكاناً جعلت عاليه سافله ؟ أقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج » ।

## ٩ - خروف على عيبه

وأرسله أبوه يشتري له رأس خروف مشوياً بأقل من ثمنه ، فأكل في الطريق لسانه ، ثم راودته نفسه فأكل عينيه ، ثم أكل أذنيه ، ثم أكل شواته (جلدة رأسه) ومحقه ، وذهب به الى أبيه جمجمة نخرة ،

فجعل أبوه يقبها ويسأل : « أين مخه » ؟

فيقول جحا : « كان مجنوناً بغير عقل ».

فيسأله : « وأين عيناه » ؟

فيقول جحا : « كان أعمى ».

ويسأله : « وأين شواته » ؟

فيقول جحا : « كان أقرع ».

ويسأله : « أين لسانه » ؟

فيقول : « كان آخرس اعجم ».

قال أبوه : « فاذهب ردد الى صاحبه ».

قال : « إنما اشتريته بتقليل الثمن على البراءة من كل عيب ».

## ١٠ - العقاب قبل النفي

وناول بنته الصغيرة جرة تملأها ، وحذرها أن تكسرها ، وأنذرها لئن كسرتها ليصفعنها هكذا ، وأردد الإنذار على الآخر بصفعة قوية أبكتها ..

فنظر اليه عابر طريق ولامه على ضرب البنت الصغيرة في غير جريرة ،

وقال له : « اتضربها قبل أن تكسرها » ؟

قال : « يا أحمق . إنما اضربها لتعرف ألم العقاب فتحذر ، وأما بعد كسر الجرة فما الفائدة من ضربها ؟ »

## ١١ - العائل الكبير

سأله الأمير : « كم عيالك » ؟

قال : « سبعة » !

فأعطاه لكل من عياله مائة درهم ، وخرج جحا ، ثم عاد اليه على الأثر وهو يقول : « نسيت واحداً أيها الأمير أنفق من مالي عليه كما أنفق على هؤلاء .. »

قال الأمير : « من يكون ياترى » ؟

قال : « أنا أكبر عيالى أيها الأمير .. »

## ١٢ - يأكلون بالضرب

وذهب الى قونية ، فاعتربه في طريقه دكان حلوي تعرض فيه أصناف الفطائر والفاكهة المسكرة صابحة شمية فأهوى عليها يأكل منها بلا استئذان ، وأهوى صاحب الدكان عليه بالعصا يريد أن يحول بينه وبين حلواه ، فتعابي جحا وراح يشني عليه ويثنى على أهل قونية ، ولم ينزل يقول : « يالكم يا أهل قونية من قوم كرام ، تطعمون الناس بالعصا والكريباچ » !

## ١٣ - ماذا يفعل الحذاء ؟

ولبس حذاء جديداً ، فنظر اليه بعض الشطار وأرادوا أن يحتالوا عليه ليسرقوه ، فسألوه : « أستطيع أن تصعد على هذه الشجرة وتأتي بشيء من ثمرها » ؟

قال : « نعم ، فكم جعلتم » ؟

فأعطوه ما تيسر لهم واتظروا أن يخلع حذاءه ليصعد ، فلم يفعل ، بل صعد على الشجرة ومعه حذاؤه تحت ابطه ..

قالوا : « وماذا تصنع بالحذاء على الشجرة » !

قال : « اذا ألقيت اليكم الشر فماذا يعنيكم من الحذاء ؟ .. أما أنا فلعلني أجده لي طريق سفر من أعلى الشجرة فأذهب ولا أعود اليكم » ..

## ١٤ - لولاك يا كمي

وذهب الى وليمة بشباب العمل ، فطرده الخدم من الباب فعاد اليهم بشباب المدخرة ، وعليه حلة من الحلل التي يخلعها عليه الأمراء ، فأكرمهه وتقديمه الى مكان المائدة ، فغمض كمه في الصحاف واحدة بعد واحدة ، وطقق يقول له كأنه يناجيه : « كل ، كل ياكمي ، فلو لاك ماوصلت الى هذا الطعام » ١

## ١٥ - ماذ أضاعت ؟

وقيل له : ان امرأتك أضاعت عقلها ، فأطرق يتأمل ، وقام الى داره يبحث فيها ..

قالوا : « ماذ تصنع ياجحا ؟ ..

قال : « انكم تقولون انها أضاعت شيئاً ، ولن يكون ذلك الشيء عقلها ، فاني لا أعرف لها عقلاً تضييعه » ١

## ١٦ - بالدور

وقيل له : ان امرأتك تتردد على البيوت وتتطيل المكث فيها.

قال : « غير صحيح ، ولو كان صحيحاً لوصلت الى دارنا » ..

## ١٧ - أصدق من الحمار

ورجاه بعض جيرانه أن يعيره حماره ، فاعتذر له بذهابه الى الفيط.

ثم نهى الحمار وهو يكلمه ، فعاتبه الجار قائلاً : « أليس هذا حمارك ينهق في الدار ، وأنت تزعم أنه ذهب الى الغوط ؟ ..

قال : « سبحان الله ، تكذبني وتصدق الحمار » ٢

## ١٨ - يصلح لكل شيء

وسائل امرأته ، وقد جاءها بروطل من اللحم : « لماذا يصلح هذا ؟ ..

قالت : « يصلح لكل شيء » !  
قال : « فاطبخي عليه اذن كل شيء » !

#### ١٩ - قسمة الله

واختاره قوم للقسمة بينهم فسألهم : « أترضون قسمة الله أو قسمة عبيده » ؟

قالوا : « بل قسمة الله » .

فأعطى أحدهم درهرين ، وأعطى الثاني دينارين ، وأعطى الثالث لحافاً ، وأعطى الرابع سريراً عليه حشية ، واستبقى سائر التركة بين يديه

قالوا : « ويلك ! أهذه قسمة الله ؟ »

قال : « انظروا حولكم تفهموا قسمة الله وحكمة الله »

#### ٢٠ - منوم موصوف

وطلبت منه امرأته أن يعود إليها في طريقه من المسجد بدواء منوم لطفلها الذي يؤرقهما بالبكاء والصياح .

فعاد وليس معه غير الكتاب الذي يقرأه .

قالت : « لملكت نسيت الدواء » ؟ ...

قال : « معاذ الله ، هذا هو الدواء ، وقد جربته اليوم في الكبار فناموا جميعاً ، فجريبه أنت في الصغار »

## موازين غير محكمة

هذه النوادر الستون التي تقدمت في الفصل السابق تصور لنا أقسام النوادر التي تنسب إلى جحا ، وقد تنسب إلى غيره ، ومنها ما ينبيء عن حكمة ظاهرة وما ينبيء عن بلاهة ظاهرة ، وما ينبيء عن بلاهة مستترة بين الحكمة والبلاهة.

وتندر بينها النادرة التي لم تنسب إلى مصادر متعددة من الحكماء والحمقى والمحمّقين ، وبعضاً منها يروى عن اناس في الغرب الحديث كالنادرة التي تروى عن الشجار بين المرأةين ، فان الأولى تروى عن نابليون طبيبه والثانية تروى عن جولدسميث الكاتب الانجليزي المشهور الذي قيل فيه انه أحمق الناس الا حين يتناول القلم فهو اذن من أحکم الناس ..

قيل ان نابليون سأله طبيبه حين كان مشغولاً بأمر ولاية العهد : « هل يولد للرجل في الستين ؟ وهل يولد له في السبعين ، وهل يولد له في الثمانين » ؟ فكان جواب الطبيب عن ابن الستين نعم ، وعن ابن السبعين ، نعم في الندرة ، وعن ابن الثمانين انه يولد له اذا كان له جار في العشرين ..

وقيل ان امرأة جولدسميث وأخته تشارجرتا وهو غائب عن المنزل ، فأدركه أحد جيرانه وأنبه بأمر هذه المشاجرة ، فسألته : « هل قالت احداهما للآخرى انت شوهاء » قال الجار : « كلا » . قال : اذن هي مشاجرة مأمونة »

وقد سبقت الاشارة الى نوادر متشابهة بين الفكاهة المصرية والفكاهة في المجر وأوربة الوسطى ، ولا يصعب تعليل ذلك بتوارد الغواطط في

الجواب البسيط على سؤال واحد أو سؤالين ، وقد يعلل الكثير منه باطلاع الغربيين على النوادر التي ترجمت لهم من العربية في القرون الوسطى وقد يكون المتشابه من تلك النوادر اضافة جديدة في الكتب المطبوعة لم تتناولها ألسنة الناس قبل ذلك .

الا أن النوادر التي لا شك في مصدرها الشرقي كثيرة بين النوادر المنسوبة الى جحا وأمثاله ، وهي على الجملة نوادر الزوجتين والقضاة الدينيين والضيافات التقليدية ونوادر الصيام والصلة والفتاوی وما هو من قبيلها ..

فهذه لا شك في مصدرها الشرقي من تخوم الصين الى آسيا الصغرى ووادي النيل ، فأين هو معيار النسبة الصحيحة بين كل هؤلاء الأقوام والأمصار والأقطار ؟

في النسبة التاريخية بعض المعايير النافعة على غير حسم ويقين . لأن النادرة قد تقع في القرن الثاني أو الثالث وتصحف بعد ذلك لتوائم القرن الذي نقلت اليه ، وما لم تكن مكتوبة في مرجع معروف التاريـخ فلا سبيل الى الجزم بحسبتها الى زمن من الأزمنة على وجه اليقين .

والمعيار الآخر « تقريبي » كالمعيار التاريخي لا ينتهي بنا الى الجسم ولا يسلم من اللبس والاتباه ، وذلك معيار الخصائص القومية التي نميزها بالظن ونقارب بالظن بينها وبين النوادر التي توائمها ولا توائم غيرها ..

وقد أسلفنا ان طبيعة الفرس تغلب عليها الصوفية والمحاولة الدبلوماسية ، وان طبيعة الترك يغلب عليها تحصيل الحاصل مبالغة في الواقع ، وان طبيعة العرب يغلب عليها الخيال والقياس المنطقي ، وتبالغ بها الفكاهة فتجنح بها الى الوهم والقياس مع الفارق الواحد او الفوارق الكثيرة .

أفلا يعقل ان العبرية التي أخرجت لنا القول بتسخير الجسد والأعضاء لحالات الروح تخرج لنا مع الفكاهة – والمحاولة الدبلوماسية – قصة الاوزة التي يخلق لها الخوف رجليـن والرجل الذي يخلق له الخوف

أربعًا إذا عدا وراءه من يشد عليه بالعصا ؟  
جائز أو راجح ، وهذا غاية ما هنالك ، ومثلها نادرة الولد العاق الذي  
مسخته دعوة أمه حماراً ثم عاد إلى الآدمية ببركة الشيخ .  
وكذلك يعقل أن تحصيل الحاصل يخرج لنا في بلاد الترك قصة المرأة  
التي يقال لزوجها إنها تدور في البيوت ، فیأخذ بالواقع — المفرط —  
ويقول : لو صح ذلك لدخلت إلى بيتنا .

\* \* \*

ومثل هذه القصة قصة الرجل الذي يصطعن التعميم ويعلن أنه يعطي  
أكبر « خوخة » في المنديل لمن يخبره بما فيه ، ومثلها قصة الرجل الذي  
يضربوه لأنه يأكل الحلوى فيحمدهم لأنهم يكرهونه على الأكل بالسوط  
والعصا ..

كذلك يعقل أن القياس مع الفارق يخرج لنا نادرة الرجل الذي باع  
نصف الدار ليشتري النصف الآخر وتخلص له الدار بتصفيتها . فما كله  
شراء يجمع للشاري بين النصفين ولكنه قياس مع الفارق لشراء على شراء .  
والحماقة التي أدخلت في روع صاحبها أن السحابة علامة صالحة للحفرة  
التي تحفر تحتها — هي بعينها التي ترى على الرمح روثة فلا تفهم منها  
الآن الدابة صعدت على الرمح . ثم لا يبقى عليها إلا البحث في طريق  
الصعود ..

هذه معاير تقريرية لا تأخذ بها ولا تهملها ، لأن اهمالها اهمال لدراسة  
واسعة من دراسات العصر قابلة للمزيد من التوسيع والاحكام .

وقد تعمدنا أن نختار بين النوادر السابقة طائفنة من أشهر النوادر بين  
ال العامة والخاصة في البلاد العربية ، لأنها اشتهرت حتى أصبحت علمًا على  
جحا دون غيره من جمهرة الناس التي تتناقل النوادر والاحاجي من فم  
إلى فم ولا ترجع إلى الكتب والأوراق ، فليس من الجائز أن تسقطها من  
كتاب يدور فيه الكلام على جحا وما ينسب إليه من النوادر والحماقات ،  
ومعظم نوادر جحا من قبيل هذه النوادر الساذجة في تأليفها وموضع

الحكمة فيها ، ولعلها ثلاثة أرباع المجموعة التي بلغت قرابة ستمائة ، وعتها المطبعة التركية كلها الا القليل الذي تناثر من صدر الاسلام الى أيام الدولة العباسية بين كتب الأدب والفكاهة ، وفيها من الأسلوب الأدبي والذوق الفني ما ليس في معظم النوادر الشائعة ؛ فان هذه النوادر الشائعة أقرب الى النهاية التي تتناقلها العجائز لتسليمة الأطفال ومن هم في مثل مداركهم من السذج والجهلاء ، وموضعها بين المحفوظات الشفوية التي يسميها الغربيون بالفولكلور أوقع من موضعها بين كتب الأدب والفكاهة الفنية ..

## جحا في الأدب

جحا في الأدب ، أو على الأصح النواذر الجحوية في الأدب لأن هذه النواذر على أنواعها موزعة بين زمرة من الحمقى والمحقين بدأت الكتابة عنهم من القرن الأول للهجرة واشتهر منهم في الأدب العربي رهط يبلغ العشرة ويزيد عليها ، منهم هبنقة الاحمق وباقل العبي وأشبع الطفيلي وبنان الموسوس وأبو العبر المتحذلق ومزيد المديني والحموي الشاعر ، وغيرهم من المحتالين بالحماقة أو التطفيل أو الخلاعة ، وليس فيهم من الخلة الجحوية الا اتساع كلمة الغفلة للاشتراق بين غافل ومتغفل ومتغافل ، على بعد ما بين هذه المشتقات من المعاني والألوان .

وهؤلاء الذين وردت أخبارهم في كتب الأدب أرفع في طبقة « الذوق الفني » من جحا في جملة نوادره وأخباره . فليس فيهم من يسف بأضاحيكه الى الصبيانية أو السذاجة السخيفة كما يلاحظ على الكثير من نوادر جحا التي وصلت اليانا مضافاً اليها نوادر المجموعة التركية ، وهي محطة بما وضعه الترك وما وضعه غيرهم من عامة الشعوب الشرقية الإسلامية ، وبعضه مما وضعه غير المسلمين من جيران الترك العثمانيين —

كالأتمن — ونسبة الى جحاجهم المسماى عندهم باسم « ارتين » .  
وعلة هذه النقاوة فيما أثبتته المؤلفون المتأدبون أنهم أسقطوا البارد الغث من النواذر ، ولم يثبتوا الا ما فيه معنى وله طعم في مذاق الأدب والفنان ، فلا تجد — مثلاً — في تلك النواذر ما تحسبه من تأليف الصبيان او أشباه الصبيان من السذاج والجهلاء ، وما فيه دليل على الغفلة او التغافل فهو دليل عليهم بحق في عرف الذكي اللبيب ، وليس بما يكثر فيه الخلط ليحسب من الغفلة او التغافل في عرف الصغار والاغرار .

ولو كانت كل النوادر الجحوية من قبيل نوادر المزبد أو الحموي  
ل كانت طرازاً من هذا الفن لا يعدله طراز في لغة من اللغات ، ولكنها باياً  
من أبواب الدراسات الصادقة للفكاهة الفنية والمعارض النفسية التي  
يعتمد عليها من يجد في البحث عن شواهد التحليل .

فمن كلام الحمدوني حين لاموه على التحاجق : « ان حساقة تعوكني  
خير من عقل أعموله »  
ومن أضاحيك المزبد ، انه هم بتطليق امرأته فذكرته طول الصحبة ،  
فقال لها : « والله مالك ذبب غيرها ».

ومن أضاحيكه أنه سمع عن صيام يوم بمثابة صوم سنة ، فصامه إلى  
الظهر وأنظر ، وقال : « حسيبي من الثواب ستة أشهر ، نحسب منها  
شهر رمضان ».

ولو اجتمعت ستمائة نادرة من هذا الطراز ل كانت كما أسلفنا ذخيرة  
لاتعدلها ذخيرة في آداب العالم ، ولكنها لاتجتمع بطبعيتها ولا مناص من  
اختلاطها بالسخف والهراء كلما تناقلها العديد الأكبر من عامة الرواية ،  
وأضافوا إليها ما يختروعونه باجتهادهم على حسب مداركهم ، أو ما يستدركون  
به الفوات والنسيان .

والكتب التي جمعت هذه النوادر المنتقاة تعد من أمهات كتب الأدب  
إلى أيام الدولة العباسية ، ثم يعرض لها الاسفاف والابتذال فيما بعد ذلك  
من جراء الشيوع والذيوع أو من جراء الهزال والاض محلل في دور  
المهانة والجمود .

وأشهر هذه الكتب ثر الدرر للأبي والأغاني لأبي الفرج الاصفهاني  
والمحاضرات لأبي القاسم الراغب الاصفهاني ، وألبان والتبيين للجاحظ ،  
وعيون الاخبار لأبن قتيبة وأخبار الحمي و المغفلين لأبن الجوزي والعقد  
الفرید لأبن عبد ربه وفوات الوفيات لأبن شاكر وذيل زهر الآداب  
للحصري المستطرف للابشيهي وثمرات الأوراق لأبن حجة الحموي ،  
وحلبة الكميـت للنواجي . ثم يلي هذه الطبقة كتاب الفاشوش في حكم

قره قوش لابن مماتي وكتاب مضحك العبوس لابن سودون المجنون ، ويستطرد الاسفاف بعد ذلك الى القرن الرابع عشر للهجرة وفيه ظهرت مجاميع النوادر المنسوبة الى بحاجا مبنوقة عن اخلاق الالسن في كل امة تناقلت هذا الاسم بين الأمم الشرقية .

### الادب الجحوي بعد النهضة الشرقية

وقد ازدهر الأدب الجحوي بعد النهضة الشرقية الحديثة ، فظهرت المؤلفات عنه على مناهج شتى ، يقتبس بعضها من نوادره للأغراض التعليمية ، ويستخدم بعضها هذه « الشخصية » لأغراض النقد الاجتماعي على طريقة جحا في التحاقم والحكمه التي تجري على ألسنة المجانين ، ويعنى بعضها بالاحصاء التاريخي والاستقصاء في تدوين الروايات والأسانيد ، ويرجع هذا الازدهار في الأدب الجحوي بعد عصر النهضة الحديثة الى العناية باحياء الآثار السلفية كما يرجع الى شيوخ النقد الاجتماعي بأسلوب الجد والفكاهة .

ولقد نبهت النهضة الشرقية أناساً من الأجانب المقيمين في الشرق — كما نبهت الشرقيين — الى استكشاف طبائعه وملامحه وألوان شعوره وتفكيره ، فكان من هذه الألوان الباذية هذا اللون من الفكاهة الشعبية التي تدور حول « شخصية جحا » الساذجة ونوادره التي يتداولها الشعب للسخر منها أو للسخر بها ، وقام اثنان بترجمة نوادر جحا الى الفرنسية باسم « كتاب جحا الساذج » *Albert Ades and A. Josipovici* الذي كان من موظفي القصر الملكي ومن حضروا بعض الدروس الاسلامية في الأزهر الشريف ، وكان مولده بالقسطنطينية سنة ١٨٩٢ فكانت له معرفة بالتركية والعربيّة واطلاع على نوادر جحا في مصادرها المختلفة ، وأما صاحبه البرت عداء فقد ولد بالقاهرة — سنة ١٨٩٣ — وتعلم في مدارسها وحضر بعض الدراسات الأزهرية ، وأمكنه أن يفهم النوادر في لهجتها الشعبية أو

لهجتها العربية الشبيهة بالشعبية .

وقدم الكتاب المترجم الى قراء الفرنسية الأستاذ اوكتاف ميربو Mirbeau بكلمة موجزة كتبها في أثناء الحرب العالمية ( ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٦ ) وقال فيها ان المؤلفين لا يشرحان شيئاً لأن الحياة لا تشرح نفسها وما كان « جحا » الا فلذة من الحياة الشرقية تعيش ولا تحتاج حيث تعيش الى تفسير ، لأن النوادر لا تبحث لنا عن غير المأثور أو عن الخوارق والغرائب وإنما تعطينا مؤلفات الحياة الدارجة بغير بحث ولا انتقاء ، وإذا بدا فيها أثر من الغرابة فانما ترجع هذه الغرابة الى اختلاف الجيل مع تشابه الشخصيات وتكرار أمثالها في كل جيل . وما كاد هذا الكتاب يظهر بالفرنسية حتى ترجم الى اللغات الأوربية وأقبل عليه المثقفون لأنه معرفة يستزدونها كما أقبل عليه عامة القراء لأنه يروقهم بفكاهته وواقع الحياة المماثلة فيه ، ومن هذه الترجمات ترجمة بالإنجليزية ظهرت باسم جحا الأحمق Goha the fool أو جحا الفر « البسيط » ..

وآخر ما ظهر من الكتب الأوربية عن جحا كتاب مغامرات بخاري الذي ألفه الكاتب الروسي ليونيد سوليفيف Leonide Soloviev ( سنة ١٩٣٨ ) وترجمه الى الانجليزية تاتيانا شيبونينا Shebunina في هذه السنة ، واتخذ المؤلف من شخصية جحا في هذا الكتاب داعية « جوالاً » يضطرب في البلاد الآسيوية هرباً من ظلم الحكم ، وكراهة للمقام ، ويمضي هنا وهناك ليشهر بالنظم الحكومية التي ترهق الناس بالضرائب وتلتمس لها أسباباً من الهباء لافتفي منها المقيم ولا المترجل بين الأرض والسماء ، ومثال هذه العاذير التي تتحل لتحصيل الضرائب أن المكاسين استوقفوا جحا على باب مدينة ليسدد الضرائب عنمن ينوي أن يزورهم فيها ، فلما قال للمكاسين انه لا يقصدهم للزيارة بل للعمل والتجارة طالبوه بالضريبة ضعفين : احداهما للعمل المربي والأخرى للزيارة « الضمنية » لأن من يتجر مع قوم يزورهم بغير مراء .

ونحال أن القراء الغربيين أقبلوا على نوادر جحا لأنها وافقت عندهم نماذج من الشخصيات المضحكة يألفونها ويتناقلون حكاياتها الصحيحة أو المنشورة ، وربما كانت نوادر جحا نفسه قد تسرت إلى الغرب بالتنقل والرواية الشفوية والاطلاع على الكتب العربية في أصولها أو ترجمتها ، ولا يبعد أن يكون كثير من هذه النوادر قد انتقل من المغرب إلى أبناء جزيرة مالطة الذين يتحدثون في لغتهم المتزججة بالعربية عن شخصية شخصية جحا تسمى عندهم جهان ، وهو تصحيف يسير كتصحيف كثير من الأسماء العربية التي يسمى بها أبناء تلك الجزيرة . أما اسم « جوكا » المشهور باللغة الإيطالية فلا نفاله من قبيل هذا التصحيف كما خطر لبعضهم ، لأن مادة « جوكا » بمعنى المزاح والضحك شائعة في اللغات الغربية اللاتينية والسكندرية ، ومنها كلمة « الجوكندا » بصورة مونا ليزا الخالدة بمعنى « المبتسمة » من عمل ليوناردو دافinci الفنان الكبير ..

وقد أشرنا فيما تقدم إلى شخصيات في الغرب تشبه شخصية « جحا » في جانب الحكمة تارة وفي جانب الحماقة تارة أخرى ، ولا ننسى في هذه العجلة أبقى هذه الشخصيات لأنها باقية إلى يومنا هذا عنواناً لصحيفة سيارة باسم الـ « البنش » Punch المحتزل من اسم Punchinello من بقايا التمثيل الصامت في العصور الوسطى أو « القرهقوز » المعروف عندنا بصندولق الدمى والألاعيب .

والتناقض كثير في رد هذه الكلمة إلى أصلها القديم ، فمن الشائع في الأسانيد الشعبية الإيطالية أن الاسم مصحف من اسم مهرج سخيف يسمى بتشيو دانييلو Puccio d'anicello كان معروفاً في القرون الوسطى ثم اتخذوا اسمه علمًا على صناعة التهريج .

ولا سند لهذه الرواية غير الاشاعة والتشابه في اللفظ مع الاختزال والتصحيف ، والأرجح أن الاسم مصحف من اسم بتشينوس بيلات أو بيلاطس الذي حدثت في عهد ولايته محاكمة Pontius Pilate

السيد المسيح . فقد كانت هذه « الشخصية » محور السخرية والاهانة في المسرحية الدينية التي كانت تمثل محاكمة السيد المسيح وتعرض أعداءه في صورة رمزية يقابلها النظارة بالتهكم والاستهزاء . وقد يكون وصف القرهقوز بالسوداء كما يسمى باللغة التركية منظوراً فيه الى هذه المسرحية « السوداء » أو مأخوذاً من الستار الاسود الذي يحجب الدمى والألاعيب ، وهكذا تتنقل الشخصيات والمناظر بين الشعوب ثم تنعزل في كل أمة بخسائرها بعد نسيان وسائل الاتصال .

وأيا كان مصدر هذا « البنش » فهو باق الى اليوم يصفي الناس الى فكاهاته متفرعة متعددة ، متطورة ، كما تقول بمصطلحات زماننا وقلما يعنيهم أن يتبعوها الى جذرها القديم .

\* \* \*

ومن أطوار الشعوب في تناقل الفنون أو الموضوعات الفنية أن نهضة الشرق نبهت الأوربيين الى تراث الشرقيين القديم وأن عنایة الأوربيين نبهت اليه أساساً من الشرقيين الذين يكتبون باللغات الأوربية ، فوضع

الأستاذ عسکر نحاس باللغة الفرنسية كتاباً سماه « تأملات ابن جحا » يحكي فيه ابن أباه بالحكمة المازحة والدعاية الحكيمية ، ومن أمثاله قوله عن المرأة « أنها خلقت في الرجل الآنانية لتحقيق مطالبها » وان « امرأة واحدة تبحث عن سيد ، ولكن امرأتين معاً تبحثان عن فريسة .»

وان « الرجل الشرير في عين المرأة الخائنة هو السمسكة التي ترفض الطعام » و « ان المرأة تعذّب رجلها عقاباً له على أنها شيء لا غنى عنه لديه .» وسينشأ لجحا بعد ابنه هذا حفيدة وأبناء حفيدة ، ولا نظفهم جميعاً قالوا - بعد - كلمتهم الأخيرة باللغة العربية ، أو التركية ، أو بسائر اللغات ، فأنهم خالدون بخلود النفس البشرية بين كل قبيل .

## خلاصة تاريخية

والخلاصة من الناحية التاريخية — وهي أقل النواحي ثبوتاً وأهمية في هذا البحث — أتنا نستطيع أن تقبل أبا الفصن جحا كما ذكره الميداني في أمثاله كأنه شخصية تاريخية لغراوة في وجودها ولا داعية للشك في امكان وقوع النواود النسوية إليها ، فإن الذين يشبهون أبا الفصن هذا في غفلته وسمواته يوجدون في كل بيئة ، وفي كل زمان ، وإن تتوعد المناسبات والأحوال التي تكشف للناس عما طبعوا عليه من الفضة .

ويلحق بأبي الفصن أناس على شاكلته لم يشتهروا مثل اشتهره ولم يسمع بهم الأمراء والولاة كما سمعوا باسمه وخبره ، فيطلق الناس عليهم اسم جحا نبز؟ أو تشبيهاً أو تفهيناً أو تفيهقاً بالحكاية النادرة التي تدل على علم بأخبار السلف اذا رويت عن مشهور متقدم ولا تدل على شيء من ذلك اذا رويت عن سكان البلد في ساعتهم الحاضرة ، ويعلم الوضع و « القفسن » علهمما أثناء ذلك فيجتمع من النواود الجحوية ماتصح نسبته الى شخصية قدسية أو حديثة وما تصح نسبته الى أحد غيره وضاعه ومختزليه من الرواية والملقين .

ونحن في عصرنا هذا قد شهدنا نشأة أمثال هذه الشهرة الصحيحة والمختزنة وشهدنا تطورها من مبدأها الى مصيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة ، وكان « الفضل » في ذلك للصحافة الأسبوعية المضحكة التي كانت تقوم في أوائل القرن العشرين على « القفسن » والملحة المختزنة ، ويعلم الكتاب القراء والمستمعون أنها تلقيق يعتمد على أصل ضعيف ، وأنها براءة في صناعة « القفسن » يت天涯 فيها أولئك الصحفيون ، وهم ولا ريب خلفاء الندماء الذين كانوا يتولون هذه الصناعة في صدر الدولة الإسلامية وما يليه من العصور قبل نشأة الصحافة .

رأينا الأديب « إبراهيم الدباغ » يأكل في مأدبة فلم للحظ عليه شيئاً

من النهم الذي اشتهر به بين المتندرين ، وسألنا صاحبًا له فقال إنها أكلة واحدة أو أكلات قليلة بعد جوع أكبته هذه الشهوة الباطلة ، وأنت تعلم أنه كثير السخرية والاستهزاء بالادعاء من محترفي الأدب والصحافة الذين يتزاحمون على مجالس الأغنياء ، فانتهزوا « فرصة » هذا النهم الموقوت للقصاص والواقعية ولملأوا الصحف الأسبوعية « بالقفشات الدباغية » حتى أصبح « الدبغ » كلمة في اللغة الدارجة تطلق على النهم ، وقد ظلت هذه الكلمة تحمل معناها المستعار إلى يومنا هذا ، وأصبحنا نسمع من يقول عن أحد من الناس أنه « دبغ » وهو لا يعرف أصلًا لهذه التسمية ..

وقد حكينا مارأيناه من الشيخ الدبغ وما سمعناه من صديقه لصاحب احدى الصحف الأسبوعية التي أولعت « بالقفش » له والتلتفق عليه . فقال : « لاتنخدع به فتدعوه إلى طعام ، فانما يكتف الرجل يده عن الأكل وهو مشتاق إليه ليدحض كلامنا عنه ويفسر بالحاضرين فيكونون في الشرك ، ويندمون حيث لا ينفع الندم .»

فلم ندر — ونحن معاصرؤن لصاحب الشهرة ومن شهروه بها — أي القولين نصدق وأي القفشات يعتمد على الواقع وأيها يستمد من الفكاهة والخيال ..

واشتهر رجل آخر في تلك الآونة بالسالفة في الادعاء — أي بالفسر كما يفولون في اللهجة البلدية — وكان حقًّا يدعى ويبالغ في دعواه ، وكان ظريفاً يحسن التخلص من المأزق اذا امتحن بمن يتعقبه بالنقد والسخرية ، وكان الى هذا وذاك على يسار يطمع فيه طلاب الاشتراكات للصحف الأسبوعية في ذلك الحين ، فامتلاط هذه الصحف بدعاويه وبالدعوى المقيسة عليها مع التوسع والاغراب ، وأصبح اسمه كذلك علمًا على « الفشر » يكاد يلغى هذه الكلمة لو لا أنها متأصلة في الأقوال والأقاويل فلا غرابة في نشأة النواذر الجحوية سواء صحت نسبتها أو لم يصح منها الا القليل .

وكل ماجاء في الكتب العربية من هذه «الجحويات» فلا غرابة في نشأته ، ولا غرابة فيه من كل وجه الا في التناقض بين الغفلة والتعاقف في أخبار الرجل الواحد ، ولاسيما الاخبار التي تتحقق صفات صاحبها ويثبت انه من المجانين المسلوبين الذين لا يحسنون تدبير «التعاقف» ولا تجيء منهم الحكمة الا فلتة غير مقصودة في القليل من الأحيان :

### الخوجة نصر الدين التركي

أما جحا التركي المعنى بالخوجة نصر الدين فالمنسوب إليه ي بلا منات الصفحات ، وبين أيدينا كتاب بالتركية مطبوع في الاستانة بالعرف الدقيق (سنة ١٣٢٨ هجرية) يقع في مائتي صفحة وخمس وخمسين ولا يستوعب كل ماسب إلى جحا أو إلى الخوجة نصر الدين من نوادر الحكمة أو نوادر الغفلة والبلاهة .

والامر الذي لاشك فيه أن كثيراً من هذه النوادر وضعت بالتركية ولم تنقل عن العربية ، وأنها ترجع إلى شخص عاش في بلاد الترك ولم تكن نشأته على الأقل في بلاد أخرى .

ويدعونا إلى الجزم بذلك أن النوادر تشتمل على جناس يوجد في الألفاظ التركية ولا يوجد في الفاظ لغة أخرى ، كالجناس بين جل وكل في نادرة المسامير والخطوط مع لفظ الكاف كما تلفظ الجيم في بعض الكلمات ، والجناس بين جمع أیوب وكلمة «ایپ» بمعنى حبل في نادرة يحضر فيها الخوجة نصر الدين أبناء بلده من الإفراط في تسمية أبنائهم باسم أیوب ، أو كالجناس في الاصطلاح على تسمية المطر بالرحمة وقولهم عن نزول المطر أنه رحمة نزلت «رحمة انيور» من عند الله .

ويدعونا إلى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النوادر أنها تذكر المدن والأقاليم في آسيا الصغرى وما جاورها بخصائصها المشهورة إلى هذه الأيام ..

ويرجح لدينا أن نصر الدين شخصية تركية غير منقولة عن الأمم

الأخرى أنه نشأ في آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراوיש الدينيين من قبل الإسلام ، وحيث يعهد في أحد من هؤلاء الدراوיש أن يخلطوا خلط المجاذيب ويفتوّا فتوى العلماء والنقهاء ، وأن يلودوا بظاهر التخليط أحياناً بنية السلامة من بطش الحكماء المغرين على البلاد ، وقد يلوذ بهم عامة الناس ايماناً بكراماتهم وشفاعاتهم ليدفعوا عنهم مظالم الطغاة ، فيحتالون على استرخاء الظالم بالفكاكة أو بالوعظ المتقول أو بالتخليط الذي ينالون به مطلبيوه من الحكم اذا أضحكوه واستطاعوا في وقت واحد أن يلمسوا في نفسه موطن التقوى والخوف من الله وموطن الرضى والسرور .

\*\*\*

والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وذكراته ضريحه في مقبرة «آق شهر» بعد وفاته بزمن طويل ، يذكر الناس أضاحيكه في尸حكون منها ولكنهم يحيونها الى حالات أهل الجذب بين عالم الأسرار وعالم العيان ، أو يحيونها الى حب التقة والاحتياط على الموعدة الحسنة بالأسلوب الذي يؤدي الى مرماه ويفيه من عقباه .

والشك الأكبر انما يعرض لهذه السيرة من اطباق النوادر الكثيرة فيها عنى اجتماع الخوجة نصر الدين بتيمورلنك أثناء غزوته لبلاد السروم ، والمشهور أن الخوجة نصر الدين توفي سنة ٦٧٣ أو سنة ٦٨٣ هجرية ، فهو قد توفي قبل مولد تيمورلنك بأكثر من نصف قرن ، ولا يعقل أنه رأه وحضر مجالسه الا اذا كانت وفاته حوالي سنة (١٤٠٥ م ) التي توفي فيها تيمور ..

ولا يسهل التوفيق بين هذه الروايات الا على فرض من فرضين .  
أحدهما خطأ المتأخرین في تعین السنة التي توفی فيها الخوجة نصر الدين ، والثاني أن تيمورلنك لقي شيخاً آخر على شاكلة الخوجة نصر الدين فتدخلت الروايات وعلقت البقية الباقيه منها بالاسم المشهور .  
وأيًّا كان صواب النسبة في بعض النوادر التي تحصل الخلاف، فهناك

جسلة من النوادر لا اختلاف في وضعها بعد عصر تيمورلنك وبعد العصر المفروض للخوجة نصر الدين ، وهي النوادر التي وردت فيها الاشارة الى المخترعات الحديثة كالبنديقة وساعة الجيب ، أو كالنوادر التي تكذبها وقائع التاريخ العثماني وتاريخ آسيا الصغرى على الخصوص .

\* \* \*

ومن الواجب أن نسلم — بدأة — بوضع العدد الأكبر من النوادر التركية أو نقلها من رواة الامم الأخرى ، لأن حصولها كلها من رجل واحد أمر لا يسيغه العقل ولا يروى له نظير في السوابق التاريخية ، فلو أن هذا الرجل عاش ليخلق تلك النوادر وعاش الناس معه ليسجلوها لما اجتمع من أضاحيكه تلك المئات التي تملأ المجلدات ، ولا استطاع أن يأتي بها منها من النقصان العقلية والخلقية ، فضلاً عن نقصان الجغرافية والتاريخ ..

فوضع العدد الأكبر من النوادر أمر مفروغ منه لا يجوز ان يحتاج به المحتج على بطلانها واحتلاقيها من أصولها ، ولعل هذه النوادر الموضعية أصبح في الدلالة على أزمنتها وبيئاتها من وقائع السجلات والأرقام .  
قيل ان بين الجليل الرهيب والمضحك المترقب قيد شعرة أو لحة عين .  
ولا شك في هذه الحقيقة من الوجهة النفسية كما تقدم ، لأن الهول يتحول فجأة الى الضحك بطاريء من طواريء التغيير والتبدل التي تتبع في أيام النصر والهزيمة والقيام والسقوط بين العجابة وأصحاب الدولات .

\* \* \*

ولا شك في هذه الحقيقة — أيضاً — من الوجهة التاريخية اذا رجعنا الى عصر تيسورلنك وأشباهه في تواريχ المشرق والمغرب ، فليس أحفل بالاضاحيك من عصور التقلب وعصور الشدائـد والأهوـال .  
وظاهرة أخرى من الظواهر الناطقة في النوادر الموضعية تنبئنا عن زمانها الذي فشت فيه وشاع اختراعها بين جميع الطبقات .  
فمنذ القرن السادس للهجرة ( والثاني عشر للميلاد ) هبطت المعرفة

من ذروة الكرامة وأصبح العارف الأريب من يحتال على رزقه بالمجون  
والمنادمة والتحامق والتشبه بالجهلاء وأصحاب الجدود من ضعاف  
العقل ، وشاع القول « بحرفة الأدب » مغنية عن القول ببؤس العالم  
الأديب ..

في أوائل هذا العهد ظهرت مقامات الحريري التي يجمع بطلها بين  
البؤس والبلاغة والبراعة في الحيلة ، وفيه توادر النظم في شكوى الزمان  
مقرونة بشكوى « الأدب والعجب من قسمة الأرزاق » ، وهذه هي الناحية  
الأدبية من تلك الشكایات وتلك الحيل « الانشائية » أو الفنية ، وأما  
الناحية الاجتماعية العامة فآيتها هذه النوادر التي تعد بالمئات ولا تظهر  
فيها براعة الليب الأريب إلا في الاحتيال على أكلة أو في الاحتيال على  
دفع المحتالين الطامعين في قوته المزيل .

\* \* \*

وبين قصص جحا قصة عن تقسيم الأرزاق يسأل فيها جحا من ندبوه  
للقسمة هل يريدون قسمة الله أو قسمة العبيد . فلما حكموه في توزيع  
الحظوظ بينهم على قسمة الله أعطى هذا ما لم يعط ذاك وفاوت بينهم أكبر  
المفاوترة في الأقسام ، وما كانت هذه النوادر لتشييع بين العامة من رواة  
« الجحويات » لو لم تكن لها مصادرها المتواترة من بعيد .

على أن النوادر « الطعامية » تنبع على وجه خاص عن سذاجة في الحيلة  
ترجع نسبتها إلى طوائف المحروميين من الجهلاء الذين يتأنسون بذوي  
المعرفة والتقوى ولا تسعمهم القدرة على الاختزاع ، فغاية جدهم هذا  
الذي ابتدعوا وأحبو تعظيمه وتحقيق الاسوة فيه بحسبه إلى العارفين ،  
وجاءت هذه النوادر الطعامية مجاوبة للمقامات الانشائية ولقصائد  
المنظومة في شكوى الزمان والعجب من قسمة الأرزاق ، ولم يعرف هذا  
كله في عصر من عصور الشرق كما عرف بعد القرن السادس للهجرة ، وبعد

إدبار الدولة العباسية ، واجتياح تيمورلنك للعالم الشرقي من تخوم الصين  
إلى شواطئ بلاد الروم .

\* \* \*

ونوسع الآن جها والجحويات ونحن نحمد للضاحك المضحكت ، أنه  
أغار اسمه عامداً وغير عامد لباب من الدراسة التقسانية والاجتماعية لم  
يكن ميسوراً لنا بغيره ، ولن يبخسه شيئاً من الحمد لأن يكون على وفاق  
مع التاريخ أو على افتراق من كل تاريخ .

**فهرس كتاب  
أبو نواس**

**الصفحة**

**الموضوع**

شهرة أبي نواس .....	١١
الترجسية .....	٣٠
الجنس والنفس .....	٥٥
شخصية أبي نواس .....	٧٥
الشيطان .....	١٠١
أبو نواس والخمر .....	١١٥
الفن وأبو نواس .....	١٢٨
الحب والغزل .....	١٣٧
عقيدة أبي نواس .....	١٤٧
خاتمة .....	١٦٨

**فهرس كتاب**  
**شاعر الغزل**  
**عمر بن أبي ربيعة**

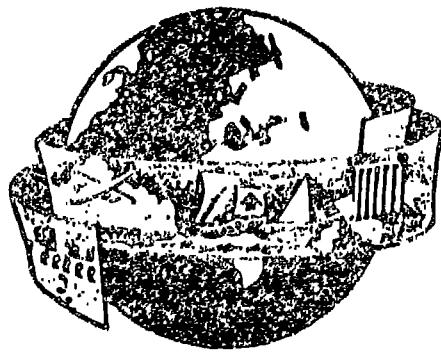
<b>الصفحة</b>	<b>الموضوع</b>
١٧١ .....	الشاعر ونشأته.....
١٧٦ .....	عصر ابن أبي ربيعة.....
١٨٤ .....	طبيعة غزله.....
٢٠١ .....	صناعته.....
٢٠٨ .....	مقارنة.....
٢١٣ .....	الصدق الفني في شعره.....
٢١٦ .....	نوقه في جمال المرأة.....
٢٢٣ .....	من نواره واخباره.....
٢٢١ .....	ليلة خطرة.....
٢٢٣ .....	وليلة غير خطرة.....
٢٢٤ .....	اتفاق نادر.....
٢٢٥ .....	حب اشمعط.....
٢٣٦ .....	شراب شاف.....
٢٣٧ .....	حبدا.....
٢٣٨ .....	ولو في الطريق.....
٢٣٩ .....	في المسجد.....
٢٤٠ .....	في الحلم.....

الموضوع	الصفحة	فهرس كتاب جميل بثينة
تمهيد.....	٢٤٣	
عصر جميل.....	٢٤٧	
عشق جميل وبثينة.....	٢٦١	
احسن الغزل.....	٢٧٨	
مكانته في الصناعة الشعرية.....	٢٨٨	
مزاجان.....	٣٠١	
بعض اخباره.....	٣٠٦	
بين نظررين.....	٣٠٧	
بين الاستاذ وتلميذه.....	٣٠٨	
جلتها او لم تجلها.....	٣٠٩	
يتهمها ولا يتهم بأمة.....	٣١٠	
لغة واحدة.....	٣١١	
خداع سهل.....	٣١٢	
سکرة وصحوة.....	٣١٣	
بين سلطانيين.....	٣١٤	
للدة الظلم.....	٣١٥	
داء وطب.....	٣١٧	
وفاء الله.....	٣١٨	
صرخة.....	٣١٩	
عند ذلك.....	٣٢٠	
ليت.....	٣٢١	
في الصلاة.....	٣٢٢	
تعي نفسه.....	٣٢٣	
الصدق انفع.....	٣٢٤	
موعد في السماء.....	٣٢٥	
علامة.....	٣٢٦	
آل الصيد.....	٣٢٧	

**فهرس كتاب  
جحا الضاحك المضحك**

الموضوع	الصفحة
الكلمة والضحكة .....	٣٣١ .....
لماذا نضحك ؟ .....	٣٥١ .....
ثلاثة آراء في الضحك .....	٣٧٧ .....
الضحك في الكتب الدينية .....	٣٩٥ .....
الانسانية والفكاهة .....	٤٠٥ .....
جحا .. ونوادره .....	٤٢٥ .....
٦٠ نادرة .....	٤٣٣ .....
موازين غير ممحكة .....	٤٥٥ .....
جحا في الأدب .....	٤٥٩ .....
خلاصة تاريخية .....	٤٦٥ .....

طبع على مطبوع  
دار الكتاب اللبناني  
ص . ب . ٣١٧٦  
بيروت - لبنان  
٢٥١٢٩٤ - ٢٥٨٣٠٤



## حَارَ الْكَنَابِ الْبَنَيَّ

طبعـة .. نـشرـه .. تـوزـيع

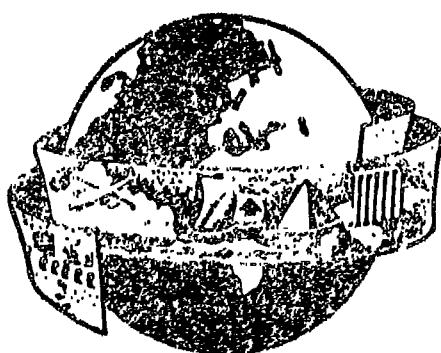
شادی و زاده کو مرکز - بخش امام فتنا ق در دست قله

٣٥١٤٣٣١٩٣٦ - فاكسهولم : ١٣٠٥١١٨ / ٨٦٠٢٩٥ -

جعفری، امیر: ۱۳۵۳۵۲- در قضا، داکلستان، نیروت، لبنان

TELEX No: DKI 23715 LE - ATE: MISS MAY H. EL - ZEIN

FAX (0611) 351493 BEIRUT - LEBANON



## كِتَابُ الْبَيْنَانِ

طباعة - نشر - توزيع

شارع م. ناصر كورنيش - بيروت - فندق زين - رقم  
دسته : ٣٥١٤٣٣٩٦١١١ - فاكس: ٨١٠٧٩٢ / ٨٦١٥٦٣ -  
ج.بيت: ١٢٣ - او ١٣٣٥٩ / ١١/٢٣٣ - برقا: دانات - ان. ١٠٢٠٢ - لبنان  
TELEX No: DKL 23/16 LE - ATT: MISS MAY, II, EL - ZEIN  
FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON